مكتبة سومر

رِوايــة

إيزابيل أللندي

العَاشِقُ اليابَاني

(15) 31.8.2017



ترجمة:
سناء الشّعيري

دار الآداب

العاشق الياباني

إيزابيل أَلليندي

العاشق الياباني

ترجمة سناء الشّعيري

رواية

دار الآداب ـ بيروت

العاشق الياباني

إيزابيل أَلليندي / كاتبة من شيلي

الطبعة الأولى عام 2017

ISBN 978-9953-89-547-5

EL AMANTE JAPONÉS

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

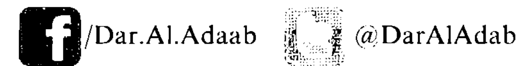
بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com



 @DarAlAdab
 daraladab.com

إهداء

إلى والديَّ، بانشيتا ورامون،
شخصيَّتيْن مُسنَّتيْن تنطقان عن الحكمة

توقَّفْ، يا طيفَ حبِّي الأنوف
يا صورةَ الافتتان التي أعشقها،
وهمٌ جميلٌ أفنى سعيدةً من أجله
خيالٌ حلوٌ أحيا تعيسةً بسببه.

سور خوانا إينيس دي لا كروث

لارك هاوس

دخلتْ إيرينا باثيلي (Irina Bazili) للعمل في *لارك هاوس*، في ضواحي بيركيلي، سنة ٢٠١٠. كان عمرها لا يتجاوز ثلاثًا وعشرين سنة. لم تكن متحمِّسة كثيرًا لهذه الوظيفة، وخصوصًا أنَّها عانت البحث عن فرص العمل، من مدينة إلى أخرى، منذ أن كان عمرها خمسة عشر ربيعًا. لم تكن تتوقَّع بتاتًا أن تجد راحتها التامَّة في هذه الدار التي تؤوي المسنِّين، وأنَّها ستذوق، قبل أن يعبث بها القدر، وفي غضون ثلاث سنوات متتالية، طعمَ سعادةٍ ذَكَّرتْها بأيَّام طفولتها.

استأثرتْ *لارك هاوس*، التي تأسَّستْ في منتصف ١٩٠٠ بنيَّة إيواء العجزة المحدودي الدخل، منذ البداية، ولأسباب مجهولة، باهتمام المثقَّفين التقدُّميِّين، وشخصيَّات غامضة، وفنَّانين غير مرموقين. لكنْ، ومع مرور الوقت، تغيَّرت أحوال النُزُل كثيرًا. بيد أنَّ عادة حسم قدر معيَّن من مداخيل كلّ نازل للمساهمة ـ نظريًّا ـ في تشجيع بعض مظاهر التعدُّد الاجتماعيِّ والعرقيّ، لم تنقطع بتاتًا. والواقع أنَّ كلّ النزلاء كانوا من البيض، وينحدرون من الطبقة المتوسِّطة. وهكذا،

كانت أوجه التعدُّد تكمن أساسًا في اختلافات طفيفة بين أصحاب الفكر الحرّ، والباحثين عن الطرق الروحانيَّة، ونشطاء المجتمع المدنيّ والبيئة، ومعتنقي الفلسفة العدميَّة، فضلًا عمَّن تبقَّى من *الهيبِّيز* الذين لا يزالون على قيد الحياة في ناحية خليج سان فرانسيسكو.

أوضح السيِّد هانس ڤواغ (Hans Voigt)، مديرُ هذه المؤسَّسة، في المقابلة الأولى التي أجراها مع إيرينا، أنَّ سنَّها صغيرة جدًّا مقارنة مع حجم المسؤوليَّة التي يتطلَّبها المنصب. لكنْ، في إمكانها العمل موقَّتًا، ما دام عليهم أن يشغلوا بعجالةٍ منصبًا شاغرًا في قسم الإدارة والخدمات، ريثما يعثرون على الشخص المناسب. خمَّنت إيرينا أنَّ كلّ ما قاله المدير عنها مطابق تمامًا لانطباعها الأوَّل عنه: فهو، كذلك، يبدو كأنَّه صبيٌّ بوجنتين مكتنزتين وصلع مبكِّر، وبدا لها أنَّ المهمَّة التي أُسندتْ إليه لتسيير هذه المؤسَّسة تفوقه بكثير. لكنْ، مع الوقت، أدركتْ أنَّ الشكل الخارجيّ لڤواغ لا يعكس الحقيقة، إذا ما نظر إليه شخص من مسافة محدَّدة وبإنارة خافتة؛ فالواقع أنَّه أتمّ لتوِّه الرابعة والخمسين، وأثبت للجميع أنَّه رجل إدارة محنَّك.

أكَّدت له إيرينا أنَّ النقص الحاصل لديها في الدراسة يمكن أن تعوِّضه بالتجربة التي راكمتها في التعامل مع العجزة في مولداڤيا *(Moldavia)*، مسقط رأسها.

خفَّفت الابتسامة الخجولة لإيرينا حدَّة المدير، الذي نسي أن يطالبها برسالة التزكية، وشرع في تعداد التزامات المنصب، التي اختزلها في عبارات مقتضبة: تسهيل الحياة لنزلاء الطابقين الثاني والثالث؛ أمَّا أصحاب الطابق الأوَّل، فلا يدخلون في دائرة اختصاصها، لأنَّهم يعيشون بشكل مستقلٍّ كمستأجرين لشقق داخل عمارة؛ وكذلك الحال مع نزلاء الطابق الرابع المكنَّى بـ «**الفردوس**»،

لكونهم يمضون معظمَ وقتهم يغطُّون في سبات عميق، وينتظرون فقط التحاقهم بالرفيق الأعلى، ثم إنَّهم ليسوا في حاجة إلى هذا النوع من الخدمات التي يجب أن تقدِّمها إيرينا، التي أُوكلت إليها مهمَّة مرافقة المقيمين إلى عيادات الأطبَّاء، والمحامين والمحاسبين، ومساعدتهم على ملء استمارات الخدمات الصحِّيَّة والضرائبيَّة، واصطحابهم للتسوُّق، وقضاء حوائج مشابهة. كانت مهمَّتها الوحيدة مع نزلاء «الفردوس» تتلخَّص، بحسب تعليمات هانس ڤواغ، في إعداد جنائزهم، التي كانت تتلقَّى، في صددها، إرشاداتٍ مفصَّلةً بحسب كلّ حالة، لأنَّ رغبات المحتضرين كانت لا تتوافق دائمًا مع ذويهم؛ فثمَّة معتقدات كثيرة كان يَدين بها أهلُ *لارك هاوس*. وهكذا، كانت الجنائز تُنظَّم دائمًا كأنَّها احتفالات عالميَّة مسكونيَّة ومعقَّدة.

في ما بعد، أوضح لها المدير أنَّ عُمَّال النظافة والعناية والتمريض، هم الوحيدون المطالَبون بارتداء الزيّ الرسميّ، أمَّا باقي الموظَّفين فعليهم الالتزام بأخلاقيَّات اللباس، فالاحترام والذوق الرفيع من شروط هذه المادَّة. وأكَّد لها، مثلًا، أنَّ القميص الذي ترتديه وتظهر عليه صورة مالكولم أكس لا يتناسب بتاتًا مع روح المؤسَّسة. والواقع أنَّ الصورة لم تكن لمالكولم أكس، بل لتشي غيفارا، لكنَّها لم تنبس ببنت شفة، وفضَّلت ألَّا تفسِّر الأمر، ظنًّا منها أنَّ هانس ڤواغ لم يسبق له أن سمع بالمقاوم الذي ما زال، وعلى الرَّغم من مرور نصف قرن على ملحمته، محطَّ تبجيل العديد من الكوبيين، وكذا ثلَّة من راديكاليِّي بيركيلي حيث كانت تعيش. كان القميص الذي كلَّفها دولارين، واقتنتْه من محلّ للملابس المستعملة، يبدو شبه جديد.

ـ التدخين ممنوع هنا، حذَّرها المدير.

ـ لا أدخِّن، ولا أشرب النبيذ، سيِّدي.

ـ أصحّتكِ على ما يرام؟ هذا أمر مهمٌّ ما دمتِ ستتعاملين مع العجزة.

ـ نعم سيِّدي.

ـ أثمَّة موضوع يجب أن تطلعيني عليه؟

ـ أُدمن الألعابَ الإلكترونيَّة وروايات الفنتازيا، أنت تعرف، سيِّدي، طولكيين (Tolkien)، نيل گيمان (Neil Gaiman)، فيليپ پولمان (Philip Pullman). كما أنّني أشتغل في غسل الكلاب، لكنَّ هذا الأمر لا يأخذ منِّي الوقت الكثير.

ـ ما تقومين به في وقت فراغك لا يعنيني، آنستي. الأهمّ عندي أن تكوني متيقِّظة في عملك.

ـ بالطبع، إذا منحتني فرصة فلن تندم، سيِّدي، وسترى شدّة حذقي مع كبار السنّ، أردفت الشابَّة في رباطة جأش مصطنعة.

بعد انتهاء المقابلة، عرض عليها المديرُ المَرافِقَ التي تؤوي ما يناهز مئتين وخمسين شخصًا، متوسِّطُ أعمارهم خمسةٌ وثمانون عامًا.

كانت *لارك هاوس* من الممتلكات الرائعة التابعة لشخصيَّة مرموقة في عالم الشوكولاتة، وهبها للمدينة مع هِبة ماليَّة كبيرة لتغطية مصاريفها. كانت عبارة عن بناية رئيسة في شكل قصر منيف، يضمُّ بين جنباته المكاتبَ، والفضاءات المشتركة، ومكتبةً، وسفرةً، وورشات، وجملةً من البنايات الجميلة بقراميد خشبيّة، تناغمتْ مع الحديقة التي كانت تبدو بريَّة، لكنَّها كانت تحظى في الواقع بعناية فيلق من البستانيِّين.

كانت عماراتُ الشقق المستقلَّة التي تؤوي نزلاءَ الطابقين الثاني والثالث تتّصل في ما بينها بواسطة ممرّات مسقَّفة وواسعة، يتمُّ التجوُّل

فيها بكراسيّ متحرِّكة إذا كان الطقس صحوًا. أمّا جنبات الممرّات فكانت من زجاج، للاستمتاع بالطبيعة، التي يعتبرها الكلّ أحسن بلسم للكدمات في أيِّ مرحلة عمريّة. أمّا «الفردوس»، فكان عبارة عن بناية إسمنتيّة معزولة، غير متجانسة مع باقي البنايات لولا النباتات المتسلِّقة التي غطّتها عن آخرها. وأمّا المكتبة وقاعة الألعاب، فكانت أبوابهما مفتوحة على مدار الساعة. وكان لصالون التجميل توقيت مرن، والورشات تقدّم دروسًا مختلفة، بدءًا من الصباغة، وصولًا إلى دروس الفلك التي كان يُعطيها مَنْ لا تزال أفئدتُهم تهوي لمفاجآت المستقبل.

كان دكّان الأشياء المنسيّة ـ هكذا جاء اسمُه في لافتة عُلِّقتْ على الباب، وكانت تسيِّره سيِّدات متطوِّعات ـ يبيع الملابس والأثاث والمجوهرات، وأشياءَ ثمينةً أخرى تخلّى عنها النزلاء، أو خلّفها الموتى من ورائهم.

ـ لدينا نادٍ للسينما في منتهى الروعة. نعرض أفلامًا ثلاث مرّات في الأسبوع في قاعة المكتبة، أردف هانس ڤواغ.

ـ أيّ نوع من الأفلام تعرضون؟ سألته إيرينا، وكلّها أمل في أن تكون الأفلام لمصّاصي الدماء والإثارة.

ـ هناك لجنة مكلّفة تُشرف على عمليّة انتقاء الأفلام، ودائمًا تمنح الأولويّة لأفلام الإجرام؛ فأعضاؤها من عشّاق إنتاجات تارانتينو (Tarantino). الكلّ هنا مفتون بالعنف، لكنْ لا تخافي، فجلُّهم يُدرك أنّ الأمر ضرب من الخيال، وأنّ الممثِّلين سيظهرون ثانيةً في أفلام أخرى سالمين ومعافين. لنقل إنّ هذا هو صِمام الأمان. فكثيرون من نزلائنا يتوهّمون أنّهم في صدد قتل أحد، وعادةً ما يكون هذا الشخص من عائلتهم.

ـ الشيء نفسه يحصل معي، أعقبتْ إيرينا من دون تردُّد.

ظنّ هانس ڤواغ أنَّ الشابّة تمزح معه، فضحك بسرور، وهو يتلمَّس روح الدعابة والصبر اللذين يتحلّى بهما عمّالُه.

في حديقة الأشجار القديمة كانت تتجوَّل هناك، بكلِّ ثقة، سناجبُ عديدة، وكذلك أيائلُ كثيرة. أوضح لها هانس ڤواغ أنَّ إناث الأيائل تلد هناك، وتعتني بصغارها إلى أن يشتدّ عودها. وأضاف أنَّ المكان كذلك ملاذ للطيور، وخصوصًا طيور القبَّرة (Sky-larks)، التي اشتُقّ منها اسم الدار: *لارك هاوس*. كانت هناك عدَّة غرف استراتيجيَّة، يتمّ التجسُّسُ من خلالها على الحيوانات في الطبيعة، وكذلك على العجزة المعرَّضين للتيه ولحوادث مفاجئة. لم تكن *لارك هاوس* تتمتَّع بشروط السلامة. ففي النهار، كانت الأبواب تظلُّ مفتوحة، ولم يكن هناك سوى حارسَيْن أعزلَيْن يقومان بالدوريّات المعتادة. كانا من أفراد الشرطة المتقاعدين، وعمراهما يتراوحان بين السبعين والرابعة والسبعين. لم تكن الحاجة ملحَّةً إلى حرَّاس آخرين؛ فاللصوص لن يضيِّعوا وقتهم في مهاجمة عَجَزة بلا دخل.

مرُّوا بمجموعة من النساء القابعات في كراسيِّ متحرِّكة، وبمجموعة أخرى تحمل منصَّات الرسم وعلب الصباغة، تأهُّبًا لحضور درس في الهواء الطلق، وكذلك ببعض النزلاء الذين أخرجوا كلابًا معطوبة جدًّا مثلهم في نزهة. كان النزل متاخمًا للخليج، وعند حالة الجَزْر، ويمكن الخروج للتنزُّه في الزوارق، وهذا ما كان يفعله بعضُ النزلاء الذين لم تنهكهم بعدُ آهاتُ الكِبَر وآلامُه.

«*هكذا أحبّ أن أعيش*»، تنهَّدتْ إيرينا، مستنشقةً رائحةَ شجر الصنوبر الزكيَّةَ، وهي تقارن روعة هذه المَرافق بالجحور الموبوءة التي جالت في كنفاتها منذ أن كان عمرها خمسة عشر عامًا.

ـ وأخيرًا، آنسة باثيلي، من واجبي أن أُخبرك بوجود أشباح، لأنَّ هذا سيكون بالتأكيد أوَّل ما سيحذِّرك منه أحدُ الموظَّفين المنحدرين من جزيرة هايتي.

ـ لا أؤمن بالأشباح، سيِّد ڤواغ.

ـ أهنِّئك، وأنا كذلك. أشباح *لارك هاوس*: امرأة شابَّة بفستان ذي سدائل ورديَّة، وطفل قد يصل عمره إلى ثلاثة أعوام. إنَّها إيميلي (Emily)، ابنة شهير الشوكولاتة. المسكينة إيميلي توفِّيتْ حسرةً على ابنها الذي غرق في المسبح، في نهاية الأربعينيَّات. وبعد هذه الفاجعة المؤلمة، غادر السيِّد المنزل وأنشأ هذه المؤسَّسة.

ـ هل غرق الولد في المسبح الذي عرَّفتني إليه الآن؟

ـ نعم، نفسه. وعلى حسب علمي، لا أحد بعده لقي حتفَه هناك.

لاحقًا غيَّرتْ إيرينا مواقفَها من الأشباح، لأنَّها اكتشفت أنَّ العديد من العجزة كانوا دائمًا وأبدًا مصحوبين بموتاهم، ولم تكن إيميلي وابنُها الروحَيْن الوحيدتيْن المُقيمتيْن هناك.

في الساعة الأولى من اليوم الموالي، حضرتْ إيرينا إلى عملها مرتديةً أحسن ما لديها: بنطلونَ جينز وقميصًا محتشمًا. لاحظت أنَّ الأجواء العامَّة في *لارك هاوس* كانت مريحة، وأنَّ الإقامة تبدو كأنَّها مدرسة جامعيَّة لا دار للعجزة. كان الأكل مطابقًا للوجبات التي يقدِّمها أيُّ مطعم محترم في كاليفورنيا؛ فأطباقه كانت شهيَّة وعضويَّة. والخدمات كانت معتبرة، وموظَّفو العناية والتمريض كانوا شديدي اللطف، وفوق كلّ التوقُّعات. في أيَّام قليلة، حفظتْ إيرينا أسماء زملائها في العمل وعاداتهم، وكذا الأمر بالنسبة إلى المقيمين التابعين

لها. وساعدتها الجملُ الإسپانيَّة والفرنسيَّة، التي باتت تلوكها، على كسب تقدير الموظَّفين المنحدرين، في غالبيَّتهم، من *المكسيك* *وغواتيمالا* *وهايتي*. لم يكن الراتب الشهريّ مناسبًا مقارنةً بصعوبة العمل الذي يزاولونه، لكنْ قلَّما تجد أحدًا بوجه متجهِّم عبوس. «*يجب التعامل مع الجدَّات بنوع من الدلع، من دون الإخلال بالاحترام، والشيء نفسه بالنسبة إلى الأجداد، لكنَّ الحذر واجب، إذ تنتابهم أحيانًا نوبات مزعجة فيتعاملون بشكل فظيع*»، هذا ما أوصتها به رئيسةُ فريق النظافة لوبيتا فارياس (Lupita Farias)، وهي امرأة مكتنزة، قصيرة القامة، ذات وجهٍ منحوت نَحْتَ *الأولميك*. ولمَّا كانت قد أمضت زهاء اثنين وثلاثين عامًا في *لارك هاوس*، وكانت تلج كلّ الغرف، فقد باتت تعرف، بشكل دقيق، كلَّ مُقيم على حدة، وتعرف كيف كانت حياتهم، حتى إنَّها كانت تستطيع أن تتكهَّن بنوباتهم العصبيَّة، كما كانت ترافقهم في همومهم.

ـ حذاري من الاكتئاب، إيرينا، فهو شائع هنا. فإذا لاحظتِ أنَّ أحدهم بات معزولًا، حزينًا، يظلّ وحده في الفراش بلا سبب، أو توقَّف عن الأكل.. فأخبريني بسرعة. مفهوم؟

ـ وماذا تصنعين في هذه الحالة يا لوبيتا؟

ـ على حسب كلِّ حالة. أداعبهم بلطف، وهذا أمر يثمِّنونه كثيرًا، لأنَّ الشيوخ في حاجة إلى مَنْ يربِّت على أكتافهم. أُقحمهم في مسلسل تلفزيونيّ، فلا أحد يريد الموت قبل أن يتعرَّف إلى النهاية. البعض يروِّح عن نفسه بالصلاة، لكن يوجد هنا العديد من الملحدين، وهؤلاء طبعًا لا يصلُّون. والأهمّ ألَّا ندعهم وحدهم. فإذا لم أكن موجودة، اتَّصلي بكاتي (Cathy)، فهي تعرف تمامًا ما يجب فعله.

كانت الدكتورة كاترين هوپ (Catherine Hope)، القاطنة في

الطابق الثاني، هي أوَّل من رحَّب بقدوم إيرينا باسم كلِّ المقيمين. وفي عمر يشارف الثمانية والستِّين ربيعًا، كانت كاترين أصغر النزلاء. ومنذ أن لازمت الكرسيَّ المتحرِّك، اختارت المساندة والصحبة الممنوحتين من لارك *هاوس*، حيث أمضت بضعة أعوام، تحوَّلت خلالها إلى روح المؤسَّسة.

«*كبار السنِّ هم أكثر الناس تسليةً في العالم. عمَّروا كثيرًا، يقولون ما يعشقون، وهم في ذلك لا يبالون بأحد. لن تشعري بالملل هنا أبدًا، قالت لإيرينا. نُزلاؤنا أناس مهذَّبون، لا يزالون يواصلون البحث والتحصيل، إذا سمحتْ لهم بذلك حالتُهم الصحِّيَّة. ننعم هنا بكثير من المحفِّزات، هكذا نستطيع أن نقضي على أسوإ كابوس للشيخوخة: الوحدة*».

كانت إيرينا على اطِّلاع تامٍّ على النَّفَس التقدُّميِّ الذي يفوح من لارك *هاوس*، وهو نَفَسٌ شكَّل أكثر من مرَّة مادَّةً دسمةً للعديد من نشرات الأخبار. كانت لوائح الانتظار لولوج المؤسَّسة عريضة جدًّا، وتمتدُّ لسنوات، ولو لم يقضِ العديد من المترشِّحين نحبهم قبل أن يأتيهم دورهم، لما انتهت هذه القوائم. شيوخ لارك *هاوس* شكَّلوا دليلًا قاطعًا على أنَّ عامل السنِّ، بكلِّ إكراهاته، لم يكن ليشكِّل حجر عثرة أمام التمتُّع بمباهج الحياة، والمشاركة في ضجيج الوجود. فالعديد منهم كانوا أعضاءً نشيطين في حركة «شيوخ من أجل السلام»، يخرجون إلى الشارع صباح كلَّ جمعة للتنديد بالخروقات، ومناهضة الظلم الذي تمارسه إمبراطوريَّة الولايات المتَّحدة الأميركيَّة في العالم. كان النشطاء، ومن بينهم سيِّدة يصل عمرها إلى مئة عام وعام، يلتقون دائمًا في ركن من ساحة الحيِّ أمام ثكنة بوليسيَّة، فيحضرون بعصيِّهم ودرَّاجاتهم وكراسيهم المتحرِّكة، رافعين لافتات مناوئة للحرب أو

الاحتباس الحراريّ، في حين كان جمهور الناس العابرين يساندونهم بالضغط طويلًا على أبواق سيَّاراتهم، أو يوقِّعون لهم عريضة يضعها الأجداد الغاضبون بين أيديهم. وكثيرًا ما بثَّ التلفاز صورًا لمشاغبين تتوسَّطهم الشرطة محاولةً ـ في منظر سخيف ـ فكّ الاعتصام، ومهدِّدةً باستعمال الغاز المسيِّل للدموع.

كان هانس ڤواغ شديد التأثُّر، وهو يعرض على إيرينا نُصُبًا تذكاريًّا وُضع في الحديقة على شرفِ موسيقيٍّ في السابعة والتسعين، كان قد لقي حتفه سنة ٢٠٠٦ جرّاء إصابته بجلطة دماغيَّة قاتلة، وهو يندِّد تحت وطأة الشمس الحارقة بالحرب على العراق.

نشأتْ إيرينا في إحدى قرى *مولدافيا* الحاضنة للعديد من الشيوخ والأطفال. وكلُّهم كانوا بلا أسنان: الشيوخ تساقطتْ أسنانهم جرَّاء كثرة الاستهلاك، أمَّا الأطفال، فكانوا في طور تغيّر الأسنان الحليبيَّة. تراءت لإيرينا صورُ جدِّها وجدَّتها، وتذكّرت كيف أنَّ الندم كان يعتصرها كثيرًا في الآونة الأخيرة لتخلِّيها عنهما، فرأت أنَّ لارك *هاوس* فرصة ذهبيَّة لإعطاء الآخرين ما لم تستطع بذله من أجل جدَّيْها، ومن هذا المنطلق شرعتْ في خدمة من هُمْ تحت إمرتها. وبسرعة فائقة، استوطنتْ قلوبَ الجميع، بمن فيهم العديد من نزلاء الطابق الأوَّل المستقلِّين.

لفتتْ ألما بيلاسكو (Alma Belasco) انتباهَ إيرينا، إذ بدت لها، منذ الوهلة الأولى، امرأةً متميِّزةً من باقي النساء، بهيئتها الأرستقراطيَّة وجاذبيَّتها التي فرَّقتْها عن باقي النزلاء. كانت لوبيتا فارياس تؤكِّد دائمًا أنَّ لارك *هاوس* ليس بالمكان اللائق لبيلاسكو، وأنَّها لن تمكث طويلًا هناك؛ ففي أيِّ لحظة، يمكن أن يحضر السائق الذي أتى بها أوَّل مرَّة على متن سيَّارة مرسيدس ليأخذها.

لكنَّ الشهور تعاقبتْ، ولم يحدث شيء من هذا القبيل. كانت إيرينا تكتفي بالنظر إلى ألما بيلاسكو من بعيد، لأنَّ أوامر هانس ڤواغ كانت تحتِّم عليها التركيز في واجباتها مع نزلاء الطابقين الثاني والثالث، من دون الانشغال بالآخرين؛ كما أنَّها كانت منكبَّة على خدمة زبائنها ـ لا يُسمَّوْن مرضى ـ تتعلَّم أدقّ تفاصيل عملها الجديد؛ وكجزء من تدريباتها، كان من واجبها دراسةُ أشرطة القيديو المتعلِّقة بالجنائز الحديثة العهد. أمَّا ألما بيلاسكو فلم تهتمّ بوجود إيرينا، لولا أنَّ الظروف حوَّلتْ هذه الأخيرة، في وقت وجيز، إلى أكثر الشخصيَّات جدلًا داخل الجماعة.

الفرنسيّ

في *لارك هاوس*، حيث الغالبيَّة الساحقة من النساء، كان جاك دوڤين (Jacques Devine) بمثابة النجم الشهير، فهو الرجل اللبق الوحيد في النزل من أصل ثمانية وعشرين رجلًا.

كانوا ينادونه بالفرنسيّ، لا لأنَّه وُلِد بفرنسا، بل لأنَّه كان غايةً في التحضُّر: فهو يفسح الطريق للسيِّدات ليعبرن أوَّلًا، ويجذب لهنّ الكرسيّ، ولا يترك فتحة بنطلونه مفتوحة قطّ، ويستطيع أن يرقص، على الرَّغم من ظهره المسند بأعمدة طبِّيَّة. ففي التسعين من عمره، كان يمشي مشدود القوام بفضل أسلاك وبراغٍ، وصواميل ثُبِّتتْ في عموده الفقريّ، وكان لا يزال يحتفظ بالقليل من شعره المموَّج. كان يُجيد لعب الورق، فيدسّ الخدعَ بكلِّ سهولة. وكان معافًى في بدنه، بغضِّ النظر عن التهاب المفاصل، والضغط المرتفع، وصمم الأيَّام الشتويَّة الذي لا بدَّ منه. كما كان متيقِّظًا، لكن ليس بالقدر الذي يكفيه ليتذكَّر هل تناول وجبة الغداء أم لا. لهذا السبب، وُضِع في الطابق الثاني، حيث يحظى بالرعاية اللازمة. وكان قد وصل إلى *لارك هاوس* بصحبة

زوجته الثالثة، التي عاش معها ثلاثة أسابيع فقط قبل أن يدهسها سائقُ درَّاجة، فتلقى حتفَها. كان اليوم عند «الفرنسيّ» يبتدئ باكرًا: يستحمّ، يرتدي ملابسه، ويحلق ذقنه بمساعدة جان دانييل (Jean Daniel)، المساعد الهايتيّ، ثم يَعْبر المرأب متّكئًا على عصاه. كان يُطيل النظر دائمًا إلى سائقي الدرَّاجات، ويتوجَّه دائمًا إلى ستاربكس (Starbucks)، هناك في الزاوية، ليحتسي فنجانه الأوّل من بين خمسة فناجين يوميَّة من القهوة. طلَّق إحدى زوجاته مرَّةً، وترمَّل مرَّتين، ولم تَعْزْهُ أبدًا معجباتٌ متيَّماتٌ كان يغريهنَّ بخدع سحريَّة. مرَّة، ومنذ مدَّة قصيرة، أحصى أنَّه أحبَّ سبعًا وستِّين مرَّة، ودوَّن الرقم في كنّاشه كيلا تبلعه آلةُ النسيان، التي شرعت في مسح وجوه محظوظات ظفرن بحبِّه وأسمائهنّ. كان لديه العديد من الأبناء المعترف بهم، وولد واحد كان باكورة نزوة غير شرعيَّة مع امرأة لم يعد يتذكَّر اسمها، علاوةً على أبناء الأخ والأخت، وكلُّهم أُناس جاحدون ينتظرون رحيله إلى العالم الآخر ليتمكَّنوا من الإرث.

ثمَّة إشاعات كانت تفيد بامتلاكه ثروةً صغيرةً جمعها بالكثير من الحيلة والقليل من الجدِّيَّة. وقد اعترف يومًا، ومن دون أدنى ندم، بأنَّه زُجَّ في السجن فترة من الزمن، وخرج منه بذراع تعلوها وشومٌ لقراصنة بحار *الأنتيل*؛ وهي وشومٌ لم تعد ظاهرة لأنَّ الترهُّلات والبقع والتجاعيد أخفت ملامحها، وبهذه الطريقة ربح قدرًا لا يُستهان به من المال إثر مضاربته بمدَّخرات الحرَّاس.

وبالرَّغم من حيطة العديد من سيِّدات *لارك هاوس*، بسدِّ المجال أمام مناوراته الغراميَّة، فقد تعلَّق جاك دوڤين بإيرينا باثيلي منذ الوهلة الأولى، منذ أن رآها تتجوَّل بسجلِّ الملاحظات، بمؤخّرتها الحادَّة. وبعد شربه الكأس الأولى من نبيذ *مارتيناي*، أكَّد منذهلًا كيف أنَّ أحدًا

لم ينتبه لهذه المؤخّرة التي لن تكون سوى معجزة للطبيعة، إذ إنَّ الفتاة لا تسري في عروقها قطرة دم كاريبيَّة واحدة.

قضى جاك دوڤين أجمل سنوات عمره منشغلًا بمشاريع بين بورتوريكو وفنزويلا، وهناك أُولِعَ بحبٍّ مؤخّرات النساء. كانت صور تلك الأرداف الملحميَّة قد سكنت مهجته، والتصقتْ بمقلتيه إلى الأبد. كان يحلم بالردفين، ويراهما أينما حلَّ وارتحل، يراهما حتى في أماكن غير مواتية كـ *لارك هاوس*، ويتخيَّلهما في امرأة نحيفة كإيرينا. وفجأةً، امتلأتْ حياةُ الكهل، الخاليةُ من المشاريع والطموحات، بهذا الحبّ المتأخِّر، فلم يعد روتينُه اليوميُّ ينعم بالسلام. وبعد أن تعرَّف إليها بزمنٍ وجيز، وهب لها خنفساءَ من الزبرجد والماس، وأوضح لها تعلُّقه بهذه الحِلْية، التي كانت من المجوهرات القليلة التي استطاع أن يظفر بها، وينتشلها من مخالب ورثة زوجاته الهالكات. لكنْ إيرينا لم تقبل الهديَّة، وتسبَّب رفضُها بارتفاع ضغط دمه إلى نِسَبٍ مرتفعة جدًّا، فما كان عليها إلَّا أن ترافقه بنفسها إلى قسم الطوارئ لتظلّ إلى جانبه الليلَ كلَّه.

وبعد أن دُسَّ كيسُ المصل في عروقه، اعترف لها جاك دوڤين، وهو يتنهَّد ويعاتب، بمشاعره العذريَّة والبريئة. وأوضح لها أنَّه يرغب فقط في صحبتها، وأنَّه يمتِّع النظر في شبابها وجمالها، وأنَّه في حاجة إلى أن يسمع صوتها الشجيَّ، وأن يتخيَّل أنَّها تبادله الحبّ، ولو كان هذا الحبُّ حبَّ ابنةٍ لأبيها، أو حبَّ حفيدةٍ لجدِّها.

في مساء اليوم الموالي، وبعد العودة إلى *لارك هاوس*، وبينما كان جاك دوڤين يتلذَّذ بنبيذه المعتاد، روت إيرينا للوبيتا فرياس، بعينين محمرَّتين وهالات زرقاء جرَّاء السهر في الليل، تفاصيل المأزق.

ـ لا غرابة في الأمر، صبيَّتي! فلطالما وجدنا نزلاءنا نائمين في

أسرَّة غير أَسرَّتهم، ولا يتعلَّق الأمر فقط بالأجداد، فالأمر نفسه يحدث مع السيِّدات اللواتي يكتفين، في ظلِّ النقص الحاصل في عدد الرجال، بالعرض الموجود. الكلّ هنا يحتاج إلى رفقة.

ـ الأمر عند السيِّد دوڤين، يا لوبيتا، يتعلَّق بالحبِّ العذريِّ.

ـ لا دراية لي بهذا الأمر. لكنْ إذا كان الأمر كما أتصوَّر، فلا تثقي به. فالفرنسيّ يمتلك عضوًا مزروعًا في قضيبه، سجقًا من البلاستيك ينتفخ بمصباح مخفيٍّ بين خصيتيه.

ـ ما الذي تقولينه، لوبيتا! أردفتْ إيرينا ضاحكة.

ـ ما تسمعينَه. أقسم لك، أنا لم أَرَ شيئًا. لكنَّ الفرنسيّ قام بتجربة لجان دانييل. شيء مذهل.

وللمزيد من الإفادة، زوَّدت المرأة الطيِّبة إيرينا بعصارةِ ما لاحظته خلال سنوات عملها في *لارك هاوس*، مؤكِّدةً لها أنَّ العمر وحده لا يدفع بالمرء إلى الأفضل، ولا يجعله ينطق بالحكمة، بل يشدِّد أكثر على طباعٍ كانت دائمة ملازمة للإنسان:

ـ فالبخيل لا يتحوَّل مع مرور السنين إلى رجل كريم، يا إيرينا، بل يزداد بخلًا. والمؤكَّد أنَّ دوڤين كان دائمًا فاسقًا، ولهذا السبب أُولِع بالنساء، على ما أردفت.

حين أيقنتْ إيرينا بأنَّها لا تستطيع أن تردّ حليةَ الخنفساء إلى دوڤان، أخذتها إلى هانس ڤواغ الذي سبق أن أخبرها بضرورة الامتناع الكلِّيّ من قبول بخشيش أو هدايا. هذه القاعدة كانت لا تطبَّق على الأملاك التي تستلمها *لارك هاوس* من المحتضرين، ولا تشمل الهِبات المسلَّمة خلسةً كرشوة، بِنِيَّة وضع أحد الأقارب في مقدِّمة لائحة المترشِّحين الراغبين في ولوج الدار، لكنَّهما لم يخوضا في هذا

الحديث، بل تسلَّم المديرُ حشرةَ الزبرجد الفظيعة ليردَّها إلى صاحبها الشرعيِّ، كما ذكر، ووضعها في دُرجِ مكتبه.

بعد مرور أسبوع، أعطى جاك دوڤين إيرينا مئةً وستِّين دولارًا على شكل أوراق نقديَّة من فئة العشرين، لكنَّها هذه المرَّة توجَّهتْ مباشرةً لاستفسار لوبيتا فارياس، التي كانت تؤمن دائمًا بالحلول البسيطة، فأشارت إليها أن تودعها في صندوقِ السجائر، حيث كان يضع نقوده، متيقِّنةً بأنَّه لا يُدرك كم يملك، ولا يتذكَّر كم أخذ. وهكذا، وضعت إيرينا حدًّا لمشكل الهدايا والبقشيش. لكنَّها لم تَسْلم من رسائل الحبِّ والغرام، والدعوات إلى العشاء في المطاعم الفارهة، ومن سلسلة الذرائع لاستدعائها إلى الغرفة. كي يحكي لها بطولاته الوهميَّة المُبالَغ فيها. وفي نهاية المطاف، اقترح عليها الزواج. ولأنَّ «الفرنسيّ» كان بارعًا يتقن فنّ الإغراء، فقد عاد إلى فترة المراهقة، بكلِّ ما تعنيه من حمولات الخجل والحياء، وعوضًا عن أن يَعترف لها بنفسه، بعث إليها رسالة مكتوبة بخطٍّ واضح، رقنها بحاسوبه. كان الظرف يحمل صفحتين مليئتين بالمراوغات، وأساليب المجاز والإطناب، وأكَّد لها في الأخير أنَّها استطاعت أن تجدِّد نشاطه وحيويَّته، وأنَّها أذكت جذوة رغبته في الحياة من جديد، وذكر لها أنَّ في مقدوره أن يوفِّر لها سبل الراحة، في *فلوريدا* مثلًا، حيث الشمس دافئة دائمًا؛ فإذا حدث أنْ ترمَّلتْ، فلن يعوزها شيء، لأنَّها ستكون مؤمَّنة مادِّيًا. وكتب لها أنَّ اقتراحه، من أيِّ زاويةٍ نظرتْ إليه، ستكون بموجبه هي الرابحة، لأنَّ فارق السنّ يُحسب لمصلحتها. أمَّا التوقيع، فجاء كأنَّه خربشة بعوضة.

نأت الشابَّة بنفسها عن إخبار المدير، خشية أن تجد نفسها في الشارع، فكتمت الأمر، ولم تُجب على الرسالة ظنًّا منها أنَّ العريس سينسى الأمر، لكنْ هيهات.. فذاكرة جاك دوڤين انتعشت دفعة

واحدة. ولأنَّ العشق بثَّ فيه حياةً جديدة، فقد واظب على إرسال برقيَّات مستعجلة، في حين كانت تحاول تفاديه، فتذهب للصلاة عند القدِّيسة باريشينا (Pareschena) راجية أن يَصرف الكهلُ نظرَه إلى سيِّدات الثمانين اللواتي كنَّ يتعقَّبن خطاه.

تفاقم الوضع كثيرًا، وازداد تصعيدًا، وبات من المستحيل كتمانه والتستُّر عليه، ولولا وقوعُ حدثٍ وَضَعَ حدًّا لجاك دوڤين لما انتهت معضلةُ إيرينا. كلّ ما وقع أنَّ الفرنسيّ خرج خلال الأسبوع الواحد أكثر من مرَّة. كان يستقلّ سيَّارة أجرة، ولا يقدِّم أيّ شروح. لم يكن ذلك من عادته لأنَّه كان دائمًا يضلّ الطريق. وكان من بين مهمّات إيرينا مرافقته، لكنَّه هذه المرَّة خرج متسلِّلًا من دون الإفصاح عن نيَّاته.

جولاتُه المتتالية هذه وَضَعَتْ صلابتَه وقدراته على التحمُّل على المحكِّ، لأنَّه في أحد الأيَّام عاد إلى *لارك هاوس* منهارًا ومنهوك القوى، إلى درجة أنَّ السائق حمله بين ذراعيه ليُنزله من السيَّارة، وسلَّمه كحزمة إلى مضيفة الاستقبال.

ـ ما الذي حدث سيِّد دوڤين، تساءلت المرأة.

ـ لا أدري، أنا لم أكن معه، أجابها السائق.

وبعد إخضاعه لمجموعة من الفحوصات، والتأكُّد من سلامة الضغط، أكَّد الطبيب أنْ لا فائدة تُرجى من إرساله إلى المستشفى من جديد، وأعطى تعليماته بملازمة الفراش والراحة لبضعة أيَّام؛ كما دوَّن ملاحظته لهانس ڤواغ، بتحويل جاك دوڤين إلى الطابق الثالث، ليحظى بالعناية الدائمة، لأنَّ حالته العقليَّة لم تعد تسمح بمكوثه في الطابق الثاني. وفي اليوم التالي، تأهَّب المدير لإخبار دوڤين بالتغيُّر. وهذه

المهمّة كانت تُشعره دائمًا بطعم النحاس في فمه، لأنَّ أحدًا لا يجهل معنى الطابق الثالث الذي يتموقع قبل «الفردوس»، حيث لا عودة إلى الوراء. ففاجأه جان دانييل، الموظّفُ الهاييتيّ، الذي أقبل بوجه شاحب ينعى خبرَ العثور على جاك دوڤين متصلّبًا وباردًا، ساعة ذهابه لمساعدته لارتداء ملابسه. اقترح الطبيب تشريحَ الجثّة، لأنّه لم يكن قد عاين في اليوم السابق ساعةَ الفحص شيئًا غريبًا يفسِّر هذه المفاجأة غير السارَّة. لكنَّ هانس ڤواغ اعترض، إذ ما الفائدة من بثِّ شكوك في حادثة متوقَّعة جدًّا، كحادثة وفاة شخص في التسعين؛ فعمليّة التشريح هذه ستُفقد *لارك هاوس* هيبتَها واحترامَها. بعد شيوع الخبر، أجهشتْ إيرينا بالبكاء؛ فرغمًا عنها، كانت قد ألفت هذا المجنون «روميو». لكنْ خامرَها في المقابل، شعور بالارتياح لتخلُّصها منه، وساورها شعورٌ آخر بالحياء لإحساسها بهذا الارتياح.

جمعتْ وفاةُ الفرنسيّ نادي معجباته في حِداد واحد، لكنْ ظلّت تعوزهم مواساة تنظيم مأتمٍ له، لأنَّ أهل الميّت فضّلوا حرقَ رفاته في أقصى سرعة ممكنة.

كانت آلة النسيان على وشك أن تبتلع ذاكرةَ الرجل إلى الأبد، بل أن تنتشله من مخيّلة معجباته، لو لم تُثِرْ عائلة الهالك زوبعة كبيرة. فبعد أن نُثر رماده في مشهدٍ خالٍ من أيّ مشاعر حقيقيّة، عاين الورثة المزعومون أنّ كلّ ممتلكات الكهل أُورثتْ للمدعوّة إيرينا باثيلي. فقد ورد في تدوينة مقتضبة مرفقة بالوصيّة، أنّ إيرينا أغدقت عليه الحنانَ في آخر مرحلة من حياته الطويلة، وهي بذلك تستحقّ أن ترثه. وأوضح محامي جاك دوڤين أنّ زبونه اتّصل به هاتفيًّا، وأخبره بضرورة إجراء تعديلات على الوصيّة، بعدما زاره مرّتين في المكتب، مرّةً لمراجعة الأوراق، ومرّةً للتوقيع في حضرة الموثّق، وأكّد أنّ الراحل كان متيقّنًا

من رغباته. اتَّهم أهلُ الميِّت إدارةَ لارك هاوس بالتهاون حيال حالة الكهل العقليَّة، كما اتَّهموا إيرينا باثيلي بالنصب والاحتيال. وأعلنوا عن نيَّتهم الطعنَ في الوصيَّة، وعن ملاحقة كلٍّ من المحامي بتهمة التقصير، والموثِّق بتهمة التواطؤ، علاوةً على اتِّهام لارك هاوس بالتقصير لما ألحقته من حيف وضرر.

استقبل هانس ڤواغ، وهو يشتعل في داخله حنقًا وسخطًا، وفودَ الأهل المحبَطين، بالكثير من الهدوء واللباقة، وهما خصلتان اكتسبهما على مرِّ السنين الطوال في إدارة المؤسَّسة. لم يكن يتوقَّع بتاتًا من إيرينا باثيلي ذلك النوعَ من المكر، وهو الذي كان يحسبها دائمًا غير قادرة على قتل ذبابة. لكنَّ الحياة تعطي العِبَر، والثقة بالآخر يجب أن تكون منعدمة تمامًا. وفي لحظة، توجَّهَ بالسؤال إلى المحامي عن مقدار المال الذي يدور الحديث عنه، والحصيلة أنَّه لم يكن سوى أراضٍ قاحلة في المكسيك، وأسهم لم تُعرف قيمتُها بعدُ في العديد من الشركات. أمَّا المقدار نقدًا، فكانً هزيلًا.

طلب المدير أربعًا وعشرين ساعة لتدبّر الأمر، كي يبحث عن مخرج أقلّ تكلفةً من الادِّعاء العامّ. فاستدعى إيرينا بحزم، وهو يفكِّر في تطويق المأزق بنعومة، إذ ليس من مصلحته أن يُشْهر العداءَ ضدَّ هذه الساقطة. لكنَّه لم يتمالك نفسه ساعة وقوفها بين يديه.

ـ أريد أن أعرف كيف تمكّنتِ من خداع الكهل، نَهَرها زاجرًا.

ـ عمَّن تتحدَّث سيِّد ڤواغ؟

ـ عمَّن سيكون؟ عن الفرنسيّ بالطبع. لا أستطيع أن أصدِّق كيف حدث كلّ هذا أمام أنفي!

ـ المعذرة، لم أشأ إخبارك بالأمر حتى لا أشغلك. ظننتُ أنَّ

الأمر لا يستحقّ، وأنَّه سيُحلُّ بسهولة.

ـ وبعد هذا الحلّ، ما عساي أقول لأهله؟

ـ لا داعي لإخبارهم بالأمر، سيِّد ڤواغ؛ فالشيوخ ـ كما تعلم جيِّدًا ـ يقعون في شباك الحبِّ، لكنَّ الناس في الخارج يُصدمون بهذا الخبر.

ـ هل ضاجعتِ دوڤين؟

ـ لا! كيف يخطر في بالك هذا الأمر؟

ـ إذن، لم أعد أفهم شيئًا، كيف عيَّنك وارثَته الشرعيَّة؟

ـ ماذا تقول؟

أيقن هانس ڤواغ منذهلًا أنَّ إيرينا باثيلي لم تكن تشكّ في نيَّات الرجل، وأنَّها أكثر الناس اندهاشًا بالوصيَّة. كان سينبِّهها إلى أنَّه من العسير جدًّا أن تتقاضى شيئًا، لأنَّ الورثة الشرعيِّين سيتناحرون حتى حدود الفِلْس الأخير، لكنَّها أخبرته، بلا ارتجال، بأنَّها لا تريد شيئًا، وأنَّ هذا المال لا خير فيه، وأنَّه لن يجلب لها سوى التعاسة. وذكرتْ له أنَّ جاك دوڤين لم يكن سوى معتوه، وهذه حقيقة يمكن أن يُثبت صحَّتَها أيُّ شخص في *لارك هاوس*، وأنَّ من الأفضل لَمّ الموضوع من دون صخب، إذ تكفي شهادةٌ طبِّيَّةٌ واحدة لتثبت حُمقه.

لم تنفع كلُّ الجهود الاحترازيَّة للحفاظ على سرِّيَّة الموضوع، فشاع الخبر بين الناس. وبين عشيَّة وضحاها، تحوَّلتْ إيرينا باثيلي إلى شخصيَّة مثيرة للجدل داخل المجموعة. فعشقها المقيمون، وانتقدها موظَّفو الخدمات المنحدرون من هاييتي وأميركا اللاتينيَّة، والذين كانوا يعتبرون رفض المال بمثابة كفر بالنعمة. «*لا تبصقي في اتِّجاه السماء، فيسقط البصاقُ على وجهك*»، أردفتْ لوبيتا فارياس. لم تجد إيرينا

ترجمةً مطابقةً في الرومانيَّة لهذا القول المأثور.

أمَّا المدير، المنبهر بلامبالاة هذه المهاجرة المتواضعة والنازحة من بلدٍ يصعب تحديدُه في الخريطة، فقرَّر ترسيمها في المنصب، بإعطائها أربعين ساعةً في الأسبوع، وراتبًا شهريًّا يفوق راتبَ من سبقوها في المنصب. كما أقنع ورثة جاك دوفين بتسليمها ألفيْ دولار عربونَ امتنان. لم تستلم إيرينا المبلغ الموعود؛ ولأنَّها لم تكن ترغب فيه، سرعان ما نسيت الموضوع وطردتْه من رأسها.

ألما بيلاسكو

استطاع خبر الميراث الهائل لجاك دوڤين أن يُحوِّل أنظار ألما بيلاسكو في اتِّجاه إيرينا. وبعد أن هدأتْ عاصفةُ اللغط الهوجاء، استدعتها إلى منزلها المتقشِّف، فاستقبلتها وهي جالسة بنخوة كبيرة فوق أريكة صغيرة بلون المشمش، برفقةِ «نيكو»، قطِّها الأبلق المنكمش في تنُّورتها.

ـ أحتاج إلى سكرتيرة. ما رأيك في أن تشتغلي لحسابي؟ أشارت إليها.

لم يكن اقتراحًا، بل كان أمرًا. ولمَّا كانت ألما نادرًا ما تردُّ عليها السلام، إذا تصادفتا في أحد الممرَّات، فقد كانت إيرينا هي التي تباغتها دومًا بالتحيَّة.

كان أزيد من نصف المقيمين يعيشون بشكل متواضع وفق ما توفِّره لهم رواتبهم، وأحيانًا كانوا يكملون خصاصهم بمساعدات أهليهم، فالغالبيَّة كانت تكتفي بالخدمات المتوافرة، فوجبة إضافيَّة واحدة كانت

كفيلة بأن تخرِّب ميزانيَّتهم الزهيدة، ولا أحد كان يحلم بالتعاقد مع سكرتيرة خاصَّة.

أوضحت لها إيرينا أنَّ أجندتها مليئة بالارتباطات، وأنْ لا وقت لديها: فبعد ساعات العمل في *لارك هاوس*، تتوجّه للشغل في كافيتيريا، وبعدها تنتقل لغسل الكلاب في منازل أصحابها.

ـ ما طبيعة العمل الذي تزاولينه مع الكلاب؟ سألتها ألما:

ـ شريكي في العمل يدعى تيم (Tim)، وهو جاري في *بيركيلي*. لديه شاحنة كبيرة مجهّزة بحوضين للاستحمام، وخرطوم رشّاش للمياه. نتوجّه إلى منازل الكلاب، أقصد إلى منازل أصحاب الكلاب، فنربط خرطومَ المياه بالكهرباء، ونغسل للزبائن ـ أي الكلاب ـ في الفناء أو في الشارع؛ كما نقوم بتنظيف آذانها ونقلِّم أظافرها.

ـ للكلاب؟ سألتها ألما وهي تخفي ابتسامة.

ـ نعم.

ـ بكم تشتغلين في الساعة الواحدة؟

ـ خمسة وعشرون دولارًا للكلب الواحد، لكنْ أقتسمها مع تيم، فأحتفظ لنفسي بإثنيْ عشر دولارًا ونصف الدولار.

ـ سأختبر مهارتك في العمل، وسأمنحك ثلاثة عشر دولارًا للساعة لمدّة ثلاثة شهور. فإذا ربحتِ الرهان، واجتزتِ الامتحان بنجاح، رفعتُ أجرتك إلى خمسة عشر دولارًا. تشتغلين معي في الحصّة المسائيّة، بعد أن تنتهي من عملك في *لارك هاوس*، فقط ساعتين في البداية. لا تكترثي كثيرًا للتوقيت. يمكن أن نُكيِّفه وفق احتياجاتي واستعدادك. اتّفقنا؟

ـ في مقدوري أن أترك العمل في الكافيتيريا، سيِّدة بيلاسكو.

لكنْ لا أستطيع التخلّي عن الكلاب، فهي تعرفني وتنتظرني.

تمَّ الاتّفاق على هذه النقاط. وهكذا، نشأتْ بينهما ألفة ما لبثتْ أن تحوَّلتْ إلى صداقة متينة.

كانت إيرينا شبه تائهة، خلال الأسابيع الأولى من عملها الجديد، تتصرَّف بحذر كبير، لأنَّ ألما بيلاسكو تكشَّفتْ عن نوع من السلطويَّة في تعاملها معها؛ فقد كانت مدقِّقةً في كلِّ التفاصيل الصغيرة، وغير واضحة في تعليماتها. لكنْ، سرعان ما تلاشى خوفها، واعتادتها، مثلما اعتادت العيش في *لارك هاوس*. كانت إيرينا تراقب بإعجاب تحرُّكات ألما، كأنَّها عالِمُ أحياء يدقِّق في سلمندر أزليّ.

لم تكن المرأة تشبه أحدًا ممَّن عرفتهم إيرينا، وبالتأكيد لا مجال للمقارنة بينها وبين كلِّ المسنِّين الذين يقطنون في الطابقيْن الثاني والثالث. كانت غيورة على استقلاليَّتها، وغير عابئة بالمادِّيَّات، ويبدو أنَّها كانت متحرِّرة من مشاعرها، باستثناء تلك التي تكنُّها لحفيدها سيت (Seth). كما كانت شديدة الثقة بنفسها، فلا تستجدي الرَبّ في شيء، ولا تأبه بتقوى بعض نزلاء *لارك هاوس*، المتشدِّقين بروحانيَّاتهم، والداعين إلى اعتماد أساليب معيَّنة للوصول إلى مرتبة عُليا من محاسبة الذات. كانت ألما تعرف تمامًا أين تضع قدميْها.

ظنَّت إيرينا أنَّ أنفتها وشموخها لم يكونا سوى سلاح تُشهره في وجوه الفضوليِّين، وأنَّ بساطتها نوع من الأناقة التي قلَّما تستطيع النساء الأخريات مضاهاتها بها. كان شعرها أبيضَ وجافًّا، قُصّ خصلات متناثرةً، تمشِّطه بأصابعها. وكانت تضع أحمر شفاه، وترشّ عطرًا رجوليًّا يعبق برائحة البرغموت والبرتقال. وبمرورها يمتصّ هذا الأريجُ المنعشُ رائحةَ مطهِّر الجراثيم، ورائحةَ الكهولة، وأحيانًا رائحةَ الماريجوانا التي كانت تنبعث من *لارك هاوس*. كانت ألما ذات أنف

حادٍّ، وفم منتفخ، وعظام طويلة، وكفَّين منهوكتين كأنَّهما كفَّا عامل. كانت عيناها بنِّيَّتين، يعلوهما حاجبان عريضان قاتما اللون، وهالات ورديَّة تضفي عليها لمسة الأرق التي لم تستطع نظَّارتُها السوداءُ أن تخفيها. كان حضورها وإشعاعها الغامض يفرضان نوعًا من الهيبة، فلا أحد من الموظَّفين كان يجرؤ على مخاطبتها بالرنَّة الأبويَّة التي اعتادوا أن يستعملوها مع باقي المقيمين، ولا أحد كان يستطيع ادِّعاء معرفتها، إلى أن جاءت إيرينا التي تمكَّنت من اجتياح قلعة حميميَّتها.

كانت ألما تعيش برفقة قطِّها في شقَّة مجهَّزة بقليل من الأثاث، وديكورات شخصيَّة. كانت تتنقَّل في أصغر سيَّارة يمكن أن توجد في السوق، من دون احترام قانون السير، الذي كانت تعتبره اختياريًّا (كان من واجبات إيرينا أداء فواتير المخالفات). كانت مهذَّبة جدًّا، لكنَّها لم تصادق سوى البستانيّ ڤيكتور (Victor)، الذي كانت تقضي معه ساعات طوالًا منهمكة في غرس النباتات والأزهار، والدكتورة كاترين هوپ (Catherine Hope) التي أُعجبتْ كثيرًا بشخصيَّتها. كان لألما مرسمٌ مستأجَرٌ في كوخ مقسَّم بألواح خشبيَّة، تتقاسمه مع باقي الحرفيِّين. ترسم على الحرير، مثلما كانت تفعل منذ ستِّين عامًا خلت؛ الفارق أنَّها الآن لم تعد تشتغل بالحسِّ الفنِّيّ، بل لكي لا يقتلها المللُ قبل الأوان. كانت تمضي ساعات عديدة أسبوعيًّا في ورشتها بصحبة مساعدتها كيرستن (Kirsten)، التي لم تمنعها «متلازمةُ داون» من القيام بواجبها على أحسن وجه. وكيرستن هذه تعرف جيِّدًا خلطاتِ الألوان والأدوات التي تستعملها ألما، فكانت تحضِّر الأثواب، وترتِّب المرسم، وتنظِّف الفرشات. كانت المرأتان تشتغلان في انسجام تامٍّ، من دون الحاجة إلى كلمات، وتتكهَّنان بالأفكار. وحين شعرت ألما بالفتور، وباتت يداها ترتعشان، تعاقدتْ مع مجموعة من الطلبة لينقلوا

إليها على الحرير الرسوم التي كانت تخطُّها على الورق، في حين كانت مساعِدتُها الوفيَّة تراقبهم عن كثب وبعين متيقِّظة. كانت كيرستن هي الوحيدة التي تستطيع أن تسَلِّم على ألما بذراعين مفتوحتين. وكانت كلَّما أحسَّت بشحنة الحنان، تقاطعُها، لتنهال على وجهها بالقُبل واللحس.

من دون تخطيطٍ جدِّي اشتهرتْ ألما بأزيائها، وبما لديها من كيمونات، وقمصان، وطرحات، وأوشحة من تصاميم فريدة وألوان جريئة. كانت في الواقع لا ترتديها، بل تكتفي دائمًا بسراويل فضفاضة، وبلوزة سوداء أو بيضاء أو رماديَّة من الكتَّان. وبحسب عبارة لوبيتا فرياس، فقد كانت هذه الأزياء تشبه أسمال المعوزين. كانت لوحاتها تُباع في أروقة الفنّ بأسعار خياليَّة، تهبها في النهاية لمؤسَّسة بيلاسكو. كانت مجموعاتها الفنِّيَّة مستوحاة من رحلاتها عبر العالم - حيوانات منتزه سيرينغيتي في *تنزانيا*، الخزف العثمانيّ، الخطّ الأثيوبيّ، هيروغلفيَّة الإينكا، نقوش إغريقيَّة - وكانت تجدِّدها كلّما حاول منافسوها تقليدها. كانت ألما تمتنع عن بيع علامتها، وترفض التعاون مع مصمِّمي الأزياء في عالم الموضة. كلّ تحفة من تحفها كانت تخرج في نُسَخ محدودة جدًّا، وتتولّى بنفسها عمليّةَ الإشراف على أعمالها، كلّ قطعة كانت تُعرض باسمها وتوقيعها. وصل عدد العاملين معها في أوجها إلى خمسين، وكانت تدير إنتاجًا مهمًّا في فضاء صناعيّ كبير جنوب شارع *ماركيت* في *سان فرانسيسكو*. لم تقم يومًا بالدعاية لأعمالها، لأنّها لم تكن في حاجة إلى بيع شيء لكسب قوت يومها، فتحوَّل اسمُها إلى علامة للجودة والتألُّق. وما إنْ بلغت السبعين حتى قرّرت خفضَ نِسَبِ إنتاجها، فتسبّبتْ بذلك بخسارة فظيعة لمؤسّسة بيلاسكو، التي كانت تعتمد على مداخيلها.

كانت مؤسَّسة بيلاسكو، التي أسَّسها صهرُها الشهير إسحاق بيلاسكو (Issac Belasco) سنة ١٩٥٥، تهتمّ بخلق مساحات خضراء في أحياء سكنيَّة عشوائيَّة. وقد أفضت هذه المبادرة التي كانت تتوخَّى، في البداية وقبل كلِّ شيء، خدمةَ الجمال والبيئة والاستراحة، إلى منفعة اجتماعيَّة غير متوقَّعة. فالتجربة أثبتت أنَّه حيثما وُجدتْ حديقة، أو منتزه أو فناء، تتقلَّص نِسَبُ الجريمة، لأنَّ المجرمين والمدمنين، الذين كانوا من قبلُ مستعدِّين لأن يقتلوا بعضهم بعضًا في سبيل جرعة من مخدِّر الهيرويين، أو من أجل الحصول على ثلاثين مترًا مربَّعًا من الأرض، باتوا هم أنفسهم يجتمعون للعناية بهذا الركن من المدينة التي ينتمون إليها: فقاموا برسم جداريَّات في بعض الأحياء، ووضعوا أعمالًا نحتيّة وألعابًا للأطفال في أحياء أخرى، جاء إليها الفنَّانون والرسَّامون لتقديم أعمالهم وترفيه الجمهور. كان الذَّكر الأوّل من العائلة يتولَّى إدارةَ مؤسَّسة بيلاسكو في كلِّ جيل، وهي قاعدة ضمنيَّة لم يغيِّرها التحرُّر النسويّ، لأنَّ أيًّا من البنات لم تهتمَّ بالأمر. ومرَّةً جاء دورُ سيت، ابنِ حفيدِ المؤسِّس، فلم يرغب في هذا الشرف الذي كان جزءًا من تِرْكته.

اعتادت ألما بيلاسكو إصدارَ الأوامر والحفاظ على الحدود في المعاملات، واعتادت إيرينا بدورها طاعةَ الأوامر والكتمان، فغابت المودَّة عنهما إلَّا في حضور سيت، حفيد ألما المفضَّل، والذي اقترح تحطيم الجدار بينهما. تعرَّف سيت إلى إيرينا باثيلي بُعَيْد استقرار جدَّته في *لارك هاوس*، وسرعان ما انجذب إليها، من دون معرفة السبب. وبغضِّ النظر عن اسمها، فإنَّها لم تكن تشبه جميلات أوروبا الشرقيَّة اللواتي استولين في السنوات العشر الأخيرة على النوادي الذكوريَّة، ووكالات عرض الأزياء: فلا أثر لعظام الزرافة، ولا لوجنتَي المانغور،

ولا لهزال القيان والغواني. كانت تبدو من بعيد كأنَّها صبيٌّ مهمل. كانت فتاة شفَّافة، لا تحبُّ الظهور كثيرًا، لذا كان من الصعب التنبُّه لوجودها. كانت ملابسها الفضفاضة، وقبَّعتها الصوفيَّة التي كانت تغطِّي حاجبيها، لا تساعدها على البروز. أمَّا سيت فقد افتُتن بلغز ذكائها، ووجهها المثلَّث، كأنَّه وجه عفريت، تتوسَّط ذقنه نقرةٌ عميقة. افتُتن بعينيها الخضروابن والمذعورتين، وبجيدها النحيف الذي يشي بعدم صلابتها، وبنصاعة لون بشرتها، الوهَّاجة في الظلام. حتى كفَّاها الصغيرتان، بأظافرهما المتآكلة، كان لهما وقع في نفس سيت. وقد أحسّ برغبة مبهمة في حماية إيرينا، وإحاطتها بالكثير من العناية والاهتمام، وهو إحساس جديد ومقلق. كانت إيرينا ترتدي كمًّا هائلًا من الملابس، يستعصي معه الحكمُ على جسدها. وبحلول فصل الصيف، تجرَّدتْ من الصدريَّة التي كانت تخفيها، فبدت متناغمةً وجذَّابة. واستبدلت القبَّعة الصوفيَّة بطرحة غجريَّة، لم تغطِّ شعرها بالكامل، فبرز وجهها من بين ثنايا خصلات شقراء مائلة إلى البياض.

في البداية، كانت جدَّة سيت هي حلقة الوصل الوحيدة بينه وبين الفتاة، بعد أن فشلت كلّ أساليبه المعتادة. لكنَّه تذرَّع في ما بعد بعمليَّة الكتابة وسيلةً للتقرُّب إلى إيرينا. ذكر لها أنَّها، بمساعدتها لجدَّته، وقد أعادت خلقَ قرنٍ ونصف قرن من تاريخ آل بيلاسكو، وسان فرانسيسكو، منذ تأسيسها إلى اليوم. كانت ذاكرته حبلى بروايات طويلة تعود إلى فترة المراهقة، وبسيْلٍ عارم من المشاهد، والطرائف، والأفكار. كلمات وكلمات كفيلة بأن تزكم أنفاسه، لو لم يفجِّرها على الورق. كان الوصف مبالغًا فيه، فلم يبقَ لديه خيار آخر سوى الانكباب على الكتابة. فبالإضافة إلى الزيارات المتواترة لجدَّته التي أثْرَتْ كتاباتِه بالحكايات الشفاهيَّة، فإنَّه شرع في التوثيق استنادًا إلى

الكتب ومواقع الشبكة العنكبوتيَّة، بعدما قام بجمع الصور والرسائل المكتوبة في عهود مختلفة، فنال إعجاب إيرينا، وخيَّب آمال ألما التي عابت عليه تفخيمَ المعاني، وقلَّةَ النظام ـ وهي حصيلة مشؤومة بالنسبة إلى الكاتب.

لو أنَّ سيت أعطى نفسَه مهلةَ التأمُّل والتفكير، لتقبَّل فكرة أنَّ جدَّته والرواية، التي هو بصدد كتابتها، لم تكونا سوى ذريعة لرؤية إيرينا، هذه المخلوقة التي اجتُثَّت من قصَّة نروجيَّة، فانبعثتْ في مكان غير متوقَّع: في دار للمسنِّين. ومهما أمعن وتبصَّر، فلن يستطيع تفسير هذا التعلُّق بإيرينا، الذي هو تعلُّق بعظامٍ يتيمة، وشحوب من ابتُلِي بداء السلّ. وهي مواصفات لا تتطابق مع النموذج الأنثويّ المثاليّ الذي كان يحلم به.

كان يحبّ البنات اللواتي يتمتَّعن بصحَّة جيِّدة، المفعمات بالفرح والسرور، وببشرة برونزيَّة، ومعاملة متحرِّرة من كلِّ القيود؛ بنات كاللواتي اللواتي تعجّ بهنّ كاليفورنيا، ويصدح ماضيه بذاكرتهنَّ. لم تنتبه إيرينا إلى هذا الحبّ، فكانت تعامله باللطف الذي تغدقه على الغرباء. لكنَّ تجاهلها الوديع، الذي يمكن أن يؤوَّل قديمًا بأنَّه نوع من التحدِّي، جعل سيت حبيسَ خجلٍ أزليّ.

انهمكت الجدَّة في نبش ذكرياتها، بنيَّة مساعدة الحفيد، الذي تحدَّث لها عن مشروع الكتابة. كان المشروع واعدًا، ولا أحد يستطيع مساعدته سوى ألما، التي لا زالت تتمتَّع بكامل قواها العقليَّة، ولديها الكثير من الوقت. كانت ألما تذهب بصحبة إيرينا إلى مكان إقامة عائلة بيلاسكو في سي *كليف* Sea Cliff لتفقُّد محتويات صناديقها، التي لم يلمسها أحد منذ مغادرتها المكانَ. كانت غرفتها القديمة ما تزال مغلقة، يفتحونها فقط للتنظيف. وكانت ألما قد وزَّعتْ كلّ ممتلكاتها:

الحِلِيّ، لزوجة ابنها وحفيدتها، ما عدا إسوارة من الماس احتفظتْ بها لتمنحها مستقبلًا لزوجة سيت؛ أمَّا الكتب فقد منحتها للمستشفيات والمدارس ودُور الإحسان؛ كما وَهبت الملابسَ والجلودَ، التي لا يجرؤ أحد في كاليفورنيا على استعمالها خوفًا من جمعيَّات مناهضة العنف ضدَّ الحيوانات، الذين يستطيع أعضاؤها في لحظة انفلات الأعصاب أن يهاجموا بطعنات؛ ووهبتْ أشياءَ أخرى للراغبين فيها. لكنَّها احتفظتْ بالأمور الوحيدة التي كانت تهمّها: الرسائل، ومذكَّرات الحياة، ومقتطفات صحافيَّة، ووثائق، وصور. «*عليّ أن أرتِّب كلّ هذا، إيرينا. لا أريد أن تمتدّ يدُ أحدهم إلى خصوصيَّاتي، بعد أن يدركني الكِبَر*». في البداية، كانت تحاول ترتيب الأمور بنفسها، لكنَّها في ما بعد، أوكلت المهمَّة إلى إيرينا، بعد شعورها بالثقة تجاهها. وهكذا، تكفَّلت الفتاة بترتيب كلِّ شيء، ما عدا الرسائل التي كانت تصل من حين إلى آخر في ظروف صفراء، فتخفيهما ألما بكلِّ سرعة، مصدرةً في حقِّها أوامرَ بعدم لمسها. كانت ألما تروي لحفيدها، ببخلٍ شديد، حكاياتٍ مقتضبةً من ذكرياتها، أملًا في إذكاء جذوة عنصر التشويق فيه، والاحتفاظ به إلى جانبها أطولَ مدَّة ممكنة. كانت تخشى أن يملّ سيت من اللفِّ والدوران حول إيرينا، فيذهب مشروعُ الكتابة إلى دُرْج النسيان، وتتقلَّص بذلك زياراتُه لها. كان حضور إيرينا ضروريًّا في كلِّ الاجتماعات مع سيت، لأنَّ غيابها يُفقد الشابّ تركيزَه، فيظلّ تائهًا ينتظرها. وكانت ألما تضحك في سرِّها، متخيِّلةً ردّ فعل العائلة، إذا ما تزوَّج سيت، دلفينُ عائلة بيلاسكو، بمهاجرةٍ تقتات من مداخيل عنايتها بالمسنِّين، وغسلِها للكلاب. بالنسبة إليها، لم يكن هذا الاحتمال يشكِّل أيّ إزعاج، لأنَّ إيرينا، في نهاية المطاف، كانت أكثر فطنةً وذكاءً من كلِّ خطيبات سيت الموسميَّات والرياضيَّات،

ففكّرتْ في إعطائها بريقًا ثقافيًّا، باصطحابها إلى حفلات موسيقيَّة ومتاحف، وإمدادها بكتب للمطالعة من تلك التي يُقْبِل على قراءتها الكبار، عوضًا من تلك الروايات السخيفة بعوالمها الخياليَّة وشخصيَّاتها الخارقة، والتي كانت تستأثر باهتمامها وإعجابها. كما فكَّرت في تلقينها مختلف أنواع الآداب، كالاستعمال الصحيح للشوكة والسكِّين فوق المائدة. وكلُّها أمور لم تتعلَّمها إيرينا من أجدادها القرويِّين، ولا من والدتها المدمنة على الكحول في ولاية *تكساس*، لكنَّها كانت متيقِّظة وتعترف بالجميل. لذا كانت مهمَّةُ تهذيبها سهلةً، وهذه هي أحسن طريقة لمكافأتها على استمالتها سيت نحو لارك *هاوس*.

الرجل الخفيّ

بعد سنة واحدة من العمل مع ألما بيلاسكو، ساورتْ إيرينا اشتباهاتٌ في وجود عاشق في حياة هذه المرأة، بيد أنَّها لم تجرؤ على التنقيب في الموضوع، إلى أن اضطرَّت في ما بعد إلى الإفصاح عن الأمر إلى سيت. في البداية، قبل أن يقحمها سيت في دوَّامة التشويق والفضول، لم يكن يخطر في بالها أن تتجسَّس على ألما. لكنَّها كانت تشتغل في عالم حميميَّتها الذي اقتحمته رويدًا رويدًا، من دون أن تنتبه المرأتان للأمر. راحت فكرة العاشق تتشكَّل مع ترتيب الصناديق التي كانوا يجلبونها من منزل سي *كليف*، وكذلك بعد تفحُّص صورة رجلٍ وُضعتْ في إطار فضِّيٍّ داخل غرفة ألما، كانت تحرص بنفسها على نفض الغبار عنها، ومسحها بقطعة من القماش الناعم. وباستثناءِ صورة صغيرة أخرى للعائلة، وُضعتْ في الصالون، لم تكن هناك صور أخرى، وهو ما لفت انتباهَ إيرينا، لأنَّ كلّ نزلاء لارك *هاوس* كانت تطوِّقهم الصورُ من كلِّ جانب، كشكل من أشكال الرفقة. لم تذكر لها ألما سوى أنَّ الرجل في الصورة لم يكن إلَّا صديق الطفولة. وفي كلِّ

مرَّة تتجرَّأ إيرينا على الاستفسار أكثر عن الموضوع، كانت ألما تغيِّر مجرى الحديث. بيْد أنَّها استطاعت أن تنتزع منها اسمه: كان يُدعى إيشيمي فوكودا (Ichimei Fukuda)، وهو اسم يابانيّ، وعلمتْ أنَّه الفنَّان صاحبُ اللوحة الغريبة التي تتوسَّط الصالة. واللوحة تعكس الدماءَ في منظر ثلجيّ، ومثقلٍ بسماء رماديَّة، تظهر فيه بنايات غامقة مؤلَّفة من طابق واحد، وأعمدةٍ وأسلاك كهربائيَّة، وطائر أسود يحوم، كدليل واحد على وجود الحياة في اللوحة.

لم تفهم إيرينا لماذا اختارت ألما هذه اللوحة الكئيبة لتزيِّن مسكنها، من بين اللوحات الفنِّيَّة العديدة لآل بيلاسكو. من خلال الصورة، كان يصعب تحديدُ عمر إيشيمي فوكودا. كان يبدو، برأسه المائل، كأنَّه على وشك طرح سؤال. كانت عيناه شبه مفتوحتين، من أثر أشعَّة الشمس المسلّطة عليه، لكنَّ نظراته كانت صادقةً ومباشرة، وثمَّة ابتسامة مكبوحة تعلو شفتيه الممتلئتين والشهيَّتين. كان شعره متجعِّدًا وكثيفًا. انجذبتْ إيرينا بشدَّة إلى هذا الوجه الذي يبدو كأنَّه سيناديها، أو على وشك أن يقول لها شيئًا. كانت إيرينا تتفرَّس دائمًا في ملامح الرجل حينما تكون وحدها داخل الشقَّة، حتى باتت تتخيَّل إيشيمي فوكودا واقفًا على رجليه، وباتت تنسب إليه خصالًا، وتنسج في مخيِّلتها قصَّةَ حياةٍ له: كانت تخاله عريضَ المنكبين، انطوائيًّا، متحكِّمًا في مشاعره ومتألِّمًا. كان امتناعُ ألما من الحديث عنه يُشعل رغبتَها في معرفته. ومرَّةً، وجدتْ في إحدى العلب صورةً أخرى للشخص نفسه، بصحبة ألما، على شاطئ البحر. كان الاثنان يتجوَّلان بسروالين مثنيَّين، حامليْن حذاءيهما بأيديهما، ويتضاحكان ويتدافعان، والمياه تغمر أقدامهما. كان كلّ شيء يومئ بأنَّ هذا اللعب في الرمل ما هو إلَّا عنوانٌ للحبِّ، والحميميَّة الجنسيَّة. تخيَّلتْ إيرينا أنَّهما كانا

معًا، وأنَّهما طلبا من أحد ما، من أيِّ عابر سبيل، أن يلتقط لهما هذه الصورة. وخلصتْ إلى أنَّ إيشيمي، إذا كان من أتراب ألما، فهو حتمًا يسير الآن في درب الثمانين، وتأكَّدت من أنَّها إذا رأته فستعرفه في الحين. وتيقَّنتْ بأنَّه وحده المسؤول عن تصرُّفات ألما الغريبة. كانت تتنبَّأ بفرار رئيستها كلَّما غرقتْ هذه الأخيرة في صمت حزين ورهيب، وفجأةً تنطّ فرحًا، فتقرِّر الخروج.

كانت ألما تنتظر أمرًا مهمًّا، وما إنْ حدث حتى انشرحتْ أساريرها، فهمَّت تجمع بعض الثياب داخل حقيبة صغيرة. أخبرتْ كيرستن بعدم الذهاب إلى المرسم، وتركتْ نيكو في عهدة إيرينا. كان القطّ، وقد شاخ، يعاني العديد من الآلام والأمراض، لذا كانت ألما تعلِّق على باب الثلَّاجة لائحةً عريضةً من التعليمات والإسعافات. كان نيكو القطّ الرابعَ بين مجموعة من القطط المتشابهة، التي تحمل الاسمَ نفسَه، وجميعُها رافقتْ ألما في مختلف مراحل حياتها. انصرفت ألما بعجالة الحبيبة، من دون أن تعلن عن نقطة توجُّهها، أو عن موعد عودتها. مرَّ يومان أو ثلاثة من دون أن تَرِد أنباء عنها، وفجأةً، ومثلما اختفت من دون سابق إنذار، عادت مشرقة على متن سيَّارتها الصغيرة الفارغة من الوقود. كانت إيرينا تراجع حساباتها، فوقعتْ عيناها على فواتير الفنادق، واكتشفت أنَّ ألما تأخذ معها في هذه الخَرْجات قمِيصَي النوم الحريريَّيْن الوحيديْن، اللذين ما زالت تحتفظ بهما، بدلًا من منامة الفانلّة التي كانت ترتديها عادةً. وكانت الفتاة تتساءل لماذا كانت ألما تتسلَّل كأنَّها ذاهبة لارتكاب إثم، في حين أنَّها كانت حرَّةً، وفي استطاعتها أن تستقبل من تشاء في شقَّتها في *لارك هاوس*.

كان لا بدَّ من أن تصل عدوى الشكوك التي تساور إيرينا بشأن صاحب الصورة إلى سيت. كانت الفتاة حريصةً على كتمان السرِّ، لكنَّ

زياراته المتكرِّرة جعلته ينتبه لغياب جدَّته المتواتر. وحين يستفسرها عن الأمر، كانت ألما تنتبذه قائلة إنَّها تذهب للتدرُّب مع الإرهابيِّين، أو إنَّها تذهب لتذوُّق شراب *أياهوكس* (Ayahuax)، أو تعطيه أيّ تفسير غير معقول بلهجة مليئة بالتهكُّم، كتلك التي اعتادا استعمالها في ما بينهما. خلص سيت إلى أنَّه في حاجة إلى مساعدة إيرينا لفكِّ ذلك اللغز المحيِّر، بيد أنَّ الأمر كان عسيرًا جدًّا، لأنَّ وفاء الشابَّة لسيِّدتها كان شديدًا. حاول إقناعها بأنَّ جدَّته في خطر، فأوضحت له أنَّ ألما تبدو قويَّة بالنظر إلى سنِّها، لكنَّها في الواقع كانت منهكة؛ فقد كان ضغطها مرتفعًا، وحالة القلب لم تكن على ما يرام، ناهيك بظهور العلامات الأولى للباركينسون، لهذا باتت يداها ترتعشان. لم تشأ أن تعطيه تفاصيل أكثر، لأنَّ ألما كانت تمتنع عن إجراء فحوصات طبِّيَّة لازمة، لكن من الواجب مراقبتها، وإبعادها عن المخاطر.

ـ الواحد منَّا يريد الأمن والأمان لأحبَّائه، يا سيت. لكنْ ما يريده الآخر لنفسه هو الاستقلاليَّة، لن تقبل جدَّتك أبدًا أن نقحم أنفسنا في حياتها الخاصَّة، ولو كانت نيَّتُكَ حمايتَها.

ـ للغرض نفسه، يجب أن نفعل هذا من دون أن تنتبه للأمر، استطرد سيت.

وبحسب رواية سيت، في مستهلِّ سنة ٢٠١٠، وفجأةً ومن دون سابق إنذار، وفي غضون ساعتين لا أكثر، حدث أمر جلل قَلَبَ حياةَ جدَّته رأسًا على عقب. لم يفهم أحد سبب هذا التحوُّل، إذ كيف تنعزل هذه السيِّدة عن العالم، وعن أسرتها وعن أصدقائها، وهي الفنَّانة الناجحة بكلِّ المقاييس، والنموذج المثاليّ في أداء الواجب، لتزجَّ بنفسها في غيابات دار مسنِّين لا تلائمها، وترتدي ملابسَ لاجئةٍ تيبتيَّة، على حسب عبارة دوريس (Doris)، زوجةِ ابنها؟ من المؤكَّد،

أنَّه خلل في الدماغ، ما عساه يكون! أضاف سيت. كان آخر شيء سمعوه من ألما، التي اعتادوها، أنَّها قالت لهم، عقب وجبة غداء عاديَّة، إنَّها ذاهبة لتنام القيلولة. وعلى الساعة الخامسة زوالًا، طرقتْ دوريس باب الغرفة لتذكِّر حماتها بموعد حفلة الليلة، فوجدتها واقفةً بمحاذاة النافذة، بنظرات تائهة في الضباب. كانت حافية القدمين ترتدي ملابس داخليَّة، وكان فستانها الطويل الرائع يرقد فوق الكرسيّ مغمًى عليه.

«*أخبري لاري (Larry) بأنِّي لن أحضر الحفل، وألَّا يعتمد عليَّ في شيء، من الآن فصاعدًا*». كانت نبرة الصوت قويَّة، لا تقبل أيَّ نوع من التعقيب. أغلقتْ كَنَّتها البابَ في صمت وانصرفتْ لتمرِّر الخبر إلى زوجها.

كانت الليلة أهمَّ ليلة في السنة، يُقام فيها الحفل لجمع التبرُّعات لمؤسَّسة بيلاسكو، وكانت هذه مناسبة لإظهار قوَّة الحضور العائليّ. كان النُّدل على وشك الانتهاء من تجهيز موائد الأكل، والطبَّاخون منشغلين بإعداد المأدبة، وموسيقيُّو الأوركسترا منهمكين في تركيب آلاتهم ومعدَّاتهم. كانت ألما تلقي في كلِّ سنة خطابًا مختصرًا، قلَّما تُدخل عليه تغييرات. بعدها كانت تتصنَّع وقفاتٍ لالتقاط الصور مع أشهر المتبرِّعين، وتتحدَّث مع الصحافة؛ كان هذا هو أقصى ما يُطلب منها، في حين كان ابنها لاري يتكلَّف بباقي الترتيبات. ويوم رفضت النزول، كان عليهم مباشرةُ الموضوع من دونها.

في اليوم التالي، دُشِّنتْ قائمةُ التحوُّلات النهائيَّة. شرعت ألما في تجهيز حقائبها، فقرَّرت التخلُّص من العديد من ممتلكاتها، إذ لن ينفعها في حياتها الجديدة سوى النزر اليسير ممَّا تملك. في البداية خرجتْ للتسوُّق، بعدها اجتمعتْ بمُحاسبها ومحاميها. خصَّصت

لنفسها معاشًا يقيها شرَّ الذلِّ فقط، وسلَّمت الباقي إلى لاري من دون إفادته بتعليمات عن كيفيَّة توزيع هذه الشركة. وأعلنتْ عن ذهابها للعيش في *لارك هاوس*. وحتى تنجو من مغبَّة لائحة الانتظار العريضة في *لارك هاوس*، اشترت مكان باحثة أنتروبولوجيَّة، تنازلت عنه بأريحيَّة تامَّة، بعد أن سال لعابها للمبلغ المدفوع. لم يكن أحد من عائلة بيلاسكو قد سمع بهذا المثوى من قبل.

ـ هي دار للراحة والاسترخاء في *بيركيلي*، أوضحت ألما بشرود تامّ.

ـ أهي دار للعجزة؟ تساءل لاري في خوف.

ـ تقريبًا، سأعيش ما تبقَّى لي من العمر بعيدةً عن التعقيدات وثقل الالتزامات.

ـ لا أظنُّ أنَّنا المعنيُّون بهذا الثقل؟

ـ وما عسانا نقول للناس؟ سألتها دوريس بانفعال شديد.

ـ قولوا لهم إنِّي عجوز حمقاء، أجابتها ألما.

حملها السائق برفقة قطّها وحقيبتيْن. وبعد مرور أسبوع، قامت ألما بتجديد رخصة قيادتها السيّارة، التي لم تستعملها منذ سنين خلت.

اقتنت سيَّارة من نوع سمارت، استطاع ثلاثة أطفال مشاغبين ـ من فرط صغرها وخفَّتها ـ أن يقلبوها بضربة واحدة حين كانت مركونة في الشارع، وتركوا عجلاتها تحوم في الهواء، كأنَّها سلحفاة أُلقيتْ على ظهرها. كانت الحكمة وراء اقتناء هذا النوع من السيَّارات أنَّ اللون المشعّ والفاقع سيلفت أنظار السائقين فيأخذون حذرهم؛ كما أنَّ الحجم سيضمن عدم وقوع خسائر بشريَّة (إذ لسوء الحظّ دهست أحدهم يومًا).

ـ أظنُّ أنَّ جدَّتي تعاني مشاكل صحِّيَّة جادَّة، إيرينا. . وبسبب عجرفتها، سجنتْ نفسها في *لارك هاوس*، حتى لا يعلم أحد بأمرها، أردف سيت.

ـ لو كان الأمر صحيحًا، كما قلتَ، لكانت في عداد الموتى. سيت. . لا أحد يسجن نفسه في *لارك هاوس* المفتوحة دائمًا على مصراعيها. الناس هنا يدخلون ويخرجون وفق رغباتهم. لذا، هم لا يقبلون مرضى ألزهايمر، خشية هروبهم وضياعهم.

ـ وهذا بالضبط ما أخشاه، أن يحدث الأمر نفسه لجدَّتي في إحدى رحلاتها.

ـ هي دائمًا تعود، تعلم جيِّدًا إلى أين تذهب. ولا أظنُّها تخرج بمفردها.

ـ مع مَن إذن؟ مع حبيب؟ إيَّاكِ أن تفكِّري في أنَّ جدَّتي ترتاد الفنادق مع عاشق، قال سيت بنوع من الاستهزاء.

لكنَّ قسمات وجه إيرينا الجادَّة شلَّت ابتسامته.

ـ ولِمَ لا؟

ـ إنَّها إمرأة عجوز.

ـ كلّ شيء نسبيّ. إنَّها امرأة في الشيخوخة، لكنَّها ليست عجوزًا. ويمكن اعتبار ألما شابَّةً، إذا ما قارنَّاها بباقي نزلاء *لارك هاوس*. إضافةً إلى ذلك، الحبّ لا يستأذن العمر. وبحسب هانس ڤواغ، يجب أن يعشق المرء في آخر أيَّام عمره، لأنَّ هذا مفيد للصحَّة، مُبعِدٌ للكآبة.

ـ وكيف يمارس الشيوخ؟ أعني فوق الفراش، سأل سيت.

ـ أعتقد من دون مشاكل. عليك أن تسأل جدَّتك، استطردتْ.

تمكَّن سيت من تحويل إيرينا إلى حليفته، ومعًا صارا يتناوران.

كانت ألما تستقبل أسبوعيًّا علبة مزيَّنة بثلاث ياسمينات، يتركها رسولٌ في باحة الاستقبال. كان الذي يبعث بالعلبة لا يضع اسمه، ولا اسم دكّان الورود أيضًا. بيْد أنَّ ألما لم تكن مكترثةً للأمر، فلا تندهش ولا يُصيبها الفضول. كما كانت تستقبل في *لارك هاوس* ظرفًا أصفر، مجهولًا، تمزِّقه حين تُخرج من ثناياه بطاقة صغيرة مكتوبة باليد، تحمل اسمَها وعنوانَ سي *كليف*. لم يحدث أن استقبل أحد من العائلة أو موظَّفي آل بيلاسكو هذه الظروف، ولم يرسلها أحد إلى *لارك هاوس*. لا أحد كان يعرف هذه الرسائل قبل أن يذكرها سيت. لم يستطع الشباب التكهُّن بهويَّة صاحب الرسائل، ولماذا اللجوء إلى ظرفين وكتابة عنوانين للرسالة الواحدة، وما هو مآل هذه المراسلات الغريبة. ولمَّا لم تعثر إيرينا على أثر لهذه الرسائل داخل الشقَّة، وكذلك الحال مع سيت في سي كليف، خلصا إلى أنَّ ألما تودعها في خزنة مصرفها.

١٢ أبريل ١٩٩٦

شهرُ عسل آخر لا يُنسى، برفقتكِ يا ألما. لم أركِ منذ مدَّة هكذا، سعيدةً جدًّا ومرتاحة. استقبلنا في واشنطن المنظر الساحر لألف وسبعمئة شجرة كرز مزهرة، سبق أن رأيتُ مثل هذا المنظر في كيوتو منذ سنين مضت.

أما زالت أشجارُ الكرز التي غرسها والدي في سي *كليف* تُزهر هكذا؟

لمَست بحنانٍ الأسماءَ المحفورةَ في النصب التذكاريّ لشهداء حرب ڤيتنام على الحجرة الداكنة. وقلت لي إنَّ الحجر يتكلَّم، وإنَّ في الإمكان سماع أصوات المنكوبين، وإنَّ الموتى المحاصَرين في هذا الحائط ينادوننا، ساخطين على تضحياتهم.. ظللتُ أفكِّر مليًّا في هذا الأمر، ألما، فخلصتُ إلى أنَّ الأرواح توجد في كلِّ مكان. لكنَّني أعتقد أنَّها أرواحٌ حرَّةٌ لا تبيِّت الحقدَ لأحد.

إيشي

الطفلة البولنديَّة

شرعتْ ألما بيلاسكو تستحضر، بهدف إرضاء فضول إيرينا وسيت، وبالوضوح التي تقتضيه اللحظاتُ الحاسمة، ذكرياتِ المرَّة الأولى التي رأت فيها إيشيمي فوكودا. بعدها، واصلت الحديث عن باقي محطَّات حياتها. تعرَّفت إليه في حديقة القصر الغنَّاء في سي كليف، في ربيع سنة ١٩٣٩. آنذاك، كانت طفلة بشهيَّة أقلّ من شهيَّة عصفور الكناري، وكانت تمضي النهار صامتةً مطبقةً شفتيها، وفي الليل تجهش بالبكاء، مختبئةً في أحشاء خزانة ملابس مؤلّفة من ثلاث مرايا، داخل غرفة أعدَّها أخوالُها خصِّيصًا لها. وكانت الغرفة سمفونيَّة زرقاء: الستائر زرقاء، وأحجبة السرير زرقاء، والقبَّة زرقاء، وكذا الزربيَّة البلجيكيَّة الأصل، والعصافير المطبوعة على ورق الجدران، ولوحات رونوار (Renoir) بإطاراتها الذهبيَّة. أزرقَ كان يبدو كذلك المنظرُ من النافذة، البحر والسماء حينما يتبدّد الضباب. كانت ألما ميندل (Alma Mendel) تبكي على كلٍّ ما ضاع منها إلى الأبد، على الرّغم من أنَّ أخوالها كانوا يؤكِّدون لها، وبشدَّة، أنَّ فراق الأبوين

والأخ لن يكون إلّا موقّتًا. كانت آخر صورة التقطتها ذاكرتها عن والديها هي صورة رجل متّزن راشد، بلحية كثيفة، وملابس سوداء، يرتدي معطفًا طويلًا وقبّعة؛ وامرأة تصغره سنًّا بكثير، تبكي منكمشةً، واقفةً على رصيف ميناء *دانزيغ* (Danzig)؛ والاثنان يودِّعانها بمنديلين بيضاوين. كانت صورهما تصغر شيئًا فشيئًا لتتبدَّد كلَّما ابتعدت الباخرة في اتِّجاه لندن، مخلِّفةً وراءها صريرًا تنفطر له القلوب. كانت ألما تحاول تمالك نفسها، والحفاظَ على تماسكها الذي لُقِّنتْ بشأنه دروسًا منذ نعومة أظافرها. ترتعش بملابس السفر التي كانت ترتديها، بعد أن اختلطتْ بباقي المسافرين الذين هرعوا إلى مؤخّرة الباخرة، ليلقوا نظرة أخيرة على أوطانهم التي باتت تتلاشى كلّما تقدَّمت الباخرةُ نحو الأمام. كانت ألما تحسّ بالأسى المخيِّم على والديها كلَّما اتَّسعت المسافة التي تفصلهما عنها، ما وَلَّد لديها إحساسًا شديدًا بأنَّها لن تراهما ثانية. ففي حركة غير معتادة، أسند الأب ذراعه فوق كتف الأمّ، كأنَّه يحاول منعها من الارتماء إلى الماء، في حين أمسكت الأمُّ قبَّعتها بيد واحدة حتى لا تطيحها الرياح، وهي تلوِّح بالمنديل باليد الأخرى بكلِّ جنون.

قبل ثلاثة أشهر، كانت ألما قد رافقت والديها إلى رصيف الميناء نفسه لوداع أخيها صامويل (Samuel)، الذي كان يكبرها بعشر سنوات. كلَّف هذا الوداعُ الأمَّ الكثيرَ من الدموع، فرضختْ لقرار الأب إرسالَ الولد إلى إنكلترا، كتدبير احترازيّ في مواجهة الإشاعات المستبعدة عن تحوُّل خبر الحرب إلى واقع ملموس. فهناك، بحسب الوالد، سيكون الابن في مأمن من التجنيد في الخدمة العسكريَّة، وبعيدًا عن الحماسة الزائفة للتسجيل في لوائح المتطوِّعين. لم تكن عائلة ميندل (Mendel) تتصوَّر أن يصبح صامويل عضوًا في القوّات

الجوِّيَّة الملكيَّة بعد عامين، فيحارب ألمانيا. ولحظة إبحار أخيها، الذي بدا بأوداج منتفخة، كأنَّه مُقْدِمٌ على أوَّل مغامرة، أحسَّت ألما بالخطر الذي سينزل بثقله على العائلة. فهذا الأخ كان منارةً وضَّاحةً في درب وجودها. فهو الذي كان يُنير لحظاتها القاتمة، ويبدِّد مخاوفها بضحكاته المدوِّية، وفكاهاته اللطيفة، وأغانيه المنشدة على إيقاعات البيانو. سُرَّ صامويل بألما منذ أن احتضنها بين ذراعيه لحظةَ ولادتها، وكانت لا تزال قطعةَ لحم ورديَّةَ اللون تفوح منها رائحة البودرة، وهي تموء كالقطَّة. وازداد هذا الحبُّ لأخته توهُّجًا في الأعوام السبعة التالية، إلى أن حانت ساعة الفراق. وحينما بلغ ألما نبأ رحيل صامويل، أُصيبت بنوبة عصبيَّة حادَّة، كانت فريدة من نوعها في كلِّ صفحات حياتها، فشرعتْ في البكاء والصراخ والعويل والصفير، لتنتهي في جفنة ماء مثلَّج دُسّت فيه بلا رحمة ولا شفقة من قبل أمِّها ومربِّيتها. كان لرحيل الفتى وقع سيِّئ على نفسيَّة ألما التي باتت مهمومة ومنزعجة، لا تفتر عن التفكير في أنَّ هذا الرحيل لن يكون سوى نذير شؤم، وتمهيد لتحوُّلات جذريَّة.

مرَّةً، سمعتْ أبويها يتحدَّثان عن ليليان (Lilian)، أختِ أمِّها التي تقطن في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، عقيلةِ إسحاق بيلاسكو، الشخصيَّة المرموقة، كما كانوا يسمُّونه كلَّما دوَّى اسمه عاليًا. قبل هذه اللحظة، لم تكن البنت قد سمعت قطّ بوجود هذه الخالة البعيدة، ولا هذا الرجل المرموق، واستغربتْ في ما بعد كيف أنَّ والديها باتا يطالبانها فجأةً بمراسلتهما عبر بطاقات تذكاريَّة مكتوبة بخطٍّ جميل. كما اعتبرتْ من سوء الطالع أن تضيف مربِّيتُها منطقةَ كاليفورنيا إلى دروس التاريخ والجغرافيا، مشيرةً إلى هذه البقعة البرتقاليَّة اللون على الخريطة، في الجهة الأخرى من الكرة الأرضيَّة. كان والداها ينتظران

مرور حفلات رأس السنة، ليُشعراها بأنَّ دورها قد حان، وأنّها ستشدّ الرحالَ للدراسة في الخارج لفترة معيّنة. لكنَّ وضعها كان مختلفًا عن أخيها، لأنّها ستعيش في كنف الأسرة، مع خالتها ليليان وإسحاق وأولادهما الثلاثة، في سان فرانسيسكو.

استغرقت الرحلة من ميناء *دا*نزيغ إلى لندن، ومن لندن إلى سان فرانسيسكو على متن باخرة كبيرة، سبعة عشر يومًا، وأوكلت عائلة ميندل إلى المربِّية الإنكليزيَّة، السيِّدة هونيكومب (Honeycomb)، مهمّة مرافقة ألما إلى مثوى عائلة بيلاسكو. كانت السيِّدة هونيكومب امرأة عزباء تتحدَّث بنطق غير سليم، وتترفَّل في أدبيَّات متأنِّقة لم تكن تعابيرُها تروق للجميع. وكانت تعامل كلّ من كانت تعتبرهم منحطِّين اجتماعيًّا بازدراء، وتبالغ في تفانيها في خدمة رؤسائها. لكنَّها استطاعت خلال السنة ونصف السنة من العمل مع عائلة ميندل أن تكسب ثقتها. لم يكن أحد يحبُّها، وخصوصًا ألما. لكنَّ رأي الفتاة كان لا يُعْتَدّ به ساعةَ اختيار المربِّية أو باقي المعلِّمين الذين يسهرون على تربيتها خلال السنوات الأولى من عمرها. ولضمان أمانة المرأة وسفرها عن طِيب خاطر، وعدها أربابُها بمكافأة سخيَّة تستلمها في سان فرانسيسكو فور وصول ألما، واستقرارها مع أخوالها.

سافرت السيِّدة هونيكومب وألما معًا في أحسن غرفة من غرف الباخرة. في البداية، شعرتا بالدوران، وفي ما بعد، تملَّكهما الملل. لم تحظَ الإنكليزيَّة بفرصة الانسجام مع مسافري الدرجة الأولى، لكنَّها كانت تفضِّل أن ترمي بنفسها من حافَّة المركب على أن تختلط بأناس من مستواها الاجتماعيّ نفسه. ولهذا السبب، قضت ما يناهز أسبوعين كاملين من دون الحديث إلَّا مع الصغيرة التي في عهدتها. كان هناك أطفال آخرون على متن الباخرة، بيد أنَّ ألما لم تُبْدِ اهتمامًا بأيِّ نشاط

من النشاطات الطفوليَّة المبرمجة، ولم ترتبط بأيّ صداقة مع أحد. كانت غاضبة من مربِّيتها، تبكي مختبئة، لأنَّها المرَّة الأولى التي تفارق فيها أمَّها. كانت تقرأ قصص الحوريَّات، وتكتب رسائل ميلودراميَّة، تسلِّمها مباشرةً إلى قبطان الباخرة، ليضعها في بريد أحد الموانئ، لأنَّها كانت تخشى إنْ سلَّمتها إلى السيِّدة هونيكومب أن تتحوَّل إلى وجبة للحيتان. كلّ ما يستحقّ الذكر خلال هذه الرحلة البطيئة هو حدثُ عبور قناة پانما، وحدثُ الحفلة التنكُّريَّة التي شهدتْ حضورَ زنجيّ أباتشي الذي قام بدفع السيِّدة هونيكومب إلى حوض السباحة، فطفحت ملفوفةً بردائها، كأنَّها العذراء فيستا الإغريقيَّة.

كانت الخالة وزوجها والأبناء بيلاسكو ينتظرون ألما في ميناء سان فرانسيسكو الصاخب، وسط جموع من عمَّال الشحن والتفريغ الآسيويِّين المكتظِّين حول السفن. كانت الجلبة والضوضاء تخيِّمان على المكان إلى درجة أنَّ السيِّدة هونيكومب خشيتْ أن تكون السفينة قد ضلَّت طريقها ورست في شنغهاي. ضمَّت الخالة ليليان، التي كانت ترتدي معطفًا من فرو الحملان الصغيرة، رماديَّ اللون، وعمامةً تركيَّة، ابنةَ أختها إلى صدرها في عناقٍ حارٍّ. أمَّا إسحاق بيلاسكو وسائقه فانشغلا بجمع الصناديق والصرّات الأربع عشرة التي كانت في عهدة المسافرات. حيَّت مارتا (Martha) وسارة (Sarah)، ابنتا الخالة، ألما بقبلتين باردتينِ على الوجنتين، وتناستا في ما بعد أمرها نهائيًّا، لا خبثًا منهما، بل لأنَّهما كانتا في سنِّ البحث عن زوج، وهذا الأمر أعمى بصيرتَيهما عن كلِّ شيء في العالم. لم يكن العثور على الزوج المناسب أمرًا سهلًا بالنسبة إليهما، على الرَّغم من ثروة أهل بيلاسكو ومكانتهم، لأنَّهما ورثتا عن الأب أنفه لا ذكاءَه، وعن الأمّ سمنتها وقصر قامتها، ولم يكن لهما نصيب من وداعتها. أمَّا ابن الخالة

ناتانيل (Nathaniel)، بهيئة مالك الحزين، فكان قابَ قوسين أو أدنى من سنِّ البلوغ. كان الذكر الوحيد في العائلة، ويكبر أختَه سارة بستِّ سنوات. كان شاحب الوجه، نحيفًا، وغيرَ مرتاح في جسدٍ تفوق فيه الركبتان والمرفقان الحجمَ الطبيعيّ، لكنّ عينيه كانتا ثاقبتين، كأنَّهما عينا كلب ضخم. مدّ يده للسلام على ألما من دون أن يرفع بصره نحوها، وتمتم بعبارات الترحيب بأمر من والديه. تعلَّقتْ ألما بهذه اليد كأنَّها طوق نجاة، وباءت بالفشل كلُّ محاولات الولد للتخلُّص منها. هكذا بدأت قصَّة إقامة ألما في المنزل الفسيح في سي *كليف*، حيث ستمضي هناك سبعين عامًا من الرتابة. في الشهور الأولى من سنة ١٩٣٩ استنفدت تقريبًا كلَّ احتياطيّها من الدموع، فلم تعد تبكي إلَّا نادرًا. تعلَّمتْ أن تلوك همومها وحدها وبكلِّ كرامة، واثقةً بأنْ لا أحد يكترث لمشكلات الغير، وأنَّ الآلام الصامتة سرعان ما تذوب. تبنَّت دروسَ والدها الفلسفيَّة؛ وهو الرجل ذو المبادئ الصارمة وغير القابلة للنقاش، وكان رجلًا عصاميًّا غير ممتنّ لأحد. كانت وصفة النجاح المبسَّطة التي لقَّنها السيِّد ميندل لأبنائه منذ المهد تتلخَّص في عدم التذمُّر كثيرًا، وعدم المطالبة بشيء، وبذل الجهود لتبوُّء المراتب الأولى في كلِّ أمر، وسحب الثقة العمياء. كان على ألما أن تتحمَّل لعدَّة عقود ثقل هذا الكيس الرهيب من الحجر، إلى أن طرق الحبُّ بابَها وأخذ بيدها للتخلُّص قليلًا من هذا الحمل. وساهمتْ سلوكيَّاتُها الصارمة في إعطائها هالةً من الغموض الذي كان يكتنفها منذ طفولتها، حتى قبل أن توجد الأسرار التي كانت حريصةً على كتمانها.

خلال نكسة الثلاثينيَّات، استطاع إسحاق بيلاسكو أن يبقى في مأمن من الآثار الوخيمة للانهيار الاقتصاديّ، بل إنَّه استطاع بفضل مجهوداته الحثيثة والمتواصلة أن ينمِّي ثروته. ففي الوقت الذي كان

الآخرون يندبون حظهّم البائس، كان يشتغل ثماني عشرة ساعة في اليوم في مكتب المحاماة الذي يخصُّه، ويستثمر في مضاربات تجاريَّة، كانت تبدو وقتها نوعًا من المخاطرة، لكنَّ التجربة أثبتت له أنَّ النتائج كانت باهرةً في الأمد البعيد. كان رجلًا رسميًّا، قليلَ الكلام، وصاحبَ قلب رقيق. كان اللين بالنسبة إليه عنوانًا للشخصيَّة الضعيفة، لذا كان يحاول دائمًا إعطاءَ الانطباع بأنَّه سلطويٌّ جدًّا. لكنْ كان يكفي التعاملُ معه مرَّاتٍ قليلةً ليتنبَّأ المرءُ بطيبته. كانت الصورة التي تروَّج عنه تُفيد بأنَّه رجل عطوف حنون، وهو الأمر الذي كان يعرقل دائمًا مسيرتَه المهنيَّة كمحامٍ. إذ، بعد ترشُّحه لمنصب قاضي المجلس الأعلى بكاليفورنيا، خسر الانتخابات، لأنَّ معارضيه كانوا يتَّهمونه بإعطاء العفو بكلِّ سخاء، الأمر الذي يشكِّل تهديدًا للعدالة والأمن العامّ.

استقبل إسحاق ألما في بيته بكلِّ حفاوة، لكنْ سرعان ما توتَّرتْ أعصابُه بسبب بكاء البنت المتواصل في كلِّ ليلة. كان عويلها دفينًا، كتومًا، يكاد لا يُسمع من خلال الأبواب الخشبيَّة السميكة لخزانة الملابس، لكنَّه كان يتسرَّب إلى غرفة نومه، من الجهة الأخرى للممرّ، حيث كان يودُّ المطالعة. كان يعتقد أنَّ الأطفال، مثل الحيوانات، يمتلكون قدرةً طبيعيَّةً على التأقلم، وأنَّ الفتاة ستضمِّد سريعًا جرحَ فراق الأبوين، أو ربَّما ينزح والدها للعيش معها في أميركا. كان يحسّ بأنَّه عاجز عن تقديم المساعدة، وأنَّ الحياءَ من العوالم الأنثويَّة يقف حجر عثرة أمامه. فإذا كان عاجزًا عن فهم ردود الفعل المعتادة لزوجته وبناته، فكيف يعي ما تحسّ به هذه الطفلة البولنديَّة، التي لم تتمّ بعد ربيعها الثامن. وساورته شكوكٌ وسوستْ له أنَّ دموع بنت الأخت تَعِدُ بكارثةٍ مهولة.

لم تكن ندوب الحرب الكبرى في أوروپا قد التأمتْ بعد، وذكرياتُ الأرض المثخنة بالخنادق ما زالت طريَّة، ومعها صورُ آلاف القتلى، والأرامل والأيتام، وروائحُ العفن المنبعثة من الخيول الهالكة والغازات القاتلة، والذباب والجوع. لا أحد كان يرغب في مواجهات دمويّة أخرى من هذا الطراز. لكنَّ هتلر كان قد ضمّ أستراليا، وسيطر على جزء مهمٍّ من *تشيكوسلوفاكيا*، غير أنَّ نداءاته المتأجِّجة بإنشاء إمبراطوريَّة العرق الآريّ لا يمكن اعتبارُها سوى ضربٍ من هذيان رجلٍ معتوه.

في أواخر كانون الثاني، أفصح هتلر عن نيّاته تحرير العالم من الخطر الذي يشكِّله اليهود. كان الطرد وحده لا يفي بالغرض، بل كان يجب شنّ حرب إبادة. كان إسحاق بيلاسكو مقتنعًا بأنّ بعض الأطفال يمتلكون قدرات سيكولوجيّة هائلة، وليس مستبعدًا أن تكون ألما رأت في كوابيسها أمورًا فظيعة، تجعلها حبيسةَ حِدادٍ سابقٍ لأوانه. تُرى، ما الذي ينتظره أصهارُه كي يخرجوا من بولندا؟ منذ عام كامل، وهو يحاول عبثًا تشجيعهم على الرحيل، بالضبط كما فعل العديد من اليهود الفارِّين من أوروپا، لكنْ من دون جدوى. كان قد عرض استضافتهم، وعلى الرَّغم من أنَّ عائلة ميندل لم يكن يعوزها شيء من مقوِّمات الحياة الكريمة، ولم يكن أفرادها في حاجة إلى مساعدة أحد. أجابه باروخ ميندل (Bruj Mendel) بأنَّ وحدة بولندا رهينة بتدخُّل بريطانيا العظمى وفرنسا. كان يظنُّ نفسه واثقًا بما يقول، وأنَّ ثروته واتِّصالاته التجاريّة ستحميه من تحرُّش الپروپاغندا النازيّة! الأمر الوحيد الذي فعله هو إخراج أبنائه من البلد. لم يسبق لإسحاق بيلاسكو أن تعرّف إلى السيِّد ميندل، لكنْ فقط من خلال الرسائل والتيليغرافات اتَّضح له جليًّا أنّ زوج أخته لم يكن لطيفًا، بل كان رجلًا مغرورًا وعنيدًا! كان

على إسحاق أن ينتظر شهرًا كاملًا ليقرِّر التدخُّل في موضوع ألما، لكنْ لم يشعر بأنّه مؤهَّلٌ لهذه المهمَّة، ففكّر في إسناد حلِّ هذا المشكل إلى زوجته.

كان هناك باب واحد فقط شبه مفتوح، يفصل حجرةَ ألما عن غرفة الزوجين ليلًا. وعلى الرَّغم من ذلك، لم تنتبه ليليان، التي كانت ثقيلة السمع وتتناول المنوِّمات، لهذا البكاء داخل خزانة الملابس، لو لم يُخبرها زوجها بذلك. آنذاك، كانت السيِّدة هونيكومب قد غادرتهم وانصرفتْ في حال سبيلها؛ فبعد وصولها إلى سان فرانسيسكو استلمت المكافأة الموعودة، وبعدها بإثنيْ عشر يومًا، عادت أدراجها إلى وطنها الأمّ، بعد أن طفح بها الكيل، واشمأزّتْ من البروتوكولات، واللغة غير المفهومة، وديموقراطيَّة الأميركان. كان ذلك هو ما صرَّحتْ به لعائلة بيلاسكو، التي أكرمتْ مثواها، من دون أن تعبأ بحمولة الإهانة التي يتضمَّنها خطابها.

كلّ أصابع الاتِّهام كانت تُشير إلى السيِّدة هونيكومب، بعد أن بحثتْ ليليان في بطانة معطف السفر الذي كانت ترتديه ألما عن بعض ألماسٍ كانت عائلة ميندل قد وضعته، سيرًا على نهج التقاليد، فلم تجده. لم يكن الأمر يتعلّق بأحجار ذات قيمة كبيرة. واقترحت ليليان فتح باب التحقيق بإرسال مُخبر من مكتب زوجها ليقتفي آثار السيِّدة الإنكليزيَّة، لكنَّ إسحاق خَلص إلى أنّ الأمر لا يستحقّ ذلك، وأنَّ العالم والأسرة يعيشان لحظات عصيبة تُغْنيهما عن مطاردة المربِّيات عبر البحار والقارّات، وأنّ بعض أحجار الماس غير النفيس لن يغيِّر شيئًا في حياة ألما.

– بعض صديقاتي أخبرنني بوجود اختصاصيّ نفسانيّ مقتدر في

سان فرانسيسكو، صرّحتْ ليليان لزوجها، بعد أن تنبَّهت لحالة ابنة أختها.

ـ ما الذي تقولينه؟ تساءل البطريرك بعد أن رفع عينيه عن الجريدة لوهلة.

ـ ما سمعت، إسحاق. دعك من تصرُّفات البُلهاء.

ـ أتعرف إحدى صديقاتك أحدًا لديه أطفال غير متوازنين، ويتابع حالتَهم إختصاصيٌّ نفسانيّ؟

ـ بالطبع، إسحاق، لكنَّهنَّ لن يعترفن بهذا الأمر بتاتًا.

ـ الطفولة هي مرحلة مأساويَّة في صيرورة الوجود، ليليان. دعك من الحكايات التي تفيد بأنَّ الأطفال لا بدَّ من أنَّهم يعيشون في سعادة، فهذا الأمر من ابتكار والت ديزني **(Walt Disney)** لربح المال.

ـ يا لك من عنيد! لا يجب أن ندع ألما تبكي هكذا دائمًا من دون أن نواسيها. يجب أن نفعل شيئًا.

ـ طيِّب، ليليان. عادةً نلجأ إلى هذه التدابير في حال استنفاد كلِّ الحلول. حاليًّا، يمكنك أن تعطيها بعض القطرات من المنوِّم الذي تتناولينه.

ـ لا أدري، إسحاق، يبدو لي أنَّ هذا الخيار هو بمثابة سلاح ذي حدَّيْن. لا أحبُّ أن تتحوَّل الطفلة إلى مدمنةِ منوِّمات في سنِّها.

ومنذ لحظة الخوض في هذه الأحاديث لأيَّام متتابعة، ومناقشة إيجابيَّات اللجوء إلى الإختصاصيّ النفسانيّ وسلبيَّاته أو الاكتفاء بخيار المنوِّم، لاحظ الزوجان بعجب، بعد أن استرقا السمع لعدَّة ليال أخرى، أنَّ البنت هدّأت من روعها، وأنَّها لم تعد تنام نومًا ثقيلًا

فحسب، بل تفتَّحت شهيَّتها أيضًا، وشرعتْ تأكل كأيٍّ طفل عاديّ. لم تكن ألما قد نسيت أبويها وأخاها، ولم تفقد أبدًا الأمل في أن يُلمّ شمل أسرتها، لكنَّ عينيها جفَّتا من الدموع، وشرعتْ تؤنس نفسها بعلاقات الصداقة التي نسجتها لتوِّها مع شخصين لا ثالث لهما، وهما من سيكونان حبَّها الأوَّل والأخير في الحياة: ناتانيل بيلاسكو وإيشيمي فوكودا. كان الأوَّل على وشك أن يُتمّ الثالثة عشرة من عمره، وهو أصغر أبناء عائلة بيلاسكو. أمَّا الثاني، الذي كان مثلها على عتبة ربيعه الثامن، فكان الولد الأصغر للبستانيّ.

كانت مارتا وسارة، ابنتا عائلة بيلاسكو، تعيشان في عالم يختلف تمامًا عن عالم ألما. كانتا منشغلتيْن فقط بالموضة، والحفلات، والأزواج المفترضين، فإذا حدث أنِ التقتاها في أحد ممرَّات قصر سي *كليف*، أو اجتمعتا بها في أثناء إحدى وجبات العشاء الرسميَّة النادرة على السُفرة، تفاجأتا برؤيتها، بل إنَّهما لا تتذكَّران من تكون هذه الطفلة، ولماذا أتت إلى هنا. وهذا كان خلافًا لحالة ناتانيل، الذي لم يستطع تجاهلها، لأنَّ ألما أمسكت بتلابيبه منذ الوهلة الأولى، فعزمت أن تجعل من ابن الخالة الخجول هذا خير خلف لأخيها العزيز صامويل.

كان ناتانيل أقرب الناس إليها سنًّا في عائلة بيلاسكو، مع فارق خمس سنوات فقط. وكان سهل المعشر بالنظر إلى شخصيَّته الخجولة والوديعة في الآن نفسه. أحدثت البنت في ناتانيل خليطًا من مشاعر الافتتان والذعر. كانت ألما تبدو كأنَّها انتُزعتْ من صورة شمسيَّة طُبعتْ على لوحة نحاسيَّة، بلغتها الإنكليزيَّة المنمَّقة والمنطوقة بلكنة بريطانيَّة، أخذتها عن معلِّمتها النشَّالة. وجدِّيَّتُها وصرامتها تفوح منهما رائحةُ الكافور المنبعثة من صناديق السفر، وفوق جبينها كانت تهتزّ

خصلةٌ بيضاء تقاوم، في تحدٍّ، السوادَ الداكنَ لشعرها. أمّا بشرتها فكانت زيتونيّة. في البداية، كان ناتانيل يحاول تفادي ألما بكلّ الوسائل، لكنَّها لم تيأس، وظلّت ترمي بِشباك صداقتها، إلى أن استسلم ناتانيل، وهو الذي ورث عن أبيه طيبةَ القلب، كان يحسُّ بالأسى الدفين لابنة خالته، هذا الأسى الذي كانت تحاول إخفاءه بكلّ كبرياء. لكنَّه في المقابل، كان يتجنّب بكلِّ الذرائع مسؤوليّة تقديم العون إليها. فألما لم تكن سوى طفلة كثيرة المخاط، لا تجمعه بها سوى قرابة دم، وهي الآن في زيارة عابرة لـ *سان فرانسيسكو*. إذن، لِمَ علاقة الصداقة التي لن تكون سوى فتكٍ بالمشاعر؟ وبعد مرور ثلاثة أسابيع من دون أن تلوح في الأفق بوادرُ انتهاء زيارة ابنة الخالة، لم يبقَ لناتانيل أيُّ حجّة، فتوجّه إلى أمّه بالسؤال إن كانوا ينوون تبنّي الطفلة! «*نأمل ألّا نصل إلى هذا الحدّ*»، أجابته ليليان بقشعريرة. كانت الأنباء الواردة من أوروبا لا تبشِّر بالخير، فباتت فكرة تيتّم ابنة خالته تتشكّل في مخيِّلته. استنتج ناتانيل من نبرة جواب والدته أنّ ألما ستمكث معهم لأجل غير مسمًّى، فسمح لنفسه بالاستسلام للطفها.
كان ناتانيل ينام في الجناح الآخر للبيت، ولم يخبره أحد بقضيّة بكاء ألما داخل خزانة الملابس، لكنّه علم بالأمر، فبات يتسلّل على رؤوس أصابعه لعدّة ليالٍ ليرافقها.

عرَّف ناتانيل ألما إلى أفراد عائلة فوكودا. وكان سبق أن رأتهم من خلال النوافذ، لكنّها لم تخرج إلى الحديقة، حتى مستهلّ فصل الربيع، حين بدأ الجوّ في التحسُّن. وفي أحد أيّام السبت، عصب ناتانيل عينيْ ألما وهو يعِدُها بمفاجأة. أخذها من يدها، فعبرا المطبخ والمركن حتى بلغا الحديقة. وحين أزاح المنديل عن عينيها ورفعت بصرها، وجدت نفسها تحت شجرة كرز مزهرة وارفة الظلال، كأنّها

سحابة من القطن الورديّ؛ وإلى جوار الشجرة، كان هناك رجل يرتدي زيَّ العمل وقبّعةً من القشّ، كان وجهه آسيويًّا، وبشرته حنطيَّة، كما كان قصير القامة، عريض المنكبين. كان متَّكئًا على معول. وبلغة إنكليزيّة متقطِّعة وعسيرة الفهم، ذكر لألما أنّ هذه اللحظة جميلة جدًّا، لكنّها لن تدوم طويلًا، لأنَّ الورود سرعان ما تتساقط على الأرض، كأنّها قطراتُ المطر. لذا، من الأفضل الاحتفاظ بذكرى الكرز المزهر، لأنَّ الذكرى تعيش إلى حدود الربيع المقبل. كان هذا الرجل يُدعى طاكاو فوكودا (Takao Fukuda)، البستانيّ اليابانيّ الذي يشتغل هناك منذ سنوات عديدة، وكان هو الشخص الوحيد الذي يخلع في حضرته إسحاق بيلاسكو قبّعته، في إيماءة احترامٍ وتبجيل.

عاد ناتانيل إلى البيت، بعد أن ترك ابنة خالته في عهدة طاكاو، الذي عرض عليها الحديقة كلّها. فساقها إلى السطوح المصطفّة، الواحد تلو الآخر، على السفح، انطلاقًا من قمّة التلّ، حيث يستقيم المنزل شاهقًا، حتى وصلا إلى الشاطئ. قطعا معًا المسالك الضيِّقة، حيث تتناثر تماثيلُ كلاسيكيَّةٌ تعلوها طبقةُ الرطوبة الخضراء، ونافوراتُ الماء، وأشجارٌ غريبة ونباتات وفيرة ـ قدّم شروحًا مفصّلة عن موطنها، ونوعيّة العناية التي تحتاج إليها، إلى أن وصلا إلى عريشة مغطّاة عن آخرها بالزهور المتسلِّقة تطلُّ في منظر بانوراميّ على البحر، حيث مدخل الخليج على اليسار، وجسر غولدن غيت *(Golden Gate)* الذي تمّ تدشينه منذ سنوات قليلة. إلى اليمين، كانت تظهر مستعمراتُ الفقمات البحريّة مستلقية على الصخور، تنشد الراحة. أمّا اذا استقرّ النظر على الأفق، وكان المتأمِّل ذا حظّ كبير، فتُمْكنه رؤية الحيتان الضخمة الوافدة من الشمال بغيةَ وضع أجنّتِها في مياه *كاليفورنيا*.

بعدها، أخذها طاكاو إلى المشتل، وهو صورة مصغّرة طبق

الأصل عن محطّات القطار الكلاسيكيّة الڤكتوريّة بزجاجه وحديده. وفي الداخل، وتحت إنارةٍ خافتةٍ، وحرارةٍ رطبة منبعثة من المكيِّف ومعدّات التبخير، كانت النباتات الرقيقة قد أينعتْ رؤوسها، كلّ واحدة ببطاقة تحمل اسمَها، وتاريخَ إعادة زرعها. لمحتْ ألما، من بين ثنايا طاولتين عريضتين من الخشب الجبليّ، طفلًا منهمكًا في العناية ببعض النباتات. وما إنْ سمع خطاهما، حتى رمى بالمقصّ واستقام في تحيَّة الجنديّ. دنا منه طاكاو وهمس له بلغة تجهلها ألما، وعبث بشعره في حنان. «*آخر العنقود*»، قال لها. تفحَّصتْ ألما كلًّا من الأب والابن كأنَّهما مخلوقان من جنس آخر؛ فهما لا يشبهان بتاتًا أهلَ الشرق الذين يظهرون في صور **الموسوعة البريطانيَّة**.

انحنى الولد لتحيَّتها من دون أن يرفع رأسه.

ـ اسمي إيشيمي، الولد الرابع لطاكاو وهيديكو فوكودا. تشرَّفتُ بمعرفتكِ آنستي.

ـ وأنا ألما ابنةُ أخت إسحاق وليليان بيلاسكو. سررتُ بمعرفتك أنا أيضًا، أجابت في دهشة وسرور.

هذا النوع من الرسميّات الأولى، التي سيلفّها الحنانُ لاحقًا بدثار من الفكاهة، سيطبع دائمًا نبرةَ علاقتهما الطويلة. كانت ألما، بقامتها المديدة وبنيتها القويّة، تبدو أكبر سنًّا منه، وكان المظهر الخارجيّ لإيشيمي لا يعطي صورة حقيقيَّة عنه: فهو يستطيع حمل أكياس ثقيلة عن الأرض بكلٍّ سهولة، وأن يدفع بعربة محمَّلة نحو هضبة مرتفعة. كان رأسه كبيرًا مقارنة بجسده، وكانت بشرته عسليَّة، وعيناه سوداوين، أمَّا شعره، فكان متجعِّدًا وثائرًا. كان لا يزال في طور استبدال الأسنان الحليبيَّة بأخرى دائمة، وحينما يبتسم تتَّخذ عيناه شكل خطّين أفقيَّين.

خلال ما تبقَّى من صباح ذلك اليوم، تتبَّعتْ ألما خطوات إيشيمي، الذي كان يضع النباتات في الحُفر التي أعدَّها والدُه، ويكشف لها عن أسرار الحديقة، وعن الخيوط الرفيعة المعقودة تحت التربة، والحشرات غير المرئيَّة، والسيقان الصغيرة التي تصل إلى شبر في غضون أسبوع واحد. حدَّثها عن زهور الأقحوان التي جلبها لتوِّه من المستنبتات البلاستيكيَّة، وأوضح لها كيف تُزرع في فصل الربيع لتُزهر في مستهلِّ الخريف، مضفيةً على الحديقة لونًا خلَّابًا وبهجة منقطعة النظير، وخصوصًا بعد ذبول الورود الصيفيَّة. عرض عليها كذلك نباتات الزهور المثقلة بالبراعم، وأوضح لها أنَّ عمليَّة التشذيب ضروريَّة لتنمو الأزهار كبيرةً وسليمة. كما قدَّم لها شروحًا توضيحيَّة تبيِّن الفرق بين النباتات التي تُزرع عن طريق البذور، وأخرى تعتمد في زراعتها على الرؤوس البصليَّة الصغيرة التي تُدفن في التربة، وميَّز لها بين النباتات المحلِّيَّة وتلك التي استُجلبتْ من بلاد بعيدة. اقترب طاكاو فوكودا، الذي كان يرقبهما بطرف عينيه، ليخبر ألما أنَّ المهمَّات الدقيقة جدًّا تُوكل إلى إيشيمي، لأنَّه وُلد بأصابع خضراء. احمرَّت وجنتا الطفل بعد سماع هذا الإطراء.

منذ ذلك اليوم، باتت ألما تنتظر بلهفة كبيرة قدومَ البستانيّين، الذين لا يخلفون موعدَهم بالحضور كلّ أيّام نهاية الأسبوع. كان طاكاو يصطحب معه دائمًا إيشيمي، وعند وفرة الشغل، يجلب معه أحيانًا أبناءه الكبار: شارل (Charles)، وجيمس (James)، وميگومي (Megumi)، ابنته الوحيدة التي كانت تكبر إيشيمي بكثير. كانت ميگومي شغوفة بالعلوم فقط، لا يستهويها تخضيبُ اليدين بالتربة. كان إيشيمي يتقن عمله بصبر وتفانٍ، من دون أن يُلهيه حضورُ ألما، واثقًا بأنَّ أباه سيمنحه في آخر اليوم نصفَ ساعةٍ ليلعب ويرتع معها.

ألما، وناتانيل، وإيشيمي

كانت إقامةُ سي *كليف* كبيرة جدًّا، وكان أهلُها دومًا منشغلين، إلى درجة أنّ لعب الصغار كان لا يسترعي انتباه أحد. فإذا لفت ناتانيل نظر أحدهم ببقائه ساعاتٍ طوالًا مع طفلة صغيرة، فسرعان ما يتبدّد هذا الفضول، لأنَّ في البيت أمورًا أخرى تستدعي اهتمامًا أكبر. تخلّصتْ ألما من هذا الحبّ الهزيل الذي كانت تكنُّه للدمى، وانغمستْ بكلِّ عزيمة في تعلُّم لعبة *سكرابل* بمعيّة قاموس ولعبة الشطرنج، إذ لم تكن المهاراتُ الفكريَّة نقطةَ تفوُّقها. أمّا ناتانيل فكان قد سئم من جمع الطوابع البريديّة، والتخييم مع الكشّافة. وهكذا بات الإثنان يشاركان في أعمال مسرحيّة مؤلّفة من شخصيّتين أو ثلاث شخصيّات، يتكلّف هو بكتابة السيناريو، ويعرضانها معًا في الحال فوق السطوح. لم يكن غياب الجمهور يشكِّل عائقًا، فالعرض في حدِّ ذاته كان مسلِّيًا ولا حاجة إلى التصفيق: فالمتعة كانت في الاختلاف والتشاجر على السيناريو، والتدرُّب على الأدوار. كانت الأزياء التنكُّريّة والإكسسوارات والمؤثِّرات الضوئيَّة والصوتيَة تتكوّن من ملابس

قديمة، وستائر استُغنِيَ عنها، وأثاث رثّ، وأدوات مفكّكة، وما تبقّى كانوا يستعيضون منه بخيالهم. حتى إيشيمي، الذي كان يدخل منزل عائلة بيلاسكو، من دون الحاجة إلى دعوة، كان عنصرًا في الفريق المسرحيّ، وكانت تُسند إليه أدوار ثانويّة، لأنَّه كان ممثّلًا سيّئًا. وكان يعوِّض النقصَ في الموهبة بالحفظ والرسم، إذ كان يستطيع، بلا تعثُّر، استظهارَ فقرات عريضة مستلهمة من الروايات المفضّلة لناتانيل، كـ **مصّاص الدماء** و**الدوق مونتي كريستو**، كما كانت تُسند إليه مهمّة إسدال الستار. لكنَّ هذه الصداقة، التي استطاعت أن تنتشل ألما من براثين اليتم والوحدة التي انغمستْ فيها، لم تدم طويلًا.

ففي السنة الموالية، ولج ناتانيل السلكَ الثانويّ بمدرسة الذكور، المطابقة للنموذج البريطانيّ. وبين عشيَّة وضحاها، تغيَّر مجرى حياته. فمع ارتداء السروال الطويل، كان عليه أن يواجه فظاظةَ الفتيان الذين يتدرَّبون على مهمّات الرجولة. لم يكن مستعدًّا لذلك: كان يبدو صبيًّا ابن عشر سنوات، عوضًا عن الأربعة عشر ربيعًا التي أتمّها لتوّه، وكان لا يزال في منأى عن قصف الهرمونات الشرس. وكان انطوائيًّا، حذرًا، وميّالًا إلى المطالعة، وغير محبٍّ لممارسة الرياضة. لم يكن مغرورًا ولا فظًّا. ولأنّ طبعه لم يكن كذلك، فعبثًا حاول التظاهر بخصال بعيدة عنه، فكان يتفصّد عرقًا من الخوف. ففي الأربعاء الأوّل من حضوره القسمَ، عاد إلى البيت بعين متورِّمة، وقميص ملطَّخ بدم الأنف. امتنع من الإجابة عن أسئلة أمّه، وقال لألما إنّه ارتطم بالعمود الذي يحمل الرايات. وفي الليل، تبوّل في فراشه، للمرَّة الأولى في حياته. انذعر للمشهد، فاندفع يخبِّئ الأغطية المبلّلة في فوّهة المدخنة. لم ينتبه أحد للأمر، حتى أواخر أيلول، حينما أُضرمت النارُ، وامتلأ البيتُ عن آخره بالدخان. لم تتمكّن ليليان من أن تنتزع شرحًا مفصَّلًا

من ابنها بخصوص الأغطية، بيد أنَّها تصوّرت الأسباب، فقرَّرت إنهاءَ الموضوع. وفي أحد الأيَّام، مثلتْ أمام مدير المدرسة شخصيَّةً أستراليَّةً بشعر مصبوغ، وأنفٍ ينمّ عن إدمان الخمر. استقبلها وهو جالس خلف طاولة تشبه طاولات الوحدات العسكريّة، محاطًا بجداريّات مغلّفة بألواح خشبيّة غامقة، تراقبه من الخلف صورةُ الملك جورج السادس. أخبر صاحب الشعر الأحمر ليليان بأنَّ العنف بأشكاله المعقولة يُعتبر جزءًا أساسًا في المناهج الديداكتيكيّة للمدرسة، ولهذا الغرض يتمّ تشجيع الرياضات العنيفة، فالشجارات التي تنشب بين الطلبة يتمّ حلّها بقفّازَيِ الملاكمة داخل الحلبة، وكلُّ أشكال عدم الانضباط تُصلّح بالجَلْد على المؤخّرة. وأخبرها بأنّه هو مَنْ يتولّى تلك العمليّة؛ فالرجال يُصنعون بالعصا. هكذا كان الأمر دائمًا. وكلّما تعلّم ناتانيل في أقرب وقت كيف يَفرض هيبتَه واحترامَه، كسب الرهان. وأضاف أنَّ تدخُّل ليليان سيضع ابنَها في موقفٍ حرج. لكنْ ما دام الأمر يتعلّق بتلميذ جديد، فهذا في حدِّ ذاته يشكِّل استثناءً، وسيتناسى الأمر. قصدت ليليان لاهثة مكتب زوجها بشارع مونتغوميري (Montgomery)، لكنَّها لم تجد هناك من يساندها كذلك.

ـ لا تُقحمي نفسك في هذه الأمور، ليليان، فكلُّ الفتيان يجتازون هذه المرحلة من الطقوس التدريبيّة، ومعظمُهم يتحمَّلون، قال لها إسحاق.

ـ أكنتَ تتلقّى أنت كذلك ضربات؟

ـ بالطبع، وكما ترين ليست النتيجة محبطة.

كادت السنوات الأربع الأولى من المرحلة الثانويّة تتحوَّل إلى جحيم لا يُطاق، لولا تلقِّي ناتانيل مساعدةً من شخصٍ لم يكن في الحسبان: فما إنْ رآه إيشيمي، خلال أيّام نهاية الأسبوع، مثخنًا

بالخدوش واللكمات، حتى قاده إلى عريشة الحديقة، وهناك قدَّم له عروضًا من الفنون القتاليَّة، التي كان يمارسها منذ نعومة أظافره. ناوله معولًا وأمره بأن يحاول أن يقسم رأسه إلى شطرين. ظنَّ ناتانيل أنَّه يمزح، فرفع المعول في اتِّجاه السماء كأنَّه مظلَّة. كان من الضروريّ القيامُ بمحاولات عديدة كي يستوعب ناتانيل التعليمات، فيندفعَ بجدِّيَّة ضدَّ إيشيمي. لم يفهم كيف فقد المعول، لكنَّه طار في الهواء، وهوى على ظهره بشدَّة فوق الأرضيَّة المبلَّطة برخام العريشة الإيطاليّ، أمام نظرات ألما المذهلة. وهكذا، عَلِمَ ناتانيل بأنَّ السيِّد طاكاو فوكودا بحدَّته المعهودة كان يلقِّن أبناءه، وأبناءَ الجالية اليابانيَّة، خليطًا من الجودو ورياضة الكاراتيه، داخل مرأب كان قد استأجره في شارع *باين* (Pine)، فنقل الخبر إلى والده، الذي سبق أن سمع بنبأ وجود هذه الرياضات التي باتت تقتحم *كاليفورنيا*. قصد إسحاق بيلاسكو شارع *باين* من دون أن ينتظر من فوكودا تقديم مساعدات لابنه. لكنَّ البستانيّ أوضح له أنَّ جماليَّة الفنون القتاليَّة تكمن في عدم اعتمادها على القوَّة البدنيَّة، بل إنَّها ترتكز أساسًا على قوَّة التركيز والمهارات للسيطرة على الخصم وشلِّ حركته.

بدأ ناتانيل دروسه في الفنون القتاليَّة. كان السائق يقلُّه إلى المرأب ثلاثَ ليالٍ كلّ أسبوع. في البداية، كان يتعارك مع إيشيمي ومع الأطفال الصغار، لينتقل بعدها إلى منازلة شارل، وجيمس، وأطفال آخرين كبار. خلال شهور عديدة، كان يعاني تقصُّمَ هيكله العظميّ، إلى أن اعتاد الارتطامَ على الأرض من دون ألم. وهكذا، تخلَّص من كابوس الشجار الذي كان يؤرِّقه. لم يحقِّق ناتانيل درجات عليا في منازلاته، لكنَّ مستواه التمهيديّ كان أكثر ممَّا يمكن أن يطمح إليه فتيانُ مدرسته. فتخلُّوا عن مشاكسته، لأنَّ كلّ مَن كان يحاول

اعتراضَ سبيله بوجه عبوس، كان يصدُّه بأربع صرخات نابعة من الحلق، وبحركات قتاليَّة مُبالغ فيها. لم يسأل إسحاق بيلاسكو يومًا عن نتائج الدروس، بالضبطِ مثلما كان يتعمَّد في السابق عدم الاستفسار عن الضرب الذي كان يتلقَّاه ابنه. لكن رُبَّ شيء جعله يتحرَّك، إذ قَدِمَ في يوم من الأيَّام إلى شارع *باين* مصحوبًا بشاحنة وأربعة عمَّال لتركيب أرضيَّة خشبيَّة في المرأب. استقبله طاكاو فوكودا، بحفاوة رسميَّة، لكنَّه لم يعقِّب بشيء.

وضع ذهابُ ناتانيل إلى المدرسة الثانويَّة حدًّا للعروض المسرحيَّة فوق السطوح. فعلاوةً على الواجبات الأكاديميَّة، والمجهود الحثيث للدفاع عن النفس، كان الولد دائمًا منشغلًا بهموم ميتافيزيقيّة. كان يبدو كئيبًا، وهو ما حاولتْ أمُّه علاجَه بإعطائه جرعاتٍ من زيت كبد سمك القدّ. أمَّا ألما، فكانت بشقّ النفس تظفر معه بالقليل من الوقت، إذا ما اقتنصته بغتةً لتلعب معه حصَّةً من *سكرابل*، قبل أن يسجن نفسه في غرفته، فيشرع في نقر قيثارته بقوَّة. كان على عتبة اكتشاف *عالم الجاز والبلووز*، لكنَّه كان لا يحبُّ رقصات الموضة، لأنَّ الخجل ابتلعه يومًا في إحدى قاعات الرقص، إذ لم يستطع مسايرة الإيقاع، وهذه خاصِّيّة يتميَّز بها كلُّ أفراد بيلاسكو. كان يحضر، بمزيج من الاستهتار والحسد، عروضَ ليندي هوب (Lindy hop) التي كانت ألما وإيشيمي يشجِّعانه عليها. كان في حوزة الأطفال شريطان موسيقيَّان وفونغراف رمت به ليليان في سلَّة المهملات، وأنقذته ألما من الأزبال، ليتولَّى إيشيمي إصلاحه بتفكيكه وإعادة تركيبه بأصابعه الخضراء وحدسه الصبور.

كانت المدرسة الثانويَّة، التي تسبَّبتْ بداياتُها الأولى بتعاسة ناتانيل، لا تزال مصدر شقاء له في السنوات الموالية. كان زملاؤه قد

تعبوا من نصب كمائن له بغرض التنكيل به، بيْد أنَّهم أذاقوه طوال أربع سنوات أخرى كلّ أشكال الاستهزاء والعزلة. كانوا لا يغفرون له شغَفه الثقافيّ، ونقاطَه الجيِّدة، ووهنَه الجسديّ. تملَّك ناتانيل شعورٌ بأنَّه وُلد في زمان ومكان غير مناسبين، فكان عليه أن يشارك في الأنشطة الرياضيَّة، التي تُعتبر إحدى ركائز التربية الإنكليزيَّة. وكان يعاني دائمًا مهزلةَ تبوِّئه المرتبةَ الأخيرةَ في الركض، وإقصائه خارج كلّ الفرق الرياضيّة. وببلوغه الخامسة عشرة، تمدَّدتْ قامتُه بشكل مذهل من أخمص قدميه إلى أذنيه، إلى درجة أنَّ والديه اقتنيا له حذاءً جديدًا آخر، وكانوا ملزمين بإطالة تلابيب سراويله كلّ شهرين. وبعد أن كان أقصر تلميذ في القسم، بلغت قامته أخيرًا طولًا طبيعيًّا. ونَمَتْ ساقاه، وذراعاه وأنفه، وبرزتْ أضلاعُه جليَّة تحت القميص، وكانت تفَّاحة آدم في عنقه النحيف جدًّا تبدو كأنَّها ورم. كان يرتدي الوشاح حتى في فصل الصيف. ويمقت صورته الجانبيَّة التي تشبه صقرًا منتوف الريش، لذا كان يحاول دائمًا الانزواء في ركن لينظر إليه الآخر من الجهة الأماميّة لا الجانبيَّة. لم يتبقَّل وجهه كغيره من أعدائه. لكنَّه لم يسلم من العُقَد النفسيَّة الملازمة لهذه الفترة العمريَّة. لم يكن يتوقَّع أنْ يصبح جسدُه في أقلِّ من ثلاث سنوات متناسقًا، وقسماتُ وجهه واضحةً. وصار جميل المحيّا، كأنَّه واحد من فنَّاني السينما الرومانسيَّة. كان يحسّ بنفسه قبيحًا وكئيبًا ووحيدًا، فباتت تراوده أفكارُ الانتحار، التي بثّها لألما في إحدى أسوأ لحظاته من النقد الذاتيّ. «*هذا ضرب من الجنون، يا نات. الأَوْلى بك أن تنهي دراستك، وأن تتعاطى مهنة الطبّ، فتقصد الهند لمعالجة المجذومين. وأنا سأرافقك*»، أردفتْ ألما من دون لطف. فالمشاكل الوجوديّة التي كان يعانيها ابنُ خالتها، كانت بالنسبة إليها مثارًا للضحك، فشتَّان بين هذه الوضعيَّة والوضعيَّةِ

التي كانت تعيشها عائلتُها.

لم يكن فارقُ السنِّ بينهما يبدو واضحًا للعيان. فألما نضجت باكرًا، وكان طبعها الميَّال إلى الوحدة جعلها تبدو أكبر سنًّا. ففي الوقت الذي كان ناتانيل يعيش على حافَّة المراهقة التي بدت عنده أبديَّة، تشبَّعت ألما بالجدِّيَّة والصرامة اللتيْن أخذتهما عن والدها، وتبنَّتهما خصلتيْن أساسيَّتيْن في الحياة. كانت تتكهَّن بالاشمئزاز الحادّ الذي يكنُّه ناتانيل لنفسه منذ ولوجه المدرسة، لأنّها بدورها كانت تعاني، وإنْ بوطأةٍ أخفّ، المشكلَة نفسَها. الفارق بينهما أنّها لم تفتح المجال لمغبّة التبحلق في المرآة بغية البحث عن العيوب؛ كما أنّها لم تكن لا تندب حظّها، إذ كانت لديها مشاغل أخرى.

كانت الحرب في أوروبا قد حمي وطيسها، كأنَّها عاصفة هوجاء تنذر بالفناء. وكانت ألما تطالع الأحداث من خلال الوصلات الإخباريّة المبهمة التي تُذاع بالأبيض والأسود، متخلِّلةً الأعمالَ السينمائيّة: مشاهد متقطِّعة للمعارك؛ وجوه الجنود المعَفَّرة بدخان البارود والموت؛ طائرات تسقي الأرض بقنابل تهوي في أناقة مقرفة؛ انفجارات مدوِّية ينبعث منها النار والدخان؛ وجماهير غفيرة مؤيِّدة لهتلر في ألمانيا. لم تعد تتذَكّر وطنَها جيِّدًا، ولا المنزلَ الذي ترعرعتْ فيه، ولا لغة طفولتها نفسها. لكنَّ عائلتها كانت حاضرة دائمًا في صبابتها. فكانت تحتفظ بصورة أخيها، وآخر صورة لأبويها في ميناء *دانزيغ*، فوق الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير، وكانت تقَبِّلهما دائمًا قبل أن تنام. كانت صور فظاعة الحرب تلاحقها دائمًا، وتقضُّ مضجعها، وتحرمها الاستمتاعَ بطفولتها.

حينما استسلم ناتانيل للفكرة الهدّامة عن كونه إنسانًا غريبًا ومبهمًا، واستسلم للعزلة، تحوّل إيشيمي إلى صديق ألما الحميم. لم

تَنْمُ قامةُ الولد كثيرًا، وكانت ألما تفوقه طولًا بقليل، بيْد أنَّه كان حكيمًا، ودائمًا يعثر على الطريقة المناسبة لمواساتها حينما تداهمهما صورُ الحرب المفجعة. كان إيشيمي يتدبَّر أمره كي يصل إلى منزل بيلاسكو على متن الترامواي، أو الدرَّاجة، أو شاحنة البستنة الصغيرة، إذا استطاع إقناع والده وإخوانه بمرافقتهم، وفي ما بعد تعيده ليليان إلى بيته برفقة سائق العائلة. وإذا حدث أنْ مرَّ يومان أو ثلاثة أيّام من دون أن يلتقيا، كانا يتسلَّلان ليلًا للحديث عبر الهاتف بصوت خافت. لم يخطر في بال أحدهما أن يستأذن بشأن هذه المحادثات؛ كانا يظنَّان أنَّ الجهاز يتعطّل من كثرة الاستعمال، ولن يكون أبدًا في متناول أيديهما.

كانت عائلة بيلاسكو تتابع عن كثب الأنباء الواردة عن أوروپا، وكلّها أنباء مضلِّلة ومقلقة. ففي *فرصوفيا* التي احتلَّها الألمان، تكدَّس أربعمئة وخمسون ألف يهوديّ في غيتوهات لا تتجاوز مساحتُها ثلاثة كيلومترات مربَّعة ونصف الكيلومتر. وقد علم أفرادُ العائلة بالأمر من صامويل الذي وافاهم بالأخبار عبر تلغراف بعث به من لندن، يروي لهم أنَّ والديْ ألما كانا بين أولئك اليهود. لم تسعف ثروةُ ميندل أصحابَها، الذين فقدوا خلال اللحظات الأولى من الاحتلال كلَّ ممتلكاتهم، ولم تكن هناك من طريقة للوصول إلى حساباتهم البنكيَّة بالسويد. كما كان عليهم الرحيل من منزل العائلة بعد مصادرته وتحويله إلى مكاتب للنظام النازيّ وشركائه، فذاقوا وبال أمرهم رفقةَ سكَّان الغيتوهات. آنذاك، اكتشفوا أن لا صديق لهم من ذويهم. كانت هذه الأخبار هي كلّ ما استطاع إسحاق بيلاسكو معرفته. كان من العسير جدًّا الاتِّصال بهم، ولم تكلَّلْ كلُّ محاولاته لإسعافهم بالنجاح. استخدم إسحاق كلَّ اتِّصالاته بسياسيِّين نافذين، بل إنَّه اتَّصل ببعض أعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن، ووزير الحرب الذي كان زميلًا له

في جامعة هارڤرد، لكنَّهم أجابوه بوعود مبهمة لم ينفِّذوها قطّ، لأنَّهم كانوا منشغلين بملفَّات مستعجلة تفوق بكثير كلّ مهمِّة إغاثة من جحيم ڤرصوفيا. كان الأميركيُّون يرقبون مجريات الأحداث بنوع من التريُّث، ولا يزالون يتبنُّون فكرة أنَّ هذه الحرب التي حطَّت أوزارها في الضفَّة الأخرى من المحيط الأطلسي لا تعنيهم، على الرَّغم من الدعاية التي كانت تروِّجها حكومةُ روزڤلت للتأثير في الرأي العامّ ضدَّ الألمان. وخلف الجدار العالي الذي يرسم حدود غيتوهات ڤرصوفيا، كان اليهود يعانون المجاعةَ والخوفَ. كانت الأخبار تتواتر عن عمليّات نفي جماعيَّة، لرجال ونساء وأطفال، كانوا يحثُّون الخطى نحو القطارات المخصَّصة لنقل السِّلَعِ والتي تختفي في جنح الظلام، كما كانت ترد أنباء تُفيد برغبة النازيين في إبادة اليهود، وإبادةِ آخرين غير مرغوب فيهم. وتواترت الحكايات عن غرف الغاز، وأفران المحرقة، وفظاعات أخرى بات من المستحيل تأكيدُها.. وبالتالي، كان من العسير أن يصدِّقها الأميركيُّون.

إيرينا باثيلي

سنة ٢٠١٣، احتفلتْ إيرينا باثيلي في جوٍّ عائليٍّ بمرور العام الثالث على عملها مع ألما بيلاسكو. كانت المائدة مليئة عن آخرها بحلويات القشدة الطريَّة، وكوبين من الكاكاو الساخن. خلال هذه الفترة، تمكّنتْ إيرينا من معرفة ألما بحقّ، بغضّ النظر عن الكمِّ الهائل من الألغاز التي كانت تحفُّ بها حياةُ هذه المرأة، والتي لم تستطع برفقة سيت فكّ شيفراتها. فهما من جهة لم يتناولا الموضوع بالجدِّيَّة التي يستحقّها؛ ومن جهة أخرى أماطت محتوياتُ صناديق ألما، التي كانت ترتِّبها إيرينا، اللثامَ عن أفراد عائلة بيلاسكو. وهكذا، تعرَّفت إيرينا إلى إسحاق بأنفه الحادّ والمعقوف، وعينيه اللتين تشعُّ منهما الطيبة. تعرَّفت كذلك إلى ليليان، القصيرةِ القامة، والبارزة الصدر، والجميلة الوجه. وتعرَّفت إلى ابنتيْها سارة ومارتا الدميمتين والأنيقتين، وإلى ناتانيل الذي كان في طفولته نحيفًا جدًّا وكئيبًا، ليتحوَّل في ما بعد إلى شابٍّ رشيق وجميل، ثم إلى هيكل منخور بآثار المرض. تعرّفت كذلك إلى ألما، الطفلة التي وصلتْ لتوِّها إلى أميركا، وشاهدت

صورتها وهي شابَّة في الحادية والعشرين من عمرها، في بوسطن. ساعة دراستها للفنِّ، بقبَّعتها السوداء ومعطفها الذي يشبه معطف المُخْبر البوليسيّ. كانت طريقة لبسها ذكوريَّة، وهي طريقة تبنَّتها بعد تخلِّيها عن كلِّ محتويات خزانة ملابس خالتها ليليان، التي لم توافق يومًا على هذه الأزياء الغريبة، وكانت تنظر إليها بعين السخط، وهي أمٌّ جالسة في عريشة حديقة سي *كليف*، تحمل ولدها لاري (Larry) ذا الشهور الثلاثة في حجرها، ومن خلفها زوجُها، الذي يضع كفّه على كتفها. كان المنظر يوحي بأنَّ العائلة على أهبة التقاط صورة ملكيَّة. كانت ليليان منذ نعومة أظفارها تتكهَّن بأن يصبح لألما شأن كبير، بخصلتها البيضاء، وفمها المعوجّ قليلًا، وهالات عينيها الفظيعة. كان على إيرينا أن ترتِّب الصور بطريقة زمنيَّة، داخل الألبوم، تبعًا لتعليمات ألما، التي كانت غالبًا ما تنسى أين تمَّ التقاط تلك الصور، ومتى. وبالإضافة إلى صورة إيشيمي فوكودا، كانت هناك صورة أخرى موضوعة داخل غرفتها، تعكس اجتماعًا عائليًّا في صالة في سي *كليف* للاحتفال بعيد ميلادها الخمسين. كان الرجال يرتدون بذلات رسميَّة، والنساء أزياء طويلة. وظهرتْ ألما في ثوب أسود أملس. كانت تبدو متعجرفة كأنَّها إمبراطورة أرملة، برفقةِ دوريس كَنَّتها، التي كانت تبدو شاحبةً ومتعبة، بفستان رماديٍّ حريريٍّ، تعلوه تلابيب من جهة الأمام، لإخفاء حالة الحَمْل الثاني. كانت دوريس تنتظر ولادةَ طفلتها الجديدة بولين (Pauline)، وإلى جانبها وقف سيت ابن السنة ونصف السنة، ماسكًا فستانَ جدَّته بيد، وأذنَ كوكر *سبانيل* بيدٍ أخرى.

كانت العلاقة التي تربط المرأتين، خلال الفترة الزمنيَّة التي جمعتهما، تشبه إلى حدٍّ كبير علاقةَ خالةٍ بابنة أختها، إذ تغلَّبتا معًا على الروتين، واستطاعتا أن تتقاسما، لساعات عديدة، فضاءَ الشقَّة الضيِّقة

من دون الحديث معًا أو النظر إحداهما إلى الأخرى. كلٌّ واحدة منهما كانت في حاجة إلى الأخرى. فإيرينا كانت تعتبر نفسها محظوظة بعد أن كسبتْ ثقة ألما ومساندتَها؛ وألما كانت ممتنَّة كثيرًا لهذا الوفاء، وهذه المحبَّة التي أعربت عنها الفتاة.

كانت ألما تعتمد على إيرينا في أمور تطبيقيَّة، وتحتاج إليها في تدابير تمكِّنها من الاحتفاظ باستقلاليَّتها. وقد سبق لـ سيت أن اقترح عليها العودةَ إلى بيت العائلة في سي *كليف*، إذا ما احتاجت إلى عناية مركَّزة، أو أن تبحث عن مساعدة ملازمة داخل شقَّتها، فالمال لا ينقصها. كانت ألما على وشك أن تكمل عامها الثاني والثمانين، وتتطلَّع إلى عيش عشر سنوات أخرى من دون الحاجة إلى هذا النوع من الخدمات، ومن غير أن تسمح لأحد بأن يُقحم نفسَه في حياتها.

ـ أنا كذلك، مثلك ألما، كانت ترتعد فرائصي خوفًا من أن أصبح يومًا عاجزةً. لكنِّني أدركتُ لاحقًا أنَّ الأمر ليس بالفظاعة التي كنت أتصوَّرها. الواحد منَّا يعتاد التغييرَ، فيُثمِّن المساعدة. أنا الآن لا أستطيع أن أستحمَّ وحدي، ولا أستطيع أن أرتدي ملابسي، ويكلِّفني تنظيفُ أسناني وتقطيعُ شرائح الدجاج في صحني جهدًا كبيرًا، لكنَّني لم أكن يومًا سعيدةً مثل الآن، قالت لها *كاترين* هوپ، التي استطاعت أن تكسب صداقتها.

ـ لماذا كاتي؟ سألتها ألما.

ـ لأنَّ لديَّ الآن الكثيرَ من الوقت، ولأوَّل مرَّة في حياتي أحسّ بأنْ لا أحد ينتظر منِّي شيئًا. لم يعد لديَّ ما أُظهره، فتخلَّصتُ من الإرهاق. كلّ يوم أعيشه أعتبره هِبةً، لذلك أعيش لحظاتي بعنفوان.

لم تكن كاترين هوپ لتبقى حيَّةً في هذا العالم لولا عزيمتها

القويَّة، وفضلُ العمليّات الجراحيَّة التي أُجريتْ لها. كانت تُدرك تمامًا معنى الإعاقة، وتعرف معنى أن يعيش المرء بآلام مزمنة. فهي لم تدخل في دوّامة العجز بشكل تدريجيٍّ، كما هو معتاد، بل دخلْتها بين عشيَّة وضحاها، بسبب زلَّة قدمٍ، أدّت الفاتورةَ باهظةً جدًّا.

ففي أثناء تسلُّقها إحدى القمم الجبليَّة، انزلقتْ وسقطتْ لتبقى محبوسةً بين صخرتين بساقين مكسورتين وحوض مكسور أيضًا. كانت عمليَّات الإنقاذ شبيهة بمهمَّات بطوليَّة، إلى درجة أنَّ التلفاز أذاعها كاملةً في نشرات الأخبار. كان التصوير يتمّ من الأعلى في الهواء. وكانت الطائرة النفَّاثة تلتقط المشاهد الدراميَّة من بعيد، من دون أن تستطيع الدنوّ من الفجِّ العميق، حيث كانت كاتي مُصابةً بنزيف حادٍّ وصدمة مفجعة. وبين يوم وليلة، استطاع اثنان من متسلِّقي الجبال المحترفين الهبوطَ في عمليَّة جريئة من نوعها، كادت تودي بحياتها، فتمكَّنا من رفعها نحو الأعلى بحزام الأمان، وحملاها في ما بعد إلى مستشفى مختصّ بكوارث الحرب، حيث شرعوا في ترميم العديد من عظامها المكسورة. استيقظتْ كاتي من غيبوبتها بعد مرور شهرين متتاليين، وبعد السؤال عن ابنتها، أعلنتْ أنَّها مسرورة جدًّا ببقائها على قيد الحياة. في اليوم نفسه، بعث إليها الدالاي لاما من الهند *بكاتا*، وهو وشاح أبيض يحمل تبريكاته. وبعد أربع عشرة عمليّة جراحيَّة فظيعة وسنوات طويلة من الترويض الطبِّي، تقبَّلت كاتي فكرةَ أنّها لن تعود إلى المشي ثانية. «*لقد انتهت حياتي الأولى، وبدأت الآن حياتي الثانية، قد ترينني أحيانًا مكتئبةً أو مغتاظة، حينها لا تكترثي لحالي، فالوضع لن يدوم طويلًا*»، قالت يومًا لابنتها. استطاعت كاتي تخطِّي صعوبة الظروف الجديدة، بفضل معتقداتها البوذيَّة، وطريقتها التأمُّليَّة التي كانت تشكِّل نهجًا في حياتها. فلولا هذه الحمولة، لما استطاعت

التغلُّب على هذا العجز الحركيّ، الكفيلِ بأن يُفقد أيَّ شخص رياضيّ وحيويّ مثلها صوابَه؛ وَلما استطاعت الوقوفَ ثانيةً، وبمعنويّات عالية، في إثر انسحاب رفيق دربها القديم من حياتها، بعدما عجز عن تحمُّل التراجيديا. اكتشفتْ كاتي كذلك أنَّ في مقدورها مزاولة مهنة الطبّ كمستشارة في الجراحة، عن طريق مكتب مزوَّد بكاميرات تلفزيّة متَّصلة بقاعة العمليّات. لكنّ طموحها كان العملَ إلى جانب المرضى، وجهًا لوجه، كما كانت تفعل دائمًا. وحينما اختارت العيشَ في الطابق الثاني من *لارك هاوس*، وتجاذبتْ أطرافَ الحديث مع مَن سيكونون لاحقًا أسرتَها الجديدة، عاينتْ أنَّ الفرص متوافرة لممارسة وظيفتها. فبعد أسبوع واحد من ولوجها لارك هاوس، كانت مشاريعها جاهزة لإقامة عيادة طبِّيَّة مجّانيّة مخصَّصة للأشخاص الذين يعانون الأمراضَ المزمنة، ولإقامة عيادة أخرى للعناية بالأعراض الخفيفة. كان لـ *لارك هاوس* طاقم طبِّيّ خارجيّ، استطاعت كاترين أن تُقنعه بأنَّها ليست في صدد منافسته، بل إنَّ خدماتها ستكون تكميليَّة. وقد وفّر لها السيِّد هانس قاعةً للعيادة، واقترح على إدارة *لارك هاوس* أن تخصِّص لها راتبًا شهريًّا. لكنّها فضّلت العملَ مجّانًا، وتمَّ الاتِّفاق بين الطرفين على هذه البنود. وفي وقت وجيز، تحوّلتْ كاتي، كما كانوا يسمُّونها دائمًا، إلى أمٍّ تحتضن الوافدين الجدد، وتفتح قلبها لمن يريد الترويحَ عن نفسه، وتواسي المهمومين، وترشد المحتضرين، وتوزِّع مخدِّر *الماريجوانا*. كان نصف النزلاء يحصل على وصفات طبِّيَّة ترخِّص لهم تناولَ المخدِّر. وكانت كاتي، التي توزِّعه في عيادتها، سخيَّةً مع مَنْ لا يمتلكون بطاقة أو نقودًا لاقتنائه من السوق السوداء. لم يكن غريبًا مشاهدة طابور عريض من الزبائن خلف بابها، في انتظار أن تزوِّدهم بالعشبة التي يمكن تناولُها في أشكالٍ متعدِّدةٍ، حتى في شكل بسكويت

وحلويات. لم يكن هانس ڤواغ يتدخَّل في الأمر، فلِمَ سيَحرم نزلاءَه من مهدِّئ غير ضارٍّ؟ بل كان يحثّ فقط على عدم التدخين في الممرَّات والفضاءات العامَّة. ولأنَّ السجائر كانت محظورةً داخل النزل، فلم يكن معقولًا أن يرخَّص لاستهلاك الماريجوانا. وعلى الرَّغم من هذا كلّه، كانت كمِّيَّة من الدخان تتسرَّب من بين ثنايا المكيِّفات، وأحيانًا كانت تبدو بعضُ الحيوانات الموصودة كأنَّها ثملة.

أحسَّت إيرينا في *لارك هاوس*، لأوَّل مرَّة في حياتها منذ أربعة عشر عامًا، بالأمن والأمان. فمنذ أن وصلت إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، لم تذق طعمَ الاستقرار، ولم تعمِّر أبدًا في مكان معيَّن. وكانت تدرك تمامًا أنَّ هذه النعمة لن تدوم طويلًا، فقرَّرتْ أن تستمتع بهذه الفسحة التي أُتيحت لها. لم يكن بالطبع كلُّ شيء ورديًّا، لكنْ مقارنةً بمشاكل الماضي، بدت صعوبات الحاضر هيِّنة. كان عليها أن تخلع ضرسَ العقل، لكنَّ بوليصة تأمينها لم تغطِّ كلفةَ علاج الأسنان. وكانت تعي كذلك أنَّ سيت بيلاسكو متيَّمٌ بها، وفي كلِّ مرَّة يصعب كبحُ جماحه من دون فقدان صداقته الرائعة.

تحوَّل هانس ڤواغ، الذي تكشَّفَ في الشهور الأخيرة عن مزاج هادئ ودماثة خلق، إلى شخص ثائر يفقد صوابه لأتفه الأمور. فاجتمع بعضُ النزلاء خفيةً لتدارس كيفيَّة عزله من منصبه من دون جرح كرامته. فاقترحتْ كاترين منحه فرصةً أخرى، وحظي رأيُها بموافقة الجميع. وأوضحت أنَّ المدير خضع مرَّتين لعمليَّتين جراحيَّتين للبواسير، ولم تكن النتائج دائمًا مُرضية، الأمر الذي عكَّر مزاجَه بشكلٍ لافتٍ للنظر.

كان هجوم الفئران على المنزل القديم في بريكلي، حيث كانت تعيش إيرينا، من الانشغالات التي كانت تؤرِّقها؛ فقد كانت تسمع خدشها بين الجدران المشقوقة وتحت الأرضيَّة الخشبيَّة. فقرَّر باقي

المستأجرين، بتحريض من تيم، شريكِها، اللجوءَ إلى استعمال المصيَدة، لأنَّ وضع السُّمِّ كان يبدو لهم أمرًا غير إنسانيّ. فأردفتْ إيرينا قائلةً إنَّ المصيَدة بدورها لا تخلو من القسوة، والأدهى أنَّ أحدهم سيكون مجبرًا في النهاية على جمع الجثث. لكنْ لم يصغِ إليها أحد، وحدث أن بقي فأر صغير على قيد الحياة، عالقًا بالمصيَدة. فأنقذه تيم، الذي أشفق على حاله، وأعطاه لإيرينا. جميعهم كانوا من الذين يتغذّون على الخضر والجوز، فهم لا يقبلون أن يُلحقوا أذًى بأيِّ حيوان، ولن يقووا على ارتكاب مغبَّة طبخه. تولَّت إيرينا مهمَّة تضميد ساق الفأر، ووضعه في علبة مفروشة بالقطن، والعناية به، إلى حين تخلُّصه من حالة الذعر الذي انتابته، فيستطيع المشي والعودة إلى العيش مع فئران جلدته.

كانت بعضُ مهامّها في *لارك هاوس* تُثير حفيظتها، كبيروقراطيَّة وكالات التأمين التي كانت تتعامل معها، ومشادَّاتها مع أقارب النزلاء الذين يشتكون لأتفه الأسباب كطريقة للتخفيف من الإحساس بالذنب لتخلِّيهم عن ذويهم، ناهيك بحصص الإعلاميَّات الإجباريَّة التي كانت تمقتها، ففي كلِّ مرّة كانت تتعلَّم شيئًا، تقفز التكنولوجيا خطوةً نحو الأمام، فتحسّ دائمًا بأنَّها متخلِّفة عن الركب. أمَّا الأشخاص الذين كانوا تحت إمرتها فلم تكن تشتكي من أحد منهم. فقد ذكرتْ لها كاتي، في أوّل يوم ولجتْ فيه *لارك هاوس*، أنَّها لن تحسّ بالملل أبدًا:

«هناك فرق بين الكهولة والشيخوخة ـ أوضحتْ لها كاتي ـ المسألة لا تتعلَّق بعامل السنِّ، بل بالحالة الجسمانيَّة والعقليَّة لكلِّ شخص. فالشيوخ في استطاعتهم الحفاظ على استقلاليَّتهم، بخلاف الكهول الذين يحتاجون إلى الرعاية والمراقبة. وفي لحظة معيَّنة

يصبحون كالأطفال الصغار».

تعلَّمت إيرينا الكثير، سواء من الشيوخ أو الكهول؛ فكلُّهم كانوا أصحاب مشاعرٍ جيَّاشة، ومسلّين، وغيرَ عابئين بالفضيحة. كانت تضحك كثيرًا معهم، وأحيانًا تجهش في البكاء من أجلهم. فجلُّهم عاشوا تجارب شيِّقة، أو ابتدعوها. فإذا بدوا تائهين، فالسبب حاسَّة السمع التي باتت تخذلهم. كانت إيرينا تسهر على مراقبة بطَّاريَّة شحن أجهزة السمع. «*ما هو أسوأ شيء في الشيخوخة*»؟ كانت تسألهم دائمًا. «نحن لا نفكِّر في تعاقب السنين»، يجيبونها، «في ما مضى كنَّا مراهقين، بعدها أتممنا الثلاثين، فالخمسين، ثم الستِّين، من دون أن نحسّ بوطأة السنين.. إذن فلِمَ التفكير في الأمر الآن؟» كانت حركة البعض محدودة جدًّا، فيصعب عليهم المشي والحركة، بيد أنَّهم كانوا لا يرغبون في الذهاب إلى وجهة معيَّنة. والبعض الآخر كانوا يبدون تائهين، مرتبكين، تخذلهم ذاكرتُهم، لكنّ هذا الأمر لم يكن يربكهم كما يربك ذويهم والساهرين على رعايتهم. كانت كاترين هوپ تحثّ دائمًا على الحيويَّة والحركة لدى نزلاء الطابقيْن الثاني والثالث، وكان على إيرينا أن تضخّ فيهم روحَ الاهتمام والتسلية والتواصل. «لا بدّ من *هدف في الحياة في أيِّ* مرحلة عمريّة، *فهذا أنجع دواء للعديد من الاضطرابات*»، أكّدت كاتي. ولم يتغيَّر هذا المبدأ حتى بعد الحادثة المروِّعة التي كانت ضحيّتها.

صباح كلّ جمعة، كانت إيرينا ترافق النزلاء المتحمِّسين للتظاهرات في الشارع، خوفًا من دخولهم في اشتباكات بالأيدي. كما كانت تشارك في السهر من أجل أهداف نبيلة، وكذا في نادي النسيج. فجلّ النساء القادرات على التحكُّم في الإبر - باستثناء ألما بيلاسكو - كنَّ يخطن صدريَّاتٍ للاجئات السوريَّات. كان الهدف الأسمى هو

السلام، وبالإمكان الاختلاف حول أيِّ موضوع إلّا السلام. كان في لارك *هاوس* ما يناهز ٢٠٤ ديموقراطيِّين مستائين صوّتوا لمصلحة باراك أوباما من أجل ولاية ثانية، فباتوا الآن ينتقدونه لتردُّده في اتِّخاذ قرارات حاسمة، كقرار إغلاق معتقل غوانتنامو، وصدِّه للمهاجرين المنحدرين من أميركا اللاتينيَّة وإعادتهم إلى أوطانهم، ولإطلاقه سفنًا جوِّيّة بلا طيّار... خلاصة القول: تعدَّدت الأسباب، وأصبح من الضروريّ مراسلة الرئيس والكونغرس بشأن الموضوع.

من المسؤوليّات الملقاة على عاتق إيرينا تسهيلُ ممارسة الشعائر الدينيّة، والممارسات الروحانيَّة. فالعديد من الشيوخ، وإن قضوا ستِّين عامًا من الإلحاد، كانوا يبحثون عن هذا النوع من السكينة، وكان هناك آخرون يبحثون عن المواساة من خلال بدائل نفسانيَّة أخرى في «*حركة العصر الجديد*». كانت إيرينا تجلب لهم المرشدين والمعلِّمين الذين يلقِّنونهم أصولَ الفعل التأمُّلي، وتوفِّر لهم دروسًا في المعجزات، **وآي تشينغ** (كتاب التغيير الصينيّ) الذي يستمدّ مادَّته من الحدس، والكابالا، وأوراق التاروت، ومذهب الروحيّين، وعقيدة التقمُّص، والحدس النفسيّ، والطاقة الكونيَّة، والحياة في الفضاء. كانت إيرينا هي المسؤولة عن تنظيم احتفالات الأعياد الدينيَّة، التي كانت بمثابة خليط من شعائرِ معتقداتٍ عدَّة، وذلك حتى لا يشعر أحدُهم بالإقصاء. وفي فصل الصيف، كانت تأخذ مجموعةً من العجائز إلى الغابات المجاورة، فيرقصون في دائرة على أنغام الدفوف، بأقدامٍ حافية، ورؤوسٍ مزيَّنةٍ بأكاليل الزهور. كان حرَّاس الغابة يعرفونهم جيِّدًا، فيتطوّعون لالتقاط صورٍ لهم، وهم يعانقون الأشجار، ويتحدَّثون مع غايا، الأمِّ الأرض، ومع موتاهم. توقَّفتْ إيرينا عن السخرية في قرارة نفسها، حينما تمكَّنتْ من سماع محادثة أجدادها داخل جذع السكويا،

هذه الشجرةِ العملاقةِ الضاربةِ في القِدَم، والتي تربط عالَمنا بعالم الأرواح. لم تكن كوستيا (Costea) وبيتروتا (Petruta) محاورِيْن جيِّديْن في الحياة، ولم يكونا كذلك داخل السَكويا، بيد أنَّهما تمكَّنا، بعباراتٍ مقتضبةٍ، من إقناع حفيدتهما بأنَّهما يسهران من أجل راحتها. وفي فصل الشتاء، كانت إيرينا ترتجل مجموعةً من الحفلات المغلقة داخل أسوار *لارك هاوس*، لأنَّ كاتي سبق أن حذَّرتها من احتمال الإصابة بالسلّ إذا تمَّت الاحتفالات في الرطوبة وعواصف الغابة المصحوبة بالرياح العاتية والثلوج.

كان الراتب الذي تتقاضاه إيرينا من *لارك هاوس* يكاد لا يستطيع إنسان عاديّ أن يعيش عليه. بيد أنّها كانت تستطيع أحيانًا أن تدّخر القليلَ منه، لأنَّ طموحاتها كانت بسيطة جدًّا، واحتياجاتها غير كبيرة. كانت مداخيلها من غسل الكلاب، ومن عملها سكرتيرةً لألما، التي كانت تبحث دائمًا عن أسباب لتدفع لها أكثر، تُشْعِرُها بأنَّها ثريّة. وهكذا تحوَّلتْ *لارك هاوس* إلى مسكنها، واحتلّ النزلاءُ ـ الذين كانت تحتكّ بهم يوميًّا ـ مكانَ أجدادها. كانت تحسّ بالشفقة حيال هؤلاء الكهول البطيئين والمتثاقلين، العليلين والشاحبين...

كانت تتعامل مع مشاكلهم بمزاج في منتهى الروعة، ولا يزعجها أن تكرّر ألف مرَّة الجوابَ نفسَه عن السؤال نفسه. وكانت تحبّ دفع الكراسي المتحرِّكة، وإذكاءَ الحماسة، والمساعدةَ، والمواساة. تعلَّمتْ كيف تتفادى نوبات العنف، التي كانت تنتابهم أحيانًا كعواصف موسميَّة. ولم تعد تخشى البخلَ أو العادات الغريبة التي كانت تلاحق البعض، نتيجةً حتميَّةً للإحساس بالوحدة. كانت تحاول أن تفهم معنى تَحَمُّل وطأة فصل الشتاء على عضلات ظهورهم، وأن تتفهَّم الخوف من كلِّ خطوة يَخْطونها، وأن تمحِّص الغموضَ حيال الكلمات التي لم

يسمعوها جيِّدًا، والانطباع من أنَّ الإنسانيَّة من حولهم تجري بسرعة فائقة وتتحدَّث بعجالة. باتت تُدرك كذلك معنى الفراغ، والوهن، والتعب، وتجاهل كلّ ما لا يعنيهم. حتى أبناؤهم وأحفادهم الذين غابت صورهم عن الذاكرة لم يعد غيابُهم مصدرَ قلقٍ، كما كان الأمرُ من قبل.

كانت إيرينا تحسُّ بالحنان تجاه التجاعيد، والأصابع المقوّسة، وضعف البصر. وكانت تتخيّل نفسها ومنظرها في سنِّ الشيخوخة والكهولة.

لم تكن ألما بيلاسكو تدخل ضمن هذا الصنف. فإيرينا لم تكن ترعاها، بل بالعكس كانت ألما هي من تعتني بها، فراحت إيرينا تُثمِّن دور ابنة الأخ الذي أُنيط بها. كانت ألما برغماتيَّة وملحدة ومرتابة، لم يكن ممكنًا الحديثُ معها عن الأبراج، أو الأشجار الناطقة، فهذه أمور لا تنفع معها. كانت إيرينا تحسّ برفقتها براحة تبدِّد كلّ مخاوفها. تتمنّى أن تكون مثل ألما، فتعيش في واقع ملموس، بحيث كلّ المشاكل لها أسباب وتداعيات وحلول، وبحيث لا مجال لكائنات فظيعة متربِّصة في الأحلام، ولا لأعداء شهوانيِّين يتجسَّسون في كلِّ ركن. كانت الساعات برفقتها تمرُّ رائعة، بل كان في مقدورها العمل مجّانًا ومن دون أيِّ مشكلة، فاقترحت الأمر عليها مرَّة «*أنا لديَّ الكثير من المال، وأنت تحتاجين إليه، لا تفتحي هذا الموضوع ثانية*»، أجابتها ألما بنبرة حادَّة لم تلجأ إليها معها من قبل.

سيت بيلاسكو

كانت ألما بيلاسكو تستمتع بتناول فطورها في هدوء تامّ، وتُطالع نشرات الأخبار عبر شاشة التلفاز. في ما بعد، تذهب لحضور حصص اليوغا أو المشي ساعةً على قدميها. وعند عودتها، كانت تستحمّ، وترتدي ملابسها. وما إنْ تشعر بأنَّ قدوم خادمة البيت قد حان، حتى تهرع إلى العيادة لمساعدة صديقتها كاتي؛ فأفضل علاج للآلام هو العمل على تسلية المرضى، والحفاظ على حركيَّتهم. كانت كاتي دائمًا في حاجة إلى متطوِّعين إلى جانبها في العيادة، وسبق أن التمستْ من ألما أن تعطي دروسًا في الرسم على الحرير، بيد أنّ هذه المهمَّة كانت تحتاج إلى فضاءات وأدوات لا يستطيع أحد تغطية مصاريفها. وكانت كاتي تعترض على تكفُّل ألما بكلِّ المصاريف؛ فقد يخدش هذا الأمرُ كرامةَ المشاركين، إذ لا أحد يجب أن يكون مصدر شفقة، كما قالت. وبالنظر إلى هذه الوضعيَّة، ارتأت ألما أن توظِّف تجربتها القديمة مع ناتانيل وإيشيمي فوق سطوح سي *كليف*، لارتجال عروض مسرحيَّة غير مكلفة ومضحكة جدًّا. كانت ألما ترتاد المرسم ثلاث مرَّات في

الأسبوع للرسم برفقة كيرستن. ونادرًا ما كانت تأكل في سفرة لارك *هاوس*، إذ كانت تفضِّل تناول وجبة العشاء في مطاعم الحيِّ، حيث الكلّ يعرفها، أو داخل شقَّتها، إذا ما بعثتْ لها كَنّتها مع السائق إحدى الوجبات التي تحبُّها.

كانت إيرينا تحرص على توفير الضروريّات في المطبخ من الفواكه الطازجة، والشوفان، والخبز الكامل، والعسل. ومن مهامِّها، كذلك ترتيبُ الأوراق، وتنظيمُ المواعيد، والذهاب للتسوُّق أو إلى المصبغة، ومرافقةُ ألما في أشغالها، والاعتناء بالقطّ، وتنظيم طقوس الحياة الاجتماعيَّة التي لم تكن عديدة. عادةً، كانت ألما وسيت يستدعيانها لحضور مأدبة الغداء الدومينيكيّ الإجباريّ، التي تُقام في سي *كليف*، بمناسبة تقديم العائلة مراسيمَ الولاء للسلطة الأميسيَّة. بالنسبة إلى سيت، الذي كان يتذرّع سابقًا بشتّى أنواع الحجج كي لا يصل إلَّا قُبَيْل انتهاء الحفل، إذ إنَّ غيابه الكامل كان من الموبقات المستبعدة تمامًا، فقد بات يستأنس الآن بحضور إيرينا. كان لا يزال يلاحقها بقوَّة، ولمَّا كانت النتائج مخيِّبة دائمًا للآمال فقد واظب على خروجه مع صديقات الماضي اللاتي كُنّ يتحمّلن طبائعه المتقلِّبة بكلِّ أريحيَّة. كان يشعر بالملل برفقتهنَّ، ولم تستطع هذه المحبَّة إثارة غيرة إيرينا. فكما كانت تقول جدّته دائمًا، « *لِمَ تضييع العتاد والذخيرة في الصقور؟* ». كانت هذه مقولة أخرى في سجلِّ الأقوال المأثورة الغامضة التي كانت تُروّج بين عائلة بيلاسكو. كانت هذه اللمَّة العائليَّة تشكِّل بالنسبة إلى ألما مناسبة ذهبيّة لصلة الرحم مع ذويها، وخصوصًا مع حفيدتها باولين، فـ سيت كانت تراه مرارًا. لكنّ هذه الاجتماعات غالبًا ما كانت تنتهي بفرقعة. فأيُّ موضوع كان كفيلًا بإثارة حزازات، بسبب هذه العادة السيِّئة في إثارة مواضيع تافهة. فسيت مثلًا كان يبحث دائمًا عن دوافع

لإحراج والديه وتحدِّيهما. وپاولين كانت تبدو متعاطفة مع قضيَّة معيَّنة، لا تملّ من شرح أدقّ تفاصيلها، كقضيَّة ختان الإناث، أو قضيَّة مذابح الحيوانات. ودوريس كانت تحرص على تقديم أروع ما جادت به قريحتها في عالم الطبخ، من مآدب شهيَّة، قلَّما كانت تحظى بثناء الجميع، فينتهي بها الأمر إلى البكاء والاستياء. أمَّا لاري الطيِّب فكان يقوم بعروض بهلوانيَّة لتفادي أيّ نوع من الاصطدام. أمَّا الجدَّة، فكانت تدفع بإيرينا إلى الوسط للتخفيف من حدَّة الضغط، وذلك لأنَّ عائلة بيلاسكو كانت تحرص دائمًا على التعامل بنوع من الرقيّ مع الغرباء، وإنْ تعلَّق الأمر بموظَّفة بسيطة جدًّا من *لارك هاوس*. بدا قصر سي *كليف* لـ إيرينا فخمًا جدًّا، بغرف نومه الستّ، وصالونيْه، ومكتبة مليئة بالكتب، وأدراج ثنائيَّة من الرخام وحديقةٍ غنَّاء. لم يُصِب البناية التضعضعُ البطيءُ لِمَا يقرب قرنًا من الزمان، فالمراقبة الدؤوبة لدوريس تمكَّنت بصعوبةٍ من ملاحقة الصدأ الذي يعلو الشبابيكَ الزخرفيَّة، وبعض التقعّرات التي أصابت الشقَّةَ والجدران بسبب بعض الهزَّات الأرضيَّة، والأرضيَّة المبلَّطة والمشقَّقة، وآثار سوسة الخشب.

بُنِيَ المنزل في مكان مميَّز فوق ربوة بين المحيط الهادي وخليج *سان فرانسيسكو*. وفي الفجر، كان الضباب الكثيف، المنبعث من جهة البحر في شكل كتل قطنيَّة، يحجب بالكامل جسرَ *غولدن غيت*. وما إنْ ينبلج الصباح حتى تتبدَّد كتلُ الضباب، فيبدو الهيكل الرشيق من الحديد الأحمر كأنَّه يعانق السماء، وقد حطَّت عليه النوارسُ، بمحاذاة حديقة عائلة بيلاسكو.

ومثلما تحوَّلتْ ألما إلى خالة متبنِّية لإيرينا، تقمَّص سيت دورَ ابن الخالة، بعد أن فشلتْ كلُّ مساعيه في امتلاك قلب إيرينا. ففي السنوات الثلاث التي أمضياها معًا، تعزَّزتْ أواصرُ علاقتها التي بُنيتْ

على أساس وحدة إيرينا، وولع سيت بها، ومحبَّتهما معًا لألما بيلاسكو. ولو أنَّ الأمر تعلَّق برجل آخر أقلّ عنادًا وعشقًا من سيت، لتنازل عن الموضوع. بيد أنَّه تعلَّم كيف يكبح جماح نفسه، وتأقلم مع سير السلحفاة الذي فرضتْه إيرينا. لم تكن العجلة لتنفعه؛ فإزاء أيِّ محاولة بالاقتحام، ستتراجع إيرينا، وسيصبح من العسير استعادة الثقة. وإذا حدث أن تلامسا بطريقة فجائيَّة، فقد كانت تنزوي هي بجسدها. وإنْ تعمَّد فعل ذلك، كانت تقفز من مكانها. كان سيت يحاول عبثًا إيجادَ تفسير لهذه التصرُّفات ولانعدام الثقة التي أعربت عنها إيرينا التي طبعتْ ماضيه. لم يكن في مقدور أحد أن يتكهَّن، منذ الوهلة الأولى، بطباع إيرينا الحقيقيّة، والتي استطاعت أن تكسب، في ظرف وجيز، لقبَ أفضل الموظَّفات وأعزّهنَّ في *لارك هاوس*، بدماثة خلقها، وسجيَّتها المتفتِّحة. بيد أنّه كان يعلم بأنَّ وراء هذه الواجهة يقبع سنجاب شديد الارتياب.

خلال هذه السنوات الثلاث، راحت تتحدّد معالم كتاب سيت الذي كان في صدد تأليفه، بلا عناء منه، وبفضل المادَّة التي كانت توفِّرها له جدّتُه، ولباقة إيرينا المتعطِّشة لقراءته ولطفها. فعلى عاتق ألما، أُلْقِيتْ مسؤوليَّةُ نقل تاريخ عائلة بيلاسكو: تاريخِ ما تبقَّى لها من أقارب، بعد أن أبادت الحربُ عائلةَ ميندل من *بولندا*، وقبل أن يَظهر من جديد أخوها صامويل. لم تكن عائلة بيلاسكو تُحسَب من العائلات العريقة لـ *سان فرانسيسكو*، ولو أنَّها كانت من الأسر الميسورة. غير أنّه كان في مقدورها رسم خارطة لأصولها إلى حدود حمّى الذهب[١]. من بينهم، كان هناك دافيد بيلاسكو (David Belasco)، وهو مخرج

---

(١) ملاحظة المترجمة: مرحلة تدفُّق الناس على موطن جديد طلبًا للثروة.

ومنتج مسرحيّ، ورجل أعمال وصاحب أزيد من مئة عمل مسرحيّ. غادر المدينة سنة ١٨٨٢ وتألّق في برودواي (Broadway)، ووجَد الجَدّ إسحاق الذي كان ينتمي إلى العائلة التي فضَّلت البقاء في *سان فرانسيسكو* فعشّش فيها، وراكم ثروة طائلة من خلال مكتبه للمحاماة وحنكته في الاستثمارات.

كان على سيت، مثل جميع ذكور عائلته، أن يصبح شريكًا في مكتب المحاماة، وعلى الرّغم من افتقاره إلى الحسِّ النضاليّ الذي تمتَّعت به الأجيال السابقة. ولج الجامعة وتخرّج منها رغمًا عنه، ومارس القانون لأنّه كان يشفق على حال الزبائن، لا لأنَّه كان يثق بالعدالة، أو كان جشعًا. كانت أخته *باولين*، التي تصغره بسنتين، أكثر تهيُّؤًا منه لهذه الوظيفة النكراء، لكنّ هذا لم يكن ليُعفيه من واجباته في الإمضاء. كان قد أتمّ ربيعه الثاني والثلاثين من دون أن يتخلّص من تهوُّره الذي كان سببَ عتاب الوالد له. فكان يترك القضايا الشائكة في عهدة أخته، لينغمس في الملذّات، من غير أن يعبأ بالمصاريف، فيقضي وقته مع عاشقات معجبات ولا يمكث مع أيِّ واحدة منهنّ. كان يتشدّق بموهبته الشعريّة وبحبِّه لسباق الدرّاجات، ليبهر الصديقات، ويُفزع آباءهنّ، لكنّه كان لا يفكِّر بتاتًا في التنازل عن المداخيل المضمونة التي كان يوفِّرها مكتبُ المحاماة. لم يكن مستهترًا، بل كان كسولًا في العمل، وعشوائيًّا في كلِّ أمور حياته. كانت الدهشة الأولى حينما اكتشف تناسل صفحات مسوّدة الكتاب، داخل الحقيبة المخصّصة لحمل الوثائق إلى المحاكم. هذه الحقيبة الجلديّة الثقيلة بلون الكاراميل، والتي كانت تحمل الحروف الأولى لاسم جدِّه منقوشةً بالذهب الخالص، كانت تبدو من الأثريّات في الحقيبة الرقميّة. كان سيت يحملها تيمُّنًا بها، معتقدًا أنّها تمتلك قدرات

خارقة، وهذا هو التفسير الوحيد لتناسل أوراق مخطوطته. فالكلمات كانت تُولد وحدها في الرحم الخصبة لهذه الحقيبة، وكانت تَعْبُر بهدوءٍ جغرافيَّةَ مخيِّلته، حتى بلغ عدد الصفحات مئتين وخمس عشرة صفحة. كُتبتْ بتدفُّق كبير، من غير أن يعير التنقيح والتصحيح اهتمامًا. فنيَّته كانت سردَ ما يمكن انتزاعُه من جدَّته، وتطعيمه بإضافات من قَطْفِه الخاصّ؛ وفي ما بعد، يتعاقد مع كاتب مجهول وناشرٍ حذقٍ يستطيعان معًا أن يعطيا شكلًا للكتاب ويصقلاه. هذه الصفحات لم تكن لترى النور لولا إصرار إيرينا على قراءتها، وجرأتها على انتقادها، الأمر الذي كان يدفعه إلى كتابة عشر صفحات أو خمس عشرة صفحة دفعة واحدة، من دون أن يخطِّط لذلك. وبهذه الطريقة، تحوّل إلى روائيّ.

كان سيت هو الوحيد من أفراد العائلة الذي تشتاق ألما إلى رؤيته، ولو أنّها لم تُقِرّ بذلك يومًا. فإذا مرَّت أيَّام من دون أن يهاتفها أو يزورها، تعكَّر مزاجها، وسرعان ما اختلقتْ عذرًا لاستدعائه. وكان هو لا يدعها تنتظر، فيصل قبل أن يرتدّ إليها طرفها، متأبِّطًا خوذة الدرّاجة الناريّة، فيدخل عليها بشعره المبعثر، ووجنتيه المحمرَّتين، حاملًا هديّةً رمزيّةً إليها وإلى إيرينا: علبة حلويات مصنوعة من الحليب، أو صابونًا بنكهة اللوز، أو أوراقَ رسم، أو أشرطةَ ڤيديو لأفلام الرعب. فإذا لم يجد الفتاة حاضرة، بدا الاستياء عليه جليًّا، لكنّ ألما كانت تتجاهل الموضوع. كان يحيِّي جدَّته بتربيتةٍ خفيفة على كتفها، فتجيبه بصوت يشبه قِباع الخنازير؛ هذه كانت تحيّتهما. كانا يتعاملان بنوع من الصراحة والتواطؤ، كأنّهما رفيقا مغامرة. وبعيدًا عن كلِّ أشكال العاطفة التي كانا يعتبرانها عملة قديمة، كانا يتجاذبان أطراف الحديث لمدّة طويلة، وبطلاقة النساء الفضوليّات، المتطفِّلات. بدايةً، كانا يناقشان، بعجالة شديدة، أهمّ ما ورد في نشرات الأخبار

الأخيرة، ويعرِّجان في ما بعد للحديث عن أحوال العائلة باقتضاب، لينغمسا في النهاية في الحديث في أمور تخصُّهما. كانا متعلِّقَيْن بماضٍ أسطوريٍّ مليء بوقائع وطرائف قَلَّ نظيرُها اليوم، وبأشخاص وأزمنة سبقتْ ولادةَ سيت. كانت ألما تبدو برفقة حفيدها كأنَّها من الراويات الأسطوريَّة. تتخيَّل قصر ڤارصوفيا شامخًا حيث أمضت سنوات طفولتها الأولى، بِغُرَفِهِ المعتمة والمؤثَّثة بأثاث أثريٍّ فخم، وفيلق الخادمات بالزيِّ الرسميّ الذي يتناسب مع الجدران، من دون أن يرفعن بصرهنَّ؛ بيد أنَّها كانت تضيف عناصر خياليَّة، فتدرج خبر خيل **بوني**، القمحيّ اللون، ذي الشعر الطويل والكثيف على العنق، وكيف أَنَّه تحوَّل إلى وجبة دسمة أيَّام الجوع.

أَحْيت ألما الجدَّين ميندل، وأعادت إليهما كلّ ما سَلبه إيَّاه النازيُّون، فأجلستهما إلى مائدة القدَّاس المزيَّنة بالشمعدان والشوك والسكاكين الفضِّيَّة، والكؤوس الفرنسيَّة، وخزف *باڤيرا* (Baviera)، وأغطية السفرة المطرَّزة بأيدي راهبات دير إسپانيّ. كانت فصاحتها في الحلقات المأساويَّة كبيرة جدًّا، إلى درجة أنَّ سيت وإيرينا ظنَّا أنَّهما برفقة أفراد عائلة ميندل في الطريق إلى *تريبلينكا*، وأنَّهما رافقاهم على متن قاطرة السلع، المكتظَّة عن آخرها بمئات التعساء واليائسين والظمأى، بلا هواء ولا ضوء، يتقيَّأون، ويتغوَّطون، ويُحتضرون، فدخلا معهم عاريَيْن إلى الغرفة المرعبة، وتلاشيا معهم في دخان المدخنات. رَوَت لهما ألما كذلك قصَّة الجدِّ إسحاق، وكيف لقي حتفه في أحد شهور فصل الربيع، في ليلة عاصفةٍ وثلجيَّة أتت على الحديقة بالكامل، فلم تُبقِ ولم تذر. حكت لهما كذلك تفاصيل إعداد جنازتين للجدِّ، إذ إنَّ المكان في الجنازة الأولى لم يتَّسع لاحتواء العدد الهائل من الوافدين لتقديم التعازي؛ فمئاتٌ من البيض، والسود،

والآسيويِّين، واللاتينيِّين، إضافة إلى آخرين مَدينين له بالفضل، اصطفُّوا في المقبرة، وكان على الحاخام أن يُعيد الطقوس من جديد. وروت لهما كذلك حكاية الجدَّة ليليان، المحبَّة لزوجها إلى الأبد، وكيف أنَّها فقدت البصرَ في اليوم الذي توفِّي فيه زوجُها، فعاشت ما بقي لها من العمر في الظلام، من دون أن يفلح الأطبَّاء في معرفة السبب. كما عرَّجت في حكاياتها للحديث عن عائلة فوكودا، وعمليَّات إجلاء الصينيِّين، التي طبعتْ طفولتها، بيد أنَّها لم توضح كثيرًا نوعيَّة العلاقة التي كانت تربطها بإيشيمي فوكودا.

عائلة فوكودا

عاش طاكاو فوكودا في الولايات المتَّحدة الأميركيّة منذ عشرين عامًا، من دون أن يُعرب عن رغبة في التأقلم. وسيرًا على نهج العديد من أفراد عائلة إيشي، وهُم من الجيل الأوّل من المهاجرين اليابانيّين، لم تكن له رغبة في الانصهار في البوتقة الأميركيّة، مثلما تفعل الأجناسُ الأخرى الوافدة من زوايا الأرض الأربع. كان فخورًا بثقافته ولغته اللتيْن حافظ عليهما، وعبثًا كان يحاول تمريرَهما إلى الجيل الجديد، المنبهر بعظمة أميركا. كان يعشق أمورًا كثيرة في هذه الأرض الشاسعة والتي يختلط فيها الأفقُ بالسماء، غير أنّه لم يستطع التخلُّص من شعورٍ بالسموِّ كان يلازمه دائما، ولا يفصح عنه قطّ خارج بيته، لأنَّه كان يعتبر هذا النوع من الخُيلاء إهانةً لا تُغتفر في حقِّ البلد الذي استضافه. ومع مرور السنين، انزلق في مغبّة الغربة وحِيَلِها. فراحت تتلاشى نصبَ عينيه الأسبابُ التي غادر من أجلها اليابانَ، وانتهى به الأمر إلى تمجيد العادات والتقاليد التي كانت سببًا في الهجرة. كانت تَصْدمه سلطويّةُ الأميركيين ومادِّيَّتُهم، اللتان كان يعتبرهما نوعا من

الابتذال، لا طبعًا أو طريقةً في العيش. كان يُحزنه كثيرًا منظرُ أبنائه وهم يقلِّدون قيم البيض الفرديَّة وسلوكيَّاتهم الفظَّة. وُلد أبناؤه الأربعة في *كاليفورنيا*، لكنَّهم كانوا يحملون الدم اليابانيّ من جهتَي الأب والأمّ معًا، فلا شيء إذن كان يفسِّر ذلك التجاهل لأسلافهم، والاستهتار بالهرميَّة والتسلسل. كان كلُّ واحد فيهم يجهل منزلته، وكلُّهم تأثَّروا بعدوى الطموح غير المعقلن للأميركيين، الذين لا يعرفون معنى المستحيل. كان طاكاو يعلم بأنَّ أبناءه يخذلونه حتى في الأمور الأخلاقيّة: يشربون الجعة حتى الثمالة، ويلوكون اللُّبان مثل الحيوانات المجترّة، ويرقصون على الإيقاعات الصاخبة الدارجة، بشعر برّاق وحذاء بلونين. وبالطبع، لن يستبعد أن يكون شارل وجيمس يبحثان عن أماكن منزوية ومظلمة للانفراد بفتيات ساقطات، لكنَّه كان يثق بأنَّ ابنته ميگومي لن ترتكب مثل هذا الفحش. كانت ابنته تقلِّد الأزياء الرديئة للفتيات الأميركيّات، وتقرأ خفيةً المجلّات الورديَّة، وتشاهد حثالةَ السينما، التي كان يمنعها من الاطّلاع عليها. لكنّها في المقابل كانت تلميذةً مجدّة، وعلى الأقلِّ كانت تبدو في مظهرها فتاة محترمة. كان طاكاو يستطيع السيطرة على إيشيمي وحده، لكنَّ الوقت لن يمهله كثيرا، إذ سيفرّ الولد من يده مثل أخويه، ويتحوّل إلى غريب. كان هذا هو ثمنَ العيش في أميركا. هاجر طاكاو فوكودا سنة ١٩١٢ لأسباب ميتافيزقيّة مخلِّفًا عائلته وراءه. بيد أنّ هذه الأسباب سرعان ما تلاشت، ومرارًا كان يتساءل لماذا اتّخذ هذا القرار القطعيّ. كانت اليابان قد انفتحتْ على المُؤثِّرات الخارجيّة، وكان هناك العديدُ من الشباب الذين رحلوا في سبيل البحث عن فرص جديدة. إلّا أنّ مغادرة الأوطان كانت تُعتبر في نظر عائلة فوكودا بمثابة خيانةٍ لا تُغتفر؛ فهم ينحدرون من سلالة عسكريّة، أهدرت الدمَ لقرون عدّة من أجل الإمبراطور.

ولمّا كان طاكاو هو الابن الوحيد من أصل أربعة أطفال، وتمكّن من النجاة من جائحة الطاعون وأحداث الطفولة، فقد كان الأمل معقودًا عليه في حمل شرف العائلة؛ وكان هو المسؤول عن أبويه وأخواته، والمكلَّف بتبجيل أسلافه في هيكل البيت وفي المناسبات الدينيَّة. لكنَّه اكتشف في الخامسة عشرة من عمره الطريقة الروحانيَّة، «أوموتو»، (Oomoto)، طريق الآلهة، وهي ديانة جديدة اشتُقَّت من الشنتويَّة التي اشتُهرتْ بها اليابان. وأحسَّ في النهاية بأنَّه وجد خارطةَ طريقٍ توجِّه خطواتِهِ في الحياة. وبحسب زعمائها الروحانيِّين، الذين كانوا في الغالب من النساء، ثمَّة آلهةٌ عديدة، لكنَّها في النهاية تنتمي إلى إله واحد، ولا تهمُّ الأسماء ولا الشعائر التي تُمارَسُ للتقرُّب زلفى إليها! فالآلهة، والأديان، والأنبياء والرسل، كلُّهم ينحدرون على مرِّ التاريخ من أصل واحد، ألا وهو الله خالقُ الكون، والروحُ الأبديَّة التي تحلُّ في كلِّ الموجودات. فبمعيَّة الإنسان، يحاول الربُّ تطهير الكون وإعادةَ بناء انسجامه. وبانتهاء هذه المهمَّة، يلتحم الربّ والإنسانيَّة والطبيعة في حبٍّ فوق الأرض، وفي العالم الروحانيّ.

استسلم طاكاو كلِّيًا لهذه العقيدة، التي كانت تنشد السلم الذي لا يمكن تحقيقه إلَّا انطلاقًا من فضائل النفس. فأدرك أنَّ نصيبه وقدره لا يمكن أن يكونا في مسيرة عسكريَّة، كما هي الحال مع بني جلدته؛ وأنَّ السبيل الوحيد للخلاص هو الرحيل بعيدًا، لأنَّ المكوثَ في البلد والتنازلَ عن حمل السلاح سيُفسَّران جُبْنًا لا يُغتفر، وهذا هو أسوأ عار يمكن أن يُلحقه بأسرته. حاول أن يوضح الأمر لأبيه، الذي انفطر قلبُه للخبر. لكنَّه عرض أسبابه بحماسة شديدة، إلى درجة أنَّ الأب اقتنع بأنَّ الولد راحل لا محالة. فالشباب المهاجرون لا يعودون أبدًا، والعار لا يمحوه سوى الدم، لأنَّ قتل النفس أفضلُ كثيرًا من الهجرة،

كما قال له أبوه. بيد أنَّ هذا الحلّ كان لا يتماشى مع مبادئ «أوموتو».

وصل طاكاو إلى ساحل *كاليفورنيا* حاملًا زوجين من ملابس التغيير، وصورةً للوالدين مُلوَّنةً باليد، وسيفَ الساموراي الذي ورثته العائلةُ عن أجيال سبعة، وتسلَّمه من والده ساعةَ الفراق. لم يكن الوالد ليهبه لإحدى بناته؛ فالسيف، بحسب الترتيب الطبيعيّ للأشياء، هو من حقِّ الولد وإنْ لم يستعمله. هذه الكاتانا كانت الثروة الوحيدة التي تمتلكها عائلةُ فوكودا، وكانت مصنوعة من أجود أنواع الفولاذ المطويّ، الذي أعاد حرفيُّون قُدامى طيَّه وصياغته ستّ عشرة مرَّة. كان النصل الطويل (القبضة) منقوشًا بالفضَّة والنحاس، وقد دُسّ في غمد من الخشب المزيَّن بورنيش أحمر وسبيكةٍ من ذهب. سافر طاكاو محمَّلًا بالكاتانا ملفوفةً في أكياسٍ لحفظها. غير أنَّ شكلها الطويل والمحنيّ كان واضحًا للعيان. كان الرجال الذين رافقوه خلال الرحلة المضنية في الجزء الأسفل من الباخرة يُعاملونه بوقار تامّ، لأنَّ السلاح الذي يحمله كان دليلًا على عظمة نسبه.

بعد نزوله من الباخرة، تلقَّى مساعدة فوريَّة من جماعة «أوموتو» لإيصاله إلى *سان فرانسيسكو*. وبعد أيَّام قليلة، باشر عمله الجديد كبستانيّ، برفقةِ واحد من أبناء بلده، بعيدًا عن نظرات العتاب التي يوجِّهها أبوه، الذي كان يُقرّ بأنَّ الجنديَّ لا يلطِّخ يده بالتراب بل بالدم فقط. انكبّ طاكاو على تعلُّم الحرفة الجديدة بإصرارٍ وتفانٍ، وفي وقت وجيز استطاع أن يفرض اسمه بين الإيشي الذين يعيشون على الفلاحة. كان مثابرًا في عمله لا يَكَلّ، وعاش متقشِّفًا ومستقيمًا كما تحثُّ على ذلك ديانتُه. وفي غضون عشر سنوات، استطاع أن يدّخر الدولارات الثمانمئة اللازمة قانونيًّا للزواج في اليابان. اقترحتْ عليه

الخاطِبة ثلاث مترشِّحات، فاختار الأولى، لأنَّه أُعجب باسمها؛ كانت تُدعى هيديكو (Heideko)، قصد طاكاو الميناء لانتظارها، مرتديًا بذلته الوحيدة والرثّة بجزيْئيّاتها البرّاقة في المرفقين والخصر، وحذاءه الجديد وقبَّعة باناما، اللذين اقتناهما بسعر جيِّد من *شاينا تاون* (حيّ صينيّ في أميركا). واتّضح أنَّ الزوجة المهاجرة كانت من القرويّات، وتصغره بعشر سنوات. وكانت قويَّة البنية، هادئة المُحيَّا، رزينةَ السجيّة، جريئةً في الكلام. ولم تكن مطيعةً بالقدر الذي أكّدته الخَاطِبة، وهو الأمر الذي لمسه منذ الوهلة الأولى. وبعد تخلُّصه من أثر الدهشة، اعتبر طاكاو هذه الشخصيَّة القويَّة نقطةً إيجابيَّة.

لم تكن أحلام هيديكو التي وصلتْ إلى كاليفورنيا كبيرة. ففي الباخرة التي سافرتْ على متنها، وتقاسمتْ فيها الفضاءَ الضيِّق الذي خُصِّص لها مع مجموعة من الفتيات من وضعيَّتها نفسها، استمعتْ إلى حكايات تنفطر لها القلوبُ، عن فتيات بريئات وعذارى مثلها، تكبَّدن مخاطرَ السفر عبر المحيط في سبيل الزواج من شباب ميسورين في أميركا؛ لكنْ بوصولهنّ إلى الميناء، وجدن في انتظارهنّ شيوخًا معوزين، أو في أسوأ الحالات، وجدنَ قوّادًا يبيعهنّ لبيوتِ الدعارة، أو يسوقهنّ إماءً إلى مصانعَ سرِّيَّة. لم تكن هذه هي حال هيديكو، لأنّ طاكاو فوكودا كان قد بعث إليها بصورة حديثة العهد، وشرح لها بصدق وضعيَّته، وأوضح أنَّه يستطيع فقط أن يوفِّر لها حياة الكدّ والعمل، حياةً شريفةً، لكنّها أقلُّ شقاءً من تلك التي كانت تحياها في قريتها في اليابان. ازدان فراشهما بأربعة أبناء: شارل وميگومي وجيمس؛ وبعد أن ظنّت أنّها وصلت إلى سنِّ اليأس وفارقت الخصوبة، وُلد إيشيمي سنة ١٩٣٢ قبل أوانه. كان من الأطفال الخُدّج، هزيل البنية إلى درجة أنَّهم ظنُّوا أنّه ميِّت لا محالة. فبقي بلا

اسم لعدَّة شهور، لكنَّ والدته تفانت في تقويته بكلٍّ ما أوتيت من صبر وقوَّة. فكانت تناوله منقوعَ الأعشاب، وتُخضعه لحصص وخز الإبر، والاستحمام بالماء البارد، إلى أن حدثت المعجزة، وأصبح الرضيع يتجاوب مع الحياة. آنذاك أعطوه اسمًا يابانيًّا، بخلاف إخوته الذين أُطلقتْ عليهم أسماء أَنْغلُو، سهلة النطق في أميركا. سمّوه إيشيمي، الذي يعني: الحياة، أو النور، أو البريق أو النجوم، بحسب الكانجي[1] المستخدم لكتابته. ومنذ الثالثة من عمره، كان إيشيمي يسبح مع سمك النون، في المسابح المحلِّيَّة في البداية، وفي ما بعد في المياه المتجمِّدة لخليج *سان فرانسيسكو*. أمَّا والده، فقد هذَّب طبعه بالعمل الجسديّ، وحبِّ النباتات، والفنون القتاليَّة. وفي الفترة التي وُلِدَ فيها إيشيمي، كان أفراد عائلة فوكودا يعملون جاهدين لتفادي الآثار الوخيمة لسنوات انجراف التربة. فكانوا يستأجرون أراضي في ضواحي *سان فرانسيسكو*، يزرعون فيها الخضروات والأشجار المثمرة لتزويد الأسواق المحلِّيَّة. كان طاكاو يُنمِّي مداخيله كذلك بالعمل مع عائلة بيلاسكو، العائلة الأولى التي منحته فرصة العمل بعد أن استقلَّ عن ابن بلدته الذي علَّمه المبادئ الأولى للبستنة. كانت سمعته الطيِّبة سببًا كافيًا للطلب إليه زرعَ حديقة في قصرٍ اقتناه إسحاق بيلاسكو لتوِّه في سي *كليف*، حيث كان يفكِّر في تشييد منزل لاحتواء الخَلف لمئة عام، كما ذكر يومًا للمهندس المعماريّ مازحًا، من دون أن يعلم بأنَّ ما قاله سيصبح حقيقة في ما بعد.

لم تكن تعُوزه المداخيلُ في مكتب المحاماة، لأنَّه كان يمثِّل الوكالة الغربيَّة للسكك الحديديَّة والملاحة في *كاليفورنيا*. كان إسحاق

(١) الكانجي: نظام الكتابة بالرموز، (المترجم).

من رجال الأعمال القلائل الذين لم يتأثَّروا بالأزمة الاقتصاديَّة. كان لديه احتياطيٌّ من الذهب استثمره في مراكب الصيد، ومخازن الخشب، وورشات الميكانيك، ومصبنة. وكان غرضه من هذه المشاريع كلّها هو تشغيل بعض اليائسين الذين يقفون في طوابير طويلة من أجل صحن حساء في مؤسَّسات خيريَّة، لتخفيف وطأة الفاقة عنهم. إلَّا أنَّه لم يكن يتوقَّع أنَّ هذا النوع من الإيثار والتفكير في مصلحة الآخر سيجلب له منافعَ لم تكن في الحسبان. وفي حين كانت أشغال بناء البيت تتمّ وفق رغبات زوجته المتقلِّبة، كان إسحاق يشاطر طاكاو حُلمه بغرس المناظر الطبيعيَّة للبلدان الأخرى فوق ربوة من الأحجار، معرّضةً لكتل الضباب والرياح. ولحظةَ نقل هذه التصوُّرات الحالمة إلى أرض الواقع، توطّدتْ بين إسحاق بيلاسكو وطاكاو علاقةٌ ودِّيَّة. فمعًا، كانا يقرآن فهارسَ المصنَّفات، وينتقيان ما يريدان، فيطلبان من قارَّات أخرى أن توافيهما بمختلف أنواع الأشجار والنباتات، التي كانت تصل إليهما ملفوفةً في أكياسٍ مبلَّلةٍ بتربتها الأصليّة الملتصقة بالجذور.

ومعًا، كانا يفكِّكان رموز تعليمات كُتيِّب الاستعمال، لتركيب المُسْتَنْبَت الزجاجيّ المستورد من لندن، قطعةً قطعةً، كأنّه البازل. ومعًا، كانا يحاولان الحفاظَ على عنصر الحياة متوهِّجًا في جنّةَ عدن تلك. كان إسحاق بيلاسكو رجلًا لا يبالي كثيرًا بالحياةِ الاجتماعيَّة، ولا يهتمّ بالشؤون الأسريَّة التي أودعها بالكامل لزوجته ليليان. وفي المقابل، كان يعوِّض هذا النقصَ الحاصل لديه بعشقه الجامح لعلم النباتات. كان لا يدَخِّن ولا يشرب، ولا يعاني حالات الإدمان المعروفة، ولا يسقط فريسةً للإغراءات التي لا تُقاوَم. لم يكن يتذوّق الموسيقى ولا الأكل الجيِّد. ولو لم تمانع ليليان، لاقتات واقفًا في

المطبخ من الخبز الخشن وشوربة المعوزين التي يحتسيها العاطلون عن العمل جرّاء النكبة الاقتصاديَّة.

كانت لهذا الرجل مناعة قويَّة ضدَّ كلِّ أشكال الفساد والزهو الاجتماعيّ. فعالمه كان النهم الثقافيّ، وتفانيه في الدفاع عن زبائنه عن طريق استخدام حيل الادِّعاء، وشفقته على المحتاجين. لكنَّ شغفه بالبستنة وأغوارها كان يفوق هذه الرغبات كلّها؛ فثلثُ مكتبته كان مخصَّصًا لكتب علم النبات. وساهمتْ صداقتُه مع طاكاو فوكودا؛ هذه الصداقة التي بُنيت على أساس الاحترام المتبادل وحُبّ الطبيعة، في تهدئة روحه، وصارت بلسمًا ضروريًّا لإحباطاته التي يعيشها في ممارسته القانون.

وكان إسحاق بيلاسكو، في حديقته يتحوَّل إلى تلميذ صنعة متواضع، يتتلمذ على يد المعلِّم اليابانيّ الذي كشف له أسرارَ عالم النباتات، التي قلَّما تُفصح عنها الكتبُ المختصَّة. كانت ليليان تعشق زوجها، وتعتني به اعتناءَ العاشقة الولهانة، غير أنَّ عشقها كان يزداد كلَّما لمحته من شرفة البيت، يشتغل مع البستانيّ ساعدًا بساعد؛ مرتديًا سروال العمل، ومنتعلًا جزمةً، وواضعًا قبَّعةً من القشِّ فوق رأسه، يتفصَّد عرقًا تحت وطأة الشمس الحارقة، أو مبلَّلًا برذاذ المطر. كانت روح الشباب تدبُّ في إسحاق بيلاسكو من جديد، ويبدو في عينيْ ليليان كأنَّه الخليلُ الولهان الذي فَتَنَها وهي في التاسعة عشرة، أو الرجلُ الحديثُ العهد بالزواج وهو ينقضّ عليها وهما يعودان أدراجهما قبل أن يصلا إلى الفراش.

بعد مرور سنتين من وصول ألما للعيش في بيت إسحاق، تعاقد هذا الأخير مع طاكاو فوكودا لإرساء دعائم مشتل للورود والنباتات الزخرفيَّة، بنيَّة تحويله إلى أفضل مُسْتَنْبَتٍ في *كاليفورنيا* برُمَّتِها. كانت

الخطوة الأولى هي شراء بقع أرضيَّة باسم إسحاق، كإجراء احترازيٍّ من القانون الصادر سنة ١٩١٣، والذي يقضي بمنع عائلات إيشي من الحصول على الجنسيَّة وامتلاك الأراضي أو شراء الممتلكات. كانت هذه الخطوة تَشكِّل بالنسبة إلى فوكودا فرصة ذهبيّة، وبالنسبة إلى بيلاسكو لم يتعدَّ الأمر كونه استثمارًا جريئًا، كالذي سبق أن خاضه خلال السنوات الدراميَّة للنكسة الاقتصاديَّة. لم تكن تقلُّبات بورصة القيم تستهويه كثيرًا، بل كان يفضِّل الاستثمار في منابع العمل. واتّفق الطرفان على نقل ملكيَّة المشتل إلى اسم شارل، الولد الأكبر لطاكاو عند بلوغه سنّ الرشد، وعند استطاعة فوكودا شراء نصيبه من بيلاسكو بثمن البيع الأوَّل نفسه، وآنذاك تنتهي الشراكة بينهما. كان هذا التفويت ممكنًا في حقِّ شارل الذي وُلد في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وبذلك يُعتبر مواطنًا أميركيًّا. وانتهى هذا الاتِّفاق الذي كان في بنوده بطوليًّا، وخُتِم بمصافحة قويَّة.

لم تكن أصداء الحملات التشويهيَّة التي شُنَّت ضدّ اليابانيِّين تصل إلى حديقة أهل بيلاسكو. فالدعاية المغرضة كانت تتَّهمهم بمنافسة الفلّاحين والصيّادين الأميركان بطرق غير مشروعة، وتهديد شرف نساء البيض بنهم مُجونهم، وإفساد المجتمع بعاداتهم الشرقيَّة المناهضة للمسيحيَّة. لم تكن ألما تعلم بهذه الأفكار المسبقة إلّا بعد مرور سنتين من وصولها إلى *سان فرانسيسكو*. فبين عشيّة وضحاها، تحوَّلتْ عائلة فوكودا إلى خطر أصفر. آنذاك، كانت الصداقة بينها وبين إيشيمي قد توطّدتْ بشكل كبير.

دمّر الهجوم المباغت لبحريَّة الإمبراطوريّة اليابانيَّة، في ميناء پيرل هاربر، ثماني عشرة بارجة حربيَّة تابعة للولايات المتَّحدة الأميركيّة، وخلّف ألفين وخمسمئة قتيل وألف جريح. وفي أقلٍّ من أربع وعشرين

ساعة، غيَّر هذا الحدث مجرى التاريخ، وأرغم الأميركيين على دخول الحرب العالميَّة الثانية، فأعلن الرئيس روزفلت الحرب على اليابان. وبعد أيّام قليلة، أعلنت قوى التحالف الألمانيَّة والإيطاليَّة، في شخصَيْ هتلر وموسوليني، وبائتلافٍ مع إمبراطوريَّة الشمس الحديثة العهد، الحرب على الولايات المتَّحدة الأميركيَّة بدورها. وهكذا، تمَّت تعبئة البلاد للمشاركة في هذه الحرب، التي أراقت الدماء الأوروبيَّة لأكثر من ثمانية عشر شهرًا. كانت حالة الهلع القصوى التي خلَّفها الهجومُ اليابانيّ في صفوف الأميركيين مصحوبةً بحملات إعلاميَّة هيستيريَّة، تُنذر بالغزو الوشيك لـ «الصُّفْر» على سواحل المحيط الهادئ. وهكذا، تأجّجتْ صُوَرٌ حقد دفين كان موجودًا لأزْيَد من قرن ضدَّ الآسيويِّين. وأصبح اليابانيُّون الذين عمَّروا البلاد لسنين عدَّة، وأبناؤهم وحفدتهم، محطَّ شكوك، واتُّهموا بالتواطؤ مع العدوِّ والتجسُّس لحسابه. فشُنَّت حملاتٌ تمشيط واعتقالات واسعة. كان يكفي وجود جهاز إرسال بموجات قصيرة على متن قارب، وهو الوسيلة الوحيدة التي يتَّصل من خلالها الصيّادون مع الأرض، ليتمّ اعتقال صاحبه. وكان الديناميت الذي يفجِّره أهلُ القرى لاجتثاث الجذوع والأحجار من الأراضي الزراعيَّة، يُعتبر دليلًا على الإرهاب. كانت السلطات تُصادر كلّ شيء، بدءًا من بنادق الصيد، وصولًا إلى سكاكين المطبخ ومعدَّات العمل، والمناظير، وأجهزة التصوير، والتماثيل الدينيَّة الصغيرة، وأزياء الكيمونو الاحتفاليّة، ووثائق مكتوبة بلغة أخرى. وبعد مرور شهرين، وقّع الرئيس روزفلت، لأسباب أمنيّة وعسكريّة، على وثيقة طرد كلٍّ من ينحدر من الأصول اليابانيَّة من سواحل المحيط الهادئ ـ *كاليفورنيا*، *أوريغون*، *واشنطن* ـ حيث يمكن أن تشنّ القوّات الصفراء المرابطة هناك غاراتها. كما أُعلنتْ ولايات *أريزونا*، *وإيداهو*، *ومونتانا*،

ونيفادا، ويوتا، ولاياتٍ عسكريَّةً، وأُعطيَ الجندُ مهلة ثلاثة أسابيع لتشييد الثكنات اللازمة.

في مارس، استيقظتْ ولاية سان فرانسيسكو على ضجيج الإعلانات الكثيرة التي تقضي بإجلاء السكّان اليابانيِّين. لم يفهم طاكاو وهيكيدو معنى هذه الأوراق المتناثرة في كلِّ مكان، لكنَّ شارل فسَّر لهما المعنى. في البداية، كانوا لا يستطيعون الخروج عن المسافة التي يشير إليها جهازُ الإرسال، والتي يحدِّدها في ثمانية كيلومترات انطلاقًا من البيت، إلَّا بإذن خاصّ. وكان عليهم الالتزام بحظر التجوُّل الذي يُضرب ابتداءً من الساعة الثامنة زوالًا إلى حدود السادسة صباحًا. في المقابل، شرعت السلطاتُ في عمليَّة هدم البيوت ومصادرة الأملاك، واختطاف شخصيَّات نافذة مشكوك في نيّاتها إثارةَ الفتنة. فقُبض على رؤساء الجماعات، ومدراء الشركات، وأساتذة ومرشدين روحانيِّين، واعتُقِلوا في أماكن مجهولة، مخلِّفين وراءهم نساءً وأطفالًا في حالة هلع وذعر كبيريْن. وإزاء هذه الأوضاع، بادر اليابانيُّون إلى إغلاق محلَّاتهم التجاريَّة، وبيع كلِّ ممتلكاتهم بسرعة فائقة، وبأثمان بخسة. وفجأةً، اكتشفوا أنَّ حساباتهم البنكيّة قد جُمِّدت كذلك، فضاقت عليهم الأرضُ بما رحبتْ. وشاءت الأقدار ألَّا يرى مشتلُ طاكاو فوكودا وإسحاق بيلاسكو النورَ أبدًا، وألَّا يتحوَّل حلمهما إلى حقيقة.

في آب، رُحِّل أكثر من مئة وعشرين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال. بُوشِرَ بترحيل الكهول من المستشفيات، والأطفال من دُور الأيتام، والمرضى النفسانيِّين من مراكز الإيواء، وزُجَّ بهم في معتقلات منعزلة. وباتت أحياء المدن خاويةً على عروشها، بأزقّتها الكئيبة، وبيوتها الخالية إلَّا من حيواناتٍ تخلَّى الأهلُ عنها، ومن أرواح الأجداد الضالَّة التي وصلتْ إلى أميركا برفقة المهاجرين. وجاء

الخطاب الرسميّ ليوضِّح أنَّ التدابير المتَّخذة تهدف في الأساس إلى تأمين سواحل المحيط الهادئ، وتوفير الحماية لليابانيِّين حتى لا يكونوا عرضةً لاعتداءات السكَّان. وعرَّج البيان إلى القول إنَّ هذه الحلول موقَّتة، وسيجري تطبيقُها بشكل إنسانيٍّ. لكنْ هيهات! فلغةُ الحقد كانت قد أتت على الأخضر واليابس. «*الأفعى تبقى أفعى، وإن اختلفت الأماكن التي تضع فيها بيضها. والرجل اليابانيّ الأميركيّ الذي وُلد من أبوين يابانيَّيْن، وترعرع في كنف تقاليد يابانيَّة، وعاش في جوٍّ مفعم بكلِّ ما هو يابانيّ، بغضِّ النظر عن بعض الاستثناءات، لن يكون سوى يابانيٍّ وليس أميركيًّا. كلُّهم أعداء*».

كان يكفي أن يكون أحد أجداد السلالة يابانيًّا ليصنَّفَ في خانة الأفعى. وما إنْ علم إسحاق بيلاسكو بخبر الترحال، حتى هرع ليعرض على طاكاو مساعدته، مؤكِّدًا له أنَّ غيابه لن يكون طويلًا، لأنَّ قرار الترحيل خرقٌ للدستور وتطاولٌ على مبادئ الديموقراطيَّة. شكر الشريك اليابانيّ مخاطبَه بانحناءة كبيرة، في تفاعل عميق مع صداقة هذا الرجل، وخصوصًا أنَّ عائلته عانت في الأسابيع الأخيرة كلَّ أشكال العنف، والعبارات النابية، والإهانات والاعتداءات التي كان يصوِّبُها البيض، فقال له Shlikata gan ai (ما عسانا نفعل؟) كانت هذه هي العبارة التي تلهج بها ألسنة ذويه في الساعات العصيبة. وإزاء الإلحاحات المتكرِّرة بالمساعدة، تجرَّأ طاكاو على طلب جميلٍ واحد، لخَّصه في الاستئذان بالسماح له بدفن سيف فوكودا في حديقة سي *كليف*، بعد أن استطاع إخفاءه عن عناصر الشرطة التي داهمت البيتَ استعدادًا لهدمه؛ فالسيف كان يرمز إلى بطولة أجداده، وإلى الدم الذي أُهدر في سبيل الإمبراطور، وثم ينبغي ألَّا يبقى عرضةً لأيٍّ شكل من أشكال العار.

في الليلة نفسها، توجَّه أفرادُ عائلة فوكودا، مرتدين كيموناتٍ بيضاءَ خاصَّةً بديانة أوموتو، إلى سي *كليف*، حيث وجدوا في استقبالهم إسحاق وولده ناتانيل بلباس قاتم قلَّما يرتديانه في المناسبات النادرة التي يتوجَّهان فيها إلى الكنيس. حضر إيشيمي، محمَّلًا بسلَّة مغطَّاة بخرقة، وضع فيها قطَّه الذي سلَّمه إلى ألما لتعتني به مدَّةً معيَّنة.

ـ ما اسمه؟ سألته الطفلة.

ـ نيكو. باللغة اليابانيَّة يعني قطًّا.

قَدَّمتْ ليليان، برفقة بناتها، الشايَ إلى هيكيدو وميگومي في أحد صالونات الطابق الأوَّل، في حين كانت ألما تتقفَّى آثار الرجال متسلِّلةً بين ظلال الأشجار، حاملةً بين ذراعيْها سلَّةَ القطّ. لم تفهم جيِّدًا ماذا يحدث، لكنَّها أحسّت بوطأة هذه اللحظات. انحدر الرجال إلى الأسفل عبر سطوح الحديقة، محمَّلين بقناديلَ مضاءةٍ بزيت القطران، إلى أن وصلوا إلى مكان قبالة البحر أعدُّوا فيه حفرة. كان طاكاو يتقدَّم الركب، واضعًا بين ذراعيه السيفَ الملفوفَ بقطعة حرير أبيض، يتبعه شارل، ابنُه الأكبر، وفي يده الغمدُ المعدنيّ، الذي صُنع لحفظه، ومن ورائه جيمس وإيشيمي، وبقي إسحاق وناتانيل بيلاسكو في مؤخّرة الركب. قام طاكاو، وعيناه مغرورقتان بالدموع التي لم يحاول إخفاءها، بالصلاة لعدَّة دقائق. بعدها دسّ السلاحَ في الغمد الذي كان يحمله ولدُه الأكبر، فسجد على ركبتيه، واضعًا جبهتَه على الأرض. فتقدَّم شارل وجيمس لوضع الكاتانا في الحفرة، في حين ظلّ إيشيمي يهيل حفنات التراب فوق القبر.

أنهوا عمليَّة الدفن، وقاموا بتسوية الأرض بمعاول. *«سأقوم غدًا بزرع زهور الكريزانتيم البيضاء هنا، لرشم المكان»*، أردف إسحاق بيلاسكو بصوتٍ مبحوحٍ من التأثُّر، وهو يساعد طاكاو على النهوض.

لم تجرؤ ألما على الركض نحو إيشيمي، لأنَّها تكهَّنتْ بوجود أسباب قاهرة لإقصاء النساء عن حضور هذا المأتم. انتظرت عودة الرجال إلى البيت، فانقضَّت على إيشيمي، وجرَّته إلى ركن منزوٍ. أخبرها الولد أنَّه لن يعود إلى رؤيتها السبتَ المقبل، ولا في الأيَّام الأخرى، لمدَّة زمنيَّة معيَّنة، وقد يطول الغياب أسابيعَ أو شهورًا، وأنَّه لن يكون في الإمكان كذلك الحديث عبر الهاتف. «لماذا؟ لماذا»؟ صرختْ ألما في وجهه، وهي تمسك بتلابيبه بقوَّة. لكنَّ إيشيمي لم يستطع إجابتها، لأنَّه بدوره لا يعلم سبب رحيلهم، ولا الوُجهة.

الخطر الأصفر

أحكمتْ عائلةُ فوكودا إغلاقَ النوافذ، ووضعتْ قفلًا للبوّابة الرئيسة. أدَّت واجباتِ الكراء لسنة كاملة، وأعطت نصيبًا من المال مسبَّقًا لشراء البيت، ريثما يحين موعدُ كتابته تحت اسم شارل. أهدَت ما لم تستطع أو تشأْ بيعَه، لأنَّ المضاربين قدَّروا بدولارَيْن أو ثلاثة دولارات قيمة ممتلكات تساوي عشرين ضعفًا. لم يكن لدى أفراد العائلة متَّسعٌ من الوقت للتصرُّف في ممتلكاتهم، وجمع عدّتهم، ولمّ عتادهم، لأنَّ حافلات العار كانت في انتظارهم. لم يبقَ لديهم من خيار سوى الحضور طواعيَّةً، لأنَّ أيَّ تماطل سيعرِّضهم للتعنيف، ولمواجهة أجهزة التجسُّس التي تنشط في زمن الحرب. انضمَّت عائلة فوكودا إلى مئات الأُسَرِ الأخرى، المتوجِّهة بخطًى بطيئة إلى مركز المراقبة المدنيَّة، حيث تمَّ استدعاؤها. كان المتوجِّهون يرتدون أفضل ما عندهم: فظهرت النساء بقبَّعات، والرجال بربطات العنق، والأطفال بأحذية برَّاقة. لم يكن لديهم من حلٍّ سوى الاستسلام، كانت تلك أسلمَ طريقةٍ للتعبير عن وفائهم للولايات المتَّحدة الأميركيَّة، والتنديد

بهجوم اليابان. فكما جاء على لسان زعماء الجماعة اليابانيَّة، كان هذا أقصى ما يمكن تقديمه إلى دولةٍ ستخوض غمار الحرب. وإزاء هذا التصريح، لم ترتفع أصوات معارضة لهذا القول.

استقرَّ المقام بعائلة فوكودا بمعتقل طوپاز (Topaz)، في منطقة قاحلة في ولاية يوتا. غير أنَّهم لم يعلموا بالأمر في البداية حتى حلول شهر أيلول؛ حينها كانوا في حالة انتظار، ولمدَّة ستَّة أشهر مكثوا في ملعبٍ لسباق الخيل. كانت عائلات إيشي، الكتومة جدًّا، تطيع الأوامر من دون أن تنبس ببنت شفة. بيد أنَّهم لم يستطيعوا أن يمنعوا بعض الشباب من الجيل الثاني، المعروفين باسم نيشي، من التظاهر علنًا، فكانت النتيجة أن عُزلوا عن عائلتهم كي يُرسَلوا إلى معتقل تول لايك (Tule Lake)، المعسكر الأكثر فظاعة، وليُعامَلوا مجرمين طوال سنوات الحرب. وقف البيض على طول الممرَّات شهودَ عيانٍ على هذه المسيرة المؤلمة لحشود يعرفون أصحابها حقَّ المعرفة: فمن بينهم كان أصحاب الدكاكين التي كانوا يتسوَّقون منها دائمًا، وبائعو السمك، والبستانيُّون، والنجَّارون، وزملاء أبنائهم في المدرسة والجيران. وكانوا يرقبون المنظر الرهيب في صمت، تخلَّلته بعضُ الشتائم العنصريَّة، والسخريات المبغضة. ثلثان مِن الذين رُحِّلوا خلال تلك الأيّام وُلدوا في الولايات المتَّحدة، وبالتالي فإنَّهم كانوا مواطنين أميركيين.

اصطفَّ اليابانيُّون في صفوف عريضة، ولساعات طوال أمام مكاتب المخبرين، الذين توَلُّوا تسجيلَهم، وتسجيلَ حمولاتهم، وإعطاءهم بطاقات ليعلِّقوها في أعناقهم، مع رقم التعريف. وقامت بعض العناصر من الطائفة البروتستانتيَّة المتديِّنة والمعارضة لهذه التدابير، التي وصفوها بالعنصريَّة والمعادية للمسيحيَّة، بمنح قوارير

المياه والشطائر والفواكه.

كان طاكاو فوكودا يتأهّب للصعود مع أسرته إلى الحافلة حينما أتى إسحاق بيلاسكو ماسكًا ألما بيده. استغلَّ نفوذه وسلطته لصدِّ المخبرين والجنود الذين حاولوا منعه من الوصول حيث الحشود الغفيرة. كان شديد الارتباك وهو يقارن ما يحدث على مرمى حجر واحد من بيته، بالأحداث التي عاشتها عائلة ميندل في فرصوفيا.

فسح الطريق بصعوبة شديدة ليعانق صديقه بقوَّة، وأودعه ظرفًا فيه نقود، تردَّد طاكاو في قبوله، في حين كانت ألما تودِّع إيشيمي قائلةً: «سأنتظر رسائلك، لا تنسَ أن تكاتبني». كان هذا هو آخر ما تداوله الأطفال، قبل أن ينطلق شريطُ الحافلات الحزين في رحلته. وفي نهاية الرحلة التي بدت لهم طويلة جدًّا، على الرَّغم من أنّها لم تستغرق سوى أزيد بقليل من ساعة واحدة، وصلتْ عائلة فوكودا إلى ملعب سباق الخيل طانفوران (Tanforan)، في مدينة سان برونو (San Bruno). كانت السلطات قد طوَّقت المكانَ بسياج من الأسلاك الشائكة، وبسرعة فائقة هيَّأت الإسطبلات، وبنت مراكزَ لإيواء ثمانية آلاف شخص. كان قرار الترحيل قد صدر بسرعة كبيرة، حتى إنَّه لم يمهل في الوقت لإرساء المرافق الضروريَّة ولا لتزويد المخيّمات بما يلزم. توقَّفت محرِّكاتُ الحافلات عن الاشتغال، وشرع المُرحَّلون في الهبوط وهم يحملون أبناءهم وصرّاتهم، ويساعدون كبار السنِّ على التقدُّم في المشي. كانت الحشود تتقدَّم صامتةً، مرتبكةً، من غير أن تعي فحوى الصراخ المنبعث من الأبواق. وكان المطر قد حوَّل المكان إلى بِرَكٍ من الوحل، وبلَّل الناس والأمتعة.

قام بعض الحرَّاس المسلَّحين بفصل الرجال عن النساء لأجل إجراء فحوصات طبِّيَّة. وفي ما بعد، تمَّ تلقيحهم ضدَّ حمَّى التيفوس

وداء الحصبة. وفي الساعات الموالية، حاولتْ عائلةُ فوكودا أخذ أمتعتها من بين أكوام الصرَّات المُكوَّمة بعضها فوق بعض، واستقرَّ بها المقام داخل إسطبل خاوٍ خُصِّص لهم.

كانت خيوط العنكبوت تتدلَّى من السقف. وكان المكان مليئًا بالصراصير والفئران، وطبقات الغبار والتبن. وكانت رائحة الحيوانات لا تزال عالقة بالهواء، وقد اختلطتْ بالكريبوسوت المستعمل مطهِّرًا للجراثيم. لم يكن في المكان سوى سرير واحد وكيس وبطَّانيَّتين عسكريَّتين لكلِّ شخص. جلس طاكاو فوق الأرض، وأسند مرفقيه فوق ركبتيه، ورأسه بين راحتيْ يديه. كان منهوك القوى، وقد أخذت منه الإهانةُ مأخذها. أمَّا هيكيدو فقد نزعتْ قبّعتها وحذاءها، وانتعلتْ نعلًا خفيفًا، وشمَّرتْ عن ساعديها محاوِلةً كسبَ الرهان. لم تُمهل أبناءها وقتًا طويلًا ليندبوا حظّهم التعيس، فأوكلتْ إليهم مهمَّة تركيب الأسرَّة والكنس، وأرسلتْ جيمس وشارل لجمع بعض الألواح والعصيِّ التي صادفوها في طريقهم، والتي كانت من مخلَّفات البناء المرتجل، لصنع الرفوف، ووضع بعض لوازم المطبخ التي جلبوها. كما أَوكلتْ إلى ميگومي وإيشيمي ملءَ الأكياس بالتبن لأجل الحصول على فراش، في حين ذهبت بنفسها لتتفقَّد حالة المرافق، والسلام على باقي النساء، وجسّ نبض الحرَّاس ومخبري المعتقل المنذهلين، شأنهم شأن المُرحَّلين الذين يوجدون تحت إمرتهم، فكانوا يتساءلون عن الوقت الذي سيمكثون فيه هناك.

كان الأعداء الوحيدون الذين استطاعت هيكيدو رصدَهم خلال جولتها التفقُّديّة المترجمين الكوريِّين الذين وصفتهم بالحاقدين على المُرحَّلين، والمتملِّقين للحرَّاس الأميركيين. كما عاينتْ دوراتِ المياه والحمَّامات التي كانت غير كافية، وكلُّها بلا أبواب. وكان هناك كذلك

أربع حمّامات للنساء فقط، ولم يكن الماء الساخن يكفي لكلٍّ النازحين. لم يبقَ ثمَّة مجال للحميميَّة.

لكنَّها عاينتْ أيضًا أنَّهم لن يُعانوا الجوعَ، لأنَّها رأت شاحنات التموين، وعلمتْ بأنَّ الجهة المختصَّة ستَشْرع، ابتداءً من مساء اليوم، في توزيع ثلاث وجبات في اليوم.

كانت وجبة العشاء عبارةً عن صحن من البطاطس والسجق، وقطعة من الخبز، بيد أنَّ كمِّيَّة السجق انتهت قبل وصول دور عائلة فوكودا. «عودوا لاحقًا»، قال لهم أحدُ اليابانيِّين المكلَّفين بتوزيع الطعام. انتظرتْ هايكيدو وميگومي إلى أن فرغتْ قاعةُ الأكل من الحشود المكتظَّة، لتحصلا على علبة من اللحم المفروم، والمزيد من البطاطس، حملوها إلى غرفة العائلة. في هذه الليلة، لم تتوقَّف هايكيدو عن تخمين الخطوات التي يجب اتِّباعُها للتهوين من صعوبة العيش في ملعبٍ لسباق الخيل. كما كان في أولويَّة اللائحة الذهنيّة التي رسمتْها في مخيِّلتها ضرورةُ اتِّباع حمية، وفي الأخير، وبين قوسين، استبدال المترجمين الفوريِّين، لأنَّها كانت تشكّ، إلى حدٍّ كبير، في إمكان الحصول على هذا المطلب. لم تُغمض عينيْها طوال الليل، ومع أوَّل إشراقة للصباح، وأشعَّة شمس الفجر المتسلِّلة عبر شقوق الإسطبل، أيقظتْ زوجَها، الذي لم ينم بدوره، وظلَّ جامدًا في مكانه، وقالت «في إمكاننا أن نفعل الكثير هنا، طاكاو. نحتاج إلى ممثِّلين للتفاوض مع السلطات. هيَّا. ارتدِ قميصك، وهلمّ نجمع الرجال».

بدأت المشاكل في معسكر طانفوران منذ البداية. لكنْ، قبل أن ينتهي الأسبوع، تعبَّأ المُرحَّلون، ونصَّبوا بتصويت ديموقراطيّ ممثِّلين لهم. كانت هايكيدو فوكودا المرأة الوحيدة بينهم. ورُتِّب الناس

بحسب صنعتهم ومهاراتهم، مدرِّسين، وفلّاحين، ونجّارين، وحدّادين، ومحاسبين، وأطبّاء. . . ودشَّنوا مدرسة بلا أقلام ولا دفاتر، وبرمجوا أنشطةً رياضيَّة وأنشطة أخرى، بهدف استمالة الشباب الغارق في الإحباط والفراغ.

كان المُرحَّلون يعيشون في الصفوف ليلَ نهار؛ صفوفٍ صُمِّمتْ من أجل كلِّ شيء: من أجل الاستحمام، والحصول على الخدمات الصحِّيَّة، وخدمات المصبنة، والخدمات الدينيَّة، والبريد، والمطعم. وكانوا دائمًا يتساهلون فيما بينهم بصبر لتفادي كلّ أشكال المناوشات والضوضاء. كان هناك حظرُ تجوُّلٍ، وكانت لوائحُ الأسماء تُراجَع مرَّتين في اليوم، ومُنع تداولُ اللغة اليابانيَّة، وهو أمر كان مستحيلًا بالنسبة إلى أهل إيشي. وحتى لا يتدخَّل الحرس، كان المعتقَلون يحاولون بأنفسهم الحفاظ على النظام ومراقبة المشاغبين.

لكنْ لا أحد كان يستطيع الوقوف في وجه نير الإشاعات التي كانت تروَّج، فتبثّ الرعبَ أحيانًا. كان الناس يحاولون الحفاظ على هدوئهم وأدبهم، ليتمكَّنوا من تجاوز لحظات الضيق والغموض والإهانة.

بعد مرور ستَّة أشهر، وبالضبط في الحادي عشر من أيلول، بدأتْ عمليَّة ترحيل المعتقلين على متن القطارات. لم يكن أحد يعرف إلى أين الوجهة. وبعد يوم وليلتين من السفر في قطارات مترهِّلة، وخانقة، لا تكفي مراحيضُها القليلة للجميع ـ قطارات تسير ليلًا بلا كهرباء، وهي تقطع مناظرَ موحشةً ومجهولة، ظنَّها الكثير من المسافرين أنَّها المكسيك ـ توقَّف الركبُ في محطَّة الدلتا، بيوتا. ومن هناك واصلوا رحلتهم في شاحنات وحافلات باتِّجاه طوپاز Topaz، جوهرةِ الصحراء، وهو الاسم الذي أطلقوه على المعتقل، من دون نيَّة

للاستهزاء ربّما. كان المرحّلون منهكين من التعب، متّسخين ومتوجّسين، لكنّهم لم يحسُّوا لا بالجوع ولا بالظمأ لأنّ المخبرين وزّعوا عليهم الشطائر، وفي كلّ قاطرة كانت ثمّة سلّاتُ برتقال.

كانت طوپاز، التي تقع على بعد ألف وأربعمئة متر، مدينة فظيعة، ببناياتها المتشابهة وغير المرتفعة، كأنّها قاعدة عسكريّة مرتجلة، مطوّقة بأسلاك شائكة، وأبراجِ مراقبة عالية، وجنودٍ مدجّجين بالسلاح. كانت تقع في مكان قاحل ومنعزل، تضربه الرياحُ من كلّ جانب، وتخترقه زوابعُ الغبار. كانت المعتقلات الأخرى المخصّصة لليابانيّين، في غرب البلاد، متشابهةً كلّها، ودائمًا تتموقع في مناطق قاحلة، بغرض إفشال كلّ محاولةٍ للفرار. فلا شجرة واحدة، ولا نباتات، ولا شيء أخضر؛ فقط صفوف من الخيام القاتمة التي تعانق الأفق، حيث تنحصر العين. كانت الأُسر حريصة على تكتُّلها، وهي تتماسك يدًا بيد، حتى لا تضيع في الحيرة. كان الجميع في حاجة إلى استعمال المراحيض، لكنْ لا أحد كان يعرف مكانها. ومهمّةُ تنظيم الناس كلّفتِ الحرّاسَ ساعاتٍ طوالًا، لأنّهم بدورهم كانوا لا يفقهون التعليمات كثيرًا، لكنّهم توصّلوا في النهاية إلى طريقة لتوزيع العنابر.

استقرّت عائلة فوكودا في المكان المخصّص لها، وهي تتحدّى كتل الغبار التي حجبت الهواء فجعلتْ عمليّةَ التنفُّس عسيرةً جدًّا. كان كلّ مركز للإيواء مقسَّمًا إلى ستّ وحدات تصل مساحتُها إلى أربعة أمتار على سبعة، وكلّ واحدة مخصَّصة لأسرة. وكانت الوحدات معزولة، بعضها عن بعضٍ، بجدار رقيق من ورق القطران. كان مجموع العنابر اثنين وأربعين، مقسّمة إلى اثنيْ عشر عنبرًا في كلّ مجمَّع سكنيّ، تُحيط به مَرافقُ المطعم والمصبنة وأماكن الاستحمام والمراحيض. كان المعتقل يغطّي مساحات شاسعة، لكنّ المُرحّلين

الثمانية آلاف كانوا يقطنون في أقلِّ من كيلومترين مربَّعين فقط، واكتشف اللاجئون في ما بعد أنَّ معدَّلات الحرارة تتراوح بين درجات ملتهبة في الصيف، ودرجات تحت الصفر في الشتاء. وعلاوةً على فترات القيظ الرهيب صيفًا، كان على المرحَّلين أن يتحمَّلوا هجماتِ البعوض وعواصفَ الغبار التي كانت تثقل السماء وتلفح الرئتين.

أمَّا الرياح، فكانت تهبُّ بسرعة على مدار السنة كلِّها حاملةً معها نَتنَ دورات المياه، التي شكَّلتْ مستنقعًا على بعد كيلومتر واحد من المعتقل. وسيرًا على نهج أيَّام طانفوران، انتظم اليابانيُّون بسرعة هائلة في طوپاز. وفي غضون أسابيع قليلة، أقاموا المدارس، وحضانات الأطفال، ومراكزَ رياضيَّةً، وصحيفةً. وأبدعوا فنًّا بقِطَع الخشب والأحجارِ ومخلَّفاتِ البناء: فصنعوا أكسسوارات من محار الحفريَّات ونواة الخوخ، وملأوا أحشاءَ الدمى بخرَق، وصنعوا اللعَبَ من العصيّ. كما أقاموا مكتبةً مؤثَّثةً بالكتب المتبرَّع بها، فأبدعوا ورشات مسرحيَّةً، وفرقًا موسيقيَّة. وتمكَّن إيشيمي من إقناع والده بإمكان غرس نباتات داخل العلب، بغض النظر عن قساوة الطقس والتربة الملحيَّة القلويَّة. فتحمَّس طاكاو للفكرة، وقلّده الكثيرون في ما بعد. كما قرَّر العديد من أفراد إيشي غرسَ حديقةٍ تزيينيَّة، وحفروا حفرة عميقة ملأوها بالمياه، فحصلوا على بحيرةٍ لتسلية الأطفال. صنع إيشيمي بأنامله الذهبيَّة مركبًا شراعيًّا من خشب، وضعه في البحيرة، وفي أقلِّ من أربعة أيّام كان هناك العديد من الزوارق التي تتسابق في ما بينها.

كان مطبخ كلِّ مجموعة في عهدة المعتقلين، الذين كانوا يصنعون المعجزات بوجبات معدَّة بمؤنٍ جافَّةٍ ومعلَّبة، اقتنوها من القرى المجاورة؛ وفي ما بعد، اعتمدوا وجبات البقوليَّات التي استطاعوا في السنة الموالية جنْيها، بعد عمليّات ريّ حثيثةٍ وصعبة. لم يكونوا قد

اعتادوا استهلاكَ الموادّ الدسمة والسكّريّات، لهذا وقع الكثير منهم في براثن المرض، كما توقّعتْ هايكيدو. أمّا الصفوف من أجل ولوج المراحيض فكانت عريضة جدًّا، ومن وطأة الحسرة والاستعجال لم يعد أحد قادرًا على انتظار ظلام الليل لقضاء حاجته. كانت المراحيض امتلأت عن آخرها بخراء آلاف المرضى. أمّا المستوصف البدائيّ الذي كان يديره طاقمٌ من البيض ومن أطبّاء وممرِّضات يابانيِّين، فلم يعد يفي بالغرض.

وبعد نفاد بقايا الألواح لصنع الأثاث، غرق معظم المُرحَّلين في الملل. كانت الأيَّام تبدو أبديَّة في هذه المدينة الشبح، التي يرقبها عن كثبٍ حرَّاسٌ مُملُّون فوق الأبراج، ومن بعيدٍ الجبالُ الرائعةُ لولاية يوتا. كانت كلّ الأيّام روتينيَّة، لا جديد فيها؛ صفوف وصفوف في انتظار البريد؛ هدر الساعات في لعب الورق؛ تكرار الأحاديث التي باتت تفقد معناها كلَّما تكرَّرت العباراتُ نفسها. اختفت العادات العريقة، واستاء الآباءُ والأجدادُ من ذهاب سلطتهم، وغابت لحظات الحميميَّة عن الأزواج، وباتت الأُسر تتفكَّك أواصرُها، فلم تعد تجتمع حول المائدة للعشاء، بل بات الكلّ يأكل في ضجيج المطاعم المشتركة. وعلى الرَّغم من حرص طاكاو الشديد على جلوس أفراد عائلة فوكودا مجتمعين، فقد كان أبناؤه يفضِّلون دائمًا الاجتماعَ بأقرانهم. وبات من العسير كذلك القبض على ميگومي التي أصبحتْ جميلة جدًّا بوجنتين ورديَّتين وعينين برَّاقتين. الوحيدون الذين سَلِموا من فتك اليأس هم الأطفال؛ فكانوا يمشون مجتمعين، منشغلين بشغبهم ومغامراتهم الخياليَّة، كأنَّهم في عطلة.

حلَّ الشتاءُ سريعًا. وما إنْ شرعت الثلوج تتهاطل حتى استلمت كلّ أسرة مدفأةً تعمل على الفحم، سرعان ما تحوَّلتْ إلى مركز الحياة

الاجتماعيَّة، وَوُزِّعتْ كذلك ملابسُ عسكريَّة رثَّة تمَّ الاستغناء عنها.

كانت هذه الأزياء الخضراء، الباهتة اللون والكبيرة جدًّا، تثير في النفس كآبةً فظيعة، كتلك التي تثيرها المناظرُ الثلجيَّة والخيامُ السود. فانصرفت النساء يصنعن ورودًا من ورق لبيوتهنَّ. وفي الليل، لم تكن ثمَّة وسيلة لصدِّ الرياح التي تحمل معها جزيئات الجليد، فتتسلَّل عبر شقوق العنابر، فتهزّ السقف. كانت عائلة فوكودا، كغيرها من الأسر، تنام بكلِّ ما لديها من ملابس، وتتغطَّى بما يتوافر لديها من بطّانيَّات، وهي تلتصق بأسرَّة الثكنة، في محاولة لبثّ الدفء والمواساة. وبعد مرور شهور، وبحلول الصيف، صار أفرادها ينامون عراة ويستيقظون بأجساد تغطِّيها طبقاتٌ خفيفةٌ من الرمل بلون الرماد تشبه البودرة. غير أنَّهم كانوا سعداء بحظِّهم، لأنَّهم بقوا مجتمعين على الأقلِّ، خلافًا لبعض العائلات التي تشتَّت أفرادُها. في البداية، كانوا يأخذون الرجال إلى معتقل إعادة الإسكان، كما كانوا يسمُّونه، وفي ما بعد تُساق النساءُ والأطفال إلى معتقل آخر، وأحيانًا كان اللقاء يتمّ بعد أن يمرّ عامان أو ثلاثة أعوام.

اعترت مراسلات إيشيمي وألما، منذ البداية، صعوباتٌ جمّة. كانت الرسائل تتأخّر لأسابيع طوال، لا بسبب البريد، بل بسبب مماطلة موظَّفي طوپاز، العاجزين عن قراءة مئات الرسائل التي كانت ترد يوميًّا على مكاتبهم. لم ينهل مقصّ الرقابة على رسائل ألما، التي لم تهدِّد مضامينها أمن الولايات المتَّحدة الأميركيَّة وسلامتها، خلافًا لمراسلات إيشيمي التي خضعتْ لعمليَّات بتر كبيرة. وبات على ألما أن تتكهَّن في معنى الجُمل المشطوبة بحبر أسود. كانت عبارات وصف الوحدات السكنيَّة، والأكل، والمراحيض، ومعاملة الحرَّاس، بل الطقس أيضًا، محطَّ شكوك المخفرين. أراد إيشيمي أن يتَّبع نصيحة

المتمرِّسين في فنِّ الغشِّ والخداع، فراح يُطعِّم رسائله بعبارات المدح للأميركان، وجُمل الحماسة الوطنيّ، إلى أن أُصيب بالغثيان، فتخلّى عن هذه الطريقة في الكتابة، وجَنَحَ إلى الرسم. كان قد وجد صعوبة جمَّة في تعلُّم القراءة والكتابة. كان عمره عشر سنوات، وهو لا يزال غير متمكِّن من الحروف والإملاء، لكنَّه كان يتمتَّع دائمًا بعين ثاقبة وحدس صارم لممارسة الرسم. كانت رسومُه تمرُّ على أجهزة الرقابة من دون عراقيل، وهكذا اطَّلعتْ ألما على أدقِّ تفاصيل حياته في طوپاز، كأنَّها تراها في صور فوتوغرافيَّة.

٣ ديسمبر ١٩٨٦

تحدّثنا البارحة عن طوپاز، ونسيتُ أن أحدِّثك كذلك عن أهمِّ الأشخاص، ألما. لم يكن كلّ شيء هنا سلبيًّا، كما قد يظنُّ البعض. لدينا احتفالات، ورياضات، وفنّ، ونأكل الدِّيك الروميّ في «عيد الشكر»؛ كما أنَّنا نزيِّن الوحدات السكنيَّة في أعياد رأس السنة، ونستلم من الخارج صناديقَ الحلويات واللعب والكتب. كانت أمِّي دائمًا منشغلة بإعداد خطط جديدة، وكان الكلّ يحترمها هنا، بمن فيهم البيض. أمّا ميگومي، فكانت متيَّمةً بعملها في المستشفى ومسرورة جدًّا به. وإذا سألت عنِّي، فلم يكن لي من شاغل سوى الرسم، والبستنة، وإصلاح ما خُرِّب. الدروس كانت قصيرة وسهلة جدًّا، إلى درجة أنَّني حصلتْ دائمًا على نقاط جيِّدة. كنت ألعب طوال اليوم تقريبًا. يوجد هنا الكثير من الأطفال ومئات الكلاب الضالَّة، التي كان جُلُّها يتشابه، بقوائمها القصيرة، وشعرها المجعَّد. الشخصان الوحيدان اللذان عانيا كثيرًا هما والدي وأخي جيمس. بعد انتهاء الحرب، توزَّعتْ جموعُ المعتقلات على طول البلاد، واستقلَّ الشباب بأنفسهم، وانتهى زمن

العزلة التي انتهجها الكثيرون في تقليد سيِّئ لعادات اليابان. وانصهرنا في المجتمع الأميركيّ.

أفكِّر فيك كثيرًا. حينما سنلتقي، سأعدُّ لك شايًا.. وسنتحاور.

إيشي

إيرينا وألما وليني

توجّهت المرأتان إلى المبنى الدائريّ لنيمان ماركوس (Neiman Marcus)، في ساحة الوحدة، لتناول الغداء، تحت الأضواء الذهبيَّة للقبّة الزجاجيّة العتيقة. كانتا تفضِّلان الذهاب إلى هناك فقط من أجل «پوپوڤر (*popovers*)»، وهو خبز طريّ ومنتفخ وخفيف، يقدَّم فور خروجه من الفرن، ومن أجل الشمپانيا الورديّة، التي تعشقها ألما. طلبتْ إيرينا مشروبًا غازيًّا، وشربا معًا نخبَ الحياة السعيدة. وحتى لا تُحرَج ألما، شربتْ إيرينا في صمتٍ نخبَ نقود بيلاسكو التي أتاحت لها فرصة التمتُّع بهذه اللحظات الفارهة على إيقاع موسيقى هادئة، وسط زبائن أنيقين، وعارضاتِ أزياءٍ رشيقاتٍ يتباهين بملابسِ أشهرِ المصمِّمين لإغراء الحاضرين، ونُدُلٍ بشوشين بربطات عنقٍ خضراء.

كان مجتمع الزهو، هذا، مخالفًا تمامًا لبلدتها في مولدافيا، ولطفولتها التعيسة، ومراهقتها الفظيعة. كانتا تأكلان بهدوء، وتتذوَّقان الأطباق بنكهات آسيويّة، وتطلبان المزيد من «پوپوڤر». ومع الكأس الثانية من الشمبانيا، انفلتتْ ذكرياتُ ألما من عقالها، فراحت تروي

هذه المرّة حكايات عن ناتانيل زوجها، الذي كان حاضرًا في العديد من رواياتها. والشاهد أنّها بذلتْ مجهودًا كبيرًا للمحافظة عليه حيًّا في ذاكرتها لمدّة ثلاثة عقود. كان سيت يستحضر بصعوبةٍ صورةَ جدِّه، الذي يتراءى له بجسد مُنْهَك القوى وعينين ملتهبتين، مسندًا رأسَه إلى وسادات كبيرة من الريش. كان عمره أربع سنوات، حينما انطفأت نظرةُ جدِّه المتألِّمة، بيد أنّه لن ينسى أبدًا رائحة الأدوية وبخار الأوكليبتوس المنبعثة من غرفته.

روت ألما لإيرينا أنَّ ناتانيل كان طيِّبًا جدًّا مثل أبيه إسحاق بيلاسكو، وأنَّها عثرتْ بين أوراقه، بعد وفاته، على مئات عقود الديون والقروض المستوفى أجلُها، مع تعليمات دقيقة بالعفو عن المَدينين. لكنَّها لم تكن مستعدّةً لتحمُّل أعباء أمورٍ أهملها هو في فترة مرضه المضنية.

ـ لم أُعر في حياتي المسائل الماديَّة اهتمامًا. أمر عجيب، أليس كذلك؟

ـ أنتِ محظوظة بذلك. كلُّ الناس الذين أعرفهم تقريبًا مهمومون بالأمور الماديّة. نزلاء *لارك هاوس* يعيشون على القليل، ومنهم من لا يستطيع شراء الأدوية.

ـ ألا يملكون تأمين الخدمات الصحِّيّة؟ سألتْها ألما في استغراب.

ـ التأمين يغطّي جزءًا صغيرًا فقط. فإنْ لم تتدخّل العائلة لتقديم المساعدة، فسيُضطرّ السيِّد فُواغ إلى اللجوء إلى الرصيد الاحتياطيّ لـ *لارك هاوس*.

ـ سأتحدّث معه. لِمَ لَمْ تخبريني بالأمر، يا إيرينا؟

ـ أنتم لا تستطيعون حلّ كلّ المشاكل، يا ألما؟

ـ بلى، لكنَّ مؤسَّسة بيلاسكو تستطيع التكفُّل بمنتزه لارك *هاوس*، وهكذا يستطيع السيِّد ڤواغ ادِّخار الكثير من المال الذي يمكن استغلاله في مساعدة النزلاء المحتاجين.

ـ من فرط الفرحة، سيُغمى على السيِّد ڤواغ بين ذراعيك، يا ألما.

ـ يا للفظاعة! آمل ألّا يكون الأمر كذلك.

ـ واصلي الحكي. ماذا فعلتِ حين توفِّي زوجك؟

ـ كنتُ قاب قوسين أو أدنى من الغرق في الكمِّ الهائل من الوثائق، حينها انتبهتُ إلى لاري (Larry). كان ولدي قد نشأ في الظلِّ، فلم ينتبه لوجوده أحد. وفجأةً، تحوّل إلى رجل صارم ومسؤول.

تزوّج لاري بيلاسكو في سنٍّ مبكّرة، وبسرعة كبيرة ومن دون احتفالات، لأنَّ أباه كان طريحَ الفراش بسبب المرض، ولأنَّ حمل صاحبته دوريس بات ظاهرًا للعيان. قبلتْ ألما الوضعَ، لأنَّها كانت منشغلةً كثيرًا بالعناية بزوجها، ولم يسعفها الوقت للتعرُّف أكثر إلى كَنّتها، على الرّغم من أنّهما كانتا تعيشان تحت سقف واحد. بيد أنَّها كانت تحبُّها كثيرًا، لأنّها، وبغضِّ النظرِ عن فضائلها، كانت تعشق لاري، وكانت والدةَ سيت، هذا الطفلِ المشاغبِ الذي كان يبدِّد تعاسة البيت وهو يقفز كالكنغر، وپاولين الطفلةِ الوديعةِ التي تلهو وحدها، وتبدو وكأنَّها في غنًى عن كلِّ شيء.

ـ ومثلما لم أكن أكترث في حياتي للنفقات والمال، فإنِّني لم أكن مجبرةً على القيام بالأعمال المنزليّة. فوالدة زوجي كانت تتكفّل بكلِّ

أعباء إقامة سي كليف إلى آخر رمق في حياتها، على الرَّغم من أنَّها كانت كفيفة. بعدها، أحضرنا قُهرمان، وكان يبدو صورة كاريكاتوريَّة عن شخصيَّات الأفلام الإنكليزيَّة. كان متعجرفًا، إلى درجة أنَّنا كنَّا نشتبه دائمًا في أنَّه يستهزئ بنا.

روت لها أنَّ القهرمان باشر عمله في سي كليف فترة أحد عشر عامًا، وأنَّه رحل في النهاية، لأنَّ دوريس تجرَّأتْ يومًا على إسداء النصائحَ إليه بخصوص كيفيَّة اشتغاله.

«إمَّا أنا وإمَّا هي في هذا البيت»، واجه الرجلُ ناتانيل الذي كان طريحَ الفراش، لا يقوى على النهوض، ولم تعد له القوَّة اللازمة لمواجهة مثل هذه المشاكل، لكنَّه كان المسؤول عن التعاقد مع الخدم. وإزاء هذا الإنذار النهائيّ، اختار ناتانيل طبعًا زوجةَ ابنه الرائعة، والتي تكشَّفتْ ـ على الرَّغم من صغر سنِّها، وحملِها منذ سبعة أشهر ـ عن كفاءة عالية في تدبير شؤون البيت.

في زمن ليليان، كانت إدارة البيت تتمُّ بعزيمة وارتجال، ومع القهرمان بدأت بعضُ التغيِّرات الطفيفة، وتمثَّلتْ في تأخير تقديم الأطباق على المائدة، ووجه الطبَّاخ المكفهرّ الذي كان لا يستشيره القهرمان. وبمجيء عصا دوريس السحريَّة، تحوّل البيت إلى تحفة أرهقت الجميع. كانت إيرينا قد عاينتْ بنفسها ثمرةَ هذا المجهود. فالمطبخ كان عبارةً عن مختبر يشعّ بالنظافة، والصالونات كانت محظورةً على الأطفال. وكانت رائحة الخزامى تنبعث من خزائن الملابس، وملاءاتُ الأسرَّة تُنقع في محلول نشويّ. وكانت وجبات الأكل اليوميَّة عبارةً عن أطباق شهيَّة بكمِّيَّات صغيرة جدًّا. كانت باقات الورود تبدَّل مرَّةً واحدةً في الأسبوع من طرف بائعة ورد محترفة، بيد أنَّها لم تُضفِ على البيت لمسةَ الفرحة، بل هيبة المواكب الجنائزيَّة

ووقارها. الشيء الوحيد الذي احترمته العصا البيتوتيَّة السحريَّة هو غرفة ألما الخاوية على عروشها، والتي كانت دوريس تهابها في إجلال.

حين استولى المرض على ناتانيل، شمَّر لاري عن ساعديه، وتولَّى مهمَّة إدارة مكتب محاماة عائلة بيلاسكو ـ على ما واصلت ألما. منذ البداية كان موفَّقًا في عمله. وعندما توفِّي ناتانيل أَوْكَلتُ إليه جُلَّ شؤون العائلة الماليَّة، وانغمستُ في إحياء مؤسَّسة بيلاسكو، التي كانت تحتضر.

كانت الحدائق العامَّة قد بدأت تجفّ، وقد امتلأتْ عن آخرها بالأزبال والإبر والعوازل الذكريَّة المرميَّة هنا وهناك، واستولى المتسوِّلون على المكان بعرباتهم الصغيرة المليئة بالصرَّات النتنة وقطع الكرتون. لا أدري، لم يعد للنباتات وجود في المكان، لكنِّني فجَّرتُ كلّ طاقتي في الحدائق حبًّا بصهري وزوجي، كان هذا الأمر بالنسبة إليهما عبارة عن مهمَّة مقدَّسة.

ـ يبدو لي أنَّ كلّ أفراد أسرتك كانوا أُناسًا طيِّبين، يا ألما. لم يعد لهذا النوع من الناس مكان في هذا العالم.

ـ الطيِّبون، يا إيرينا، كثيرون، لكنَّهم شديدو الكتمان، بخلاف الخبثاء، لا يتوانون في إثارة الزوابع. لهذا يُذاع صيتهم. أنتِ لا تعرفين لاري جيِّدًا، لكنْ إذا احتجت يومًا إلى شيء، ولم أكن أنا موجودة، فلا تتردَّدي في اللجوء إليه. ابني رجل أصيل، وستجدينه عند الحاجة.

ـ إنَّه جدّيٌّ للغاية، أعتقد أنَّني لن أستطيع إزعاجه.

ـ لم تفارقه الجدِّيَّة يومًا. كان يبدو في الخمسين من عمره وهو لا يزال في العشرين. لكنَّه تحجَّر في هذه السنِّ، وشاخ بالطريقة

نفسها. إذا أمعنتِ النظر، فستلاحظين أنّه في جميع الصور الفوتوغرافيّة يبدو مهمومًا، بكتفين مُنْحنيتين.

شغّل هانس ڤواغ تقنيّة بسيطة حتى يتمكّن نزلاءُ *لارك هاوس* من تقويم عملِ الموظّفين. كان الفضول يساوره كلّما حصلتْ إيرينا على نقطة التميّز. راهن على أنّ سرّها يكمن أساسًا في إنصاتها آلافَ المرّات إلى الحكايات نفسها بلا ملل. هذه الحكايات التي يكرّرها الكهول في محاولة للمصالحة مع الماضي، وخلق صورة مقبولة عن أنفسهم، ومحو تأنيب الضمير، والتشدُّق بفضائل واقعيّة أو وهميّة. لم يكن أحد يرغب في الرحيل عن هذه الحياة، ووراءه تاريخٌ خالٍ من الأمجاد. لكنّ الوصفة السحريّة لإيرينا كانت كثيرة التعقيد؛ فبالنسبة إليها، كلّ شيوخ *لارك هاوس* يشبهون كثيرًا جدّيْها، كوستيا وبيتْروتا، اللذين كانت تستدعيهما في الليل قبل أن تنام، ليرافقاها في الظلام، بالضبط كما كانا يفعلان في طفولتها. كانت قد نشأت وترعرعت في كنفهما، تزرع برفقتهما قطعةً بائسةَ من الأرض، في بلدة نائية في مولداڤيا، البعيدة عن وهج التقدُّم والعصرنة. كان معظم السكّان يقتاتون من غلّة حقولهم، وهم مواظبون على زرع الأرض، مثلما كان يفعل أجدادهم في القرون السالفة. بعد سقوط جدار برلين سنة ١٩٨٩، كانت إيرينا قد استوفت ربيعها الثاني، وبعد انهيار الاتّحاد السوڤياتي وتحوُّل بلدتها إلى جمهوريّة مستقلّة، كان عمرها لا يتجاوز الأربع سنوات. لم تكن لهذين الحدثين دلالة كبيرة بالنسبة إليها، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى جدّيها اللذين كانا يتأسّفان للوضع، ويتناقشان مع الجيران. الكلّ كان يُجمع على أنّ الفقر في ظلِّ الشيوعيّة كان شائعًا كذلك. لكنّ الغذاء والأكل كانا متوافرين، وجزموا كذلك بأنّ الانفصال لم يجلب لهم سوى الفوضى والعزلة، فالذين استطاعوا

الرحيل رحلوا، وبينهم والدة إيرينا، السيِّدة رادميلا (Radmila)، وبقي هناك فقط الشيوخ والأطفال الذين لم يستطِع آباؤهم أخذهم معهم. كانت إيرينا تتذكّر جدّيها، وقد احدودب ظهراهما جرّاء التعب من زرع البطاطا، وانكمش جلداهما بفعل حرارة آب المحرقة، وبرودة كانون الثاني القاسية. كانا منهَكين حتى النخاع، بلا قوّة ولا أمل. فاستنتجت إيرينا أنّ البادية مضرّة بالصحّة. كانت هي بالنسبة إليهم الأمل الذي يستحقُّ مواصلة الكفاح، وبهجتهم الوحيدة. ناهيك بالنبيذ المعتّق الذي كانا يصنعانه في البيت، وهو عبارة عن مشروب قويّ تشبه رائحته مُزيل الطلاء. كان يساعدهم ولو لولهة، على مقاومة، شبح الوحدة والملل.

ساعة الفجر، وقبل التوجُّه إلى المدرسة على الأقدام، كانت إيرينا تجلب الماء من البئر. وعند المساء، وقبل تناول صحن الحساء وخبز وجبة العشاء، كانت تقطع الحطب للمدفئة. كانت تزن خمسين كيلوغرامًا، وتلبس ملابس شتويّة، وتنتعل جزمةً، لكنَّها كانت تملك قوّة الجنديّ. وفي *لارك هاوس*، كانت تستطيع أن تحمل كاتي، وهي المفضّلة لديها من بين كلِّ زبائنها، بين ذراعيها مثل رضيع، لتنقلها من الكرسيِّ المتحرِّك إلى الأريكة أو السرير. كانت عضلاتها القويّة مدينة بسبب سطول المياه التي كانت تحملها وللمعول، كما كانت محظوظة بوجود القدِّيسة باريسشيڤا (Parescheva)، الوليَّة الصالحة لمولداڤيا التي كانت تؤدِّي دور الوساطة بين أهل الأرض والصالحين من السماء. في ليالي طفولتها، كانت تصلِّي برفقة جدّيها، تتناوب الجلوس على ركبتيهما أمام صورة القدِّيسة، وألسنتهم تلهج بالدعاء من أجل غلّة البطاطا، وصحّة الدجاج، وكانوا يصلُّون ويطلبون الحماية من المجرمين والجنود، ويتضرّعون للقدِّيسة من أجل سلامة جمهوريّتهم

الهشّة ومن أجل راميلدا. كانت صورة القدِّيسة ذات الرداء الأزرق والإكليل الذهبيّ، وهي تحمل الصليب بيدها، تبدو للبنت أكثر إنسانيَّة من شبح والدتها في صورة فوتوغرافيَّة باهتة الألوان. لم تكن إيرينا تشتاق إلى أمِّها، بيد أنَّها كانت تُمنِّي نفسها دائمًا بأمل عودة والدتها يومًا محمَّلة بالكثير من الهدايا. لم تكن تعلم عنها شيئًا حتى حدود الثامنة من عمرها، بالضبط حين تلقَّى جدَّاها القليلَ من المال الذي بعثتْ به الابنةُ البعيدة، فأنفقاه بحذر كبير، حتى لا يثيرا حسد الحاسدين. لم تشعر إيرينا بالفرحة، بل أحسَّت بالحنق، لأنَّ والدتها لم تبعث إليها بشيء فريد من نوعه، ولا حتى جملة واحدة. كان محتوى الظرف لا يخرج عن أوراق ماليّة، وبعض الصور الفوتوغرافيّة لامرأة مجهولة بشعر ملوّن بصبغة الأوكسجين، وتعابير قاسية؛ امرأة تختلف تمامًا عن صورة الشابّة التي حَرِص الجدَّان على الاحتفاظ بها إلى جانب القدِّيسة باريسشيڤا. واستمرَّت الحوالات الماليّة في الوصول مرَّتين أو ثلاث مرَّات في السنة، وخفَّفت من فاقة الجدَّين وعوزِهما.

كانت مأساة رادميلا تختلف قليلًا عن مأساة الآلاف من شابّات مولداڤيا. ففي السادسة عشرة من عمرها، باغتها الحمل، بعد أن ضاجعتْ جنديًّا روسيًّا كان يعبر المنطقة مع فيلقه، ولم تعد تسمع أخباره قطّ. وبعد فشل كلّ محاولات الإجهاض، وُلدتْ إيرينا، ومع أوَّل فرصة أُتيحت لها، فرَّت بعيدًا. وبعد مرور عدَّة سنوات، روت رادميلا لابنتها، وقدحُ الڤواغ بيدها، تفاصيلَ ملحمتها، بنيَّةِ لفتِ انتباهها إلى المخاطر المحدقة بالعالم.

وفي يوم من الأيَّام، جاءت إلى القرية امرأةٌ وافدةٌ من المدينة، تبحث عن فتيات قرويَّات للاشتغال نادلاتٍ في بلاد أخرى. فعرضتْ على رادميلا الفرصةَ الذهبيّة التي لا تُتاح سوى مرَّة في العمر: جوازَ

سفر، وتذكرة عبور، وعملًا سهلًا، وأجرةً مُجْزِية. وأكّدت لها أنَّها، بادّخارها للبقشيش وحده، تستطيع اقتناء منزل في أقلِّ من ثلاث سنوات. لم تُعِرْ رادميلا تحذيرات أبوَيْها اهتمامًا، وصعدتْ إلى القطار برفقة القوَّادة، وهي تجهل مصيرها الذي قادها إلى مخالب وحوش الأتراك في بيوت الدعارة في أكسراي في اسطنبول. سجنوها لمدَّة سنتين، عرضتْ فيهما خدماتها لما يقارب ثلاثين أو أربعين رجلًا في اليوم لتأدية ديون تذكرة عبورها، التي لم تنتهِ قطّ، لأنَّهم كانوا يتقاضوْن منها ثمنَ الإقامة والأكل والاستحمام والعوازل الذكريَّة. وكانت الفتيات اللواتي يقاومن هذا النوع من المعاملات يتعرَّضن للضرب العنيف، والجرح بالسكِّين، ومنهنَّ من لقيتْ حتفَها حرقًا، وقد يُعثر عليهنَّ ميِّتات على قارعة الطريق. كان من العسير جدًّا الفرارُ من دون مالٍ أو وثائق، فعشن حبيساتٍ لا يعرفن اللغة، ولا الحيِّ، فكيف بالمدينة! فإذا استطعن تفادي القوّادين، سَقَطْنَ في أيدي أفراد الشرطة، الذين كانوا بدورهم من الزبائن الأوفياء، فكنَّ مجبراتٍ على إشباع رغباتهم مجَّانًا. «إحدى الفتيات رمت بنفسها من الطابق الثالث، فأصيبت بالشلل النصفيّ، وعلى الرَّغم من ذلك لم تَسْلم من مواصلة العمل»، هذا ما رَوَتْه رادميلا لإيرينا بنبرة لا تخلو من الميلودراما والوعظ، كلَّما تذكّرت هذه المرحلة البائسة من حياتها:

«ولمَّا كانت لا تستطيع التحكُّم في حاجاتها البيولوجيَّة، فقد كانت تتَّسخ بأكملها، وكان الرجال يدفعون لها نصف الثمن. كانت هناك كذلك فتاةٌ حامل، تعرض خدماتها فوق سرير ذي ثقب كبير في الوسط لإراحة البطن فيه، وفي هذه الحالة كان الزبائن يدفعون أكثر، لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ مجامعة المرأة الحامل تقي من داء السيلان. وحينما يريد القوَّادون استبدالنا بوجوهٍ أخرى جديدة، يبيعوننا لبيوتِ

دعارةٍ أخرى. وهكذا صرنا نهوي في المستويات إلى أن وصلنا إلى الدرك الأسفل من النار. شخصيًّا، أنقذتني النار، ونجوتُ كذلك بفضل رجلٍ أشفق على حالي. في إحدى الليالي، شبَّ حريق مهول، أتى على العديد من منازل الحيّ، فتدفّقتْ جموع الصحافيِّين إلى مكان الحادث بكاميراتهم. آنذاك، لم تستطع الشرطة تجاهل الأمر، فهمّت بإلقاء القبض على الفتيات. كانت فرائصنا ترتعد في الشارع، لكنَّ رجال الشرطة لم يقبضوا ولو على واحد من القوّادين الملعونين، ولا على الزبائن. تناقلتْ وسائلُ الإعلام المرئيّة صورنا، وخرجنا على التلفاز، ونعتنا الناس بالمومسات، وحمّلونا مسؤوليَّة كلّ قذارة أكسراي. كانوا على وشك تهجيرنا. آنذاك، ساعدني على الفرار واحد من رجال الشرطة كنت أعرفه وحصل لي على جواز سفر».

ومن مكان إلى آخر، وصلت رادميلا إلى إيطاليا حيث اشتغلتْ منظِّفةً للوكالات، وفي ما بعد اشتغلت عاملةً في أحد المصانع. كانت تعاني مرض الكليتين، وأنهكتها الظروف القاسية، والمخدِّرات والكحول، لكنّها كانت لا تزال شابّة، تحتفظ ببعض نضارة بشرتها التي ميَّزت ابنتها كذلك. وفيما بعد، تعلّق بها أحدُ التقنِّيين الأميركيين، فتزوّج بها، وأخذها معه للعيش في ولاية تكساس، وهو المكان الذي استقرّت فيه ابنتها لاحقًا.

كانت آخر مرّة رأت فيها إيرينا جدّيها صبيحة سنة ١٩٩٩، حين تركاها في القطار الذي سيقلّها إلى تشيسيناو، أوّل محطّة في رحلتها الطويلة نحو تكساس. كان عمر كوستيا اثنين وستِّين عامًا، بينما كانت بيتروتا تصغره بسنة واحدة. كانت علامات الإنهاك والإجهاد بادية عليهما أكثر من أيٍّ من التسعينيِّين في *لارك هاوس*، الذين يشيخون ببطء وبكلِّ كرامة، وبأطقم أسنان كاملةً، سواء كانت طبيعيّة أو

اصطناعيّة. بيد أنَّ إيرينا أيقنت في النهاية أنَّ المشوار هو نفسه، لا يختلف في حيثيَّاته، وأنَّ الموكب يتقدّم خطوةً خطوةً نحو النهاية. هناك من يسبق الآخر، وخلال الرحلة يفقد المرء كلّ شيء رويدًا رويدًا، فلا يأخذ معه شيئًا إلى عالم الأموات. وبعد عدَّة شهور، مالت بيتروتا برأسها على طبق كانت تتناوله، ولم تستيقظ بعد. وأيقن كوستيا، الذي عاش إلى جوارها أربعين عامًا، أنَّ الحياة بعد رحيلها لا تساوي شيئًا، فقرّر وضع حدٍّ لحياته. فشنق نفسه بحبل شدّه إلى خشبة السقف في مخزن للحبوب، وهناك عثر عليه الجيران بعد انقضاء ثلاثة أيَّام، بعد أن لفت نباح كلبه انتباههم، ورغاء العنزة التي تُركت من دون استحلاب. علمت إيرينا بالخبر بعد مرور عدَّة سنوات. وسمعت النبأ من فم قاضٍ في محكمة القاصرين في دالاس، لكنَّها التزمت الصمت، وفضّلت عدم الحديث في الموضوع.

في مستهلِّ فصل الخريف، قَدِمَ ليني بيل (Lenny Beal) إلى لارك *هاوس*، ونزل في إحدى الشقق المستقلّة. وصل الضيف الجديد بصحبة صوفيا، وهي كلبة بيضاء، ببقعة سوداء فوق إحدى عينيها، أضفت عليها هالةَ القراصنة. شكّل حضوره حدثًا مهمًّا، إذ لا تُمكن مقارنته بأيِّ واحد من رجال الدار القلائل. كان البعض منهم يعيشون ويتقاسمون الغرفة بشكلٍ ثنائيٍّ، والبعض الآخر ممَّن يقطنون الطابق الثالث كانوا يستعملون الحفاظات، وكانوا على وشك المرور إلى «الفردوس»، ومن تبقّى من الرجال الأرامل القلائل كان لا يستهوي أيَّ امرأة. كان ليني بيل يبلغ من العمر ثمانين عامًا، لكنّه كان يبدو ابن سبعين! كان النموذج المثاليّ، والمرغوب فيه هناك منذ زمان: بشعره الرماديّ الطويل الذي يمكن شدّه بذيل حصان إلى حدود الرقبة، وعينيْن بلون اللازورد، وطريقته الشبابيّة في ارتداء سراويل من الكتّان

المكمَّش، وأحذية رياضيَّة من الخيش، كان يرتديها من دون جوارب. كان على وشك أن يتسبَّب في نشوب حرب بين السيِّدات، وكأنَّ أحدًا أطلق سراحَ نمرٍ في هذا الفضاء النسويِّ المتلهِّف. وحتى هانس ڤواغ نفسُه، وهو صاحب الخبرة الطويلة في الإدارة، كان يتساءل عن ماهيَّة وجود ليني بيل هناك؛ فالرجال الراشدون والشديدو الاعتناء بأنفسهم مثله، تكون برفقتهم دائمًا امرأةٌ شابَّة ـ يتَّخذونها زوجةً ثانيةً أو ثالثة ـ تعتني بهم. استقبله هانس فواڤ بكلِّ ما تبقَّى له من حماسة بعد آلام البواسير التي أنهكتْ قواه. حاولتْ كاترين هوپ أن تساعده بطريقة علاج الوخز بالإبر في عيادتها، التي يرتادها طبيب صينيّ ثلاث مرَّات في الأسبوعِ، لكنَّ تماثله إلى الشفاء كان بطيئًا. توقَّع المدير أن يضخَّ ليني بيل شحنةَ أملٍ جديدة حتى في النساء الأكثر يأسًا، واللواتي يقضين النهار كلَّه جالسات بنظرات تائهة، يتذكَّرن الماضي بحسرة كبيرة، لأنَّ الحاضر لا يعني لهنَّ شيئًا. ولم يخب ظنَّه. فبين عشيَّة وضحاها، تراءت للعيان باروكات زرقاء، ولآلئ وأظافر مصبوغة، وأساليب مستحدثة ظهرتْ بين سيِّدات يعتنقن البوذيَّة ويعشقن البيئة، وينبذن كلّ زائف. «يا للعجب! يبدو وكأنَّنا في دار مسنِّين في ميامي»، قال كاتي. كانت التنبُّوءات بنوعيّة العمل الذي يمكن أن يزاوله الزائر الجيِّد ساريةً بين صفوف النازلين. فتراوحت الرهانات بين: ممثِّل، ومصمِّم أزياء، ومهتمّ بالفنِّ الشرقيِّ، وصولًا إلى لاعب كرة مضرب محترف. وضعتْ ألما بيلاسكو حدًّا لكلِّ الإشاعات المتضاربة، حينما كلَّفتْ إيرينا بنشر الخبر. لم يكن ليني بيل سوى طبيب أسنان، لكنْ لم يصدِّق أحد أنَّه كان يعيش من مداخيل حفر الأضراس. كان ليني بيل وألما بيلاسكو صديقين قديمين منذ ثلاثين عامًا خلت. وحينما التقيا في ردهة الاستقبال، تعانقا بحرارة، ولم يتفارقا إلَّا بعينين مغرورقتين

بالدموع. لم تلحظ إيرينا من قبل هذا النوع من الأحاسيس والتأثُّر على ألما، ولولا أنَّ شكوكها بشأن العاشق اليابانيّ كان مبتوتًا في أمرها، لظنَّت أنَّ ليني هو صاحب اللقاءات السرِّيَّة. فبادرت إلى مهاتفة سيت للتوِّ لتروي له تفاصيل الخبر.

ـ تقولين إنَّه صديق جدَّتي؟ لم أسمعها قطّ تتحدَّث عنه من قبل، سأتقصَّى الخبر لمعرفة من يكون.

ـ كيف؟

ـ لديَّ مخبرون، سأكلِّفهم بهذه المهمَّة.

لم يكن مخبرو سيت سوى اثنين من الصعاليك الفارِّين من العدالة، تمّ تأهيلهما وإدماجهما في الحياة العامَّة. كان الأوَّل أسود البشرة، والثاني أبيض. وكانا أشعثين وهزيلين، تتلخَّص مهمَّتُهم في جمع المعلومات عن مختلف القضايا قبل عرضها على المحاكم. فسَّر سيت الأمر لإيرينا، بإعطائها مثالًا على نوعيَّة خدماتهما. فمرَّةً، تقدّم بحّار بدعوى قضائيّة ضدَّ الوكالة البحريَّة جرَّاء حادثة عمل يقول إنَّها تسبَّبتْ له بعاهةٍ مستديمة، لكنَّ سيت لم يصدِّقه أبدًا، فقام صعلوكاه بدعوة المعطوب إلى ناد ليليّ سيِّئ السمعة، وسقياه خمرًا إلى حدِّ الثمالة، والتقطا له مقطعًا من ڤيديو وهو يرقص رقصة سالسا مع امرأة مستأجرة. وبهذه الحجَّة الداحضة، أسكت سيت دفاع الطرف الآخر، فتوصَّلوا إلى صيغة اتِّفاق، ووفَّروا على أنفسهم مغبَّة الدخول في المحاكمات. أوضح سيت لإيرينا أنَّ هذه المهمَّة أضافت الكثير إلى سجلِّ مخبريه، وأنَّ بعض المهمَّات تكون مضلِّلة أحيانًا.

بعد مرور يومين، ضرب لها سيت موعدًا في أحد محالّ الپيتزا التي كانا يرتادانها كثيرًا، لكنَّ إيرينا كانت منهكة جدًّا بعد غسل خمسة

كلاب خلال أيّام نهاية الأسبوع، فاقترحتْ عليه أن يذهبا إلى مطعم محترم. كانت عدوى الموائد المغطّاة بمناديل بيضاء قد انتقلت إليها من ألما. «أنا التي سأدفع ثمن الأكل اليوم»، قالت له. حملها سيت معه على درّاجته الناريَّة، وقصد الحيّ الإيطاليّ، وهو يسير بها ملتويًا على ازدحام المرور بسرعة غير قانونيّة، وبعد حين، وصلا بشعر ملتصق بسبب الخوذة، وأنفٍ يسيل. كانت إيرينا تُدرك أنّ زيَّها لا يتوافق كثيرًا مع مستوى المكان ـ ولم تكن قطّ في المستوى المطلوب ـ وهذا ما أكّدته لها النظرة المتعجرفة للقيّم على المطعم الذي كان ينظر إليها بازدراء. وبعد اطّلاعها على قائمة الأسعار، كاد يُغمى عليها.

ـ لا تقلقي.. سيدفع مكتبي، هدّأ سيت من روعها.

ـ سيكلّفنا هذا أكثر من ثمن كرسيّ متحرّك.

ـ فيمَ الحاجة إلى كرسيّ متحرّك؟

ـ لدينا في *لارك هاوس* مُسنَّات لا يستطعن اقتناء الكرسيّ الذي يحتجن إليه للتنقُّل.

ـ هذا محزن إيرينا. أقترح عليك أكل المحار بالترفاس (الفقع)، مع نبيذ أبيض وجيّد طبعًا.

ـ بالنسبة إليّ، كوكاكولا.

ـ يُستحبّ مرافقة المحار بنبيذ شابليس (Chablis). ليس لديهم كوكاكولا هنا.

ـ إذن ماء معدنيّ، بنكهة الليمون.

ـ هل كنت مدمنة كحول، والآن أنت في فترة النقاهة، إيرينا؟ يمكنك قول هذا. لا تخجلي من الأمر. فالإدمان مرض مثل السكّري.

ـ لست مدمنةَ كحول. لكنّ الخمر يسبّب لي صداعًا بالرأس،

أعقبتْ إيرينا، من دون أن تفكّر في مشاطرته ذكرياتها التعيسة.

قبل الطبق الأوّل، قدَّموا إليهما ملعقة مليئة بزبد أسود، وكأنَّه قيءُ تنِّين. للباقة الشافّ. تردَّدتْ إيرينا كثيرًا في تذوُّق ما وُضع على المائدة، في حين كان سيت يشرح لها أنَّ ليني بيل رجل عازب، وبلا أبناء، كرَّس حياته لدراسة الطبِّ وتقويم الأسنان في عيادة للأسنان في سانتا باربارا. لم تكن حياته مليئة بالمغامرات، باستثناء أنَّه كان رياضيًّا لا يُشَقّ له غبار، شارك عدَّة مرَّات في ألعاب آيرون مان، التي تجمع بين السباحة وركوب الدرَّاجة والركض ولا تبدو مشوِّقة بصراحة. ذكر سيت اسمه للوالد، الذي تولَّد لديه انطباع بأنَّه كان صديقًا لألما وناتانيل، لكنَّه لم يكن متأكِّدًا، ويبدو أنَّه رآه يومًا في سي كليف حينما كان ناتانيل طريحَ الفراش. كثيرون من الأصدقاء الأوفياء كانوا يتوافدون على سي كليف لمرافقة والده خلال تلك الفترة، وربَّما كان ليني بيل واحدًا منهم، كما ذكر له لاري. لم يكن في جعبة لاري المزيدُ من المعلومات، لكنَّه اكتشف لتوِّه أسرارًا عن إيشيمي.

ـ مكثتْ عائلة فوكودا في المعتقل، خلال الحرب العالميَّة الثانية، ثلاث سنوات ونصف السنة.

ـ أين بالضبط؟

ـ في طوپاز، في قلب صحراء يوتا.

كانت إيرينا تعلم بخبر وجود المعتقلات الألمانيَّة في أوروپا. بيْد أنّ سيت أوضح لها حقائقَ أخرى، فأراها صورة فوتوغرافيَّة للمتحف الوطنيّ اليابانيّ ـ الأميركيّ. كانت السطور في ذيل الصورة الأصليَّة تُشير إلى أنَّهم فوكودا. ذكر لها أنَّ واحدًا من موظَّفيه يبحث الآن عن اسم كلّ واحد منهم وعمره في لوائح المُرحَّلين من طوپاز.

المعتقلون

خلال السنة الأولى من الإقامة في طوپاز، كان إيشيمي يبعث بالرسوم مرارًا وتكرارًا إلى ألما. لكنَّ الوضع تغيَّر في ما بعد، لأنَّ عدد المراقبين كان غير كافٍ، فاضطرُّوا إلى وضع حدٍّ لمراسلات المُرحَّلين. هذه الرسوم التخطيطيَّة، التي حرصتْ ألما على تخبئتها بكلِّ عناية، كانت أفضل شهادة توثيقيَّة لهذه المرحلة من حياة فوكودا: عائلة مكدَّسة داخل مركز الإيواء، أطفال يؤدُّون واجباتهم المدرسيَّة وهم جالسون على ركبهم متَّخذين من المقاعد طاولاتٍ لهم.

صفوف عريضة أمام أبواب المراحيض، رجال يلعبون الورق، نساء يغسلن الثياب في جفنات كبيرة. في ما بعد، صودرتْ كلّ آلات التصوير الفوتوغرافيّ التي كانت في عهدة المعتقلين. ولم يتمكَّن مَنْ استطاع تخبئة آلاته من تحميض أفلام الأشعَّة. كان يُرخَّص فقط للصور الرسميَّة، وللصور المتفائلة التي تعكس المعاملة الإنسانيَّة، والأجواء المنتشية والمريحة في طوپاز: أطفال يلعبون البيسبول، مراهقون يرقصون على أنغام الموسيقى الرائجة وإيقاعاتها، الكلّ يغنُّون النشيد

الوطنيّ رافعين العلم كلّ صباح. كان من المحظور بتاتًا التقاطُ صور الأسلاك الشائكة، وأبراج المراقبة، أو الجنود في عتادهم الحربيّ. ومرَّةً، تقدَّم جنديٌّ أميركيٌّ عن طيب خاطر لالتقاط صورة لعائلة فوكودا. كان يُدعى بويد أندرسون (Boyd Anderson)، وكان قد وقع في حبِّ ميگومي، التي رآها لأوَّل مرَّة في المستوصف الذي قصده بعد أن جَرَحَ يده جرَّاء فتح علبة من اللحم المملَّح، وكانت تشتغل هناك متطوِّعةً. كان أندرسون شابًّا في الثالثة والعشرين من عمره، طويل القامة، شاحب اللون مثل أجداده السويديِّين. وكان ساذجًا وبشوشًا، والوحيد بين زملائه الذي استأثر بثقة المرحَّلين. كانت لديه صديقة حميمة تنتظره بفارغ الصبر في لوس أنجلوس، لكنَّ قلبه خفق ثائرًا، حينما رأى ميگومي في زيِّها الأبيض الناصع، وهي تنظِّف له الجرح، الذي رتقه الطبيبُ بتسع غرز جراحيَّة، ضمَّدتْها هي بدقَّة متناهية، من غير أن ترفع بصرها إليه. كان بويد أندرسون يراقبها بإعجاب، إلى درجة أنَّه لم يحسّ بألم العلاج. ومنذ ذلك اليوم وهو يحوم حولها بحذر شديد، لأنَّه من ناحية لم يرد سوء استغلال سلطته، ولأنَّ اختلاط الأعراق من ناحية ثانية كان محظورًا عند البيض، ومقرفًا بالنسبة إلى اليابانيِّين. كان في وسع ميگومي، بوجهها النورانيّ ووداعتها، أن تختار من بين شباب طوپاز المهذَّبين مَنْ تشاء. بيد أنَّها أحسَّت بالانجذاب الخفيّ نفسه نحو الحارس العسكريّ، فباتت تتصارع دائمًا مع وحش التمييز العنصريّ، وتتضرَّع إلى السماء أن تنتهي الحرب وتعودَ عائلتها إلى العيش في سان فرانسيسكو، كي تتمكَّن من اجتثاث هذه الإغراءات المحرَّمة من روحها. في الوقت نفسه، كان بويد يصلِّي ولسانُه يلهج بالدعاء بدوام الحرب إلى الأبد.

في الرابع من تمُّوز، احتفلتْ طوپاز بعيد الاستقلال، بالضبط

مثلما احتفلتْ قبله بستَّة أشهر بعيد رأس السنة الجديدة. في المناسبة الأولى، كان الحفل مخيِّبًا للآمال، لأنَّ المعتقل كان لا يزال في مرحلة البناء المرتجل، والناس لم يتأقلموا بعدُ مع وضعيَّتهم الجديدة كمعتقلين. لكنْ في سنة ١٩٤٣، حاول المُرحَّلون أن يعربوا عن وطنيَّتهم، والأميركيُّون عن حسن نيَّتهم، على الرَّغم من كلّ زوابع الغبار، ودرجات الحرارة الملتهبة التي لا تستطيع السحليَّاتُ نفسُها تحمُّلَها. فاجتمعوا في تعايش جميل حول الشواء، والأعلام، والمخبوزات، والجِعة للرجال، الذين تخلَّصوا أخيرًا من الشراب المقرف: الدرّاق المعلَّب والمخمَّر. وهناك كُلِّف بويد أندرسون بمهمَّة تصوير الاحتفالات، بهدف إسكات المراسلين المزعجين، الذين كانوا يندِّدون بالخروق اللاإنسانيَّة في حقِّ الأُسَر هناك من أصول يابانيَّة. استغلَّ الحارس الظَّرْفَ، وطلب من عائلة فوكودا أن تنتصب للتصوير، بعدها أعطى نسخة لطاكاو، وأخرى لميگومي، من دون أن ينتبه إليه أحد. أمَّا هو فقام بتكبير نسخته، واقتطع صورة ميگومي من المجموعة الأسريَّة، ووضعها في محفظة نقوده المغلَّفة بالبلاستيك. كانت الصورة ترافقه دائمًا أينما حلَّ وارتحل، ودُفنتْ معه بعد اثنتين وخمسين سنة. بدت عائلة فوكودا في الصورة قبالة بناية قصيرة وسوداء: طاكاو بكتفين منحنيتين وإيماءة جافَّة؛ وهايكيدو بقامتها القصيرة جدًّا وملامحها المتحدِّية؛ وجيمس منحنٍ وبمزاج عكر؛ وميگومي في ربيعها الثامن عشر؛ وإيشيمي، ابن الحادية عشرة، نحيف، بشعر مجعَّد، وقشورٍ في الركبتين.

لم يكن شارل موجودًا في صورة طوپاز العائليّة والوحيدة تلك. تسجَّل الابنُ البِكْر لطاكاو وهيكيدو في تلك السنة في لوائح التجنيد، لأنَّه كان يعتبر الأمر واجبًا، لا بهدف الفرار من الأَسر، كما كان يردِّد

بعضُ الشباب الرافضين للتجنيد في حقِّ المتطوِّعين منهم. فانضمَّ إلى الصفّ ٤٤٢، فيلق المشاة المكوَّن أساسًا من أفراد نيشي. بعث إيشيمي إلى ألما رسمًا يوضِّح لها فيه هيئةَ أخيه الماثل أمام العلم، بخطوط لم ينل منها مقصُّ الرقابة، وفسَّر لها أنَّ حجم الصفحة لم يكفِ لرسم الفتيان السبعة عشر الآخرين بأزيائهم العسكريَّة، وهم يتأهَّبون للذهاب إلى الحرب. كان إيشيمي يملك موهبة الرسم؛ وبكلِّ سهولة، وبخطوط قليلة، استطاع أن يصوِّر ملامح الاعتزاز والفخر التي بدت واضحةً على شارل. افتخار يعود إلى الزمن الغابر، وإلى الأجيال السابقة من ساموراي عائلته، الذين كانوا يقصدون ساحات المعركة وهم مقتنعون بأنَّهم لن يعودوا، عاقدين العزم على المضيِّ قُدُمًا من دون الاستسلام أبدًا، ومستعدِّين للموت بكرامة. وهذه أمور كانت تضخُّ فيهم شجاعة منقطعة النظير.

طلب إسحاق بيلاسكو من ألما، وهو يتصفَّح رسم إيشيمي كما كان يفعل دائمًا، أن تمعن النظر في علامات الاستهزاء التي بدت واضحةً على هؤلاء الشباب المتأهِّبين للمخاطرة بحياتهم، دفاعًا عن البلد الذي يأسر أُسَرهم داخل المعتقلات.

عندما أتمَّ جيمس فوكودا ربيعَه السابع عشر، حضر في اليوم نفسه جنديَّان، وحملاه معهما، من دون أن يقدِّما توضيحات إلى عائلته. بيْد أنَّ طاكاو وهايكيدو كانا يتوقَّعان حدوث هذه الفاجعة، لأنَّ ابنهما الثاني كان صعب المراس منذ ولادته، وتضاعفتْ معه المشاكل منذ الاعتقال. كانت عائلة فوكودا، كباقي المرحَّلين من البلاد، قد استسلمتْ للوضع منتهجةً فلسفةَ الصبر. لكنَّ جيمس وآخرين من عائلة نيشي، من أصول أميركيَّة ـ يابانيَّة، كانوا يتمرَّدون دائمًا على الأوضاع، بخرقهم القوانين إن استطاعوا فعل ذلك، وبتحريضهم على

المظاهرات ثانيًا. كان طاكاو وهايكيدو يربطان مزاجَ الولد الثائرَ، والذي كان يختلف تمامًا عن أخيه شارل، بتقلُّبات سنِّ المراهقة، والبطانة السيِّئة. وكان مدير المعتقل يحذِّرهما كثيرًا بأنَّه لن يتساهل مع تصرُّفات جيمس، فعاقبه مرَّة داخل زنزانة بسبب المشاجرات، والوقاحة والأضرار الطفيفة التي لحقتْ بالممتلكات الفيدراليَّة. وباستثناء بعض التصرُّفات السوقيَّة لبعض أفراد نيشي المراهقين مثل جيمس، كانت طوپاز تعيش على إيقاع مثاليٍّ من النظام، إذ لم تحدث هناك أبدًا جرائم حقيقيَّة. كان أفظع ما وقع هو الإضرابات والاحتجاجات التي نشبتْ حين قَتَل حارس ليليٌّ شيخًا، اقترب كثيرًا من سياج الأسلاك الشائكة، ولم يمتثل للأوامر الصادرة بالتوقُّف. كان المدير يأخذ في الاعتبار سنّ جيمس، وينقاد بليونة إلى بويد الذي كان يناور بسرِّيّة للدفاع عنه.

فأصدرت الحكومة بيانات استفتائيَّة، وكانت لا تقبل إلّا بإجابات «نعم»، كلّ المُرحَّلين انطلاقًا من عمر السابعة عشرة كانوا مجبرين على تعبئتها. ومن ضمن الأسئلة المضلّلة كان يُشترط عليهم الإخلاصُ للولايات المتَّحدة الأميركيّة، والدفاعُ في صفوف الجيش حيثما وجدوا إنْ كانوا رجالًا، وفي القوّات المساعدة إنْ كُنَّ نساءً، ورفض كلّ أشكال الطاعة والولاء لإمبراطور اليابان.

بالنسبة إلى عائلة إيشي، كطاكاو مثلًا، كان هذا يعني التنازل عن جنسيَّته، من دون أن يكون له الحقّ في الحصول على الجنسيَّة الأميركيَّة. لكنْ هذا ما فعله الجميع تقريبًا، باستثناء بعض شباب نيشي الذين رفضوا التوقيع لأنَّهم أميركيُّون، وأحسُّوا بإهانة كبيرة، فلقَّبوهم بمجموعة لا ـ لا، ونعتتهم الحكومةُ بالخطيرين، وأدانتهم الجماعة اليابانيَّة التي تبغض، ومنذ الأزل، كلّ أنواع الفضيحة. جيمس كان

واحدًا من هؤلاء الـ: لا ـ لا. وبعد إلقاء القبض عليه، انزوى والدُه من شدَّة الخجل داخل غرفته في مركز الإيواء، وكان لا يخرج سوى لقضاء حوائجه في المراحيض العامَّة. تولَّى إيشيمي مهمَّة أخذ الطعام إليه، ثم كان يعود إلى الصفِّ ثانيةً ليأخذ نصيبه من الأكل. هايكيدو وميگومي بدورهما كانتا محرجتين بسبب جيمس، وعلى الرَّغم من ذلك، فقد كانتا تحاولان مواصلةَ الحياة اليوميَّة من دون الإصغاء إلى الإشاعات المغرضة، وتتجاهلان نظرات العتاب، ومطاردة سلطات المعتقل. تعرَّضتْ عائلةُ فوكودا للاستنطاق مرَّات عديدة. حتى إيشيمي لم يسلم من الاستفسارات. لكنَّ العائلة سَلِمَتْ من الاضطهادات الشديدة الوطأة، بفضل بويد أندرسون، الذي ترقَّى لتوِّه إلى منصب أعلى آخر، فوفَّر لهم ما استطاع من الحماية.

ـ ما الذي سيحدث لأخي؟ سألته ميگومي.

ـ لا أدري، يا ميگومي. ربَّما أرسلوه إلى تول لايك (Tule Lake) في كاليفورنيا، أو إلى فورت ليڤين ورث (Fort Leaven Worth) في ولاية كانساس! هذه الأمور هي من اختصاص القسم الفيدراليّ للسجون. أظنُّ أنَّهم لن يُطلقوا سراحه إلى أن تنتهي الحرب، أجابها بويد.

ـ سمعتهم يردِّدون هنا أنَّ أفراد جماعة لا ـ لا سيُعدمون رميًا بالرصاص بتهمة التجسُّس.

ـ لا تصدِّقي كلّ ما تسمعينه، ميگومي.

غيَّر هذا الحدثُ مزاجَ طاكاو بشكل لافت للنظر. ففي الشهور الأولى من حياته في طوپاز، كان يشارك بحيويَّة مع بني بلدته في مختلف الأنشطة: فكان يملأ وقته عن آخره بغرس البقول، وصنع قطع

الأثاث بخشب صناديق المؤن التي كان يحصل عليها من المطبخ. وعندما امتلأت الغرفة بالقطع، شجَّعته هايكيدو على صنع المزيد لباقي العائلات. حاول الحصول على ترخيص لتعليم مبادئ الجودو للأطفال، لكنَّ طلبه جوبه بالرفض؛ فالمدير العسكريّ للمعتقل كان يخاف أن يزرع في تلاميذه الأفكارَ الهدَّامة، فيضعَ بذلك أمن الجنود وسلامتَهم في خطر. بيْد أنَّ طاكاو واصل مزاولة الرياضة مع أبنائه سرًّا. كان يعيش على أمل أن يحرِّروه يومًا من الأسر.

كان يحسب الأيَّامَ والأسابيعَ والشهور، ويؤشِّر عليها في يوميّة التقويم، ويفكِّر بلا هوادة في الحلم المجهَضِ بمستنبت الزهور والنباتات التزيينيَّة برفقة إسحاق بيلاسكو. يفكِّر في المال الذي ادّخره وضاع؛ في البيت الذي أفنى عمره في أداء ثمنه بالتقسيط، فطالب به مالكه في النهاية. سنوات من الجهد، والعمل الدؤوب والتفاني في أداء الواجب، لينتهي به الأمرُ مجرمًا محبوسًا خلف الأسلاك الشائكة، هذا ما كان يردِّده بمرارة. لم يكن، في طبعه، اجتماعيًّا؛ فكثرة الازدحام، والصفوف اللامتناهية، والضجيج، وانعدام الحميميَّة، كانت جميعُها تؤلمه.

كان ذلك خلافًا لحال هايكيدو، التي أزهرتْ في طوپاز، مقارنة مع باقي النساء اليابانيَّات. فقد كانت زوجة متمرِّدة، تقف في وجه زوجها، بكفَّين مسندتين إلى خصرها. لكنَّها عاشت منكبَّةً على خدمة البيت والأبناء والأشغال الفلَّاحيَّة الثقيلة، من دون أن يراودها أدنى شكّ في أنَّ ملاك العمل التطوُّعي والجمعويّ الكامن في داخلها يغطُّ في سبات عميق. لم يكن لديها الوقت في المعتقل للاستسلام لليأس أو الملل. ففي كلّ وقت، كانت تسعى جاهدة إلى حلٍّ منازعات بعيدة، وتُفاوض السلطات من أجل مكسب كان يبدو مستحيلًا. أبناؤها

كانوا من الأسرى، وكانوا في مأمن خلف الحصار، لذا لم تكن مراقبتهم أمرًا اضطراريًّا؛ إذ لأجل ذلك وُجدتْ ثمانية آلاف زوج من العيون وفيلق من القوّات المسلَّحة. كان كلّ همّها هو مساندة طاكاو حتى لا ينهار بالكامل، فقريحتُها جفَّت، ولم يعد لديها أفكار كثيرة لتُسند إليه مهمَّات كانت تشغله، وتملأ عليه فراغه. راح زوجها يشيخ، وبدت واضحةً بينهما السنواتُ العشر من فارق السنِّ. وَضَعَ الانحلالُ الأخلاقيّ، الذي تفشَّى في ربوع مركز الإيواء، حدًّا للعلاقات الحميميَّة التي كانت تخفِّف من خشونة التعايش ووطأتِه، فتحوَّل الحنان إلى حنق من جهته، وتحلَّت هايكيدو بالصبر، والاستحياء من أبناء كانوا يتقاسمون معها الغرفة نفسها. كانا يحاولان ألَّا يلمس الواحد منهما الآخر في سريرهما الضيِّق. وهكذا، راحت تجفُّ ينابيعُ الحبِّ التي كانت ساريةً بينهما، فغرق طاكاو في بحر من الحقد، في حين اكتشفت هايكيدو موهبتها في تقديم الخدمات والقيادة.

تلقَّت ميگومي فوكودا ثلاثة طلبات للزواج في أقلِّ من سنتين، ولم يعرف أحد سبب رفضها إيَّاها، باستثناء إيشيمي الذي كان حلقة وصل بينها وبين بويد أندرسون. كانت البنت تحلم بشيئين في حياتها: أن تصبح طبيبة، وأن تتزوَّج ببويد. أنهت دراستها الثانويَّة في طوپاز بلا عناء، وحصلتْ على ميزات مشرِّفة. غير أنَّ التعليم العالي كان بعيد المنال. في بعض جامعات شرق البلاد، كانوا يستقبلون عددًا ضئيلًا من الطلبة اليابانيِّين يُختارون من بين المتفوِّقين في المعتقلات، وكان في الإمكان كذلك الحصول على مساعدة ماليَّة من الحكومة. لكنَّ سوابق جيمس كانت وصمة عار على جبين عائلة فوكودا، لذا حُرمت ميگومي هذا المكسب، ولم تكن كذلك على استعداد لترك أسرتها بعد رحيل شارل؛ فقد كانت تحسّ بأنَّها مسؤولة عن أخيها

الصغير وعن والديها. وفي المقابل، كانت تؤدِّي مهمَّات معيَّنة داخل المستشفى إلى جوار أطبَّاء المعتقل وممرِّضاته الذين تمّ انتقاؤهم من بين الأسرى. كان مُعلِّمها واحدًا من الأطبَّاء البيض، يُدعى فرانك ديليلّو (Frank Delillo)، فاق الخمسين من عمره، وكانت تنبعث منه رائحةُ العرق والتبغ والويسكي. فشل في حياته الخاصَّة، بيد أنَّه كان مقتدرًا وخدومًا في مهمَّته. منذ اليوم الأوَّل، احتضن ميگومي حين جاءت إلى المستشفى بتنُّورة ذات طيَّات، وبلوزةٍ ناصعةٍ، لتعلُّم الحرفة. بدأت ميگومي بسحب المِبْولات، وغسل الأدوات الطبِّيَّة، بيد أنَّها أظهرت عزيمة قويَّة وكفاءة عالية دفعتا ديليلّو إلى تعيينها مساعِدةً له.

ـ سوف أدرس الطبّ حينما تنتهي الحرب، قالت له يومًا.

ـ قد تدوم الحرب أكثر ممَّا تتوقَّعينه، ميگومي. وأن تكوني طبيبة فهذا أمر سيكلِّفك الكثير، فأنت امرأة، زيادةً على أنَّكِ يابانيَّة الأصل.

ـ أنا أميركيَّة مثلك، أعقبت.

ـ حسنًا، كيفما تكن الحال، امكثي إلى جانبي.. فمن المؤكَّد أنَّك ستتعلَّمين الكثير.

كانت ميگومي تتبع نصائحه بحذافيرها؛ فقد كانت شديدة الالتصاق بفرانك ديليلّو. وكانت الحصيلة أن تعلَّمتْ رتقَ الجروح، وجبرَ العظام بالجبيرة، ومعالجةَ الحروق، وتقديمَ يد العون في ساعات الولادة. لا شيء كان معقَّدًا بالنسبة إليها، لأنَّ الحالات الصعبة والخطيرة كانت تُرسل إلى مستشفيات دلتا (Delta) أو سالت لايك سيتي (Salt lake city). كان عملها يستلبها عشر ساعاتٍ كاملة في اليوم. وفي الليل، كانت تحاول أحيانًا الاجتماع مع بويد أندرسون،

بعد أن يسهِّل لها فرانك ديليلّو المهمَّة. كان أندرسون هو الشخص الوحيد الذي يعلم بالسرِّ بعد إيشيمي. وعلى الرَّغم من كلّ المخاطر المحدقة بهما، فقد أمضى العاشقان سنتين من الحبِّ السرِّيّ، تُظلِّلهما مظلّةُ الحظِّ. ولأنَّ المنطقة كانت قاحلة جدًّا، فلم يكن هناك من مكان للاختباء. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ بعض شباب نيشي كانوا يختلقون أعذارًا للهروب من مراقبة الآباء ونظرات الفضوليِّين. لم تكن ميگومي تدخل ضمن هذا الصنف، لأنَّ بويد لا يمكنه البتَّة القفز مثل أرنب برِّيّ خلف الشجيرات القليلة بزيِّه العسكريّ وخوذته وبندقيَّته. كانت الثكنات العسكريَّة، ومكاتب البيض ومساكنُهم بعيدةً نسبيًّا عن المعتقل، ولم يكن بوسع ميگومي أن تلج المكان من دون وساطة فرانك، الذي لم يحصل لها على إذن بالعبور من أجل إجراء الفحوصات المضادَّة فحسب، بل كان يسمح لها أيضًا بالتغيُّب عن غرفتها. وهناك، بين الفوضى والقذارة اللتيْن كان يعيش فيهما ديليلّو، بين منافض السجائر المليئة بالأعقاب والقارورات الفارغة، فقدتْ ميگومي عذريَّتها، وربح بويد السماء.

في طوپاز، ازداد شغف إيشيمي بالبستنة التي أخذها عن والده. فالعديد من المرحَّلين الذين كانوا يقتاتون من الفلاحة همُّوا منذ البداية بغرس البقول من دون أن تحبطهم قساوةُ الجوِّ ولا جفافُ المنطقة. اعتمدوا أساليب الريِّ بأيديهم، فكانوا يحسبون قطرات الماء، ويَغطُّون النباتات بالورق في فصل الصيف، ويشعلون النارَ في أيَّام الشتاء القارسة، وهكذا تمكَّنوا من اقتلاع الخضراوات والفواكه من أحشاء الصحراء. كان الأكل دائمًا متوفِّرًا في المطعم، وكان في الإمكان ملء الطبق وإعادة ملئه. ولولا الإصرار الحثيث لهؤلاء البدويِّين لانحصر أكلُهم في المعلَّبات فقط. كانوا يردِّدون دائمًا أنَّ الأكل الصحِّيّ لا

يمكنه أن يظلَّ حبيسَ العلب. وكان إيشيمي يذهب إلى المدرسة في ساعة الدرس، ويوظِّف ما تبقَّى له من اليوم في العمل في الاهتمام بزراعة البقول. وسرعان ما تناسى الناس اسمه، فراحوا ينادونه بلقبه «صاحب الأنامل الخضراء»، لأنَّ كلّ شيء كان يلمسه يختمر وينمو بسرعة. وفي الليل، وبعد وقوفه مرّتين في الصفّ، مرَّةً ليجلب الطعام لأبيه، ومرَّةً من أجل حصّته في الأكل، كان يسهر على تغليف القصص والنصوص المدرسيَّة التي كان يبعث بها أساتذةٌ بعيدون إلى صغار نيشي. كان فتًى خدومًا، كثير التأمُّل الروحيّ، يَسَعُه أن يمضي ساعات طوالًا من غير حراك، وهو يتأمَّل الجبال الورديَّة تعانق قبَّة السماء الزجاجيَّة، فيغرق في بحر من الأفكار والأحاسيس. كانوا يقولون عنه إنَّه يشبه الرهبان، ولو كان في اليابان لكان أحدَ المريدين في صوامع البوذيِّين. وعلى الرَّغم من أنَّ عقيدة أوموتو كانت ترفض التبشير بمبادئها، فإنّ طاكاو قام بالدعوة إلى دينه في حضرة هايكيدو وأبنائه، ولم يتَّبعه بحرارة سوى إيشيمي الذي وجد نفسه في تعاليم هذه الديانة. كان يمارس شعائر أوموتو برفقة والده، واثنين آخرين من إيشي من مجموعة أخرى. كان الناس في المعتقل يدينون بالبوذيّة والمسيحيَّة، ولم يؤمن أحدٌ سواهم بأوموتو؛ كانت هايكيدو ترافقهم أحيانًا، لكنْ من دون قناعة كبيرة.

أمَّا شارل وجيمس، فلم يهتمّا أبدًا بمعتقدات أبيهما. وقسْ على ذلك ميكومي، التي اعتنقت المسيحيّة، أمام حنق طاكاو وذهول هايكيدو، فربطت الأمر بحلم رأت فيه المسيح.

ـ وكيف عرفتِ أنَّه المسيح؟ نَهَرَها طاكاو، الذي صبَّ عليها جامَّ غضبه.

ـ ومَنْ غيره يضع فوق رأسه إكليلًا من الأشواك؟ أجابته.

بعد اعتناقها المسيحيّة، كان عليها أن تتعلّم مبادئ الدين الجديد، وتحضِّر لحصص الدين التي يلقيها قسٌّ أرثوذوكسيّ، وأن تحضِّر للاحتفال الشخصيّ الخاصّ الذي يُقام لمباركة المعتنقين الجدد. حضر معها إيشيمي مدفوعًا بحبِّ الاستطلاع، وبويد أندرسون الذي كان شديد التأثُّر بعربون الحبِّ هذا. أمَّا القسّ، فقد استنتج أنَّ ردّة البنت عن ملّة أبيها ذاتُ علاقة بالجنديِّ أكثر من علاقتها بالديانة المسيحيَّة ذاتها، بيد أنّه لم يعلِّق بشيء. فبارك لهما وهو يتساءل في نفسه: تُرى في أيِّ ركنٍ من العالم يمكن أن يستقرَّ المقامُ بهذا الثنائيّ؟!

أريزونا

في ديسمبر ١٩٤٤، وقبل أن يعلن المجلسُ الأعلى، بمصادقة جميع الأطراف، عن خبر نهاية الأَسْر التعسُّفيّ، وإطلاق سراح كلّ المواطنين الأميركيين من أصول مختلفة، سَلَّم مدير طوپاز العسكريُّ، برفقة اثنين من حرَّاسه الشخصيّين، هايكيدو عَلَمًا مطويًّا في شكل مثلَّث؛ كما سلَّم طاكاو وشاحَ صدرٍ بميداليَّة معلَّقة بشريط بنفسجيّ. في حين أخرس البوقُ الجنائزيُّ بنعيه حناجرَ مئات الأشخاص الذين التفُّوا حول العائلة لتكريم شارل فوكودا، الذي لقي حتفه في القتال. بكت هايكيدو وميگومي وإيشيمي بحرارة. وظلّ طاكاو متصلِّبًا لا يعرب عن أيِّ شعور؛ ففي سنوات الأسر، تحجّر وجهُه على شكل قناع مهيب. غير أنَّ هيئته المنكمشة، وصمته الماكر، كانا يشيان بعلامات الانكسار. ففي الثانية والخمسين من عمره، لم يعد يستمتع بِتَبَرْعُم نبتة، فنفد كلُّ ما كان يتحلّى به من قفشات مضحكة، وحماسةٍ لشقِّ طريق المستقبل للأبناء، والمداعبة الحميميَّة التي كان يتقاسمها مع هايكيدو، لأنَّ موت شارل البطوليّ، وهو الولد البِكْر والمعوَّل عليه في

إعالة الأسرة بعد أن تخرّ قواه، كان ضربةً قاضيةً بالنسبة إليه. وكان شارل قد لقي حتفَه في إيطاليا، مثل المئات من الأميركيين ـ اليابانيِّين لكتيبة ٤٤٢، فيلق المشاة الملقَّب بكتيبة القلب الأرجوانيّ، الذي حاز العديد من الميداليّات القيِّمة. كانت الكتيبة تضمُّ عناصر من نيشي فقط، وكان الفيلقَ الأكثرَ نيلًا للأوشحة في التاريخ العسكريّ للولايات المتَّحدة الأميركيّة. لكن كلّ هذه الشعارات لم تشفِ غليلَ عائلة فوكودا.

في الرابع عشر من آب ١٩٤٥، استسلمت اليابان، وشرعت المعتقلاتُ تُقفل أبوابها. تلقَّت عائلة فوكودا خمسة وعشرين دولارًا، وتذكرة سفر على متن القطار للتوجُّه نحو أريزونا. وكباقي النازحين، لم يفتح أبناء العائلة أفواههم قطّ، ولن يخبروا أحدًا بسنوات الذلِّ والمهانة، سنواتٍ وضعتْ وفاءَهم للوطن على المحكّ: الحياة لا تساوي شيئًا من دون شرف (Shlikata gan ai). لم يُسمح لهم بالعودة إلى سان فرانسيسكو، التي باتت خاوية على عروشها، ولم يبقَ فيها من أشياء قد تنادي عليها. لم يبقَ لطاكاو الحقُّ في استئجار الفدادين التي كان يزرعها، ولا في المسكن الذي كان يؤويه. لم يبقَ له شيء من مدَّخراته ولا من المال الذي منحه إيَّاه إسحاق بيلاسكو يومَ زجُّوا به خارج بيته. ثمَّة صريرٌ بات يسكن صدره، وكان لا يفتر عن السعال، ويكاد لا يتحمَّل آلام الظهر. كان يحسّ بنفسه عاجزًا عن الرجوع إلى أعمال الفلاحة الشاقَّة، وهو العمل الوحيد الذي كان متوافرًا لرجل في مثل حالته. وبالنظر إلى تصرُّفاته الباردة، لم تعد وضعيَّة عائلته المتدهورة تعنيه كثيرًا، فتبلورت التعاسة في عدم الاكتراث بشيء. ولولا حرص إيشيمي على تقديم الأكل له ومصاحبته، لانزوى في ركن يدخِّن حتى الموت، في حين كانت

زوجته وابنته تشتغلان وتكدَّان كثيرًا في مصنع من أجل إعالة العائلة. وأخيرًا، وبعد طول انتظار، بات من الممكن الحصول على الجنسيَّة، لكنَّ هذا الأمر لم يستطع بدوره أن ينتشل طاكاو من اكتئابه الحادّ؛ فمنذ خمس وثلاثين سنة، كان يحلم بالحصول على الحقوق التي يتمتَّع بها أيُّ مواطن أميركيّ. والآن بعد أن سنحت الفرصة لم تعد من رغبة لديه سوى العودة إلى أحضان اليابان، بلدِه المهزوم. حاولتْ هايكيدو أخذه للتسجيل في المكتب الوطنيّ للهجرة، وانتهى بها الأمر إلى الذهاب وحيدة، لأنَّ الجمل القليلة التي كان يردِّدها زوجُها على مسمعها كانت للعن الولايات المتَّحدة الأميركيّة.

أجَّلت ميگومي كذلك قرارها بمتابعة الدراسة في سلك الطبِّ إلى أَجَلٍ غير مسمًّى، وكذلك الحال مع حُلمها بالزواج. غير أنَّ بويد أندرسون، الذي انتقل إلى لوس أنجلوس، لم ينسَها ولو مرَّة واحدة. كانت القوانين التي تجرِّم الزواجَ بين الأعراق المختلفة قد أُلغيتْ في معظم الولايات، وعلى الرَّغم من ذلك، لم يكن اجتماعهما بالأمر الهيِّن، إذ لم يتجرَّأ أحدهما على الإفصاح لوالديه بأنَّهما على اتِّصال منذ ثلاث سنوات. فبالنسبة إلى طاكاو، سيكون الأمر بمثابة كارثة عظمى، إذ لن يتقبَّل مهما طال به العمر أن ترتبط ابنتُه برجلٍ أبيض، فكيف لمن كان يحرس الأسلاك الشائكة لمعتقله في يوتا؟! سوف يكون مجبَرًا على التخلِّي عنها وفقدانها إلى الأبد، مثلما فَقَدَ شارل في الحرب، وجيمس الذي رحَلوه إلى اليابان فلم يعد ينتظر أنباءه أبدًا. أمّا والدا بويد أندرسون، وهما من المهاجرين السويديِّين من الجيل الأوَّل، الذين استوطنوا أوماها، فكانا يعيشان على مداخيل محلبة كانا يديرانها، إلى أن عبثتْ بهما الأقدار في الثلاثينيَّات، وانتهى بهما الأمر إلى العمل مسيِّريْن لشؤون المقابر. كانا إنسانيْن شريفيْن، ومتديِّنيْن

ومتسامحيْن مع باقي الأعراق، لكنَّ بويد لم يجرؤ على مفاتحتهما في الموضوع إلى أن تقبل ميگومي خاتم الزواج.

كان بويد يشرع في كتابة الرسائل كلَّ يوم اثنين، فينمِّقها ويضيف إليها فقراتٍ مستوحاةً من فنّ كتابة ***رسائل الحبِّ***، وهو الكُتَيِّب الذي ذاع صيتُه بين أوساط الجنود العائدين من الحرب، والتاركين وراءهم حبيبات في مناطق أخرى. ويوم الجمعة، بعد أن ينتهي من الكتابة، كان يقصد مكتب البريد لإيداع الرسالة. ومرَّتين في الشهر كلّ سبت، كان هذا الرجل المنتظم يتأهَّب لمهاتفة ميگومي، لكنَّه لم يظفر بالحديث معها كلَّ مرَّة. وفي أيَّام الآحاد، كان يقصد ملعب سباق الخيل، لكنَّه كان يفتقر إلى الاندفاع القويِّ الذي يعتري اللاعبين عادة؛ فقد حوّلته تقلُّباتُ الدهر إلى رجل عصبيٍّ، وأُصيب بقرحة في المعدة. بيد أنَّه اكتشف مصادفةً حظَّه السعيدَ في سباق الخيول، فقرَّر رصد الأرباح لزيادة مداخيله الهزيلة. وفي الليل، كان ينكبّ على دراسة الميكانيك بنيَّة الانسحابِ من الحياة العسكريّة، وفتحِ ورشةٍ في هاواي، ظنًّا منه أنَّه أفضل مكان للاستقرار، إذ توجد هناك نسبة مهمَّة من الجالية اليابانيّة التي تحرَّرتْ من عقدة الحبس، على الرَّغم من أنَّ الهجوم اليابانيّ كان قد وقع هناك. كان بويد يحاول عبر رسائله إقناعَ ميگومي بإيجابيَّات العيش في هاواي حيث يمكن تربية أبنائهم بعيدًا عن التمييز العنصريّ، لكنَّها لم تكن تفكِّر في الأبناء، بل كانت مشغولة البال بالمراسلات التي تتبادلها مع مجموعة من الأطبَّاء الصينيِّين لإيجاد طريقة لدراسة الطبِّ الشرقيّ في ظلِّ استحالة متابعة الطبِّ الغربيّ. لكنَّها فوجئت في ما بعد بأنَّ وضعيَّتها كامرأة من أصول يابانيَّة، تحول دون ذلك، بالضبط مثلما فسَّر لها ذلك يومًا معلِّمُها فرانك ديليلّو.

ولج إيشيمي المدرسة الثانويَّة، عن عمر يناهز الرابعة عشرة. ولمَّا

كان طاكاو مشلولًا بسبب كآبته الدفينة، وهايكيدو لا تتحدَّث سوى أربع كلمات بالإنكليزيَّة فقدط كان على ميگومي أن تُنصِّب نفسها وليَّة أمر أخيها. ويومَ رافقته للتسجيل، خمَّنتْ أنَّ إيشيمي سيَشعر كأنَّه في بيته، لأنَّ البناية كانت قبيحة جدًّا، والأرض قاحلة، بالضبط مثل طوپاز. استقبلتهم مديرةُ المؤسَّسة، السيِّدة برودي (Miss Brody)، التي لم تتوانَ أبدًا عن إقناع الساسة والرأي العامّ، خلال سنوات الحرب، بضرورة إعطاء الأطفال من أسر يابانيَّة حَقّ التعليم، أسوةً بأيِّ مواطن أميركيّ. كما أنَّها كانت تجمع الآلاف من الكتب لإرسالها إلى المعتقلات؛ وقد وقع الكثير منها في يد إيشيمي الذي غلَّف معظمها، وما زال يتذكَّرها جيِّدًا، لأنَّ كلّ كتاب كان يحمل على غلافه الخارجيّ كلمةً بقلم السيِّدة برودي. كان الولد يتخيَّل هذه المتبرِّعة وكأنَّها ساحرة قصَّة سندريلا، فإذا بها امرأة قويَّة بذراعين تشبهان ذراعيْ حطَّاب الخشب، وبصوتٍ كصوت الدلَّال.

ـ أخي متأخِّر في الدراسة، لا يُجيد القراءة والكتابة، ولا الحساب، قالت لها ميگومي، المتأثِّرة بدرجات الحرارة المرتفعة.

ـ ما الذي تجيد فعله، إيشيمي، إذن؟ سألته السيِّدة برودي مباشرةً.

ـ الرسم والغرس، أجابها إيشيمي بهمس، مسمِّرًا نظراته في مقدِّمة حذائها.

ـ ممتاز. هذا ما ينقصنا بالضبط هنا، ردَّدت السيِّدة.

خلال الأسابيع الأولى من الدراسة، قصف الأطفالُ إيشيمي بنعوتٍ مهينة كانت رائجةً عن عِرْقه خلال أيَّام الحرب، وإنْ لم يَسمع بها في طوپاز. كما أنَّه كان يجهل أنّ اليابانيِّين كانوا ممقوتين أكثر من

الألمان. ولم يسبق أن رأى من قبلُ قصصًا مصوَّرة تُظهر الآسيويِّين فُجَّارًا ووحوشًا. في البداية، تحمَّل هذا النوع من السخرية باتِّزانه المعهود؛ لكنْ حين تجرَّأ أحدُهم على مدِّ يده عليه، رمى به في الهواء عاليًا بإحدى تقنيّات الجودو التي أخذها عن أبيه، وسبق أن استعملها يومًا ليعرض على ناتانيل بيلاسكو إمكانات الفنون القتاليَّة. كانت النتيجة إرساله إلى مكتب المديرة ليُنظر في أمره، وبتِّ العقوبة التي يستحقّها. «أحسنتَ إيشيمي»، كان هذا هو تعقيبها الوحيد. وبفضل هذه الرياضة، استطاع إتمامَ السنوات الأربع من المدرسة العموميّة من دون أن يتعرَّض للاعتداء.

١٦ شباط ٢٠٠٥

ذَهبتُ إلى بريسكوت، في أريزونا، لزيارة السيِّدة برودي. كانت قد أتمّت عامها الخامس والتسعين. اجتمعنا نحن التلاميذ القدامى، وقرّرنا الاحتفال بها. والعجيب في الأمر أنّها، على كبر سنِّها، تذكّرتني فور أن رأتني، تخيّلي؟ كمْ من الأطفال مرُّوا في مؤسَّستها؟ كيف يمكنها أن تتذكَّر الجميع؟ ما زالت تتذكّر أنّني كنت أرسم اللافتات لحفلات المدرسة، وأنّني كنت أشتغل أيّام الآحاد في حديقتها. لم أكن طالبًا مُجِدًّا في المرحلة الثانويَّة. حالتي كانت تُعتبر كارثيّة، إنْ صحّ التعبير. لكنّها كانت تغدق عليّ بالنقاط. فبفضل السيِّدة برودي لست أُمِّيًّا اليوم، وأستطيع الآن أن أُكاتبكِ يا صديقتي.

مرّت عليّ طويلةً أيّامُ هذا الأسبوع التي لم نتمكّن من اللقاء بها. وقد أشعرني المطر والبرد بحزن أكثر. كما أنّني لم أعثر على ياسمين لأرسله إليكِ، سامحيني. وهاتفيني من فضلك.

إيشي

بوسطن

خلال السنة الأولى بعد الفراق، كانت ألما تعيش على إيقاع ترقُّب وصول الرسائل. بيد أنَّها مع مرور الوقت، اعتادت صمت صديقها، بالضبط كما اعتادت من قبلُ صمتَ أبويها وأخيها. كانت خالتها وزوجها يحاولان ما أمكن إبعادَها عن الأنباء السيِّئة التي ترد من أوروبا، وخصوصًا الأنباء التي تهمّ مصيرَ اليهود. كانت ألما تسأل كثيرًا عن عائلتها. وتكتفي بإجابات خياليَّة جدًّا؛ إجاباتٍ صوَّرت الحربَ بألوان أساطير الملك أرتورو التي كانت تقرأها برفقة إيشيمي في عريشة الحديقة. فبحسب رواية خالتها ليليان، كان النقص الحاصل في عدد الرسائل الوافدة يعود إلى مشاكل حصلتْ مع بريد دولة پولندا؛ وفي حالة أخيها صامويل، كان السبب يكمن في التدابير الأمنيَّة التي كانت إنجلترا تتّخذها. فصامويل كان يقوم بمهمَّات حيويَّة وخطيرة وسرِّيَّة في القوّات الملكيَّة الجوِّيَّة، وكان عليه أن يبقى مجهولًا تمامًا. ماذا كانت ستجني لو أنَّها أخبرتْ ابنةَ أختها بأنَّ أخاها سقط بطائرته فوق الأراضي الفرنسيَّة؟ كان إسحاق يعرض على ألما تقدُّم قوّات

التحالف وتقهقرَها، وهو يشير إلى خارطة بدبُوس في يده، لكنّه كان لا يملك الشجاعة ليصارحها بمآل والديها. فلم يعد يدري عنهما شيئًا، منذ أن فَقَدا كلّ ممتلكاتهما وزُجَّ بهما في غيتوهات فرصوفيا. كان إسحاق يتبرّع بالكثير من المال للمنظَّمات التي كانت تحاول تقديم العون إلى لاجئي الغيتوهات. كان يعلم بأنّ عدد اليهود الذين أخرجهم النازيُّون من ديارهم وصل ما بين تمُّوز وأيلول إلى مئتين وخمسين ألفًا. كما كان على علم بالآلاف الذين يموتون كلّ يوم جرّاء الأمراض والمجاعة. لم يكن الحائط المتوَّج بالأسلاك الشائكة، والذي يفصل الغيتوهات عن باقي المدينة، صعبَ الاختراق بالكامل. فمثلما كانت تدخل بعضُ الموادّ الغذائيَّة والأدوية المهرّبة، كانت تخرج الصورُ المرعبة للأطفال الذين يحتضرون من الجوع. كانت طرق التواصل موجودة.

لم تُؤتِ كلُّ الجهود المبذولة للعثور على أبويْ ألما أُكُلَها. وإذا تحطَّمتْ طائرة صامويل، فقد يغلب الظنّ أنّ الثلاثة لقوا حتفهم. وفي ظلِّ غياب أدلّة يصعب تفنيدها، كان إسحاق على وشك أن يُخبر ألما بهذه الحقيقة.

كانت ألما تبدو، في وقت ما، وكأنّها تأقلمتْ مع أخوالها وأبناء أخوالها، ومع الإقامة في سي كليف. بيد أنّها، بوصولها إلى سنّ البلوغ، تحوّلتْ إلى تلك الصبيّة الكتومة، مثلما كانت عليه أيّام وصولها إلى كاليفورنيا. ترعرعتْ بسرعة كبيرة، وتزامن أوّل تدفُّق للهرمونات إلى جسدها مع غياب إيشيمي اللامحدود. كان عمرها عشر سنوات حينما افترقا، على وعد البقاء على العهد فكريًّا ومن خلال البريد. مضت إحدى عشرة سنة حين تقلّص عددُ الرسائل المتعلِّقة بها، واثنتا عشرة سنة حينما أصبحت المسافة التي تفصلهما قاهرة، وانقبض

على قلبها حزنًا لفقدانها إيشيمي. كانت تقوم بواجباتها في المدرسة التي تكرهها من دون أن تنبس ببنت شفة، وتتصرَّف وفق تطلُّعات العائلة التي احتضنتها وتبنَّتها، مُحاوِلة تفادي كلّ الأسئلة ذات العلاقة بالمشاعر، والتي كانت كفيلة بأن تفجِّر زوبعة من التمرُّد والقهر المعشِّشيْن في داخلها. كان ناتانيل هو الوحيد العارف بمكنونات صدرها، فلا ينخدع أبدًا بتصرُّفاتها النزيهة. كان الولد يعتمد على حاسَّته السادسة للتنبُّؤ بالساعة التي تختبئ فيها ابنةْ خالته في خزانة الملابس، فيأتي من الجناح الأقصى للإقامة، وهو يتوسَّل إليها هامسًا ألّا ترفع صوتها حتى لا توقظ والده الذي يملك سمعًا ثاقبًا ونومه خفيف. فيأخذها إلى السرير، ويدثِّرها، ويبقى إلى جانبها إلى أن تنام. كان، بدوره، يسير في درب الحياة بحذر تامٍّ، حاملًا في دواخله عواصف هوجاء. كان يعدّ الأيّام المتبقِّية للانتهاء من المرحلة الثانويَّة والتوجُّه إلى جامعة هارڤرد لدراسة القانون، تمامًا كما كان يرغب في ذلك والده من دون أن يعارضه في هذا الشأن. أمّا والدته، فكانت تتمنّى أن يتسجَّل في معهد القانون التابع لولاية سان فرانسيسكو عوضًا عن السفر بعيدًا إلى الجزء الآخر من القارّة. بيد أنّ إسحاق بيلاسكو كان يتبنّى فكرة أنّ الولد يجب أن يذهب بعيدًا، بالضبط كما فعل بنفسه في هذه المرحلة العمريّة. فولده يجب أن يكون رجلًا مسؤولًا، خيّرًا، يميِّز بين الحقِّ والباطل. اعتبرتْ ألما قرار ناتانيل الذهابَ للدراسة في هارڤرد بمثابة إساءة إلى شخصها، وأضافت ابنَ خالتها إلى لائحة مَنْ تخلّوا عنها: في القائمة أخوها ووالداها، وفي ما بعد إيشيمي، والآن هو. وخَلُصَت إلى أنّ قدرها المحتوم هو ضياعُ مَنْ تحبّ. لبثتْ ملتصقةً بناتانيل مثل اليوم الأوّل في ميناء سان فرانسيسكو.

ـ سوف أكتب إليكِ، أكّد لها ناتانيل.

ـ هذا ما قاله لي بالضبط إيشيمي، أعقبتْ بحنقٍ شديد.

ـ إيشيمي رهن الاعتقال، يا ألما. أمَّا أنا، فسأكون في هارڤرد.

ـ هذا بعيد جدًّا. ألن تكون في بوسطن؟

ـ سوف آتي لأمضي معك كلّ العطل، أعدكِ بذلك.

وحينما كان يعدُّ حقائبه للسفر، كانت ألما تلاحقه في البيت كالظلِّ، وهي تختلق الأعذار لتُبقيه إلى جانبها، لكنْ من دون جدوى، وهو ما جعلها تفكِّر في وسائل لنسيانه. في الثامنة من عمرها، أُغرمتْ بإيشيمي بكلِّ عنفوان حبِّ الصبا، وبناتانيل الذي كانت تكنُّ له صفاء حبِّ الكِبر. فكلاهما كان ضروريًّا لها، وكلٌّ واحد منهما كان له وقع مختلف في قلبها. كانت متيقِّنة من أنَّها يستحيل أن تعيش من دونهما. أحبَّت إيشيمي بقوَّة، وكانت تتلهَّف إلى رؤيته في كلّ حين، لتتسلَّل معه خفيةً إلى حديقة سي كليف التي كانت تمتدُّ إلى حدود الشاطئ وتمتلئ بمخابئ رائعة، ليكتشفا معًا لغة المداعبات الصريحة. ومنذ أن رحل إيشيمي إلى طوپاز وهي تتغذّى على ذكريات الحديقة، وعلى صفحات مذكَّراته التي تعبق حتى أطرافها بتنهيدات حروفه الصغيرة. وهكذا، أعربت منذ صغر سنِّها عن وجود مؤشِّرات قويّة على الحبِّ. وهذا على خلاف ناتانيل الذي لم يخطر في بالها يومًا أن تختبئ معه في الحديقة.

كانت تحبُّ ناتانيل بغيرة شديدة، وتعتقد أنَّها تفهمه أكثر من غيرها. ناما معًا، وتشابكت أيديهما في تلك الليالي التي كان ينتشلها فيها من خزانة الملابس. كان أمين سرِّها وصديقها الوفيّ. ويومَ اكتشفتْ للمرَّة الأولى بقعًا قاتمة اللون في ملابسها الداخليَّة، انتظرتْ عودةَ ناتانيل من المدرسة، وفرائصُها ترتعد، لتسحبه إلى المرحاض

وتُريه الدليل القاطع على أنَّها تنزف من الأسفل. ثمَّة معلومات كان يعرفها ناتانيل عن الموضوع، بيد أنَّه كان يجهل التدابير التي يجب اتِّخاذها، وكان عليه أن يستفسر والدته عن الأمر، لأنَّ ألما لم تكن تتجرَّأ على فعل ذلك. كان الولد على اطِّلاع على كلِّ ما يحدث للبنت، إذ كانت قد أودعته نسخة من أسرار يوميَّاتها، بيد أنَّه لم يكن في حاجة إلى قراءتها لتحسين معلوماته.

أنهت ألما المرحلة الثانويَّة قبل إيشيمي بسنة واحدة. آنذاك، تقطَّعتْ بينهما كلُّ سبل التواصل، لكنَّها كانت تستشعره في كلّ حين. تحاوره في مناجاتها الداخليَّة، وتكتب إليه عربونًا للوفاء، وليس فقط من باب الصبابة التي كانت تعتصرها. وقد باتت تتقبَّل فكرة عدم العودة إلى رؤيته، لكنْ في ظلِّ غياب أصدقاء آخرين، كانت تغذِّي حبّ البطلة المأساويَّة بذكريات المداعبات السرِّيَّة في الحديقة.

وحين كان إيشيمي يشتغل أجيرًا ويعمل تحت أشعَّة الشمس الحارقة في حقول البَنْجر، كانت ألما تذهب لحضور حصص الرقص للمبتدئين، وهي حصصٌ فرضتها خالتها ليليان، للتألُّق في حفلات كانت تُقام في بيت أخوالها، وأخرى في البهو الداخليّ لفندق پالاس الذي يصل عمره إلى نصف قرن من الزمن، بسقفه الزجاجيّ الرائع، وثريًا الكريستال العملاقة، والنخلات الاستوائيَّة المغروسة في الأصص الفخَّاريَّة البرتغاليَّة. كانت ليليان تحسّ بأنَّها مسؤولة عن تزويج ألما، وكانت مقتنعة بأنَّ الأمر سيكون هيِّنًا مقارنةً بتزويج بناتها اللواتي لم يكن لهنَّ نصيب وافر من الجمال، بيد أنَّها كانت تصطدم دائمًا بألما التي كانت تَئِدُ أفضل مخطَّطاتها. كان إسحاق بيلاسكو لا يحشر نفسه كثيرًا في حياة نساء أسرته، لكنَّه هذه المرَّة لم يستطع البقاء مكتوف اليدين.

ـ شخصيًّا، أعتبر مسألة قنص الخطيب محنقة جدًّا، ليليان.

ـ يا لك من ساذج، يا إسحاق! أتظنُّ أنَّك كنت ستتزوَّج بي لو لم تلفّ أمّي بحبالها على عنقك؟

ـ ألما لا تزال صبيَّة يسيل المخاط من أنفها. سيكون من غير القانونيّ تزويجُها قبل أن تتمّ الخامسة والعشرين.

ـ الخامسة والعشرون؟ في هذه السنّ، لن تجد قنصًا ثمينًا في أيٍّ مكان، إسحاق. سيكون كلّ الرجال مرتبطين، علّلت ليليان.

كانت ابنة الأخت ترغب في الذهاب بعيدًا للدراسة، فوافقت ليليان في النهاية. وهي تخمّن أنّ سنة أو سنتين من الدراسة العليا سيُزَكّيان صاحبها.

تمّ الاتّفاق على إرسال ألما إلى مدرسة البنات في بوسطن، حيث يستطيع ناتانيل الاعتناءَ بها، وحمايتَها من المخاطر والإغراءات المحدقة بالمدينة. توقّفتْ ليليان عن تقديم الخُطّاب الميسورين إلى ألما، وتأهّبتْ لإعداد الجهاز الضروريّ للسفر: من تنُّورات مستديرة، وصدريّات، وسترة وبريَّة بألوان مشرقة دارجة، ولو أنّها لا تليق بالفتاة ذات العظامِ الطويلة والقسماتِ القويّة.

كانت البنت مصرّةً على السفر وحدها، على الرّغم من تخوُّف خالتها، التي لم تتوقّف عن البحث عن شخص ينوي السفر إلى الوجهة نفسها، لترسلها مع شخص محترم. انطلقتْ في رحلة طيران إلى نيويورك، ومن هناك ستستقلّ قطارًا يأخذها إلى بوسطن. وفور نزولها من الرحلة، التقت ناتانيل في المطار، الذي تلقّى برقيّة من والديه يخبرانه بموعد وصولها، فقرّر الذهاب لاستقبالها ومرافقتها في القطار.

التقى ابنا الخالة في عناق حارّ، وحنانٍ متراكمٍ منذ سبعة أشهر،

منذ آخر زيارة قام بها ناتانيل لسان فرانسيسكو، وشرعا في الحديث عن أخبار العائلة. بينما كان حمّال الحقائب بزيّه الرسميّ منهمكًا في جمع أمتعة السفر ووضعها في عربة صغيرة ليسوقها إلى سيَّارة الأجرة. عدّ ناتانيل الحقائبَ وعلبَ القبّعات، وسأل ابنة خالته إنْ أحضرتْ معها ملابسَ للبيع.

ـ لا يمكنك أن تَنْتَقدني، أنسيتَ نفسك؟ فأنت الرجل الشديد التأنُّق، أعقبتْ.

ـ ما هي مخطَّطاتكِ، يا ألما؟

ـ ما سبق وذكرتُه لك في الرسالة. أنت تعرف جيِّدًا أنَّني أعشق والديك، لكنَّني بتُّ أختنق في هذا البيت. صرتُ في حاجة إلى نوع من الاستقلاليَّة.

ـ هذا ما أرى. أبمالِ والدي؟

غفلتْ ألما عن هذه الجُزيئة؛ فأوَّلُ خطوةٍ نحو الاستقلاليَّة هي الحصول على شهادة، كيفما يكن نوعها، وهي لم تحدِّد بعد ميولها.

ـ إنَّ والدتك ماضية في البحث عن زوج لي، أنا لا أتجرَّأ على مصارحتها بأنَّني سأتزوَّج بإيشيمي.

ـ هلّا استيقظتِ دفعةً واحدة، ألما؟! مرَّت عشر سنوات على اختفاء إيشيمي من حياتك.

ـ ثماني سنوات فقط، لا عشر.

ـ انزعي هذه الترَّهات من دماغك. فلو ظهر من جديد فعلًا ـ وهذا أمر أستبعدُه كثيرًا ـ وأعرب عن نيَّته الارتباط بكِ، فأنتِ تدركين جيِّدًا أنَّكِ لا تستطيعين الزواج به.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ يا للعجب! لأنَّه ينتمي إلى عِرق آخر، وطبقةٍ اجتماعيَّة أخرى، وثقافةٍ أخرى، وديانةٍ أخرى، ومستوى اقتصاديٍّ مغاير.. أتريدين أسبابًا أخرى؟

ـ إذن، سأظلّ عازبة ما حييتُ. وأنت، يا نات، ألديك محبوبة؟

ـ لا. لكنْ إذا رُزقتُ بواحدة، فستكونين أنتِ أوّلَ من يعلم.

ـ الأفضل هكذا. يمكننا أن نتظاهر أمام الجميع بأنّنا مخطوبان.

ـ لأيِّ هدف؟

ـ لا لشيء سوى لأصدَّ البُلهاء عنّي.

لم يعد هندامُ ابنة الخالة كما كان عليه من قبل، فقد تغيَّر كثيرًا في الشهور الأخيرة: لم تعد ألما تلك الصبيَّة ذات الجاربين المدرسيَّين. فالملابس الجديدة أضفت عليها منزلةَ المرأة المتأنِّقة. بيْد أنَّ ناتانيل، وهو أمينُ سرِّها، لم ينبهر بالسيجارة ولا بالبذلة الزرقاء، ولا بالقبَّعة، ولا بالقفّازين والحذاء بلون الكرز. فألما بالنسبة إليه لا تزال تلك الصبيَّة المدلَّلة، التي أمسكتْ بتلابيبه، مذعورةً بزحام نيويورك وضجيجها، ولم تُطلق سبيله حتى ولجتْ غرفتَها في الفندق. «اقضِ الليلة معي، نات» توسَّلتْ إليه، بملامحَ مذعورة، ذكَّرته بمحيّا طفولتها باكية نائحة في خزانة الملابس. لكنَّه الآن لم يعد بريئًا، وأن ينام معها تحت سقف واحد فذلك سيكون له طعم آخر.

في اليوم الموالي، سافرا على متن القطار المتوجِّه إلى بوسطن، ومعهما المتاعُ الثقيل.

كانت ألما تتخيَّل إعداديَّةَ بوسطن امتدادًا للمؤسَّسة الثانويَّة التي درستْ فيها بحسرة. كانت تتهيَّأ للبس الجهاز الذي أحضرتْه معها، وتستعدّ لتحيا حياةَ البوهيميِّين في مقاهي المدينة وحاناتها بصحبة

ناتانيل، وتذهب لحضور بعض الدروس في وقت الفراغ، حتى لا تغشّ أخوالها. غير أنَّها اكتشفتْ فجأةً أنْ لا أحد ينظر إليها، وأنَّ المدينة تعجُّ بمئات الفتيات الحسناوات، وأنَّ ابن خالتها كانت لا تعوزه الذرائعُ أبدًا، ليدعها تنتظر، وأنَّها لم تكن مهيَّأةً لدخول غمار الدراسة.

وقع الاختيار عليها لتتقاسم غرفتها مع فتاة مكتنزة من ڤيرجينيا، وما إنْ سنحت لها الفرصة حتى همَّت لتعرض عليها أدلَّة من الإنجيل تثبت تفوُّقَ العِرق الأبيض. السود والصُّفر وأصحاب البشرة الحمراء كلُّهم ينحدرون من القردة، قالت لها؛ أَمّا آدم وحوَّاء فكانا من البيض؛ يسوع ربَّما كان من الأميركيين، لم تكن متأكِّدة. لم تكن تؤيِّد تصرُّفات هتلر بحسب تعبيرها، لكنَّها قالت إنَّه يجب تقبُّل فكرة أنَّ معاملته لليهود كانت لها دوافعها؛ فهم عرقٌ محكومٌ عليه باللعنة لأنَّهم قتلوا المسيح. طلبتْ ألما أن تُحوَّلَ إلى غرفة أخرى، وتطلَّب هذا الإجراءُ أسبوعين، اتَّضح فيهما أنَّ زميلتها في الغرفة كانت كومةً من الهوس والهذيان والرُّهاب، لكنَّها على الأقلِّ لم تكن معادية للساميَّة.

أمضت الشابَّة الشهور الثلاثة الأولى مرتبكة تمامًا من دون أن تتوصَّل إلى صيغة معيَّنة لوضع نظام في حياتها. كانت مرتبكة في الأمور البسيطة ذاتها: كإعداد الطعام، وغسل الثياب، والمواصلات، ومواعيد الدروس. فكلُّها أمور كانت معفيَّةً منها في السابق، وكانت تنوب عنها في القيام بها معلِّماتُها في البداية، وفي ما بعد خالتُها ليليان التي كانت تُؤْثِرها على نفسها. لم ترتِّب ألما يومًا فراشَها، ولم تكوِ قطّ قميصًا. فلمثلِ هذه الأعمال كان ثمَّة فيلقٌ من الخادمات. كما أنَّها لم تنحصر يومًا في ميزانيَّة محدَّدة، لأنَّ الحديث عن المصاريف والمال كان لا يدور في بيت أخوالها. وكم كانت دهشتها كبيرة حينما أخبرها ناتانيل بأنَّ الميزانيَّة المخصَّصة لها لا تشمل المطاعم، والمقاهي،

وطلاء الأظافر، والتدليك. كان ابن خالتها يزورها مرَّة كلّ أسبوع، وبيده دفتر وقلم ليُعلِّمها كيفيَّة تدبُّر أمر مصاريفها. كانت تَعِدُه دائمًا بحسن التصرُّف، لكنْ في الأسبوع التالي، كانت تجد نفسها في حاجة إلى مصاريف أخرى. كانت تحسّ بنفسها أجنبيَّةً وسط هذه المدينة الفاخرة والمتعجرفة: فزميلاتها يُقصينها دائمًا؛ أمّا الفتيان فكانوا يتعاملون معها بازدراء. إلّا أنَّها لم تُصرِّح يومًا بهذه الأمور لأخوالها في رسائلها إليهم. وكلَّما نصحها ناتانيل بالعودة إلى البيت، أعادت على مسمعه أنَّها تفضِّل كلّ أشكال الإهانات على العودة منكسرةً. كانت تجد ضالَّتها في الحمَّام، بالضبط مثلما كانت تفعل في السابق في أحشاء خزانة الملابس، فتفتح رشَّاش المياه ليُخرس بضجيجه العباراتِ البذيئةَ التي كانت تلعن بها حظَّها السيِّئ.

في نوڤمبر، هوى الشتاءُ بكلِّ ثقله على بوسطن. كانت ألما قد أمضت السنوات السبع الأولى من عمرها في فرصوفيا، غير أنَّها لا تتذكَّر الآن كيف كان الطقس هناك، إذ إنَّها لم تكن مهيّأة تمامًا لكلِّ ما اعتراها في الشهور الموالية. فقد فقدت المدينة بريقها جرّاء عواصف البَرد والثلوج، فخفتت الأنوار، وتلحَّفت المدينة برداء رماديٍّ وأبيض. أصبحت الحياة تُعاش داخل البيوت بمحاذاة مكيِّفات التسخين. ومهما ارتدت من ملابس عديدة، فقد كان البرد القارس يشقّ جلدَها، ويتسرَّب إلى عظامها إذا ما أطلّت برأسها إلى الخارج. انتفخت يداها وقدماها، وظهرتْ عليها طفحاتٌ جلديَّةٌ حمراء، ولازمها السعالُ والزكام. كان عليها أن تستنهض كلّ همَّتها في الصباح الباكر كي تغادر الفراش، وتتدثَّر كأنَّها من شعب الأسكيمو، لتستطيع مجابهة رداءة الطقس، وهي تقطع الطريق من بناية إلى أخرى داخل فضاء المدرسة، فتلتصق بالحيطان كي لا تهوي بها الرياح، وهي تجرّ قدميها فوق

الجليد. كلّ الطرق كانت تصبح وعرة جدًّا، وكلّ السيَّارات تغطّيها قممٌ من الثلج، فينهال عليها مالكوها بالمعاول والفؤوس كلّ صباح. كان الناس يمشون منكمشين وهم يرتدون الصوف والجلود، واختفى الأطفالُ من الطرقات، واختفت أيضًا الحيواناتُ الأليفة والطيور.

آنذاك، حين باتت تتقبَّل فكرةَ انهزامها، وكادت أن تخبر ناتانيل باستعدادها لمناداة أخوالها، متوسِّلةً إيَّاهم أن يأتوا لإنقاذها من هذا المُجمّد، حدث لقاؤها الأوَّل مع ڤيرا نيومان (Vera Neuman)، الرسَّامة والمقاولة التي وضعتْ فنَّها في متناول الشعب، برسمها فوق المناديل، وملاءات الأسرَّة، والصحون والملابس، وفوق أيّ شيء يمكن رسمه أو استنساخه. سجَّلتْ ڤيرا علامتَها سنة ١٩٤٢، وفي غضون سنوات قليلة، اكتسحت السوق. ما زالت ألما تتذكَّر كيف أنَّ خالتها ليليان كانت تتنافس مع صديقاتها لتكون الأولى في استعراض أوشحة أو فساتين بتصاميمَ جديدةٍ لڤيرا. غير أنَّها كانت لا تعرف شيئًا عن الفنّانة. والحال أنَّها حضرت ندوة كانت تحاضر فيها ڤيرا مصادفةً؛ فقد أرادت الفرار من البرد بين حصَّتين من الدروس، فوجدتْ نفسها في آخر صفٍّ في قاعة غُلِّفتْ جدرانُها بأثواب مرسومة، ومُلئتْ عن بكرة أبيها. فكلّ الألوان التي فرَّت هاربةً من شتاء بوسطن حُبستْ بجرأتها وتلويناتها وسحرها في هذه الجدران.

استقبل الجمهورُ المْحاضِرة واقفًا وبحفاوة كبيرة. ومرَّةً أخرى أدركتْ ألما حجمَ جهلها بالكثير من الأمور. لم تكن تشكّ في أنَّ مصمِّمة مناديل خالتها هي من المشاهير.

لم تكن ڤيرا نيومان تفرض حضورَها بهيئتها؛ فقامتها كانت لا تتعدّى مترًا وخمسين سنتمترًا. وعلى ما يبدو، كانت إنسانة خجولة، تختبئ وراء نظّارة كبيرة بإطار قاتم حَجبتْ نصفَ وجهها. لكنْ ما إن

فتحت فمها حتى أيقن الناس الحاضرين أنَّهم إزاء عملاقة. كانت ألما تكاد لا تراها من فوق المنصَّة، لكنَّها استمعت إلى كلِّ كلمة تفوَّهت بها، وهي تحسّ بغصَّة في معدتها، وانتابها حدسٌ بأنَّ هذه اللحظات ستكون حاسمةً في مسيرتها. وفي غضون ساعة وخمس عشرة دقيقة، هزَّت هذه المرأة الغريبةُ الأطوار، والمتألِّقة، والمدافعة عن حقوق المرأة، الحضورَ الكريمَ بحكايات رحلاتها التي كانت محورَ إلهامٍ لها في العديد من مجموعاتها الفنِّيَّة: إلى الهند، والصين، وغواتيمالا، وتايلاند، وإيطاليا، وما تبقَّى من الكون. تحدَّثتْ عن فلسفتها، وعن التقنيَّات التي تستعملها، وعن تسويق منتوجاتها وانتشارها، وعن العراقيل التي تجاوزتها.

في تلك الليلة، تحدَّثت ألما مع ناتانيل هاتفيًّا، وأخبرته بحماسة كبيرة عن مصير مستقبلها: سوف تتبع خطوات ڤيرا نيومان.

ـ خطوات من؟

ـ السيِّدة التي صمَّمتْ أغطيةَ الأسرَّة، ومناديلَ بيت والديك، يا نات. لن أضيِّع الوقت بالذهاب إلى دروس لن تنفعني في شيء. لقد قرَّرتْ أن أدرس التصميم والرسم في الجامعة. سوف أذهب لحضور ورشات ڤيرا، وفي ما بعد، سأسافر حول العالم مثلها.

بعد شهور، أنهى ناتانيل دراسة القانون وعاد إلى سان فرانسيسكو. لم ترغب ألما في مرافقته، على الرَّغم من ضغوطات خالتها ليليان التي كانت تصرُّ على عودتها إلى كاليفورنيا. تحمَّلتْ وطأة أربعة فصول شتويَّة في بوسطن، من دون أن تعاود الحديث عن حالة الطقس، وهي ترسم وتصبغ بلا كلل ولا ملل. كانت تنقصها خفَّةُ إيشيمي وطلاقتُه في الرسم، وجرأةُ ڤيرا نيومان في الألوان، بيْد أنَّها حاولت تعويض ما يلزمها من موهبة بالذوق الرفيع. المهمّ، أنَّه

تشكَّلت لديها آنذاك صورةٌ واضحةٌ عن الاتِّجاه الذي سوف تسير فيه قُدُمًا. والحصيلة أنَّ تصاميمها جاءت أكثر تميُّزًا من تصاميم ڤيرا، لأنَّ هدفها لم يكن إرضاءَ الذوق الشعبيّ والربحَ في التجارة، بل الإبداع من أجل التسلية. لم تخطر في بالها إمكانيَّةُ العمل من أجل كسب قُوت اليوم؛ فلا مجال لمناديل بعشرة دولارات، ولا لملاءات للأَسرَّة بأثمان مرتفعة.. فقط سترسم وتطبع بضع قطع من الملابس، تحمل توقيعَها دائمًا فوق الحرير الممتاز. كلّ ما ستبدعه يداها سيكون حصريًّا جدًّا، وباهظَ الثمن، إلى درجة أنَّ صديقات خالتها ليليان سَيُصَبْن بالجنون لاقتنائه.

خلال تلك السنوات، تمكَّنتْ من التغلُّب على الشلل الذي أحدثته لها هذه المدينة الشاهقة، فتعلَّمتْ كيف تتحرَّك من مكان إلى آخر، وتدرَّبتْ على شرب الخمور من دون أن تعربد، وأن تنسج علاقات الصداقة. فاعتادت العيش في بوسطن التي أصبحت قطعة منها، إلى درجة أنَّها حينما تذهب في عطلة إلى كاليفورنيا، تحسّ وكأنَّها في بلد متخلِّف في قارَّة أخرى.

كما تمكَّنتْ من حصد معجبين في قاعات الرقص، حيث أظهرتْ مهاراتها المستمدَّة من أيَّام التدريبات برفقة إيشيمي، وخاضت أوَّل تجربة جنسيَّة لها، من دون احتفالات، خلف كتلة من النباتات في نزهة في الغابة، الأمر الذي هدَّأ فضولها، وخفَّف عقدة أن تكون عذراء وقد تخطَّت العشرين من عمرها. وفي ما بعد، عاشت مرَّتين أو ثلاثًا التجربةَ نفسَها مع شباب مختلفين، من دون أن يكون للأمر طعم، فأصرَّت على قرارها بانتظار إيشيمي.

البعث

قبل حفل التخرُّج ببضعة أسابيع، استدعت ألما ناتانيل إلى سان فرانسيسكو للحديث عن تفاصيل سفر عائلة بيلاسكو إلى بوسطن. كانت أوَّلَ امرأة في العائلة ستحوز شهادة جامعيَّة في عالم التصميم وتاريخ الفنّ، وهما تخصُّصَان لا يرقيان إلى مستويات التخصُّصات الأخرى، إلَّا أنَّ هذا لم يقلِّل من شأنها. مارتا وسارة كانتا ستحضران الحفل هما أيضًا، لا لشيء سوى لمواصلة الطريق نحو نيويورك للتسوُّق. لكنَّ خالها إسحاق سيكون غائبًا، إذ إنَّ طبيب القلب حذَّره من صعود الطائرة. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد كان يتأهَّب لضرب نصائح الطبيب عرض الحائط، لأنَّ ألما تعني له الكثير، لكنَّ ليليان عارضته بشدَّة.

وقد روت ألما بعجالة، في أثناء محادثتها مع ابن خالتها، أنَّ لديها انطباعًا بوجود مَنْ يتجسَّس عليها، وأنَّها لم تولِ الأمر عناية كبيرة ظنًّا منها أنَّ الأمر لا يعدو كونه أوهامًا، وأنَّها ربَّما كانت متوتِّرة بسبب الامتحانات النهائيَّة. لكنَّ ناتانيل أصرَّ على معرفة التفاصيل، فذكرت له

أنّها تتلقّى مكالمات هاتفيَّة مجهولة ـ من صوت رجوليّ بلكنة أجنبيَّة ـ يسألها إنْ كانت ألما بيلاسكو، وبسرعة فائقة يغلق الخطّ! كان يضايقها الإحساس البغيض بأنَّها تحت المراقبَة، وأنَّ ثمَّة رجلًا يتحرَّى عنها بين زميلاتها. ومن الوصف الذي أَمْلته الصديقات يبدو أنَّه الشخص نفسه الذي رأته مرّات عديدة يتجوَّل قبل أيّام في جنبات القسم وفي الممرّات وفي الشارع. ناتانيل، بفطنته كمحام، أوصاها بإشعار شرطة الحرم الجامعيّ كتابةً، كإجراءٍ وقائيٍّ: ففي حال وقوع أحداث، تكون وثيقةُ الاتِّهام موجودةً عند الشرطة. وأمرها كذلك بعدم الخروج ليلًا بمفردها. لكنَّ ألما لم تُعِرْه اهتمامًا.

كانت تلك فترة الحفلات الفاحشة التي يُودِّع فيها الطلبةُ الجامعةَ. وما بين الموسيقى والكحول والرقص، نسيتْ ألما الظلَّ المشؤومَ الذي كانت تتخيّله، إلى أن ظهر من جديدٍ يومَ الجمعة، قبل حفل التخرُّج. كانت قد أمضت جزءًا مهمًّا من الليل في حفلة ماجنة، شربتْ فيها الكثير، وعربدتْ، وتناولت المخدِّرات والهيرويين، وهي أمور لا يحتملها جسمها كثيرًا. وفي الثالثة صباحًا، أوصلها شباب طائشون في سيّارة مكشوفة إلى باب منزلها.

بحثتْ ألما عن المفتاح في حقيبتها، وهي تترنَّح من جهة إلى أخرى، بشعر أشعث، وحذاؤها بين يديها. لكنَّها لم تُفلح في العثور على المفتاح، فهوت على ركبتيها لتتقيَّأ كلّ ما في أحشائها. لم يتوقَّف الغثيان، وكانت الدموع تنهمر على وجهها. حاولتْ في الأخير النهوض، لكنْ من دون جدوى. كانت مبلَّلة بالعرق، تحسُّ بتشنُّجات في المعدة، وترتجف وتتأوَّه من الغمّ. وفجأةً، أحسَّت بمخالب تسمَّرت في ذراعيها، ترفعها عن الأرض لتوقفها على رجليها: «ألما ميندل يجب أن تخجلي من نفسك». لم تتعرَّف إلى الصوت، فمالت

من جديد من شدَّة الدوخة. لكنَّ المخالب أحكمت القبضَ عليها. «أَطْلقْني، أَطْلقْني»، تمتمت، وهي ترفس الأرض برجليها. أعادت إليها صفعاتٌ خفيفةٌ من راحة يده على وجهها القليلَ من صفاء الذهن، واستطاعت أن تلمح طيفَ رجل، بوجه قاتم، تخترقه خطوطٌ كأنَّها ندبات، وجمجمة محلوقة. ومن دون معرفة السبب، أحسَّت براحة تامَّة، فأغلقت عينيْها، واستسلمتْ لمأساة ثمالتها، وتخوُّفها من وجودها في حضنِ مجهولٍ، ما لبث يهزُّها لتوِّه.

في السابعة من صباح يوم السبت، استيقظتْ ألما ملفوفةً في بطّانيَّة خشنة، كانت تخدش جلدها، في الكرسيِّ الخلفيّ لإحدى السيَّارات. كان المكان يعبق برائحة القيء والبول والتبغ والكحول. لم تدرِ أين هي، ولم تتذكَّر شيئًا ممَّا حدث في الليلة الماضية. اعتدلتْ في جلستها، وحاولت توضيب ملابسها، فانتبهت إلى أنَّ الفستان ضاع منها وكذلك الغلالة. كانت ترتدي فقط حمَّالات الثدي، والتبَّان، وحمَّالات الجوارب، وجاربَيْ النايلون الشفَّافين وقد مُزِّقا. وكانت كذلك حافية القدمين. أحسّت بطنين في رأسها يشبه صوت الأجراس، وهي ترتعد من البرد. كان فمها جافًّا وخائفة أيضًا. عاودت الارتماء منكمشةً وهي تنتحب وتنادي على ناتانيل.

بعد لحظات، أحسَّت بأنَّ أحدًا يحرِّكها. فتحتْ جفنيها بصعوبة كبيرة، وهي تحاول أن تركِّز بصرها، فتراءى لها شبحُ رجلٍ فتح الباب الصغير، وانحنى عليها.

ـ القهوة والأسبرين سيساعدانك قليلًا، قال لها وهو يناولها قدحًا كرتونيًّا وحبَّتين.

ـ دعني وشأني.. عليَّ أن أذهب، أعقبتْ بلسانٍ جافٍّ وهي تحاول النهوض.

- لا يمكنك الانصراف بهذه الوضعيَّة. هي ساعات قليلة وسوف تصل عائلتك. حفل التخرُّج سيُقام غدًا. اشربي القهوة. وإذا أردتِ أن تعرفي من أنا، فأنا صامويل أخوك.

هكذا بُعث صامويل، بعد موته بإحدى عشرة سنة، في شمال فرنسا.

بعد انتهاء الحرب، حصل إسحاق بيلاسكو على أدلَّة صريحة على المصير الذي آل إليه والدا ألما في معتقلات النازيِّين، بمحاذاة بلدة تيبرلانكا، في شمال پولندا. لم يوثِّق الروسُ الإفراجَ عن المعتقلات كما فعل الأميركيُّون في مناطق أخرى. وعلى الصعيد الرسميّ، لم تكن المعلومات عن أحداث هذا الجحيم وفيرةً. لكنَّ الوكالة اليهوديَّة كانت تقدِّر حجمَ الخسائر البشريَّة بين يوليو ١٩٤٢ وأكتوبر ١٩٤٣ بثمانمئة وأربعين ألفًا، ثمانية آلاف منهم كانوا من اليهود. وفي ما يخصُّ صامويل ميندل، تحقَّق إسحاق من أنَّ طائرته سقطتْ فوق الأراضي الفرنسيَّة المحتلَّة من طرف الألمان. وبحسب التحرِّيات العسكريَّة التي قامت بها القوّات البريطانيَّة، لم يَنْجُ من هذا الحادث أحدًا.

مرَّت سنوات طوال من دون أن تعلم ألما شيئًا عن والديْها، وسلَّمتْ بموتهما قبل أن يؤكِّد لها زوجُ خالتها نبأ الوفاة. وحين علمتْ بالأمر لم تبكِ كما كان متوقَّعًا، لأنَّها اشتغلت على ذاتها لسنوات عدَّة، وتعلَّمتْ كيف تتحكَّم في مشاعرها حتى فقدت القدرةَ على التعبير. في إثر ذلك، اعتبر إسحاق وليليان أنَّه بات من الضروريِّ إقفال هذا الفصل التراجيديّ إلى الأبد، وأخذا ألما إلى أوروپا. وفي مقبرة البلدة الفرنسيَّة، حيث سقطتْ طائرةُ صامويل، وضعا لوحةً جنائزيَّة تذكاريَّة تحمل اسمَه وتاريخَ ولادته ووفاته. في ما بعد، حصلا

على ترخيص لزيارة پولندا التي كانت تخضع لمراقَبة السوفيات. رحلة الحجّ هذه، ستكرِّرها ألما بعد سنين عدَّة. كانت الحرب قد انتهت منذ أربع سنوات، لكنَّ أوروپا كانت لا تزال غارقةً في كلّ أشكال الدمار. الشوارع كانت تعجُّ بأُناس يتنقَّلون بحثًا عن وطن. وخلصتْ ألما إلى أنَّه لا تكفيها حياةٌ واحدةٌ لأداء ثمن هذا الحظ، حظِّ نجاتها من بين كلّ أفراد أسرتها من الموت المحقَّق.

اعتدلتْ ألما في مقعد السيَّارة، بعد أن هزَّها تصريحُ الرجل المجهول الذي يقول إنَّه أخوها، وتناولت القهوةَ والأسبرين في ثلاث جرعات. ذلك الشخص لا يشبه بتاتًا الشابَّ ذا الوجنتين المحمرَّتين، والقسمات المسلِّية، الذي ودَّعته في ميناء دانزيغ؛ فأخوها الحقّ يشبه الصورةَ التي ما زالت تختزنها الذاكرة، لا هذا الرجلَ الشاخص أمامها، النحيفَ جدًّا والجافّ، بعينين صلبتين، وفم مشدود، وبشرةٍ مدبوغةٍ بأشعَّة الشمس، ووجهٍ تعلوه تجاعيدُ عميقة وبعضُ الندبات.

ـ كيف لي أن أعرف أنَّك أخي؟

ـ لن تعرفي. إن لم أكن كذلك، فلن تجديني هنا أضيِّع وقتي.

ـ أين هي ملابسي؟

ـ في المصبغة. ستكون جاهزةً في غضون ساعة. لدينا متَّسع من الوقت للحديث.

روى لها صامويل أنَّ آخر ما شاهده، حينما أَسقطوا طائرتَه، هو العالم من فوق، يحوم ويحوم. لم يتمكَّن من استعمال المظلَّة، لأنَّها كانت ستكشف أمرَه للألمان. ولم يستطع أن يفسِّر لها بوضوح كيف نجا من الموت المحقَّق ساعةَ تحطُّم المحرِّك وانفجارِه. افترَضَ أنَّه ارتمى من مقعده ساعةَ السقوط، وهوى بثقله فوق قمَّة الأشجار، حيث

ظلَّ عالقًا. عثرتْ قوّاتُ العدوّ على جثّة مساعده، ولم تُواصل عمليّات البحث. أمّا هو، فقد أنقذته عناصرُ من المقاومة الفرنسيّة. كان فاقدًا للذاكرة، وعظامُه مكسورة، وما إنْ تأكّدوا من أنّه مُختون حتى سلّموه إلى مجموعة من المقاومة اليهوديّة، فخبّأوه لعدّة أشهر في كهوفٍ وإسطبلاتٍ، ومصانع مهجورة، وفي بيوت أُناس طيِّبين كانوا على استعداد لمدِّ يد العون إليه، فكانوا يحوِّلونه مرارًا من مكان إلى آخر، إلى أن جُبِرَتْ عظامه المكسورة، فلم يعد عالةً على أحد، فانضمَّ إلى المجموعة كمقاتل. لكنَّ الضبابَ الذي كان يغشى عقلَه لم يتبدَّدْ بالسرعة التي عولجَتْ بها عظامُه. ومن الزيِّ الذي كان يرتديه حينما عثروا عليه، عَلموا أنَّه من إنكلترا. كان يعرف الإنكليزيَّة والفرنسيَّة، لكنَّه كان يُجيب باللغة البولنديَّة، ولم يسترجع مهارتَه في اللغات التي يتقنها إلَّا بعد مرور شهور عدَّة. ولمَّا كان زملاؤه يجهلون اسمه، فقد قرَّروا تكنيته بالوجه الممزَّق، كنايةً عن الندبات التي تعلوه، لكنَّه قرَّر أن يُسمِّي نفسه جان فالجان (Jean Valjean)، بطل رواية ڤيكتور هوغو، التي كان يقرأها خلال فترة النقاهة. قاتل إلى جانب رفاقه في مناوشات بلا أفق. كانت القوَّات الألمانيَّة متفوِّقة جدًّا، وكان اعتزازُها بالنفس شديدًا، وتعطُّشها للسلطة والدم لا يرتوي، إلى درجة أنَّ عمليَّات التخريب التي كانت تقوم بها مجموعةُ صامويل لم تتمكَّن ولو من خدش درع الغول.

كانوا يعيشون في الظلِّ ويتحرَّكون كالفئران اليائسة، يلازمهم شعور بالفشل والإحباط. لكنَّهم عقدوا العزم على المضيِّ قُدُمًا، في ظلِّ غياب حلول بديلة. كانت التحيَّة التي يتبادلونها عبارة عن كلمة واحدة: «النصر»، وكانوا يودِّعون بعضهم بعضًا بالطريقة نفسها: «النصر». والنهاية كانت متوقَّعة: فقد أُلقي القبض عليه في إحدى

العمليَّات، وأُرسل إلى معتقل أوشفيتز (Auschwitz).

بعد انتهاء الحرب، والنجاة من المعتقل، تمكَّن جان فالجان من الإبحار خِفْيةً نحو فلسطين، حيث كانت تصل وفودُ اللاجئين اليهود، رغم أنف بريطانيا التي كانت تبسط سيطرتها على المنطقة، وتحاول صدَّ الجموع الغفيرة لتفادي النزاعات مع العرب. كانت الحرب قد حوَّلته إلى ذئب محترس ومتيقِّظ أينما حلَّ وارتحل. كان يكتفي بقصص حبٍّ عابرة، إلى أن سقط في شِباك إحداهنّ، وأخبرته زميلة له في الموساد (الوكالة الإسرائيليَّة للاستخبارات)، التي انضمَّت إليها مخبرةً مدقِّقةً وجريئة، أنَّه سيصبح أبًا. كانت زميلته هذه تُدعى أنات راكوسي (Anat Rakosi)، وقد هاجرتْ مع والدها من هنغاريا، بعد أن لقيتْ كلُّ عائلتها حتفها. كانت تربطها بصامويل علاقة ودِّيَّة، بلا مشاعر ولا آفاق، وكان الاثنان مرتاحين إلى هذه الوضعيَّة، لولا حدث الحمل غير المتوقَّع. كانت أنات تظنُّ نفسها عاقرًا بسبب الجوع، والضرب، وعمليَّات الاغتصاب، و«التجارب» الطبِّيَّة التي عانتها. وحينما تيقَّنتْ من أنَّ انتفاخ بطنها لم يكن بسبب ورم بل لوجود طفل، اعتبرت الأمرَ فكاهةً إلٰهيَّة. ولم تُخبر عشيقَها حتى حدود الشهر السادس. «يا للمفاجأة! حسبتكِ تزدادين في الوزن فقط»، كان هذا هو تعليقه، بيْد أنَّه لم يستطع إخفاءَ حماسته. وأعقبتْ بالقول: «أوَّل شيء يجب أن نبادر إليه الآن هو أن نعرف مَن تكونُ، ليَعرف هذا المخلوقُ، في ما بعد، من أين أتى؛ فكنيةُ فالجان تبدو لي ميلودراميَّةً».

كان صامويل يؤجِّل من سنة إلى أخرى عمليَّة النهوض للبحث عن هويَّته، لكنَّ أنات باشرت المهمَّة بنفسها على الفور، وبالهمَّة نفسها التي عثرتْ بها للموساد على مخابئ المجرمين النازيِّين الفارِّين من محاكمات نورنبرغ. بَدأتْ بأوشفيتز، وهي آخرُ محطَّة وُجد فيها صامويل قبل توقيع

الهدنة، ثم راحت تتعقَّب خيطَ التاريخ خطوةً خطوةً، فرحلتْ إلى فرنسا للتحدُّث مع أحد عناصر المقاومة اليهوديَّة القلائل الذين لم يغادروا البلد. فساعدها على العثور على المقاتلين الذين أنقذوا طيَّار الطائرة الإنكليزيَّة. لم تكن المهمَّة سهلة، فبعد انتهاء الحرب، يبدو أنَّ جُلَّ الفرنسيِّين باتوا من أبطال المقاومة. انتهت الرحلة بأنات إلى أرشيف لندن، حيث راجعت كلّ وثائق القوَّات الجوِّيَّة الملكيَّة، فوجدتْ العديدَ من الصور الفوتوغرافيَّة لشباب يشبهون كثيرًا عاشقها. لم يبقَ لها شيء آخر تتعلَّق بأهدابه. فكلَّمته هاتفيًّا، وقرأت عليه خمسة أسماء وهي تسأله «أيّ من هذه الأسماء تعرفه؟» أجابها وهو يحبس حشرجة في حلقه: «ميندل، أنا متأكِّد. نَسَبِي هو ميندل».

ـ لديَّ ابن في الرابعة من عمره، اسمه باروخ (**Baruj**) مثل والدنا، باروخ ميندل. هذا ما رواه صامويل لألما وهو جالس بمحاذاتها في المقعد الخلفيّ للسيَّارة.

ـ هل تزوَّجتَ بأنات؟

ـ لا. إنَّنا نحاول أن نعيش معًا. لكنَّ الأمر صعب.

ـ كيف لم يخطر في بالك أن تأتي لزيارتي، وأنت تعرفني منذ أربع سنين؟ عاتبته ألما.

ـ ولماذا أبحث عنك؟ إنَّ الأخ الذي تعرفينه مات في حادثة جوِّيَّة. لم يبقَ شيء من الفتى الذي تجنَّد طيَّارًا في إنكلترا. إنَّني أعرف القصَّة، لأنَّ أنات تصرُّ على تكرارها، لكنَّني لا أحسُّ بنفسي معنيًّا بالأمر. إنَّها حكاية جوفاء، بلا معنى. والحقيقة أنَّني لا أتذكَّركِ، لكنَّني واثق بأنَّك أختي، لأنَّ أنات لا تخفق بتاتًا في هذا النوع من المهمَّات.

ـ أنا ما زلت أتذكَّر أنَّه كان لي أخ يلعب معي ويعزف على البيانو، لكنَّه لا يشبهك في شيء.

ـ لم نَرَ بعضنا بعضًا منذ سنوات. وكما قلتُ لكِ، لم أعد أنا الشخصَ نفسَه.

ـ لماذا قرَّرتَ المجيء اليوم؟

ـ لم آتِ لأجلكِ. أنا في مهمَّة. لكنَّني لا أستطيع التحدُّث في الموضوع. استغللتُ رحلتي للمجيء إلى بوسطن، لأنَّ أنات تعتقد أنَّ باروخ في حاجة إلى عمَّة. والدها توفِّي منذ شهور. لم يبق أحد من عائلتي ولا من عائلتها، سواكِ أنتِ. لا أنوي أن أفرض عليك شيئًا، ألما، لكنَّني فقط وددتُ أن تكوني على علم بأنَّني حيٌّ، ولديك ابنُ أخ. انظري لقد أرسلتْ إليكِ أنات هذا.

أعطاها صورةً فوتوغرافيَّةً ملوَّنةً للابن ووالديه. ظهرتْ أنات راكوسي جالسة، والولدُ في حجرها. كانت امرأة نحيفة جدًّا، وشاحبة، بنظَّارتين مستديرتين. إلى جانبهما، يظهر صامويل جالسًا وقد عقد ذراعيه إلى صدره. أمَّا الطفل، فكان ذا قسمات حادَّة وشعر مموَّج وداكن مثل شعر والده. وخلف الصورة، كتب صامويل عنوانًا في تل أبيب.

ـ تعالي لزيارتنا، يا ألما، لتتعرَّفي إلى باروخ. قال لها ساعة الفراق، بعد استرجاع الملابس من المصبغة، وإيصالها حتى غرفة نومها.

سيف عائلة فوكودا

استمرَّت فترة احتضار طاكاو فوكودا أسابيعَ طِوالًا. لم تكن وفاته سهلة؛ فقد كان يعاني سرطان الرئة، ويتنفَّس بحشرجة مثل سمكة خارج الماء. وكان يتكلّم بصعوبة تامَّة. وعبثًا كانت محاولاته في التواصل عبر الكتابة، لأنَّ يديه المنتفختين والمرتعشتين كانتا لا تستطيعان أن تَخطَّا الحروف اليابانيَّة الدقيقة. كان يرفض الأكل رفضًا باتًّا، وما إن تنصرف العائلة أو الممرِّضات، حتى ينزع المصلَ الغذائيّ ويغرق في نوم عميق. بيد أنَّ إيشيمي، الذي كان يتناوب مع والدته وأخته على عيادته في المستشفى، كان يعلم بأنَّ أباه في وعيه الكامل وهمِّه. فكان يُسند له الوسادات لإبقائه نصف ممدَّد، ويُنشِّف له العرق، ويحكُّ له الجلد المقشَّر، ويضع له قطعًا صغيرة من الثلج فوق لسانه، ويُحدِّثه عن النباتات والبساتين. ومرَّة في إحدى هذه اللحظات الحميميَّة، انتبه إلى أنَّ والده يحرِّك شفتيه بانتظام، ويهمس بشيء يشبه اسم علامة سيجار، لكنْ فكرة العودة إلى التدخين في هذه الظروف، كانت تبدو له مستبعدة. وهكذا مكث إلى جانبه المساء كلَّه، وهو

يحاول تشفير ما يحاول طاكاو تبليغه: «كيمي موريتا (Kemi Morita)؟ أهذا ما تريد قوله يا أبتي؟ أتريد أن تراها؟» سأله أخيرًا. جمع طاكاو كلّ ما تبقّى لديه من قوّة وأجاب بالقبول. كان الأمر يتعلّق بالزعيمة الروحيّة لأوموتو، وهي امرأة ذاع صيتها، واشتهرت بحديثها مع الأرواح. كان إيشيمي يعرفها، لأنَّه كان يسافر مرارًا للاجتماع مع الأقلّيّات التي تدين بدينها.

ـ إنَّ والدي يريد أن نُنادي على كيمي موريتا، أخبر إيشيمي ميگومي.

ـ إنَّها تعيش في لوس أنجلوس، يا إيشيمي.

ـ كم بقي لدينا من المال المدَّخر؟ في إمكاننا أن نشتري لها تذكرة السفر.

حينما وصلتْ كيمي موريتا، كان طاكاو قد توقّف عن الحركة، وبقي مؤشّر واحد يدلُّ على حياته، وهو صوتُ هدير آلة التنفُّس. استأجرتْ ميگومي سيَّارة من صديقتها التي تعمل معها في المصنع، وذهبتْ لاستقبال القسِّيسة في المطار. كانت المرأة تبدو وكأنَّها طفل في العاشرة من عمره يرتدي منامةً بيضاء. كان شعرها الأمشط، وكتفها المنحنية، وطريقة مشيتها، لا تتناسب مع وجهها الأملس بلا تجاعيد، وكأنَّه قناع نحاسيٌّ يعكس صفاءَ الروح.

تقدَّمتْ كيمي موريتا بخطوات قصيرة نحو السرير، وأخذت يده بين راحتيها. فتح طاكاو جفنيه قليلًا، وتأخَّر قليلًا في معرفة زعيمته الروحيَّة. وبحركة غير ملموسة توهَّج وجهُه المنكسر. تراجع إيشيمي وميگومي وهايكيدو نحو قاع الغرفة، في حين قامت كيمي بترتيل صلوات طويلة أو قصائد بلغة يابانيَّة قديمة. وفي ما بعد، ألصقتْ أذنها

بفم المحتضر. وبعد دقائق طويلة، قبّلتْ جبينَ طاكاو، واستدارت نحو العائلة.

ـ ها هي والدة طاكاو ووالده وأجدادُه، ولقد أتوا من بعيد لإرشاده نحو الطريق؛ قالت بلغة يابانيَّة، وهي تشير إلى مؤخّرة الفراش. إنَّ طاكاو مستعدٌّ للرحيل الآن، لكنَّه قبل ذلك، يودُّ أن يخبر إيشيمي بأمر.

وهذه هي الرسالة: «إنّ كاتانا عائلة فوكودا قد دُفنت في حديقة تطلُّ على البحر. لا يجب تركها هناك، إيشيمي. يجب استرجاعها ووضعها في المكان اللائق بها، في محراب أسلاف عائلتنا».

استقبل إيشيمي الرسالة بانحناءة كبيرة رافعًا كفَّيه معًا إلى جبينه. لم يعد يتذكَّر بوضوح تلك الليلة التي دفنوا فيها سيف عائلة فوكودا؛ فالسنوات غيَّرت كثيرًا ملامح المشهد. لكنَّ هايكيدو وميگومي كانتا تعرفان جيِّدًا هذه الحديقة المطلّة على البحر.

ـ طاكاو يطلب أيضًا سيجارةً أخيرة، أضافت كيمي موريتا قبل أن تنسحب.

بعد العودة من بوسطن، عاينتْ ألما أنَّه، خلال سنوات غيابها، تغيَّر أفراد عائلة بيلاسكو أكثر ممَّا تعكسه وجوههم. وخلال الأيَّام الأولى، شعرتْ بأنَّها غريبة، وأنَّ زيارتها عابرة، وهي تتساءل في قرارة نفسها عن المكان الذي ستشغله وسط هذه العائلة، وماذا ستفعل بحياتها. كانت سان فرانسيسكو تبدو لها مقاطعة صغيرة، وكي تثبت اسمها في عالم الرسم، عليها أن ترحل إلى نيويورك، حيث ستكون بين الفنَّانين المرموقين، وأقرب هناك إلى التأثُّر بالتجارب الفنِّيَّة الأوروبيَّة.

وُلد لعائلة بيلاسكو ثلاثة أحفاد. طفل مارتا ذو الثلاثة أشهر، وابنتان / توأمان لسارة، وُلدتا في هيئة اسكندنافيَّة، ربّما بسبب خلل في قانون الجينات. كان عمل ناتانيل رهينًا بتوقيع والده. وكان يعيش وحيدًا في شقَّة في نتهاوس بمساحات شرفيّة مكشوفة تطلُّ على الخليج، يملأ أوقات فراغه بالإبحار في الخليج على متن مركبه الشراعيّ. وكان قليل الكلام والأصدقاء. وفي السابعة والعشرين من عمره، كان لا يزال يتصدَّى للحملة الشرسة التي تشنُّها والدته، التي تسعى جاهدةً للعثور على زوجة مناسبة له. فالمترشِّحات كثيرات، لأنَّ ناتانيل ينحدر من عائلة كبيرة، وهو الرجل الثريّ والأنيق، والمثاليُّ الذي صنعه والده، والشخصُ الذي وقعتْ عليه أعينُ خاطبات المستعمرة اليهوديّة.

لم تتغيّر الخالة ليليان كثيرًا. كانت لا تزال محافظة على طيبتها ونشاطها المعهودين، إلّا أنَّ حالة الصمم المصابة بها تفاقمت كثيرًا، فباتت تتكلَّم بصوت عال جدًّا. واشتعل رأسُها بالشيب، فلم تشأ صباغته، لأنَّها كانت ترغب في البقاء على طبيعتها؛ بخلاف زوجها الذي يبدو وكأنَّ عقدين من الزمن قد هبطا عليه دفعةً واحدة، فبدت السنون القليلة التي تفصلهما وكأنَّها تضاعفتْ ثلاث مرّات. عانى إسحاق نوبات قلبيَّة حادَّة. وعلى الرَّغم من تماثله إلى لشفاء، فقد بقي ضعيف القوى.

كان يذهب إلى مكتبه بضع ساعات كإجراء روتينيٍّ، لكنّه أوكل العمل كلّه إلى ولده ناتانيل. ودّع الحياة الاجتماعيَّة إطلاقًا، وهي لم تكن تستهويه يومًا، وصار يطالع كثيرًا، ويستمتع بمنظر البحر والخليج من عريشة حديقته. يزرع المراقد (الوعاء الذي تُزرع فيه البذور) في المشتل، ويدرس نصوصًا في القانون وعالم النباتات. ازدادت رطوبة

كبده إلى درجة أنَّ عينيه كانت تغرورقان بالدموع لأتفه الأسباب. كانت ليليان تحمل غصَّة عميقة من الرعب في معدتها: «أقسم إنَّك لن تموت قبلي، إسحاق»، كانت تقول له في تلك اللحظات التي يختنق فيها، فيجرّ قدميه بصعوبة تامّة نحو السرير، ويرتمي فيه شاحبًا مثل المُلاءة، بعظام مشلولة. لم تكن ليليان تفقه كثيرًا في أمور المطبخ، الذي كانت تُوكل مهمَّاته إلى شيف. لكنْ، منذ توعُّك صحَّة زوجها، باشرتْ بنفسها بتحضير حساءات شهيَّة، بمساعدة الوصفات التي ورثتها عن أمِّها، والمنقولة باليد على دفتر. كانت تجبره على إجراء فحوصات عديدة عند الكثير من الأطبَّاء، وتصطحبه إلى عياداتهم لتكون على اطِّلاع على كلِّ العلل. كما كانت تسهر على تقديم الأدوية في مواعيدها. ولم تكن تكتفي بهذا، بل تلجأ كذلك إلى حلول بديلة. فتدعو الله، ليس فقط عند الشروق والغروب كما هو معتاد، لكنْ عند كلّ ساعة.

وكاحترازات وقائيَّة، كان إسحاق ينام دائمًا فوق سرير عُلِّقتْ على مسنده عينٌ زجاجيَّة تركيَّة، ويدٌ فاطمة من المعدن الأصفر. وكانت هناك دائمًا شمعة مشتعلة فوق المنضدة، إلى جوار التوراة والإنجيل، وقارورة من الماء المبارك الذي أحضرته واحدة من خادمات البيت من مُصلّى سان جوداس (San Judas).

ـ ما هذا؟ سأل إسحاق يومَ رأى فوق طاولة السرير هيكلًا عظميًّا بقبَّعة.

ـ إنَّه البارون سامدي، بعثوا به إلَيَّ من نيو أورلينز. إنَّه إله الموت والصحَّة كذلك، أخبرته ليليان.

كان إسحاق يرغب في تنحية كلّ التماثيل التي غزت غرفته، بضربة واحدة من يده. لكنَّ حبَّه لزوجته غلبه. كان يتغاضى عن كلِّ

شيء في سبيل إرضائها، وهي التي كانت تنزلق في مطبَّات خطيرة من الرعب، ولم يكن في يده حيلة لمواساتها. كان ينظر بعين الدهشة إلى تدهور حالته الصحِّيَّة، لأنَّه كان دائمًا يتمتَّع بصحَّة جيِّدة، وكان يظنُّ نفسه قويًّا لا يُكسَر. فثمَّة وهن رهيب كان ينخر عظامه، ولولا عزيمة الفيل التي كان يمتلكها لما استطاع أن يجابه مسؤوليَّاته العديدة على أحسن وجه، ومن بينها مسؤوليَّة البقاء على قيد الحياة إكرامًا لزوجته.

ضخَّ وصولُ ألما شحنةً من الطاقة في إسحاق. لم يكن يعبِّر كثيرًا عن مشاعره، غير أنَّ حالته المرضيَّة أردته هشًّا. لذا كان يأخذ حذره كثيرًا حتى لا يفور تيَّارُ الحنان الجارف الذي كان يحمله في دواخله. وحدها ليليان كانت تنعم بهذا الجزء من شخصيَّة زوجها في اللحظات الحميميَّة. كان ولده ناتانيل بمثابة العصا التي يتَّكئ عليها. كان صديقَه الوفيَّ، وشريكه، وأمين سرِّه، إلَّا أنَّه لم يصرِّح له بذلك يومًا. فكلاهما كان يؤمن بهذه المحبَّة، التي إنْ تُرجمتْ إلى كلمات فستُحرجُهما. كان يعامل مارتا وسارة بعطف أبويٍّ، بيْد أنَّه اعترف يومًا لزوجته سرًّا بأنَّ ابنتيه لا ترقيان إلى مستوى تطلُّعاته. والأمر نفسه كان مع زوجته ليليان، لكنَّها كانت تطرد هذه الأفكار. أمَّا الأحفاد، فكان يداعبهم عن بُعد «لننتظر إلى أن يشتدّ عُودُهم، فما زالوا صغارًا»، كان يقول بنبرة فكاهيَّة لتبرير تصرُّفه. لكنَّه كان كذلك بالفعل في أعماقه. لم يكن الأمر على ذلك النحو مع ألما التي كانت تثير فيه مشاعر عدَّة.

حينما وفدت ابنةُ الأخت من پولندا للعيش في سي كليف سنة ١٩٣٩، أحسَّ إسحاق تجاهها بحنانٍ ما فتئ أن تحوَّل إلى فرحة باختفاء والديها، إذ أصبحت الفرصة سانحة بأن يحتلّ مكانَيهما في قلب الصبيَّة. لم يكن ينوي السهر على تكوينها مثل أولاده، بل كان

يفكِّر في توفير الحماية لها فقط. وهذا ما أفسح المجال له للتعلُّق بها. ترك في عهدة زوجته ليليان مهمَّةَ تَلبية حاجاتها كفتاة، في حين كان يتسلَّى هو بتحدِّيها ثقافيًّا، وإقحامها في عشقه علم النباتات والجغرافيا. وبالضبط، في اليوم الذي كان يعرض فيه على ألما كتبًا عن الحدائق، خطر في باله تأسيس مؤسَّسة بيلاسكو. مرَّت شهور وهم يتدارسون الموضوع، إلى أن اتَّخذت الفكرة صيغتها النهائيَّة. وفكرة غرس حدائق في الأحياء الفقيرة من المدينة كانت من اقتراح البنت، التي كان عمرها آنذاك لا يتعدّى ثلاث عشرة سنة. كان إسحاق يعشقها، وينظر بإعجاب إلى تطوُّر عقلها. كان واعيًا بوحدتها، وكم كان يتأثّر حينما تدنو منه بحثًا عن الرفقة. كانت الصبيَّة تجلس إلى جواره لتشاهد التلفاز، أو لتتصفَّح كتب البستنة، فتضع يدها على ركبتيه. وكم كانت سعادته كبيرة وهو يتحسَّس ثقل هذه الكفِّ الصغيرة وحرارتها. كان يداعب رأسها كلَّما مرَّت إلى جانبه. ودائمًا في غياب الكلّ، كان يشتري لها حلويات ويضعها تحت وسادتها. المرأة الشابَّة التي عادت الآن من بوسطن، بقَصَّة شعر جيومتريَّة، وشفتيْن حمراوَيْن مطليَّتيْن، وعزيمة قويَّة، لم تكن ألما القديمةَ، الفتاةَ الخجولة جدًّا، التي تنام وهي تحتضن القطّ لأنَّها كانت تهاب النوم بمفردها. لكنْ بعد تجاوز الحرج الأوَّل المتبادل، استعادا علاقتهما المرهفة. وبعد أيَّام قليلة، سألها إسحاق:

ـ أما زلتِ تتذكَّرين عائلة فوكودا؟

ـ نعم! وكيف لي أن أنسى؟ أردفت ألما بذعر.

ـ البارحة، هاتفني أحد أبنائه.

ـ إيشيمي؟

ـ أجل، هو الابن الأصغر. أليس كذلك؟ سألني إن كان يستطيع المجيء لزيارتي. يريد التحدُّث معي. إنَّهم يعيشون الآن في أريزونا.

ـ خالي، إيشيمي هو صديقي. ولم أره منذ اعتقال عائلته. أيمكنني أن أحضُر لقاءَكما من فضلك؟

ـ يتهيَّأ لي أنَّ الأمر سيكون خصوصيًّا.

ـ متى سيأتي؟

ـ سأخبركِ بذلك، ألما.

بعد مرور خمسة عشر يومًا، حضر إيشيمي إلى إقامة سي كليف. كان يرتدي بذلة عاديَّة داكنة اللون، وربطة عنق سوداء. كانت ألما تنتظره بقلب مرتجف، وقبل أن يمدّ يده إلى الجرس، فتحت الباب وارتمت في حضنه. كانت لا تزال طويلة القامة مقارنة به، ومن وقع الصدمة، كادت تُوقعه على الأرض. تملَّكت الدهشة إيشيمي عند رؤيتها؛ لم يكن معتادًا هذا النوعَ من البوح بالمشاعر أمام الملأ، لأنّها عادات محظورة عند اليابانيِّين، ولم يعرف كيف يتصرّف إزاء هذه المشاعر الجيَّاشة. بيْد أنّها لم تمهله وقتًا للتفكير، فأخذته من يده وجرّته معها إلى وسط الدار، وهي تكرِّر اسمه بعينين مغروقتين بالدمع. وما إنْ قطعا بهو البيت حتى انهالت عليه تُقبِّله على فمه بحرارة. كان إسحاق بيلاسكو جالسًا في أريكته المفضَّلة في المكتبة، برفقة نيكو، قطّ إيشيمي، الذي بلغ من العمر ستّ عشرة سنة، وكان يجلس فوق ركبتيه. تمكَّن إسحاق من معاينة المشهد، ومن فرط تأثُّره، أشاح بوجهه خلف الجريدة، إلى أن قادت ألما أخيرًا إيشيمي إلى حضرته، فتركتهما وحدهما، وأقفلت الباب.

روى إيشيمي لإسحاق بيلاسكو، وبعبارات مقتضبة، قصّة معاناة

عائلته، التي لم يكن يجهلها أصلًا، لأنّه أجرى بحثًا عن عائلة فوكودا منذ المكالمة الهاتفيَّة الأولى. لم يكن يعلم فقط مصير طاكاو وشارل، وجيمس المُبعَد، ومسألة الفقر الذي كانت تعانيه الأرملة واثنان من أبنائها المُتبقِّين، بل اتَّخذ كذلك تدابير في هذا الشأن. الأمر الجديد الذي أخبره به إيشيمي هو رسالة طاكاو بشأن السيف.

ـ إنَّني أتأسَّف كثيرًا لوفاة طاكاو. كان صديقي ومعلِّمي. عزائي كذلك في شارل وجيمس. لم يدنُ أحد من قبر أُسْرَتك كاتانا، يا إيشيمي. يمكنك أخذ السيف متى شئت. كان قد دُفن بطقوس شرفيَّة، وأظنُّ أنَّ والدك كان سيحبُّ استخراجه بالاحتفال المهيب نفسه.

ـ صحيح، سيِّدي. حاليًّا، لا يوجد مكان لوضعها فيه. أيمكنك أن تتركها هنا لوقت قصير؟

ـ هذا السيف يُشرِّف أهل هذا البيت. أَمستعجل أنت في استخراجه من مكانه؟

ـ مكانه في محراب أجدادي وأسلافي، لكنْ لا منزل لدينا الآن. أعيش أنا وأمّي وأختي في فندق.

ـ كم عمرك يا إيشيمي؟

ـ اثنان وعشرون عامًا.

ـ إنَّك بالغ الآن، وقائدُ أسرتك. وعليك تقع مسؤوليَّةُ النهوض بالمشروع الذي كنت أتقاسمه مع والدك.

روى إسحاق بيلاسكو، أمام دهشة إيشيمي، كيف أنَّه كوّن شركة مع طاكاو فوكودا سنة ١٩٤١ لإنشاء مشتل للورود والنباتات التزيينيَّة، لكنَّ الحرب وضعتْ حدًّا لهذه الشركة. غير أنَّهما تعاهدا على مواصلة المشروع. وقد حانت الفرصة لذلك. فثمّة بقعة من الأراضي صالحة

لذلك، في مارتينيث شرق خليج سان فرانسيسكو، اقتناها بثمن مناسب. كانت عبارة عن هكتارين من الأراضي المنبسطة، وكانت خصبة ومسقيَّة، وفيها منزل متواضع وكريم، يمكن لعائلة فوكودا أن تقطنه ريثما تتحسَّن أوضاعها وتعثر على ما هو أفضل. كان على إيشيمي أن يشتغل ويكدّ ليُخرج المشروع إلى النور، وفقًا للتعاقد الذي أُبرم مع طاكاو.

ـ لدينا الأرض، إيشيمي. سأستثمر الرأسمال الأوّل في تهيئة الأرض وغرسها. وما تبقَّى فهو عليك. بالمبيعات، تستطيع تأدية حصَّتك بقدر استطاعتك، من دون عجلة ولا فائدة. وحين يحين الوقت نكتب الشركة باسمك. البقعة الأرضيَّة الآن مملوكة من بيلاسكو، وفوكودا وأبنائه. عادت عائلة فوكودا إلى كاليفورنيا، واستقرّت في مارتينيث على بعد خمس وأربعين دقيقة من سان فرانسيسكو. وبعد حلقات طويلة من العمل الدؤوب تحت أشعَّة الشمس الحارقة، حصل إيشيمي وميگومي وهايكيدو على غلَّتهم الأولى من الورود. وأدركوا أنَّ طبيعة الأرض والجوّ كانت ملائمة جدًّا، ولا ينقص سوى وضع المنتوج في السوق. كانت هايكيدو أكثر أفراد عائلتها جسارةً وقوَّةً بدنيَّةً؛ فقد نَمَّت في طوپاز الحسّ القتاليّ والنظاميّ، وفي أريزونا كانت تُعيل عائلتها، لأنَّ طاكاو لم يستطع التنفُّس إلَّا بصعوبة بين السجائر ونوبات السعال الحادّة. كانت تحبُّ زوجها بقوَّة ووفاءِ مَن لا يجادل مصيرَه كزوجة. لكنَّ ترمُّلها كان حرِّيَّةً بالنسبة إليها. وحين عادت إلى كاليفورنيا برفقة أبنائها، ووجدت نفسها أمام هكتارين من الإمكانيّات لتحسين ظروف العيش، لم تتردَّد في التشمير عن ساعديها. في البداية، كانت ميگومي مجبرةً على الانصياع لأوامر أمِّها، وحَمْلِ المعول والمجرفة للعمل في الحقل. إلَّا أنَّ تفكيرها كان مركَّزًا في

مستقبل بعيد كلّ البعد عن عالم الفلاحة. إيشيمي كان يعشق عالم النباتات، ويمتلك عزيمة قويّة لمجابهة العمل الشاقّ، لكنّه كان يفتقر إلى الحسِّ التطبيقيّ والرؤية الواضحة لتدبير المال. كان شخصًا حالمًا يميل إلى الرسم والشعر أكثر، وكانت لديه مؤهّلات التدبُّر والتأمُّل الروحيِّ أكثر من التجارة. لم يقصد السوق لبيع غلَّته الوفيرة إلَّا بعد أن نصحته والدته بغسل التربة عن أظافره، وارتداء بذلة وقميص أبيض وربطة عنق ملوَّنة ـ لا مجال للحِداد ـ وشحن شاحنة صغيرة، ثم الانطلاق إلى المدينة. وضعتْ ميگومي لائحة بأشهر المحالِّ لبيع الورود الأنيقة، ثم بادرتْ إلى زيارتها برفقة والدتها محلًّا محلًا. كانت ميگومي لا تُفارق الشاحنة، لأنَّها كانت على وعي بهيئتها التقليديَّة اليابانيَّة، وإنكليزيَّتها الركيكة، في حين كان إيشيمي ـ بأذنيه المتورِّمتين من الخجل ـ يعرض سلعته، وكانت كلّ أشكال المعاملات بالمال تؤرِّقه. وبحسب ميگومي، لم يكن أخوها يصلح للعيش في أميركا؛ فقد كان كتومًا، متقشِّفًا، مطاوعًا، بسيطًا. ولو كانت الأمور كما يشتهي لاكتفى بالتجوُّل بخرقة تُغطِّي عضوه التناسليّ، يشحذ غداءه بصحن في يده، مثل قدِّيسي الهند وأنبيائها.

في تلك الليلة، عادت هايكيدو وإيشيمي من سان فرانسيسكو بالشاحنة فارغةً. «هذه هي أوّل مرَّة وآخر مرَّةٍ سأرافقك فيها. ولدي، أنت الآن المسؤول عن هذه العائلة. لا يمكن أن نأكل الورود، عليك أن تتعلَّم كيف تبيعها»، قالت له هايكيدو. حاول إيشيمي أن يعهد بهذه المهمَّة إلى ميگومي، لكنَّها كانت قد وضعت قدمها في أوَّل الطريق. تبيَّن لهم أنَّه يَسْهل الحصول على ثمن جيِّد من بيع الورود، وقدّروا أنّ في إمكانهم دفع ثمن الأرض في غضون أربع سنوات أو خمس، إذا ما اتَّبعوا سياسة التقشُّف ولم تقع أيّ فاجعة. بالإضافة إلى ذلك، وبعد

أن عاين إسحاق بيلاسكو المحصول، وعدهم بالحصول على عقد مع فندق فيرمونت لصيانة باقات الورود الطريّة التي تزيِّن باحة الاستقبال والصالون، والتي أعطت النُزلَ شُهرةً كبيرةً.

وأخيرًا، ابتسم الحظّ للعائلة التي شرعتْ في الإقلاع بعد ثلاث عشرة سنة من النكوص. آنذاك، أعلنتْ ميگومي أنَّها أتمّت ربيعها الثلاثين، وأنَّه قد حان الوقت لشقِّ طريقها. خلال هذه السنوات، كان بويد أندرسون قد تزوَّج وطلَّق، وأصبح أبًا لطفلين، وعاد ثانية يتوسّل ميگومي كي تسافر معه إلى هاواي، حيث ازدهرتْ ورشته وأسطولُه الصغير من الشاحنات. «انسَ هاواي. إذا أردتَ أن تعيش معي، فليكن الأمر في سان فرانسيسكو»، أجابته ذاتَ مرّة. كانت قد قرَّرتْ دراسة التمريض. ففي طوپاز، سهرتْ على عمليّات ولادة عديدة. وفي كلّ مرَّة تستقبل مخلوقًا حديث الولادة، كانت تحسُّ بشعور النشوة الشبيهة، على حدِّ تصوُّرها، بوحي إلٰهيٍّ. منذ مدّة وجيزة، بات علمُ التوليد الذي كان حكرًا على الأطبَّاء والجرَّاحين، ضمن تخصّصات القابلات، وأحبَّت أن تكون في طليعة هذه المهنة، فقْبلت في برنامج للتمريض والصحّة النسويَّة، كان يُعطي دروسه مجَّانًا. وخلال السنوات الثلاث الموالية، لم يتوقّف بويد أندرسون عن ملاحقتها بتعقُّل ورصانة، مقتنعًا بأنَّها ستتزوَّج به وستذهب معه إلى هاواي، فور حصولها على الدبلوم.

٢٧ تشرين الثاني ٢٠٠٥

أمر لا يُصدَّق، ألما: لقد قرّرتْ ميگومي أن تتقاعد. كم كلّفها الحصول على شهادتها، وكم كانت تعشق عملها، حتى إنّنا كنّا نظنُّ أنّها لن تنسحب أبدًا. لقد قدّرنا أنّ عدد الأطفال الذين أتوا إلى العالم على يدها يقدّر بخمسة آلاف وخمسمئة طفل في غضون خمس وأربعين سنة. هذا هو إنجازها في الانفجار الديموغرافيّ، كما كانت تقول دائمًا. لقد أتمَّت عامها الثمانين. ومنذ عقد من الزمن وهي أرملة، وجدَّة لخمسة أحفاد. لقد حان الوقت لترتاح، لكنّها تفكِّر الآن في إقامة مشروع للمأكولات. لا أحد يفهمها في العائلة، لأنَّ أختي لا تفقه شيئًا في الطبخ؛ إنَّها تعجز عن قلي بيضة واحدة. ظفرتُ ببعض السويعات لأرسم، لكنّني هذه المرّة، لن أرسم مناظر طوپاز كما كنت أفعل مرارًا وتكرارًا. إنّني أرسم طريقًا في سلسلة جبال جنوب اليابان قرب معبد قديم ومهجور. يجب أن نعود معًا إلى اليابان. كم أحبّ أن أُريكِ هذا المعبد.

إيشي

الحبّ

لم تكن سنة ١٩٥٥ بالنسبة إلى إيشيمي سنةَ كدّ وعرق فحسب، بل كانت كذلك سنةَ الحبّ. تخلَّت ألما عن مشروعها بالعودة إلى بوسطن، والاقتداء بڤيرا نيومان، والسفر مثلها حول العالم. لم يبقَ لها هدف في الحياة سوى المكوث إلى جانب إيشيمي. كانا يلتقيان تقريبًا كلّ يوم، عند الغروب، فور انتهائه من أعمال الحقل، في نزلٍ على الطريق العامّ يبعد تسعة كيلوميترات من مارتينيث. كانت ألما تصل دائمًا قبله إلى النزل، فتدفع ثمن الغرفة كموظَّف باكستاني، كان يتفحَّصها من رأسها إلى أخمص قدميها في احتقار تامٍّ. أمَّا هي، فكانت تحدِّق إلى عينيه، بكلِّ فخر وجرأة، ريثما يخفض بصرَه فيناولها المفتاح. وكان المشهد نفسه يتكرَّر من الاثنين إلى الجمعة.

في البيت، أعلنت ألما أنَّها ستذهب لحضور دروس مسائيَّة في جامعة بيركلي (Berkeley). بالنسبة إلى إسحاق بيلاسكو، المعروف بانفتاحه وسماحته، وقدرته على إقامة مشاريع أو ربط علاقات صداقة مع القَيِّم على حدائقه، فإنَّه لن يقبل أبدًا وجود علاقات حميميَّة بين

واحد من أفراد عائلته وشخص من عائلة فوكودا. أمَّا بالنسبة إلى ليليان، فألما ستتزوَّج بلا نقاش من شخصيَّة مرموقة من الجالية اليهوديَّة، بالضبط مثلما فعلت ابنتاها مارتا وسارة. الوحيد الذي كان مطَّلعًا على سرِّ ألما هو ناتانيل الذي لن يقبل هذا العرض هو الآخر. لم تحدِّثه ألما عن الفندق، ولم يبادر هو إلى السؤال، لأنَّه كان يفضِّل عدم الخوض في التفاصيل. ولم يشأ مواصلة احتقار إيشيمي، لأنَّ ابنة خالته كانت متقلِّبة الأطوار. وكان على يقين بأنَّ ألما ستفهم يومًا أنْ لا وجود لقواسم مشتركة بينهما. لم يعد ناتانيل يتذكّر العلاقة التي كانت تربطه بإيشيمي في طفولته، اللَّهمّ إلّا حصص الفنون القتاليّة في شارع بيني. منذ أن بدأ دراسته الثانويَّة، وانتهت الأعمال المسرحيّة بالسرداب، لم يره إلّا لمامًا، على الرّغم من أنَّ إيشيمي كان يجيء مرارًا إلى سي كليف للعب مع ألما. وعند عودة عائلة فوكودا إلى سان فرانسيسكو، التقاه مصادفة، في بعض المرّات، حين كان يُرسله والده لتسليم المال الخاصّ بالمشتل. كان يتساءل عن الشيء الذي أثار إعجاب ألما بهذا الشخص: كان يبدو عديم الأهمِّيَّة، يمرُّ من دون أن يترك أثرًا، نقيض الرجل القويّ والواثق بنفسه، والذي يستطيع التعامل مع امرأة صعبة المراس كألما. كان واثقًا بأنّ رأيه في إيشيمي لن يتغيَّر، وإن لم يكن يابانيّ الأصل؛ فالعِرْق لا صلة له بالموضوع، والمسألة مسألة طباع. فإيشيمي كانت تعوزه هذه الجرعاتْ من الطموح والعدوانيّة اللازمين في الرجال، واللذين طوّرهما بقوّة العزيمة. كان لا يزال يتذكّر جيِّدًا سنوات خوفه، والرعب من المدرسة، والمجهود العظيم الذي بذله ليدرس مهنةً كانت تتطلّب الكثير من الخبث الذي لا يتوافر لديه. لقد كان ممتنًّا لأبيه الذي وجّهه إلى سلوك الطريق الصحيح؛ فمهنة المحاماة وضعته على المحكِّ، واستطاع أن يكتسب

جلد التماسيح للاعتماد على النفس والمضيِّ قُدُمًا.

«أهذا ما تعتقده أنت، نات. إذن فأنت لا تعرف إيشيمي، ولا تعرف حتى نفسك»، أجابته ألما، حين كان يعرض عليها نظريَّته عن الرجولة.

ساندت الذكريات الجميلة في أثناء تلك الشهور التي كانت تجتمع فيها ألما مع إيشيمي، في النزل، حيث كانا لا يستطيعان إطفاء النور بسبب الصراصير المتسكِّعة ليلًا، والوافدة من الأركان، في تحمُّل أهوال السنوات اللاحقة، حين حاولت اقتلاع الحبِّ والشهوة الجيَّاشة من داخلها وتعويضهما بتوبة الاستقامة. مع إيشيمي، اكتشفت روائع الحبِّ والنشوة المتعدِّدة، بدءًا من العشق الفالت من عقاله، وصولًا إلى تلك اللحظات المقدّسة التي تسمو فيها الانفعالاتُ والمشاعر، فيخيِّم السكون عليهما، وهما ممدَّان على السرير، يتبادلان النظرات طويلًا، ويشكران حظَّهما، في إحساس عميق بالخشوع، للوصول إلى أعمق نقطة في روحيهما، وقد تخلّصا من كلّ الشوائب المزيَّفة، فيرقدان معًا في ضعف ونشوة، حتى أصبحا عاجزيْن عن التمييز بين اللذّة والحزن، والابتهاج بالحياة والإغراء الحلو بالموت هناك فوق السرير خشيةَ الانفصال. وفي انعزالها عن العالم بسبب سحر الحبِّ، كانت ألما لا تصغي إلى الأصوات المدوِّية في داخلها والتي تطالبها بوضع نقطة نظام، وتحثُّها على أخذ الحذر خشية الوقوع في ما لا تُحمد عقباه. الغد والبارحة لا يعنيان كثيرًا، ما يهمّ هو هذه الغرفة المضرّة بالصحَّة، بنافذتها الخانقة، وروائحها النتنة، وملاءاتها المهترئة، وشخير آلات التهوية المستديم. ما يهمّ فقط هو أنَّهما كانا معًا. القبلة المتلهِّفة الأولى قبل تخطِّي العتبة وفتح الباب؛ المداعبات؛ نزع الثياب التي تظلّ في مكانها حيث سقطتْ؛ الجسدان العاريان؛

الشعور بالنشوة؛ الإحساس بالدفء؛ نكهة الآخر ورائحته؛ خامة الجلد والشعر؛ جماليَّة الضياع في الشهوة حتى الهذيان؛ النعاس متعانقيْن للحظة ثم العودة إلى اللذَّة المنبعثة، والفكاهات، والضحكات، والهمسات في عالم الحميميَّة المدهش.

استطاعت ألما، بفضل أصابع إيشيمي الخضراء، والتي تمتلك القدرة على إحياء نبتة تُحتضر أو إصلاح عطبِ ساعةٍ بخفَّة متناهية، أن تميط اللثام عن طبيعتها الشرسة والجائعة. كانت تتسلَّى بمفاجآته، وتحدِّيه، وهي تراه يحمرّ ساخنًا ومتسلِّيًا. كانت جريئة، وكان يتوخَّى الحذر. كانت صاخبةً عند هزَّة الجماع، فيضع يده على فمها. كانت تخطر في بالها باقةٌ من الكلمات الرومانسيَّة، والحالمة والمثيرة والساقطة تقذفها في مسمعه، وأحيانًا كانت تكتب إليه رسائل مستعجلة. أمَّا إيشيمي، فكان يحافظ على الاتِّزان والرصانة اللذين يميِّزا طبعه وثقافته.

استسلمتْ ألما لفرحة الحبِّ المجنونة. كانت تتساءل كيف لم ينتبه أحد لإشراقة جلدها، وقتامةِ لون عينيها، وشبقيَّةِ مشيتها، ورخامةِ صوتها، وطاقتِها الملتهبة والمنجرفة، والتي لا تدري كيف تقنِّنها ولا تحبّ أن تقنِّنها.

في تلك الحقبة، كتبتْ في مذكَّراتها أنَّها كانت تمشي هائمةً، وأنَّها تحسُّ بفقَّاعات من الماء المعدنيّ على جلدها تدغدغ شعيْراتها التي تنتصب فرحًا، وأنَّ قلبها ازداد حجمًا حتى غدا كالمنطاد، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الانفجار. لكنَّ المكان كان لا يتَّسع سوى لإيشيمي في هذا القلب الهائل والمنتفخ. أمَّا الإنسانيَّة جمعاء، فقد تلاشت أمام عينيها. كتبت أنَّها كانت تتفرَّس في جسدها عاريةً أمام المرآة، وتتخيَّل أنَّ إيشيمي من خلفها يمعن النظر فيها، فيعشق ساقيها

الطويلتين، وكفَّيها القويَّتين، ونهديها الصلبيْن ذَوي الحلمتيْنِ الداكنتيْن، وبطنها المشدود الذي يعلوه خطٌّ رفيعٌ من الشعر الأسود يمتدُّ من السرّة إلى العانة، وشفتيها المدهونتين، وجلدها الشبيه بجلد البدو. كتبت كذلك أنَّها كانت تنام ووجهُها مدفون في قميصه الذي يعبق برائحته كبستانيّ، ورائحة الذُّبال والعرق. وكتبتْ كيف أنَّها كانت تغلق أذنيها لتستحضر صوت إيشيمي البطيءَ والهادئَ، وضحكتَه المحتارة التي تتقاطع مع ضحكاتها المُفْرِطَة والصاخبة، ونصائحه باتِّخاذ الحذر، وشروحَه بشأن النباتات، وكلماتِ حبِّه باليابانيَّة، لأنَّ الإنكليزيَّة كانت لا تشفي غليله، وانبهاره بالتصاميم التي كانت تعرضها عليه، وبمشاريعها في الاقتداء بڤيرا نيومان، من دون أن يتوقَّف ولو للحظة واحدة ليتحسَّر على موهبته الحقَّة في الرسم؛ موهبتِهِ التي لم تتفتَّق سوى عن بعض لوحات رَسَمَها يومَ كان يستطيع استراق سويعات بعد عمله الشاقّ في الحقل، وقبل أن تظهر هي في حياته لتحتكر كلَّ وقت فراغه، ولتستنشق كلّ هوائه. كانت حاجتها إلى الإحساس بأنَّها مرغوبةٌ لا تنضب أبدًا.

بصمات من الماضي

في البداية، قرّرتْ ألما بيلاسكو وليني بيل ـ الصديق الذي وصل لتوّه إلى *لارك هاوس* ـ الاستمتاعَ بمباهج الحياة الثقافيّة لـ سان فرانسيسكو وبيركلي. فكانا يتوجّهان إلى السينما والمسرح، ويحضران حفلات موسيقيّة، ويزوران المعارض الفنّيّة، ويكتشفان المطاعم الغريبة، ويتجوّلان برفقة الكلبة. ولأوّل مرّة خلال ثلاث سنوات، عادت ألما إلى المنصّة الشرفيّة والعائليّة للأوپرا. غير أنّ صديقها اختلطت عليه الأمور في الفصل الأوّل من المسرحيّة، فنام في الفصل الثاني، قبل أن تتمكّن طوسكا من غرس سكّين في قلب سكاربيا. في ما بعد، تخلّيا عن الأوپرا. كانت سيّارة ليني أكثر إراحةً مقارنةً بسيّارة ألما، فكانا يستقلّانها ويقصدان نابا (Napa) للاستمتاع بالمناظر الخلّابة للكروم ولتذوّق الخمور، أو التوجُّه إلى بوليناس (Bolinas) لاستنشاق الهواء المالح وأكل المحار. لكنّهما في النهاية تعبا من المجهود الذي كانا يبذلانه بفضل عزيمتهما، للحفاظ على شبابهما وحيويّتهما، وراحا يستسلمان رويدًا رويدًا لإغراءات الراحة. وعوضًا

عن الخروج الذي كان يحتِّم عليهما دائمًا التنقُّلَ من مكان إلى آخر، والبحثَ عن مكان لركن السيَّارة، والبقاء واقفيْن، راحا يتفرَّجان على الأفلام في التلفاز، ويستمعان إلى الموسيقى في شقَّتيهما، أو يزوران كاتي وهما يحملان معهما زجاجة شامبانيا لتناولها مع الكافيار الرماديّ، الذي تحضره من رحلاتها ابنةُ كاتي التي تشتغل مضيفةً للطيران في شركة لوفتهانزا. كان ليني يقدِّم يد العون في عيادة النزل، فيعلِّم المرضى كيفيَّة صنع الأقنعة لمسرح ألما، بواسطة الورق المبلَّل ومعجون الأسنان. كانا يمضيان كذلك أوقاتًا طويلة يقرأان في المكتبة، وهي الفضاء العموميّ الوحيد الذي ينعم تقريبًا بالسكون. فالضجيج كان واحدًا من سلبيّات العيش داخل المجموعة. وحينما تتعذَّر الحلول، كانا يقصدان مطعم *لارك هاوس* لتناول وجبة العشاء، فيتحوّلان إلى محطِّ أنظار العديد من النساء اللواتي كنَّ يحسدن ألما على حظِّها السعيد. أحسَّت إيرينا بأنَّها أُزيحت من مكانها، ولو أنّهما أحيانًا كانا يضيفانها في برامجهما وخرجاتهما. لم تعد مهمَّة بالنسبة إلى ألما كما كانت من قبل. «لا تفكِّري بهذه الطريقة إيرينا، فليني لا ينافسك بتاتًا». هكذا واساها سيت الذي كان بدوره قلقًا من أن تُخفِّض جدَّتُه ساعاتِ العمل الأسبوعيَّة لإيرينا، فتتقلَّص فرصُ رؤيتها.

في ذلك المساء، جلستْ ألما وليني في الحديقة، وهما ينبشان في ذكريات الماضي، كما كانا يفعلان دائمًا. أمّا إيرينا فكانت على مقربة منهما تغسل صوفيا بخرطوم مياه في يدها. في بضع سنوات خلت، تعرّف ليني عبر شبكة الإنترنت إلى منظَّمة تهتمُّ بإنقاذ كلاب رومانيا المتسكِّعة في حالة يُرثى لها، فيُحضرها أعضاؤها إلى سان فرانسيسكو، ويهبونها للنفوسَ الميَّالة إلى هذا النوع من الشفقة. منذ الوهلة الأولى، أسر وجهُ صوفيا، ببقْعته السوداء فوق العين، ليني،

الذي راح يملأ بسرعةٍ كبيرةٍ الاستمارةَ على شبكة الإنترنت، ودفع الدولارات الخمسة المطلوبة، وفي اليوم الموالي ذهب ليستلمها. فلاحظ أنَّ القيِّمين على المشروع نسوا أن يَذْكروا له في وصفهم أنَّ الكلبة كانت تعوزها قدمٌ واحدة. كانت تحيا حياة طبيعيَّة بما تبقَّى لها من قوائم. عيبها الوحيد أنَّها كانت تحطِّم واحدًا من الأطراف الأربعة لأيِّ شيء وُجد أمامها، كالكراسي والطاولات. لكنَّ ليني وجد حلًّا لهذا المشكل بإعطائها عددًا لا يُستهان به من الدمى البلاستيكيَّة؛ ففي كلّ مرَّة تنزع فيها الكلبة يدًا أو رِجلًا لدمية، كان ليني يمدُّها بلعب أخرى. وهكذا انتهت المشكلة. ومن ضعف هيئة الكلبة أنَّها كانت تخون صاحبها. إذ تعلَّقت بكاترين هوپ، وفي أيِّ حالة سهو صغيرة كانت تجري كالرصاصة بحثًا عنها، وبقفزة واحدة تنطُّ فوق حجرها. كانت تحبُّ التجوُّل فوق الكرسيِّ المتحرِّك.

كانت الكلبة صوفيا لا تتحرَّك تحت تدفُّق مياه الخرطوم. وللتمويه، كانت إيرينا تحدِّثها بالرومانيّة وهي تسترق السمع إلى محادثة ألما وليني بنيَّة إبلاغ سيت فحوى الحديث. كانت تشعر بأنَّها حقيرة لتجسُّسها عليهما. بيد أنَّ البحث في لغز هذه المرأة تحوّل عندها إلى إدمان تشاطره مع سيت. كانت تعلم، لأنَّ ألما روت لها ذلك، أنّ صداقتها مع ليني بدأتْ سنة ١٩٨٤، وهي السنة التي توفِّي فيها ناتانيل؛ لكنْ لم يُكتب لهذه الصداقة أن تدوم طويلًا، إذ استمرَّت لبضعة أشهر فقط. لكنَّ الظروف منحت هذه الصداقة قوّة كبيرة إلى درجة أنَّهما حينما التقيا من جديد في *لارك هاوس*، استرجعا علاقتهما وكأنَّهما لم يفترقا قطّ. في هذه اللحظة، روت ألما لليني أنَّها تنازلت في الثامنة والستِّين من عمرها عن دور الأمِّ الرئيسة لعائلة بيلاسكو، لأنَّها تعبت من الوفاء بعهود الناس، وملَّت من التعليمات، وهو صنيع

تحمَّلت مغبَّته منذ نعومة أظافرها. أقامت في *لارك هاوس* ثلاث سنوات، وفي كلّ مرَّة، كان يستهويها العيش هناك. اعتبرت الأمر نوعًا من التكفير عن كلِّ الامتيازات التي كانت تنعم بها، ودحضًا للزهو والمادِّيَّة. كان الأفضل أن تمضي ما تبقَّى من أيَّام حياتها في دير للبوذيَّة، لكنَّها لم تكن نباتيَّة، وعمليَّات التأمُّل الروحيّ كانت تُجهد فقرات ظهرها. لهذا، قرَّرت المجيء إلى *لارك هاوس* أمام دهشة ابنها وكنَّتها، اللذين كانا يفضِّلان رؤيتها برأس محلوق في دهارامسالا. كانت تشعر براحة تامَّة في *لارك هاوس*، ولم تكن قد تنازلت عن أشياء ذات قيمة. وإذا اقتضى الأمر، فسي كليف كانت على بُعد نصف ساعة، على الرَّغم من أنَّها لم تعد إلى بيت العائلة ـ الذي لم تعتبره يومًا بيتها، لأنَّه في البداية كان ملكًا لصهرها، ومُلِّك في ما بعد لابنها وكنّتها ـ سوى لتناول وجبات الغداء التي تُحضَّر على شرف العائلة مجتمعة. في البداية، لم تكن تتحدَّث مع أحد في *لارك هاوس*. بدت وكأنَّها تُقيم بمفردها في فندق من الدرجة الثانية. غير أنَّها، مع مرور الوقت، نسجت بعض علاقات الصداقة. ومع وصول ليني، لم تعد تشعر بالعزلة.

ـ كان في إمكانكِ أن تختاري مكانًا أفضل من هذا، يا ألما.

ـ لا أحتاج إلى أفضل من هذا. ما يعوزني هو مدخنة لفصل الشتاء. أحبُّ رؤية منظر النار، أشبِّهه بتلاطم أمواج البحر.

ـ تعرّفت إلى أرملة أمضت السنوات الستّ الأخيرة من حياتها مسافرةً على متن العبّارات. وما إن يرسو المركب في مينائه الأخير، حتى تجد في انتظارها عائلتها التي تناولها تذكرة أخرى للقيام برحلة حول العالم.

ـ كيف لم يخطر في بال ولدي وكَنَّتي هذا الحلّ؟ ضحكت.

ـ الأمر له إيجابيَّاته. فإذا وافتك المنيَّة في أعالي البحار، فسيرمي القبطانُ الجثَّةَ من حافَّة المركب، ويكفي العائلة مشقَّة الدفن، أضاف ليني.

ـ أنا هنا بخير، ليني. أكتشفُ نفسي بعد تجرُّدي من زينتي وزخرفتي. أخالها مرحلة بطيئة جدًّا. لكنْ لها أهمِّيَّتها. أظنُّ أنَّ الجميع يجب أن يفعل هذا في الأطوار الأخيرة من حياته. لو كنت منضبطة، لحاولت الانتصار على حفيدي، وبادرت إلى كتابة مذكّراتي. لديَّ الكثير من الوقت والحرِّيَّة والصمت، وهي أمور كنت أفتقدها في صخب حياتي الماضية. إنَّني أستعدُّ للموت.

ـ لم يحن الوقت بعد، أراكِ مشرقة.

ـ شكرًا، قد يكون السبب هو الحبّ.

ـ الحبّ؟

ـ لنقل إنَّني أدين بالشكر لأحدهم. أنت تعرف من أعني: إيشيمي.

ـ أمر لا يُصدَّق. كم أمضيتما من السنوات معًا؟

ـ لنَرَ، دعني أحسب... أحببته منذ كان عمر كلٍّ منَّا ثمانية أعوام، وكعاشقين عشنا معًا لمدَّة ثمان وخمسين سنة، منذ سنة ١٩٥٥، مع بعض فترات الانفصال التي كانت تدوم طويلًا.

ـ لماذا تزوَّجتِ بناتانيل؟ سألها ليني.

ـ لأنَّه كان يريد حمايتي، وفي تلك اللحظة، كنتُ محتاجةً إلى حمايته. تذكَّر كيف أنَّه كان شديد النبل. لقد ساعدني نات على تقبُّل فكرة وجود قوى عظمى فوق عزيمتي؛ قوى عظمى تفوق كثيرًا سلطة الحبّ.

ـ أحبّ أن أتعرّف إلى إيشيمي، ألما. أخبريني حينما يأتي لزيارتك.

ـ حكايتنا ما زالت سرِّيَّة، أجابته وقد كست حمرةٌ خفيفةٌ وجنتيها.

ـ لماذا؟ عائلتك ستتفهّم الأمر.

ـ ليس من أجل عائلة بيلاسكو، بل من أجل عائلة إيشيمي، احترامًا لزوجته، وأبنائه وأحفاده.

ـ بعد كلّ هذه السنين، يجب أن تعرف زوجتُه، ألما.

ـ لا أريدها أن تتألّم، لن يغفر لي ذلك إيشيمي. علاوة على ذلك، فالأمر له إيجابيّاته.

ـ ما هي؟

ـ بداية، نحن متحرِّرون من كلّ المشاكل التي تُحْدِق بالزيجات، من تناحر بسبب الهموم اليوميَّة، والأبناء، والمال وغير ذلك. نحن نجتمع فقط لنتحابّ. زِدْ على ذلك أنَّ العلاقات السرِّيَّة، يا ليني، يجب الدفاع عنها، لأنّها ليِّنة وجميلة. وأنت تعرف هذا أفضل منِّي.

ـ نحن الاثنين وُلدنا متأخِّرين بنصف قرن، ألما. نحن خبيران بالعلاقات المحظورة.

ـ كانت لدينا، أنا وإيشيمي، فرصة حينما كنّا شابّين، لكنّني وقتها لم أتجرَّأ، فبقيت حبيسة العادات.

ـ كانت أيّام الخمسينيّات. أتتذكَّر؟ كان العالم مختلفًا.

ـ كيف لي ألّا أتذكَّر؟ علاقة من هذا الطراز كانت مستحيلة، كنت سَتَجُرِّين أذيال الندم، ألما. ومن المؤكَّد أنَّ الأحكام الجاهزة كانت ستطولكما لتدمِّركما وتقتل هذا الحبّ.

ـ إيشيمي كان يعلم بهذا، ولم يطلب منّي أن أفعل ذلك قطّ.

وعقب فترة استراحة طويلة، مكثا يتأمّلان فيها الطائر الطنّان وهو يستنشق رحيق نباتات تزيينيَّة فوشيَّة، في حين كانت إيرينا تقصد التأخُّر في مهمّتها وهي تنشّف صوفيا بمنشفة وتمشّطها. ذكر ليني لألما أنَّه يتحسَّر لعدم رؤيتها في ثلاثة عقود.

ـ سبق أن تناهى إلى علمي أنَّك تعيشين في *لارك هاوس*. هي مصادفة أجبرتني على الإيمان بالقدر، يا ألما. فقد كنت في لائحة الانتظار منذ سنوات، قبل أن تأتي أنتِ بكثير. كنت أؤجِّل دائمًا قرار زيارتك، لأنَّني لا أرغب في انتشال حكاياتٍ أكل الدهرُ عليها وشرب، فماتت.

ـ لم تمت، ليني، بل هي حيَّة الآن أكثر من أيِّ وقت مضى. هذا ما يحدث مع التقدُّم في العمر: حكايات الماضي تُبعث من جديد وتلتصق بجلودنا. أنا سعيدة لأنَّنا سنمضي السنوات المقبلة معًا.

ـ لن تكون سنوات، بل هي شهور فقط، ألما. لديَّ ورم في المخّ لا يمكن إجراء عمليَّة جراحيَّة له. لم يبقَ الكثير من الوقت لتظهر الأعراض المعروفة.

ـ يا إلٰهي! ما أشدَّ أسفي يا ليني.

ـ لماذا؟ لقد عشتُ ما يكفي، يا ألما. كان في إمكاني أن أستمرَّ قليلًا لو أنَّني قبلتُ بالخضوع للعلاجات العدوانيّة، لكنَّ الأمر لا يستحقّ ذلك. أنا إنسان جبان، أهاب الألم.

ـ أتعجَّب كيف قبلوك في *لارك هاوس*.

ـ لا أحد يعلم بحالتي. ولا أرى بُدًّا من نشر الخبر، لأنَّني لن أحتفظ بالمكان هنا لوقت طويل. سأنصرف لحالي حين تتدهور صحَّتي.

ـ كيف عرفتَ ذلك؟

ـ أشعر حاليًّا بألم في الرأس، وبالوهن، وبنوع من التثاقل. لن أجرؤ الآن على ركوب الدرَّاجة التي أعشقها، لأنَّني سقطتُ عنها مرارًا. أتعلمين أنَّني قَطعتُ الولايات المتَّحدة الأميركيَّة من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسيّ، على الدرَّاجة، في ثلاث مناسبات؟ الآن، أفكِّر فقط في الاستمتاع بما تبقَّى لديَّ من وقت، لأنَّ زمن التقيُّؤات، وعُسر المشي والكلام، سيأتي، سيخذلني البصر، وسأشعر بالغثيان، وستنتابني التشنُّجات والارتجاجات. لكنَّني لن أنتظر أكثر. عليّ أن أتصرَّف ما دام عقلي بخير.

ـ كم مرَّت علينا الحياة سريعة، يا ليني.

لم تُثر تصريحاتُ ليني اندهاشَ إيرينا؛ فالحديث عن الموت الطوعيّ كان يناقَش بكلِّ أريحيّة بين نزلاء *لارك هاوس*. وبحسب ألما، يوجد في الكون كبارُ سنٍّ كثيرون يعيشون أكثر ممَّا تتطلَّبه الطبيعة البيولوجيَّة، وربَّما يكونون عالة على الاقتصاد. فلِمَ إجبارهم إذن على المكوث أسرى أجساد تئنُّ من الألم وعقول يائسة؟

«قلَّة هم كبارُ السنِّ السعداء في حياتهم، يا إيرينا. فأغلبيَّتهم يعانون الفقر، وسوء الصحَّة، وغياب الأهل. هذه هي المرحلة الأكثر هشاشة وصعوبة في العمر، هي أشدُّ وطأة من الطفولة، لأنَّ الحالة تسوء مع الأيَّام، ولا علاج لها سوى الموت»، هكذا ناقشتْ إيرينا الأمر مع كاتي، التي جزمتْ بأنَّه قد يتمّ اللجوءُ، في القريب العاجل، إلى الموت الرحيم، الذي سيصبح حقًّا مشروعًا، عوضًا عن اعتباره جريمة. لاحظت كاتي أنَّ العديدين من نزلاء *لارك هاوس* جاهزون للموت الرحيم. وعلى الرَّغم من أنَّها تعي الأسباب التي يمكن بموجبها اتِّخاذ هذا القرار، فإنَّها كانت متيقِّنة من أنَّها لن تموت بهذه

الطريقة: «إنّني أتعايش مع آلام مستديمة، يا إيرينا. لكنْ إذا سهوت قليلًا فأستطيع التحمُّل. أسوأ ما عانيتُه هو فترة التأهيل بعد إجراء العمليّات؛ حتى جرعة المورفين كانت لا تجدي معي نفعًا. الشيء الوحيد الذي كان يواسيني هو قناعتي بأنّ الأمر لن يطول إلى الأبد، وأنَّ كلّ شيء نسبيٌّ». افترضت إيرينا أنّ ليني، بالنظر إلى مهنته، كان يستعمل مخدِّرات أكثر فعاليّةً من تلك التي كانت تَرِدُ من تايلاند مجهولةً وملفوفةً في ورق القهوة.

ـ أنا مرتاح البال، يا ألما، واصل ليني. أستمتعُ بالحياة، وأستمتع أكثر بالوقت الذي أمضيه معك. إنّني أُهيِّئ نفسي منذ مدّة، ولن يباغتني الأمر. تعلّمتُ أن أُصغي جيِّدًا إلى جسدي؛ فالجسد يخبرنا بكلِّ شيء، فقط ينبغي لنا الإصغاء إليه. عرفت نوع المرض الذي ألمَّ بي قبل أن يشخِّصوه لي، وأعلمُ جيِّدًا بأنَّ أيَّ علاج لن يُجدي نفعًا.

ـ هل أنت خائف؟ سألته ألما.

ـ لا. أظنُّ أنَّ مرحلة ما بعد الموت هي نفسها ما قبل الولادة. وأنتِ؟

ـ نوعًا ما... أتصوّر أنّه بعد الموت، لا يوجد اتِّصال بهذا العالم؛ فلا وجود للآلام، ولا للشخصيّة، ولا للذاكرة، وكأنّ ألما بيلاسكو هذه لم تكن يومًا موجودة. لكنَّ، ثمّة شيئًا يشقّ طريقه نحو الخلود، الروح مثلًا، وماهيّة الإنسان وكينونته. لكنْ أصارحك القول، إنِّي أخشى تلف الجسد، أتمنّى حينها أن يكون معي إيشيمي، أو أن يأتي ناتانيل للبحث عنِّي.

ـ إذا كانت الروح لا تتّصل بهذا العالم، كما ذكرت، فإنّني لا

أرى كيف لناتانيل أن يأتي للبحث عنك.

ـ صحيح. إنَّه تناقض كبير، ضحكتْ ألما. ما أشدّ تمسُّكنا بهذه الحياة، ليني! تقول إنَّك جبان، لكنْ يجب التحلِّي بالكثير من الصلابة ساعةَ الفراق، وقطعُ عتبةٍ لا نعلم إلى أين ستؤدِّي.

ـ لهذا، أتيتُ إلى هنا، يا ألما. لا أظنُّ أنَّني سأستطيع بمفردي. فكَّرتُ في أنَّكِ الوحيدة التي يمكنها أن تساعدني. الوحيدة التي يمكن أن أطلب منها أن تكون إلى جانبي حين تحين لحظةُ وفاتي. هل طلبتُ منك الكثير؟

٢٢ تشرين الأوّل ٢٠٠٢

البارحة، ألما، حينما استطعنا أخيرًا أن نلتقي لنحتفل بعيد ميلادنا، لاحظتُ أنَّك كنت منزعجةً قليلًا. قلتِ لي، أنَّنا، فجأة، ومن دون أن نعرف كيف، وصلنا إلى سنِّ السبعين. تخشين أن يَخذلنا الجسد، وهذا الذي تسمِّينه قبح الشيخوخة، على الرَّغم من أنَّك الآن أجمل ممّا كنتِ في سنِّ الثالثة والعشرين. لسنا عجوزَين، لأنَّنا استوفينا السبعين من العمر. نحن نشيخ منذ لحظة الولادة، نتغيَّر يومًا بعد يوم. ما الحياة إلَّا صيرورة متتالية. نحن نكبر. الشيء الوحيد المغاير هو أنَّنا أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الموت. وما العيب في ذلك؟ الحبُّ والصداقة لا يشيخان.

إيشي

النور والظّلّ

كانت التمارين المنتظمة التي مارستها ألما بيلاسكو للنبش في الذاكرة، بغية توفير المادّة لكتاب حفيدها، مفيدة جدًّا لها، وهي المهدّدة في هذه المرحلة العمريَّة بضعف الذاكرة. في البداية، كانت تتيه في متاهات لامتناهية، وحين تريد انتشال حدث معيّن من دوّامة النسيان، كانت لا تُوَفَّق في ذلك دائمًا. وكي تعطي سيت إجاباتٍ شافيةً، قرّرت إعادة بناء الماضي بشكل متسلسل، عوضًا عن القفز من مرحلة إلى أخرى، مثلما فعلتْ مع ليني بيل في حديقة *لارك هاوس*. وضعتْ علبًا بألوان مختلفة على مرأى من العين، كلّ علبة كانت ترمز إلى سنةٍ من حياتها، ووضعتْ في داخلها تجاربَها ومشاعرَها. كدّست العلب في الدولاب الكبير المقسّم إلى ثلاث خزانات، حيث كانت تجهش في البكاء، في السابعة من عمرها، في بيت أخوالها. كانت الصناديق الافتراضيّة تفيض بالصبابة وبعض مشاعر تأنيب الضمير. هناك أغلقتْ إلى الأبد على مخاوف الطفولة وأحلامها، وعلى طيش الشباب، والحِداد، والأعمال، وعشق البلوغ المليء بالشَّبَق. وقرّرت

محو كلّ ذنوبها. راحت تخيط سيرتها الذاتيَّة، وتزيِّنها بلمسات من الخيال، فتفتح المجال للمبالغات والإطنابات الزائفة. كان سيت لا يستطيع تفنيد مضمون ما تحويه ذاكرتها، فيثق بكلّ ما ترويه له. وكانت ألما تواظب على هذا الترويض، الذي كانت تعتبره تمرينًا للمخيِّلة أكثر منه رغبةً في الكذب. لم تذكر يومًا إيشيمي في رواياتها، بل كانت تحتفظ به لنفسها، من دون أن تعلم بأنَّ إيرينا وسيت كانا يبحثان من ورائها عن أجمل سرٍّ عرفتْه في وجودها، السرّ الوحيد الذي لم تستطع الكشف عنه خشية أن يختفي إيشيمي؛ وإن اختفى، فالموت سيكون أرحم بالنسبة إليها.

كانت إيرينا تؤدِّي دور الطيّار المساعد في هذا التحليق نحو الماضي. فجلّ الصور الفوتوغرافيَّة وباقي الوثائق كانت تمرُّ على يدها، وكانت هي من يزيِّنها، ويسهر على ترتيب الألبومات. كانت استفساراتها تساعد ألما على العودة إلى الطريق بعد أن تزيغ في متاهات بلا مخرج. وهكذا، راحت ألما تميط اللثامَ عن جوانب عديدة من تجاربها، وتُعرَفُ بحياتها. انغمستْ إيرينا في حياة ألما، وكأنّهما شخصيَّتان في رواية ڤيكتوريَّة: سيِّدة أرستقراطيَّة ووصيفتها تقاومان الملل الحادّ باحتساء أكواب الشاي في منزل في البادية. كانت ألما تتبنَّى المنطق الذي يقول إنَّ الناس جميعًا يمتلكون حديقة سرِّيَّة داخليَّة يلجأون إليها، لكنَّ إيرينا لم تكن ترغب في الإطلالة على حديقتها المأساويَّة، بل كانت تفضِّل التعويضَ عنها بحديقةِ ألما الأكثر لطفًا. تعرَّفت إيرينا من خلال الصور إلى الطفلة البائسة التي كانت قد وصلتْ لتوِّها من پولندا، وإلى ألما الشابَّة في بوسطن، ألما الفنَّانة والزوجة، وتعرَّفت إلى فساتينها وقبَّعاتها المفضَّلة، وإلى ورشة الرسم الأولى التي كانت تتمرَّن فيها بريشتها وألوانها، قبل أن يتحدَّد أسلوبها في الرسم.

تعرَّفت أيضًا إلى حقائب سفرها القديمة، ذات الجلد المتآكل، والمغلَّفة بملصقات لم يعد أحد يستعملها في الوقت الراهن. كانت هذه الصور والتجارب واضحةً، ودقيقةً، وكأنَّها كانت موجودة بصحبتها في تلك الحقبة، ترافق ألما أينما حلَّت وارتحلت. كانت ألما بيلاسكو امرأة نشيطة وحيويَّة، لا ترحم ضعفَها وضعفَ مَن يرافقها. لكنَّ السنين هدَّأتْ روعها، فصارت صبورة مع نفسها وغيرها: «*إذا لم يؤلمني شيء، فهذا يعني أنَّني أصبحت ميِّتة*»، هذا ما ذكرتْه عند استيقاظها، وهي تمدُّ عضلاتها شيئًا فشيئًا لتفادي التشنُّجات. لم يعد جسمها يقاوم كالسابق، فراحت تلتجئ إلى استراتيجيَّات لتفادي صعود الأدراج، وتحاول التنبُّؤ بمعنى جملةٍ لم تسمعها جيِّدًا. كلّ الأمور باتت تكلِّفها جهدًا ووقتًا؛ فثمَّة أشياء بسيطة لم تعد تستطيع القيام بها، كقيادة السيَّارة في الليل، وتزويدها بالبنزين، وفتح قنِّينة ماء، وحمل أكياس التسوُّق. لهذا، كانت تحتاج إلى إيرينا. أمَّا عقلها، فكان سليمًا لا تشوبه اختلالات، باستثناء بعض الاضطرابات. كانت تتذكَّر الحاضر بالقوَّة التي تتذكَّر بها الماضي، فلا تعْوزُها الحجَّةُ ولا التيقُّظ. كما أنَّها لم تفقد القدرةَ على الرسم، وحافظتْ على حدسها في اقتناء الألوان. كانت مواظبةً على الذهاب إلى الورشة، إلَّا أنَّها لم تعد ترسم كثيرًا، لأنَّ التعب راح ينخر قواها، فباتت تفضِّل تمريرَ ما في يدها إلى كريستن وباقي المساعدين. لم تَذْكُر لأحد ضعفَها الذي كانت تعرفه إيرينا، وكانت تواجهه من دون خوف.

كانت تشمئزّ من هوس كبار السنِّ بأمراضهم وعللهم، مع أنَّه موضوع لا يهمّ أحدًا، بمن في ذلك الدكاترة أنفسهم. «*إنَّ الاعتقاد السائد، الذي لا يجرؤ أحد على المجاهرة به، هو أنَّ الشيوخ كلَّهم عالة على المجتمع. فهم يشغلون فضاء، ويستفيدون من موارد تستحقُّها*

على نحوٍ أكبرَ الفئةُ النشيطة»، ذلك ما قالته يومًا لإرينا. لم تتعرّف ألما إلى الكثير من الوجوه في الصور، وهي وجوه تافهة من ماضيها، يمكن نسيانها بسهولة، خلافًا للصور التي كانت تلصقها إيرينا في الألبومات، والتي من خلالها كانت تستطيع تلمُّس مراحلِ حياتها، ومرورِ السنين، وأعيادِ الميلاد، والحفلات والعطل والأعراس. كانت لحظات سعيدة، لا أحد يلتقط صورًا للبؤس. في كلِّ هذه الصور، كانت ألما قليلة الظهور. لكنْ عند مستهلِّ فصل الخريف، استطاعت إيرينا أن تتعرّف أكثر إلى السيِّدة ألما التي كانت في السابق، بفضل البورتريهات التي أشرف عليها ناتانيل، وغدت ملْكًا لمؤسّسة بيلاسكو، وسيكتشفها في ما بعد الوسطُ الفنِّي لـ سان فرانسيسكو. وبعد إطلاع إحدى الصحف على هذه البورتريهات، أطلقتْ على ألما اسم «المرأة الأفضل تصويرًا في المدينة».

في حفلات رأس السنة الماضية، أصدرتْ دارُ نشرٍ إيطاليّةُ الأصل مختاراتٍ من صور ناتانيل بيلاسكو في طبعة أنيقة جدًّا. بعدها بشهور قليلة، قام وكيل أميركيّ ذكيّ بتنظيم معرض للصور في نيويورك، ومعرضٍ آخرَ في رواق الفنِّ الأكثر تميُّزًا في شارع جيري (Geary) في سان فرانسيسكو. كانت ألما ترفض المشاركة في هذه المشاريع والتحدُّث إلى الصحافة. كانت تفضِّل أن يتعرَّف إليها الناس كعارضة أزياء كما كانت من قبل، لا كامرأة مسنّة، على ما قالت يومًا؛ بيد أنَّها صرَّحتْ لإيرينا بأنَّ هذا التصرُّف مبعثُه الحذرُ لا العجرفة. كانت تخونها قِواها عند مراجعة هذا الجزء من ماضيها. كانت تخشى ذاك الشيء الذي رُبّما لن تلحظه العينُ المجرَّدة، أو تكشفه الكاميرات، لكنَّ عناد سيت استطاع أن يهزم في النهاية مقاومتها. زار حفيدُها الرواقَ مرّات عديدة، وكان متأثِّرًا جدًّا، ورأى أنّه من غير الممكن أن

تُضيّع ألما معرضًا من هذا الطراز، فهذه إهانةٌ لذاكرة ناتانيل بيلاسكو.

ـ أرجوكِ جدّتي، احتسبي الأمر لجدّي، فسيتألّم في قبره إذا لم تذهبي. غدًا، سآتي لآخذك معي. اطلبي من إيرينا أن ترافقنا. سوف تفاجأون.

كان سيت محقًّا في ما يقول. تصفّحتْ إيرينا كتابَ دار النشر الإيطاليّة، لكنّها لم تكن مستعدّة للوقع الذي خلّفته تلك البورتريهات العملاقة لاحقًا. حملهم سيت في سيّارة العائلة، ميرسيدس بينز، الثقيلة؛ فقد كانوا ثلاثةَ أنفار، وسيّارةُ ألما أو درّاجتُه لا تسعهم جميعًا بالطبع. انطلقوا زوالًا، في ساعة قدّروا أن يكون الرواق خاويًا من الزائرين خلالها، فلم يصادفوا إلّا متشرّدًا ملقًى على الأرض أمام الباب، وسائحيْن أستراليّيْن، برفقة القيّمة على الرواق، وفتاة تشبه دمية صينيّة من الخزف، كانت تحاول بيع شيء في يدها، فلم تعر الوافدين اهتمامًا.

التقط ناتانيل بيلاسكو صورًا فوتوغرافيّة لزوجته ما بين سنتَي ١٩٧٧ و١٩٨٣ بواحدة من أُولى آلات التصوير من نوع بولارويد (Polaroid)، مقاس ٢٤ × ٢٠، القادرة على التقاط التفاصيل الصغيرة جدًّا بدقّة متناهية. لم يكن بيلاسكو يُعتبر من المصوّرين المحترفين المرموقين في جيله، وكان يعتبر نفسه من الهواة. إلّا أنّه كان من القلّة القليلة التي تمتلك الموارد الكافية لاقتناء مثل هذه الكاميرا، ناهيك بامتلاكه عارضةً فريدةً من نوعها. تعجّبتْ إيرينا من حجم الثقة التي تُوليها ألما لزوجها. وبعد اطّلاعها على البورتريهات، أحسّت بحياء كبير، وكأنّها ستدنّس طقوسًا حميميّة وواقعيّة.

لم تكن هناك مسافة تفصل الفنّان عن عارضته؛ كانا منصهرين في بوتقة واحدة محكمة. ومن هذا التناغم، خرجتْ إلى الوجود صور

شهوانيَّة، لكنَّها خالية من حمولة جنسيَّة شبقيَّة. ففي مواضع كثيرة، ظهرتْ ألما عارية ووحيدة، من غير أن تهتمّ إلى وجود من يراقبها. كانت الهيئة الأنثويَّة في البورتريهات التجريديَّة والشفَّافة لبعض الصور تتلاشى في خيال الرجل الواقف خلف الكاميرا. في صور أخرى، أكثر واقعيَّة، ظهرتْ ألما قبالة ناتانيل بفضولِ امرأةٍ تقف وحيدة أمام المرآة، وهي مرتاحة في جلدها، بلا تحفُّظ، وظهرتْ على ساقيها كتلةٌ من الدوالي البارزة، وجرحُ العمليَّة القيصريَّة بوجه تظهر عليه آثارُ نصف قرن من الوجود. لم تستطع إيرينا أن تعبِّر عن توتُّرها، بيْد أنَّها تفهَّمتْ تحفُّظ ألما، ورفضها الخروجَ أمام الملأ عبر العدسة الإكلينيكيَّة لزوجها، الذي يبدو أنَّه زرع فيها شعورًا أكثر تعقيدًا وفحشًا من حبِّ الزوجين. من خلال جدران الرواق البيضاء، كانت ألما تطلُّ على الزوَّار في حجم عملاق. بالنسبة إلى إيرينا، كانت هذه المرأة مجهولة، ولم تبعث فيها سوى الإحساس بالخوف. جفَّ حَلقها، وأمسك سيت بيدها، فربَّما كان يشاطرها الإحساسَ نفسَه. ولأوَّل مرَّة لم تنزع يدها منه. انصرف السيَّاح إلى حال سبيلهم من دون اقتناء أيِّ شيء، فتوجَّهت الدمية الصينيَّة نحوهم بكلِّ انشراح، وقدَّمت نفسها باسم ميلي (Meili)، وراحت ترهق مسامعهم بخطبة معدَّة عن كاميرا بولارويد، والتقنيَّة المستعملة، وأهداف ناتانيل بيلاسكو، والأضواء والظلال، وتأثيرات رسم الفلامينكو. تابعت ألما شرحَها بلهو، وهي تومئ برأسها. لم تربط ميلي علاقة بين هذه المرأة الشمطاء وعارضة البورتريهات.

في يوم الاثنين الموالي، وبعد أن انتهت إيرينا من مهمَّاتها في لارك *هاوس*، ذهبتْ للبحث عن ألما، بغية اصطحابها إلى السينما لمشاهدة فيلم لينكولن (Lincoln) من جديد. كان ليني بيل قد سافر

إلى سانتا باربرا لبضعة أيَّام، واسترجعت إيرينا موقَّتًا منصبها مساعدةً ثقافيَّةً كما كانت تسمِّيها دائمًا ألما، قبل وصول ليني بيل إلى لارك *هاوس* ليهبها هذا الشرف. لم تتمكَّنا منذ أيَّام من مشاهدة الفيلم بكامله، لأنَّ ألما أحسَّت بوخزة مؤلمة في صدرها، هزّتها إلى درجة أنَّها أطلقتْ صيحةً مدوِّية، خرجتا عقبها من قاعة العرض. عارضت بشدَّةٍ المسؤولَ عن القاعة الذي بادر إلى طلب المساعدة، لأنَّ الموت هناك بالنسبة إليها أفضل من سيَّارة الإسعاف والمستشفى. فساقتها إيرينا إلى لارك *هاوس*. كانت ألما قد سلَّمت إيرينا منذ مدَّة مفاتيحَ سيَّارتها؛ فإيرينا باتت ترفض الركوب معها، لأنَّ جرأة ألما مع في القيادة ازدادت حدّةً بسبب ضعف بصرها وارتعاش يدها. خفّت حدَّة الألم في الطريق، لكنَّها وصلتْ منهوكةً بوجه رماديٍّ وأظافر زرقاء. ساعدتها إيرينا على الاستلقاء فوق السرير، ومن دون أن تستأذنها، نادت على كاترين هوپ التي كانت تثق بها أكثر ممَّا تثق بالطبيب الرسميّ لـ لارك *هاوس*. أقبلتْ كاتي بسرعة في كرسيِّها المتحرِّك، وفحصتها بدقَّة وعناية متناهيتيْن. وجزمتْ بأنَّ من الضروريّ استشارة اختصاصيٍّ في أمراض القلب والشرايين. في تلك الليلة، اتَّخذت إيرينا سريرًا من أريكة الشقّة، كانت مريحة أكثر من قطعة الإسفنج المطروحة على الأرض في غرفتها، في بيركيلي، وقضت الليلة معها. استسلمت ألما للنوم في هدوء، برفقة نيكو عند قدميها. لكنَّها استيقظت منهوكةَ القوى. ولأوَّل مرَّة منذ أن عرفتها إيرينا، قرَّرت قضاء اليوم كلّه في السرير: «*غدًا ستجبرينني على النهوض يا إيرينا. أتسمعينني؟ لن ألزم الفراش بفنجان شاي وكتاب مشوّق. لا أحبُّ أن أفني عمري في منامةٍ ونعلين منزليَّين. فالشيوخ الذين يلزمون الفراش لا ينهضون منه*». والتزامًا بما قالت، بذلت في اليوم الموالي مجهودًا كبيرًا لمزاولة ما

كانت تفعله كلّ يوم، وتناست أمر وهنها في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وكذلك الحال مع إيرينا التي طوت الصفحة، لأنَّ بالها كان مشغولًا بأمور أخرى. وكان ذلك على خلاف كاترين هوپ التي كانت تصرُّ على ضرورة الخضوع لفحوصٍ اختصاصيٍّ، لكنَّ ألما اختلقتْ أعذارًا لتأجيل الموضوع.

تفرَّجتا على الفيلم من دون وقوع أحداث تذكر، وخرجتا من السينما معجبتيْن بلينكولن، وبالممثِّل الذي أدّى الدور. كانت ألما متعبة، فقرَّرتا العودة إلى البيت، عوضًا عن الذهاب إلى المطعم كما كان مبرمجًا. وعند الوصول، أعلنتْ ألما، وهي تتنهّد، أنّها تشعر بالبرد، فنامت، في حين بقيتْ إيرينا تحضِّر لها العشاء الذي كان عبارة عن حبوب الشوفان بالحليب.

كانت تبدو، وهي تسند رأسها إلى وسادتين، وقد تدلّى وشاحُ الجدّة مِنْ على كتفيها، وكأنّها فقدتْ خمسة كيلوغرامات من وزنها، وراكمتْ عشر سنوات أخرى، في وقت وجيز. كانت إيرينا تعتبرها دائمًا امرأة قويّة، وصلبةً لا تُقهر، لهذا لم تنتبه إلى التغيّرات التي طرأت عليها في الشهور الأخيرة. فلقد فقدت الكثير من الوزن، وأضفت عليها الهالاتُ البنفسجيّةُ التي تعلو وجهها الشاحب منظر الدبّ المقنّع. لم تعد تقوى على المشي منتصبةً، وأضحت لا تتحكّم جيِّدًا في وطأة قدمها، تحار عند نهوضها من الكرسيِّ، وفي الشارع كانت تتأبّط ذراع ليني. أحيانًا كانت تستيقظ من النوم مذعورة بلا سبب، وكانت تحسّ بالتيه، وكأنّها في بلاد مجهولة غريبة. لم تكن تذهب إلى ورشة الرسم إلّا لمامًا، لهذا قرّرتْ إقالة كلِّ المساعدين. ولمواساة كيرستن في فترات غيابها، كانت تقتني لها قصصًا وقطعًا من الحلوى. كان الاستقرار العاطفيّ لكيرستن رهينًا بالروتين اليوميّ الذي

تقوم به، وبزخم المحبّة والحنان. كانت تعيش سعيدة ما دامت الأمور على ما يرام. كانت تقطن في غرفة فوق مرأب منزل أخيها وزوجته، وتنعم بحنان أبناء أخيها الذين شاركت في تربيتهم وتدليلهم. خلال أيّام العمل، كانت تستقلّ دائمًا، في منتصف النهار، الحافلةَ نفسها التي تتركها على بعد مترين من الورشة. فتفتح الباب بمفتاحها، وتشرع في تهوية المكان وتنظيفه. وبعد الانتهاء، تجلس على كرسيّ «مديرة السينما»، وهو اللقب الذي أطلقه عليها أبناءُ أخيها عندما أتمّت عامها الأربعين، تأكل شطيرة الدجاج أو التونة التي تحملها في محفظتها. في ما بعد تقوم بتحضير الأثواب، والفرشاة والصباغ، وتغلي الماء لتحضير الشاي، فتنتظر ألما وعيناها معلّقتان على الباب. وكانت ألما حين ترغب في الغياب، تهاتفها من هاتفها الخلويّ، فتتجاذبان أطراف الحديث قليلًا، ثم تعهد إليها بمهمّة تشغلها إلى أن تحين الخامسة زوالًا، وهي الساعة التي تغلق فيها كيرستن الورشة، فتذهب إلى محطّة الحافلات للعودة إلى بيتها. قبل حوالى السنة، كانت ألما تُقدِّر أنّها ستعيش إلى حدود التسعين بلا تغيير، لكنّها الآن لم تعد متأكّدة، وباتت تشتبه في أنّ الموت أضحى يقرع طبوله. في السابق كانت تحسّ بالموت يتجوّل في كنفات الحيّ، وفي ما بعد، سمعته يهمس في أركان *لارك هاوس*، وها هو الآن يطلّ على شقّتها. في الستّين من عمرها، كانت تعتبر الموت شيئًا مجرّدًا لا يعنيها. وفي السبعين، باتت تعدُّه من الأقارب البعيدين الذين يَسْهل نسيانهم، لكنّهم قد يحضرون يومًا في زيارة مفاجئة. وبعد الثمانين، بدأتْ تتعرّف إليه وتتحدّث عنه مع إيرينا. كانت تراه هنا وهناك، على شكل شجرة هاوية في الحديقة، أو على شكل شخص نخره السرطانُ، أو على شكل أمّها وأبيها وهما يقطعان الطريق. كان في مقدورها أن تتعرّف إليهما، فالسنون لم

تغيِّرهما. كانا لا يزالان مثلما كانا في صورة ميناء دانزيغ. أحيانًا، كانت تطالع الموت في أخيها صامويل، وقد انقضّ عليه للمرَّة الثانية في فراشه. كان خالها إسحاق بيلاسكو يتراءى لها نشيطًا كما كان في السابق، قبل أن تنتابه نوباتُ القلب الحادّة. لكنَّ خالتها ليليان كانت تُقبل من حين إلى آخر لزيارتها في غفوة الفجر، بالهيئة التي كانت عليها في الأيّام الأخيرة من حياتها: مُسنّةً ترتدي لباسًا بنفسجيًّا، كفيفةً، صمَّاء، وسعيدةً بحظِّها، لأنَّها كانت تتخيّل أنّ زوجها يقودها. «*أمعني النظر في هذا الظلّ على الحائط ـ إيرينا، ألا يبدو لك طيف رجل؟ قد يكون ناتانيل. لا تخافي يا ابنتي، لست أهذي، أعلم جيِّدًا بأنّها فقط مخيِّلتي*». تحدَّثت إليها عن ناتانيل، عن طيبته، عن موهبته في إيجاد حلّ لكلّ المشكلات وفكّ النزاعات. وأوضحت لها أنّه على الرّغم من رحيله عنها، لا يزال يقوم بوظيفة الملاك الحارس.

ـ إنّها فقط طريقةٌ في الحديث، يا إيرينا. لا وجود في الكون للملائكة الحرّاس.

ـ إنَّهم موجودون بالتأكيد. بالنسبة إليّ شخصيًّا، لولا وجود الملائكة الحرَّاس إلى جانبي لكنتُ في عداد الموتى، أو ربَّما كنت سأقترف جريمةً، وأُسجن في إثرها.

ـ عجيبة هي الأمور التي تخطر في بالك، إيرينا! الديانة اليهوديّة تَعتبر الملائكة رسلَ الله، لا حرَّاسًا شخصيِّين. لكنّني كنت أحظى دائمًا بوجود حارس شخصيّ يمثِّله ناتانيل. كان يعتني بي دائمًا، في البداية كأخ أكبر، وبعدها كزوج مثاليّ. لن أستطيع أبدًا أن أكافئه على كلّ ما فعله من أجلي.

ـ تزوّجتما ثلاثين سنة، يا ألما. رُزقتما ببنين وحفدة. عملتما جنبًا إلى جنب في مؤسّسة بيلاسكو. ولم تدَّخري جهدًا في العناية به

خلال فترة مرضه. وقفتِ إلى جانبه إلى النهاية. بالتأكيد، إنَّه سيفكِّر مثلك: أنَّك فعلتِ المستحيلَ من أجله.

ـ ناتانيل يستحقُّ حبًّا أكثر من الذي وهبته إيَّاه، يا إيرينا.

ـ هل أفهم أنَّك أحببتِهِ أخًا أكثر منه زوجًا؟

ـ أحببتُه كصديق، كابن خالة، كأخ، كزوج... لا أعرف ما الفرق بين هذا كلّه. حينما تزوَّجنا، لم نَسْلم من ألسنة الناس، لأنَّنا قريبان وابنا خالة؛ وهذا يُعتبر من زنا المحارم، وما زال الأمر يُعتبر كذلك، كما أظنّ. أعتقد أنَّ حبَّنا كان دائمًا محرَّمًا.

المخبر ويلكينيس Wilkinis

في الجمعة الثانية من تشرين الثاني، حضر رون ويلكينيس (Wilkinis) إلى *لارك هاوس* للبحث عن إيرينا. كان مخبرًا تابعًا لمكتب التحقيقات الفيدراليّ، من أصول أفريقيّة ـ أميركيّة. رجل في السادسة والخمسين من عمره، قويُّ البنية، ذو شعر رماديٍّ وكفّين ضخمتين. سألته إيرينا بدهشة كيف عثر عليها، فذكّرها بأنّ جانب المعلومات يدخل في صلب عمله واختصاصه. لم ير أحدهما الآخر منذ ثلاث سنوات، لكنّهما كانا على اتِّصال دائم، يتبادلان المكالمات الهاتفيّة. كان ويلكينيس يهاتفها من حين إلى آخر ليطمئنّ إلى أحوالها. وكان جواب الفتاة دائمًا: «*لا تقلق، أنا* بخير. *لقد دفنتُ الماضي، ولم أعد أتذكّر أيّ* شيء». لكنّهما كانا يعلمان في قرارتَي نفسيهما بأنّ الأمر ليس كذلك. حينما تعرّفت إيرينا إليه، كان ويلكينيس على وشك أن يمزّق البذلة التي كان يرتديها بعضلاته التي تشبه عضلات حامل الأثقال. لكنّ بعد إحدى عشرة سنة، تحوّلت العضلات إلى دهون، إلّا أنّ هيئته كانت ولا تزال توحي بالقوّة وهمّة الشباب. روى لها أنّه

أصبح جدًّا، وعرض عليها صورة فوتوغرافيَّة لحفيده: طفل في الثانية من عمره، ببشرة فاتحة مقارنة بجدِّه (*أبوه هولنديّ الأصل*)، أردف ويلكينيس مفسِّرًا، على الرَّغم من أنَّ إيرينا لم تستفسره. وأضاف أنّه شارف على سنِّ التقاعد، وأنّ الأمر بات مطلبًا للوكالة، لكنّه لم يغادر الكرسيّ ولن يستطيع الانسحاب؛ فالجرائم التي ما زال يتقفّى آثارها، والتي أخذتْ منه أهمّ جزء من حياته العمليّة، لا تزال تستهويه.

وصل المُخبر إلى *لارك هاوس* في منتصف النهار، فجلسا على مقعد خشبيّ في الحديقة يحتسيان فنجان قهوة خفيفة جدًّا، كانت متوافرة دائمًا في قاعة المكتبة، ولا تستهوي أحدًا. ثمّة بخار خافت كان يصعد من الأرض المبلّلة بقطرات الندى الليليَّة، وصار الجوّ دافئًا في حضن شمس شاحبة لفصل الخريف. كان في إمكانهما أن يتحدَّثا بأمان، إذ كانا وحدهما؛ فبعض النزلاء كانوا في قاعات الدرس الصباحيّة، ومعظمهم يستيقظ في وقت متأخِّر. لم يكن هناك سوى السيِّد ڤيكتور ڤيكاشيف (Victor Vikashev)، رئيس البستانيِّين، الروسيّ الأصل، بهيئته التي تشبه محاربًا من التتار، اشتغل في *لارك هاوس* منذ تسع عشرة سنة، وكان يدندن وهو منهمك في عمله؛ فضلًا عن كاتي التي مرَّت بسرعة البرق بكرسيِّها الكهربائيّ في طريقها إلى العيادة.

ـ أحملُ إليكِ أخبارًا سارّةً يا إليزابيتا (Elisabeta)، ردّد ويلكينيس لإيرينا.

ـ لم ينادِني أحد باسم إليزابيتا منذ سنوات.

ـ بالطبع، المعذرة.

ـ تذكّرْ جيِّدًا أنّني الآن أُدعى إيرينا باثيلي. لقد ساعدتني أنتَ في اختيار هذا الاسم.

ـ احكي لي، بُنيَّتي، كيف أحوالك؟ أتخضعين لعلاج؟

ـ لنكن واقعيِّين، مخبر ويلكينيس. ألديك فكرة عن راتبي الشهريّ؟ هو لا يكفي لأداء مستحقَّات طبيب نفسانيّ. المقاطعة تؤدِّي فقط ثمن ثلاث حصص، وقد استنفدتها. لكنَّك كما ترى لم أنتحر. أعيش حياة عاديَّة، أشتغل، وأنا الآن أفكِّر في متابعة دراستي عبر الإنترنت. أريد أن أتعلَّم الترويض الطبِّي، أظنُّها مهنة جيِّدة لمن يمتلك يدين قويَّتين مثلي.

ـ أتستفيدين من خدمات صحِّيَّة؟

ـ نعم. أنا الآن أتناول مضادَّات الاكتئاب.

ـ أين تعيشين؟

ـ في بيركلي، في غرفة رحبة وبثمن بخس.

ـ هذا العمل يلائمك كثيرًا، إيرينا. هنا تنعمين بالهدوء، لا يزعجك أحد. وأنتِ في مأمن. الكلّ هنا يتحدَّث عنك جيِّدًا. لقد تحدَّثت مع المدير، وذكر لي أنَّك أفضل موظَّفة لديه. هل من عريس لديك؟

ـ كان لديَّ في السابق، لكنّه توفِّي.

ـ ماذا تقولين!؟ يا إلٰهي! كان لا ينقصكِ إلّا هذا. كم أنا آسف. كيف توفِّي؟

ـ بسبب الشيخوخة، على ما يبدو لي، كان عمره يفوق التسعين عامًا. لكنْ يوجد هنا رجال آخرون مستعدُّون لخطبتي.

لم يَرُقْ هذا التعقيب للسيِّد ويلكينيس. لزما الصمت هنيهةً، وهما يحتسيان القهوة في قدحيْن من الكرتون. أحسَّت إيرينا بموجة من الوحدة والحزن، وكأنَّ ما يدور في خلد هذا الرجل الطيِّب قد

اكتسحها، فاختلط الحابل بالنابل، وحبستْ حنجرتها. كانت تُجيب عن أسئلة باطنيَّة. اقترب منها رون ويلكينيس وأراح ذراعيه فوق كتفها، وجذبها نحو صدره العريض الذي تفوح منه رائحةُ عطر سكَّريَّة لا تتوافق مع رجل مثله. أحسَّت إيرينا فوق خدَّيْها بحرارة المدفئة التي تنبعث من ويلكينيس، وخشونة السترة التي يرتديها، وبمواساة ثقل ذراعيه، فاستسلمت للراحة لبضع دقائق وهي تستنشق عبقه، في حين كان يربِّت على كتفها وظهرها مثلما كان يفعل مع حفيده لمواساته.

ـ ما هي الأخبار التي سُقْتَها إليَّ؟ سألته إيرينا بعدما استرجعت أنفاسها قليلًا.

ـ إنَّها التعويضات، إيرينا. هناك قانون قديم لم يعد يتذكَّره أحد، يعطي الضحايا مثلكِ الحقَّ في التعويضات. بهذا المال، يمكنك أداء ثمن علاجك الذي أنتِ في أمسِّ الحاجة إليه، وتغطية مصاريف الدراسة. وإذا كنَّا من المحظوظين يمكنك دفع مبلغ كدفعة مسبقة لاقتناء شقَّة صغيرة.

ـ مجرَّد نظريَّة، يا سيِّد ويلكينيس.

ـ هناك أشخاص استفادوا من التعويضات.

وروى لها أنَّه على الرَّغم من أنَّ حالتها ليست حديثة العهد، فإنَّ وجود محام مقتدر يمكنه إثبات أنَّها عانت أضرارًا جسيمة جرَّاء ما حدث، وأنَّها تحتاج إلى دعم نفسانيّ وأدوية.

ذكَّرته إيرينا بأنَّ المذنب لا أملاك لديه تُمْكن مصادرتها لتعويضها.

ـ لقد قُبِض على رجال آخرين من العصابة، رجال ذوي مال ونفوذ.

ـ هؤلاء الرجال لم يقترفوا في حقّي أيّ جرم. هناك مذنب واحد، سيِّد ويلكينيس.

ـ اسمعيني، بُنيَّتي. كنتِ مجبرةً على تغيير هويّتك ومقرّ إقامتك. لقد فقدتِ أمّك، وزملاءَ المدرسة، ومَن تبقّى من الناس الذين تعرفينهم. أنت تعيشين في حالة تنكُّر. ما حدث لا ينتمي إلى الماضي وحده. يمكن القول إنّه ما زال يحدث، وإنّ المذنبين كُثر.

ـ هكذا كنتُ أفكِّر من قبل، سيِّد ويلكينيس. لكنّني قرّرتُ ألّا أعيش بصورة الضحيَّة إلى الأبد. لقد طويت الصفحة. أنا الآن إيرينا باثيلي، وأحيا حياة أخرى.

ـ يؤلمني أن أذكِّرك بالأمر، لكنّكِ ما زلتِ الضحيّة.

بعض المتّهمين مستعدُّون للدفع عن طِيب خاطر، في سبيل نجاتهم من الفضيحة. أتسمحين لي بإعطاء محامٍ متخصِّص بهذه الأمور اسمَكِ؟

ـ لا. لا داعي للأمر.

ـ فكِّري في الأمر، بُنيّتي، فكِّري جيِّدًا؛ وهاتفيني على هذا الرقم، قال لها المخبر وهو يناولها بطاقته.

رافقتْ إيرينا رون ويلكينيس إلى البوّابة الرئيسة، واحتفظتْ بالبطاقة من دون أن تنوي استعمالها. كانت قد ألِفتْ تدبير أمورها وحدها. وكانت لا تريد هذا المالَ الذي تعتبره مدنّسًا، ويعني فتح باب التحقيقات من جديد، وتوقيعَ الشكاوى المذيّلة بالتفاصيل المملّة. لم تكن تريد إحياء جمرات الماضي في المحاكم؛ فهي لم تعد قاصرًا، ولن يتفادى القضاةُ وضعَها في مواجهة مع المتّهمين. والصحافة؟ تقزّزتْ من انتشار الخبر ووصوله إلى من تحبّ من الناس، أصدقائها

الذين يُعدُّون على رؤوس الأصابع، مسنِّي لارك هاوس، كـ أنـا، وخصوصًا سيت.

تكلّمتْ كاتي مع إيرينا عبر الهاتف الخلويّ في السادسة مساءً، ودعتها إلى شرب الشاي في قاعة المكتبة. جلستا في ركن منعزل إلى جوار النافذة، بعيدًا عن ممرِّ الناس. كانت كاتي لا تحبّ الشاي في العوازل الذكريّة، كما كانت تسمّي دائمًا أكياسَ شاي لارك هاوس، فكانت تُحْضر معها إبريقَها، وفناجينَ الخزف، وحبوبَ الشاي الفرنسيّ الصنع، وبسكويتَ الزبدة. ذهبتْ إيرينا إلى المطبخ لصبِّ الماء المغليّ في الإبريق، ولم تحاول بعدها مدَّ يد العون إلى كاتي في ما تبقّى لها من استعدادات، لأنَّ هذه الطقوس كانت مهمَّة بالنسبة إليها، وكانت تؤدِّيها على أحسن ما يرام على الرّغم من ارتعاشات ذراعيها. كانت تعجز عن حمل الفنجان الرفيع إلى شفتيها، لذا كانت تكتفي بكأس من البلاستيك ومصّاصة، وتمتِّع نظرَها برؤية الفنجان الذي ورثته عن جدَّتها في يدَيْ ضيفتها.

ـ من يكون ذلك الرجل الأسود البشرة الذي عانقك هذا الصباح في الحديقة؟ سألتْها كاتي، بعدما انتهتا من مناقشة الحلقة الأخيرة من المسلسل التلفزيونيّ، الذي كانتا تتابعانه بحرارة، عن النساء السجينات.

ـ إنَّه صديق قديم، لم أرَه منذ مدَّة، تلعثمتْ إيرينا وهي تصبُّ لها المزيدَ من الشاي لتفادي حالة الارتباك التي انتابتها.

ـ لا أصدِّقك، يا إيرينا. منذ مدّة وأنا أراقبكِ عن كثب، وأعلم بأنَّ شيئًا ما يفترسك من الداخل.

ـ أنا؟ هي وساوسكِ فقط، يا كاتي. لقد قلت لكِ إنَّه مجرّد صديق.

ـ رون ويلكينيس! أليس كذلك؟ لقد أعطوني اسمه في مكتب الاستقبالات. ذهبتُ للسؤال عن الشخص الذي أتى لزيارتك، لأنَّ هذه الزيارة، على ما يبدو لي، أربكتك كثيرًا.

قلَّصتْ سنواتُ العجز، والشلل، والمجهود الجبَّار للبقاء على قيد الحياة، من حجم كاتي، التي أصبحتْ في شكل طفلة صغيرة داخل كرسيٍّ متحرِّك كبير. غير أنَّها كانت توحي بالقوَّة، تلك القوَّة الممزوجة بالطيبة التي تميِّزها، والتي زاد الحادثُ المؤلمْ في توهُّجها. كانت ابتسامتُها الدائمة وبشاشتُها وشعرْها القصير تضفي عليها منظرَ الطفلة المشاغبة، وهو ما يتعارض مع هيبة القساوسة القدامى التي كانت تمتلكها. كما حرّرتها آلامُ جسدها من شحنات الطِباع الخبيثة وعبئها، فصقلتْ روحَها كحجر الماس. لم يُتلف النزفُ الدماغيُّ عقلَها، بل غيَّر، على حدِّ تعبيرها، توجُّسها فقط؛ ونتيجةً لذلك، وُلِد لديها حدسٌ غريب، وباتت تستطيع رؤية الغيب.

ـ اقتربي منِّي، يا إيرينا. قالت لها.

أمسكت كاتي بذراع الفتاة بيدين صغيرتين باردتين وبأصابع معوجَّة جرَّاء الكسور.

ـ أتعرفين ما هو الشيء الذي يساعد على تحمُّل المآسي، إيرينا؟ إنَّه الكلام. لا أحد يستطيع أن يستمرَّ في هذا العالم معزولًا. أتعرفين سبب إنشاء عيادة الألم؟ لأنَّ الأوجاع حينما نتقاسمها تصبح هيِّنة. العيادة تخدم المرضى، لكنَّها في واقع الأمر تفيدني أنا بالدرجة الأولى. الكلّ لديه أغوار مظلمة مسكونة بالجِنِّ. لكنَّ هذا الجِنّ يتقزَّم، ويضعف، ويصمت، ويدعنا وشأننا كلَّما خرج إلى النور.

حاولتْ إيرينا عبثًا أن تتخلَّص من هذه الأصابع المنقضَّة عليها كالكمّاشة. التقت نظراتهما للحظة، فلم تستطع إيرينا صدّ عينيْ كاتي

الرماديَّة والمفعمة بالشفقة والمشاعر. انحنت إيرينا إلى الأرض، وأسندت رأسها إلى رُكبتيْ كاتي، واستسلمتْ للمساتها الحنونة. لم يلمسها أحد بهذه الطريقة منذ أن غادرتْ جدَّيْها.

أكَّدتْ لها كاتي أنَّ أهمَّ شيء في الحياة هو أن يتيقَّن المرءُ من نظافة أعماله، وأن يتصالح مع الواقع بشكل كلِّيٍّ، وأن يوظِّف كلّ طاقاته في الحاضر، وأن يبادر إلى العمل فورًا. لا يمكن الانتظار. هذا ما تعلَّمته بعد الحادث. بالنسبة إليها، كان الوقت كافيًا للتدبُّر، وللمزيد من الغوص في أغوار النفس، وتلمُّسِ الكينونة والوجود، وعشقِ نور الشمس، والناس والطيور. الألم لا يدوم، والغثيان متقلِّبٌ، وحالة الأمعاء لا تستقرّ، لكنْ ـ لسبب ما ـ لم تكن هذه الأمور لتغلق شهيَّتها. بالعكس، كانت مستعدَّة للاستمتاع بكلِّ قطرة من ماء الاستحمام، وتحسُّسِ الأيادي الصديقة التي تغسل شعرَها بالشامبو، وتذوُّقِ برودة مشروبٍ غازيّ في يومِ حرٍّ. لم تكن تفكِّر في المستقبل، بل في اليوم الذي تحياه فقط.

ـ ما أودّ أن أقوله لكِ، يا إيرينا، هو أنَّ عليكِ أن تتحرَّري من الماضي ولا تقلقي بشأن المستقبل. سَتَحْيَيْنَ حياةً واحدة. فإذا عِشْتِها كما ينبغي لك، فهذا يكفي. الشيء الوحيد الحقيقيّ هو الآن. هذه الساعة. ما الذي تنتظرينه كي تكوني سعيدة؟ لكلِّ يوم شأن. لم أكن أعرف ذلك أنا أيضًا!

ـ السعادة لا تَطرق كلَّ الأبواب، كاتي.

ـ كيف لا؟ كلُّنا نولد سعداء. وخلال الطريق تتلاطمنا أمواجُ الحياة، لكنَّنا نستطيع أن نغسل ما عَلِقَ بنا من نجاسة. السعادة ليست صاخبةً، ولا غريزةً مثل الشهوة أو الفرحة، بل هي كتومة، وهادئة وناعمة؛ إنَّها نوع من الراحة الداخليَّة التي تبتدئ بحبِّ الذات أوَّلًا.

عليكِ أن تحبّي نفسك، كما أحبُّكِ أنا، وكما يحبُّكِ كلُّ من يعرفك، وخصوصًا حفيدَ ألما.

ـ سيت لا يعرفني.

ـ ليس الذنب ذنبَه. لقد حاول المسكين التقرُّب إليك لسنوات. الكلّ يعرف هذا. لم يُوفَّق في محاولاته، لأنَّك تختبئين. حدِّثيني عن ويلكينيس هذا، إيرينا.

كانت لإيرينا باثيلي حكايةٌ طويلةٌ عن ماضيها، بَنَتها بمعيّة رون ويلكينيس، تحكيها كلَّما ضايقتها أسئلةُ الفضوليِّين. كانت الحكاية تتضمَّن الحقيقة، لكن ليس كلّ الحقيقة، بل الجزء الوضّاح منها فقط. في الخامسة عشرة من عمرها، عَيَّنتْ لها المحاكمُ اختصاصيّةً نفسانيَّةً سهرتْ على علاجها لعدّة أشهر، إلى أن امتنعتْ من مواصلة الحديث عن الوقائع، وقرَّرت انتحالَ اسم آخر، والرحيلَ إلى بلد مغاير، واستبدالَ مقرّ الإقامة لعدَّة مرَّات في سبيل بدء حياة جديدة. كانت الاختصاصيَّة النفسانيَّة تردِّد كثيرًا على مسمعها أنَّ الصدمات النفسيَّة لا تختفي بتجاهلها، وأنَّها تشبه إلى حدٍّ كبير قناديلَ البحر التي تلازم مكانَها وهي في حالة خمول، لكنْ حينما تحين الفرصةُ الأولى، تثب من مكانها لتهجم بذيل الثعابين. وعوضًا من خوض غمار الحرب، فرّت إيرينا. ومنذ ذلك الحين وحياتُها عبارةٌ عن سلسلة من حلقات الكرِّ والفرِّ، إلى أن استقرَّ بها المقام في *لارك هاوس*. كانت تختبئ في عملها، وفي العوالم الافتراضيّة للألعاب الإلكترونيَّة، وفي روايات الخيال التي لم تكن فيها إيرينا باثيلي، بل البطلةَ الشجاعة ذات القدرات الهائلة. إلّا أنَّ ظهور ويلكينيس من جديد في حياتها لم يسفر سوى عن انهيار الصرح الخياليّ الهشّ. كانت كوابيس الماضي عبارة عن طبقات من الغبار المترسِّب على قارعة الطريق، تكفي نفحةٌ واحدةٌ

لرفعها في شكل زوبعات. استسلمتْ إيرينا، وأيقنتْ بأنَّ كاترين هوپ وحدها، يمكن أن تساعدها.

سنة ١٩٩٧، كان عمرها عشر سنوات. حينها تلقَّى جدَّاها رسالة من والدتها رادميلا، كانت السبب في تغيّر مسار حياتها إلى الأبد. كانت والدتها قد شاهدت عبر شاشة التلفاز برنامجًا عن الدعارة والتجارة الجنسيَّة، فعلمتْ بأنَّ بُلدانًا، مثل مولداڤيا، كانت تزوِّد أسواقًا عربيَّةً، ودُورَ الدعارة الأوروبيَّة، بلحوم فتيَّة. سرتْ قشعريرةٌ في جسدها، وتذكَّرت الأيَّام التي أمضتها في كنفٍ صعاليك متوحِّشين في تركيا، فقرّرتْ أن تحمي ابنتها من الوقوع في المصير نفسه، فتوسَّلتْ إلى زوجها، التقنيّ الأميركيّ الذي تعرَّفتْ إليه في إيطاليا وأخذها معه إلى تكساس، أن يساعد ابنتها على الهجرة إلى الولايات المتَّحدة الأميركيّة. كانت وعودُ الرسالة فضفاضة، فلن يعُوزَ إيرينا أيُّ شيء: ستتلقّى تعليمًا جيِّدًا، وستتناول الهمبرغر والبطاطس المقليّة، والبوظة. بل سيرافقانها إلى عالم ديزني. أوصى الجدَّان إيرينا، وهما يباشران إجراءات الحصول على التأشيرة، بكتمان الأمر، حتى لا تتعرَّض للحسد والعين اللذين يصيبان المغرورين. استغرقت الإجراءات سنتين. وحين وصلت التذاكرُ وجوازُ السفر، كانت قد أتمّت ربيعها الثاني عشر، ولو بَدَتْ طفلة هزيلة في الثامنة، لأنَّها كانت نحيفة وقصيرة القامة، ذات شعر ثائر أبيض. ومن شدَّة الحلم بأميركا، تراءت لها جليّةً صورٌ البؤس والقبح المحيطة بها، وهي صورٌ لم تشعر بها من قبل، لغياب المقارنات. كانت بلدتها تبدو وكأنَّها ضحيَّة لقصف عنيف: معظم المنازل مهدّمة أو عبارة عن أطلال؛ كلاب ضالَّة جائعة تتسكّع في الشوارع؛ دجاجات تبحث عن الأكل في مطارح الأزبال؛ شيوخ جالسون عند عتبات أكواخهم يمجُّون الدخان الأسود في

صمت. خلال هذه السنوات، ودّعتْ إيرينا كلّ الأشجار، واحدةً واحدةً، والجبال، والأرض والسماء، والطبيعة التي لم تتغيَّر ـ بحسب عبارات جدّيها ـ منذ زمن الشيوعيَّة، وستظلّ كذلك دائمًا وأبدًا. بصمتٍ ودّعتْ جيرانَها، وأطفالَ المدرسة، وعانقت الحمار والعنزة والكلب والقطط التي رافقتها في طفولتها. وأخيرًا، عانقت كوستيا وبيتروتا وودَّعتهما.

جهَّز الجدّان صندوقًا من الكرتون ربطاه بحبل، ووضعا في داخله ملابسَ إيرينا، وصورةً جديدةً للقدِّيسة باريسشيڤا، اقتنياها من سوق الصالحين في البلدة المجاورة. كان الثلاثة يحسُّون بأنَّها النهاية، وأنَّ الأقدار لن تجمعهم مرَّةً ثانية. ومنذ ذلك الحين، كانت إيرينا، أينما حلَّت وارتحلت، تُقيم محرابًا صغيرًا تضع فيه القدِّيسة، وصورةَ جدّيها الوحيدة التي كانا يمتلكانها، وكانت قد التُقطتْ يوم زواجهما، في زيّيهما التقليديَّيْن: بيتروتا بتنُّورة مطرَّزة ووشاح منقوش، وكوستيا بسروال يصل إلى حدِّ الركبتين، وسترة قصيرة وحزام عريض يتوسَّط الخصر. كانت الصورة تعكس منظر شخصين منتصبين كعصويْن ممدودتيْن، قبل أن يقصم العملُ الشاقُّ ظهريهما. كانت إيرينا حريصة على الصلاة لهما كلّ يوم، لأنَّهما كانا يمتلكان معجزات تفوق القدِّيسة باريسشيڤا. كانا ملاكيها الحارسيْن، كما ذكرتْ لألما.

بطريقةٍ ما، وصلت البنت بمفردها إلى دالاس قادمةً من تشيسناو. لم تسافر في حياتها سوى مرَّة واحدة على متن القطار، حينما توجَّهت برفقة جدّتها، إلى البلدة المجاورة لزيارة جدِّها الذي أُجريتْ له عمليَّة جراحيَّة لانتزاع حصوات المرارة. لم تَرَ قطّ طائرةً عن قرب، فقط في الجوِّ. أمَّا اللغة الإنكليزيَّة، فكانت تعرفها من الأغاني التي تحفظها بالاستماع، من دون أن تفهم معانيها. علَّقتْ لها الخطوطُ الجوِّيَّة التي

سافرتْ معها ظرفًا بلاستيكيًّا في عنقها يحمل بطاقة هويَّتها، وجواز سفرها، والتذكرة. وخلال الساعات الإحدى عشرة التي استغرقتها الرحلة، لم تأكل إيرينا شيئًا، ولم تشرب، لأنَّها كانت تجهل أنَّ أكل الطائرة يُقدَّم مجَّانًا، ولم توضح لها مضيفاتُ الطائرة شيئًا من هذا القبيل. والشيء نفسه حدث خلال الساعات الأربع التي أمضتها في مطار دالاس بلا نقود. كانت بوَّابة الدخول إلى الحلم الأميركيّ تبدأ من هذا المكان الشاسع والمهول. تأخَّرتْ والدتها وزوجها في المجيء لاستقبالها، لأنَّهما لم يضبطا موعد وصول الطائرة. كانت إيرينا لا تعرفهما، لكنَّهما انتبها لوجود فتاة صغيرة شقراء جالسة على مقعد مصحوبة بعلبة من الكرتون عند قدميها، فعرفاها للتوِّ، لأنَّ صورتها كانت في حوزتهما. كانت إيرينا تتذكَّر من هذا اللقاء أنَّ الاثنين كانت تفوح منهما رائحةُ الكحول، هذه الرائحة الحمضيَّة التي تعرفها جيِّدًا، لأنَّ جدَّيها ومَن تبقَّى من جالية بلدتها كانوا يَغْمسون إحباطاتهم في النبيذ المعتَّق الذي يصنعونه بأيديهم.

أخذتْ رادميلا وزوجُها جيم روبينس (Jim Robyns) الفتاةَ إلى البيت، الذي تراءى لها فخمًا، على الرَّغم من أنَّه لم يكن سوى مسكن عاديٍّ من الخشب؛ مسكنٍ مُهملٍ في حيٍّ يقطنه العمَّالُ في جنوب البلاد. حاولت والدتها أن تزيِّن إحدى الغرف بنمارق مصفوفة على شكل قلب، ودبّ محشوّ رُبطتْ في إحدى قوائمه نفَّاخةورديَّة اللون. أوصت إيرينا بالمكوث أكبر عددٍ من الساعات قبالةَ شاشة التلفاز، لتتعلَّم اللغة الإنكليزيَّة؛ وهذا ما فعلتْه. وفي غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، حصلت لها على مقعد في المدرسة العموميَّة التي كانت تعجّ بالسود، وبأطفال ينحدرون من أميركا اللاتينيَّة، وهي أعراق لم ترها من قبل. تأخَّرت إيرينا شهرًا كاملًا في تعلُّم بعض الجمل بالإنكليزيَّة،

لكنَّها كانت تمتلك حاسَّةَ سمعٍ جيِّدةً مكَّنتها من متابعة الدروس بسهولة. وفي سنة واحد، استطاعت أن تتحدَّث اللغة بلا لكنة.

كان جيم روبينس كهربائيًّا، ينتمي إلى النقابة، يتقاضى أجرته بالساعة. وكان محميًّا في حال وقوع حادث أو أعراض أخرى. لكنَّ فرص العمل لم تكن متوافرة دائمًا. كان التعاقد يتمّ بالتناوب وفق لائحة العناصر المنخرطة، والتي تخضع للترتيب: الأوَّل فالثاني فالثالث... وهكذا. والذي ينهي عقدَه يعود إلى أسفل اللائحة. أحيانًا، كان يطول به الانتظار شهورًا بلا عمل، إلّا إذا كانت هناك علاقات برؤساء النقابات. أمَّا رادميلا، فكانت تشتغل في متجر لبيع ملابس الأطفال. كانت تتأخَّر ساعة وربع الساعة في الحافلة قبل أن تصل إلى عملها. وحينما كان جيم روبينس يشتغل، لم يكن يأتي كثيرًا إلى البيت، لأنَّه كان يستغلّ فرص العمل فيكدّ ويكدّ، فيدفعون له ضعف أجرته أو أكثر بثلاث مرَّات على الساعات الإضافيَّة.

في هذه الفترات، لا يسكر ولا يتناول المخدّرات، لأنَّ أيَّ سهوٍ قد يُصاب في إثره بصعقة كهربائيّة! وما عدا أيَّام عمله، وخلال أوقات فراغه الطويلة، كان يغرق في النبيذ، ويستهلك مزيجًا من المخدِّرات حتى ليعجب المرء كيف يستطيع الوقوف على قدميه. «*يملك جيم مقاومة الثيران، لا شيء يُرديه أرضًا*»، قالت رادميلا بفخر واعتزاز. كانت ترافقه في سهراته وسمَره بقدر استطاعتها، بيد أنَّ جسدها لم يكن يمهلها كثيرًا، فتنهار بسرعة.

منذ الأيَّام الأولى من وجود إيرينا في أميركا، أوضح أبوها لها مجموعةً من القواعد. كانت أمُّها تجهلها، أو ربَّما تعمَّدت غضّ النظر عنها، إلى أن مرَّت سنتان وطَرَقَ بابَها رون ويلكينيس، مشهرًا في وجهها بطاقةَ مكتب التحقيقات الفيدراليّ: FBI.

الأسرار

قبلتْ ألما في إثر توسُّلات إيرينا المتعدِّدة، وبعد حيرة شديدة، أن ترأس فرقةَ الزهَّاد، التي خطرتْ فكرتُها في بال إيرينا بعد أن استرعى انتباهَها هولُ الغمِّ والهمِّ اللذين غرِق فيهما العديدُ من نزلاء لارك *هاوس* المتشبِّثين بممتلكاتهم، في حين لاحظتْ أنَّ الذين يمتلكون أقلّ كانوا أكثر سعادة. وكانت قد رأت ألما تتنازل عن أشياء عديدة، إلى درجة أنَّها خشيتْ أن تطلب منها يومًا فرشاة أسنانها، ولهذا السبب اقترحت انضمامَها إلى المجموعة لتنشيطها.

كان الاجتماع الأوَّل سيُعقد في قاعة المكتبة. وصل عدد المتسجِّلين إلى خمسة، من بينهم ليني بيل. حضروا في الموعد المحدَّد إلى مكان الاجتماع. لكنَّ ألما تغيَّبت. انتظروها خمس عشرة دقيقة، ثم ذهبت إيرينا لمناداتها. فوجدت الشقَّةَ خاويةً، ورأتْ ملحوظةً كتبتها ألما، تخبرها فيها بأنَّها ستتغيَّب لبضعة أيَّام، وتطلب منها العناية بنيكو، الذي لا يستطيع المكوث بمفرده، لأنَّه مريض. كانت مسألة إحضار الحيوانات إلى مسكن إيرينا من الأمور المحظورة، فاضطرَّت

إلى لفّ القطّ في كيس من البلاستيك. في هذه الليلة، اتَّصل بها سيت عبر الهاتف الخلويّ ليسألها عن جدَّته التي مرَّ لزيارتها وقت العشاء، فلم يجدها. وانشغل باله بشأنها، إذ ظنَّ بأنَّها لم تستعد عافيتها بعد حادث السينما. أخبرته إيرينا بأنّها انصرفتْ إلى أحد مواعيدها الغراميّة، وأنّها نسيت التزامها. وأردفت بأنَّها بقيتْ محرجةً مع فرقة الزهَّاد. كان سيت قد عقد اجتماعًا مع زبون له في ميناء أوكلاند. ولقربه من بيركلي، فقد دعا إيرينا إلى تناول أطباق السوشي، التي اعتبرها وجبة مناسبة للتحدُّث عن العاشق اليابانيّ. في تلك الساعة، كانت في فراشها برفقة نيكو، تلعب لعبتها الإلكترونيَّة المفضَّلة، والمعروفة باسم الدرسكرولز أونلاين. ارتدت ملابسها وخرجتْ. كان المطعم عبارة عن مرتع يبعث على السكينة الشرقيَّة. كلّ شيء كان من الخشب الناصع. وكان المكان مقسَّمًا إلى غرف مفصولة، إحداهما عن الأخرى، بجدار مغلَّف بورق الأرز، ومزيّن بنُفّاخات حمراء تنبعث منها إنارةٌ خافتةٌ تبعث على الراحة.

ـ إلى أين تذهب ألما في اعتقادك بعد اختفائها؟ سألها سيت بعد طلب الأكل.

صبَّت له إيرينا «الساكي» في قدح الخزف؛ فألما كانت قد أوضحتْ لها أنّ الأصحّ في اليابان هو خدمة النديم أوّلًا، ثم انتظاره كي يؤدِّي الأمرَ لها بدوره.

ـ تذهب إلى منتجع پوينت ريس (Point Reyes)، على بعد ساعة وربع الساعة من سان فرانسيسكو. المكان عبارة عن أكواخ ريفيَّة نُصبتْ أمام المياه في عزلة تامَّة. هناك يمكن تناول أسماك البحر وثمار البحر الطريَّة. وفي المكان حمَّام بخار، ومنظر رائع، وحجرات رومانسيَّة. في هذه الفترة، الجوُّ بارد. لكنْ توجد مدفئة في كلّ غرفة.

ـ كيف عرفتِ هذا كلّه؟

ـ من فواتير بطاقة الائتمان الخاصّة بألما. بحثت عن المنتجع عبر الإنترنت. أظنُّها تلتقي إيشيمي هناك. لا أظنُّك ستذهب إلى هناك لإزعاجها، يا سيت!

ـ كيف يخطر في بالك هذا الأمر؟ لن أجرؤ على فعل ذلك. لن تغفر لي ذلك أبدًا، لكنْ في إمكاني أن أبعث أحد المخبرين لإلقاء نظرة. . .

ـ لا!!

ـ لا، بالطبع لا. لكنْ يجب تقبُّل فكرة أنَّ للأمر خطورته. جدَّتي لم تعد قويّةً كما كانت. يمكنها أن تتعرَّض لنوبة أخرى مشابهة لتلك التي تعرّضتْ لها يومَ حادث السينما.

ـ لا تزال صاحبةَ القرار في حياتها، سيت. أَلديك المزيد من المعلومات عن عائلة فوكودا؟

ـ نعم. لقد خطر لي أن أسأل والدي. والنتيجة أنَّه لا يزال يتذكَّر إيشيمي.

كان عمر لاري سنة ١٩٧٠ اثنتي عشرة سنة، حينما أدخل والداه إصلاحاتٍ جذريّةً على إقامة سي كليف، واقتنيا بقعًا أرضيّة مجاورة لتوسعة الحديقة التي كانت رحبة في الأصل ولتهيئتها. إلّا أنَّها لم تستعد عافيتها بعد صقيع الربيع الذي أتى عليها حين توفِّي إسحاق بيلاسكو، وبعد الإهمال الذي طاولَها. بحسب رواية لاري: في يوم من الأيّام، حضر إلى البيت رجل بقسمات آسيويّة يرتدي ملابس العمل وقبّعة البيسبول، فرفض الدخول إلى المنزل بعلّة أنّه ينتعل حذاءً ملطّخًا بالوحل. كان الشخص هو إيشيمي فوكودا، مالك مشتل الورود ونباتات الزينة، والذي بات يملكه. أحسَّ لاري بأنَّ أمَّه وهذا الشخص على

معرفة، واحدهما بالآخر. ذكر والده لفوكودا أنَّه يجهل أبسط الأمور في عالم الحدائق، وأنَّ ألما هي من سيتكلّف باتِّخاذ القرارات. أثار هذا الأمر دهشة الولد، لأنَّ ناتانيل كان يدير مؤسَّسة بيلاسكو ويُتوقَّع ـ على الأقلِّ نظريًّا ـ أن يعرف الكثير عن البساتين. تأخّر إنجاز المشروع كثيرًا نظرًا إلى شساعة الملكيَّة، ومخطّطات ألما الكبيرة. أخذ إيشيمي مقاسات الأرض، وتفحّص جودةَ التربة، وعاين درجةَ الحرارة واتِّجاهَ الرياح، ودوّن خطوطًا وأرقامًا في كناشة، متبوعةً بلاري الفضوليّ. وبعد أيَّام، حضر بصحبة فريق يضمّ ستَّة عمَّال، كلُّهم من بني جلدته، وأحضرَ أوَّل حافلة محمَّلة بالأدوات. كان إيشيمي رجلًا هادئًا، ذا حركات مُتَّئدة، يراقب العمل بعناية تامَّة. لم يكن مندفعًا ولا متسرِّعًا على الإطلاق. كان قليل الكلام، وحينما يتحدَّث يخفض صوته إلى درجة أنّ لاري كان يضطرّ إلى الاقتراب منه لسماعه. نادرًا ما كان يبادر إلى الحديث والحوار، وقلّما يُجيب عن أسئلة تدخل في صميم حياته الخاصَّة. ولأنَّه لاحظ فضوله واهتمامه، فقد ارتأى أن يحدِّثه عن الطبيعة.

ـ لقد ذكر لي والدي أمرًا طريفًا، يا إيرينا. لقد أكّد لي أنّ لإيشيمي هالة من نور، أضاف سيت.

ـ ماذا؟

ـ هالة من نور غير مرئيّة، بمثابة قرص نورانيٍّ خلف الرأس، كتلك التي يحملها القدِّيسون في الرسوم الدينيَّة. هالة إيشيمي لا تُمكن رؤيتها دائمًا، يقول أبي، وظهورُها يرتبط بالضوء.

ـ أنت تمزح، سيت.

ـ أبي لا يمزح، يا إيرينا. شيء آخر. لعلّ الرجل من أصحاب الكرامات والخوارقِ، لأنّه يتحكَّم في نبضات قلبه وحرارة جسده. كان

يستطيع تسخينَ يد واحدة ويجعلها تفور من الحرارة، ويجمِّد الأخرى. وقد سبق أن عرض هذه الخوارق على والدي غيرَ مرَّة.

ـ هل قال لك لاري ذلك أم اختلقته؟

ـ أؤكِّد لك ذلك. والدي رجل شديد الارتياب، إيرينا. لا يمكنه أن يصدِّق شيئًا إذا لم يعاينه بنفسه.

أنهى إيشيمي فوكودا المشروع، وأهدى معه بستانًا صغيرًا يابانيًّا، صمّمه خصِّيصًا من أجل ألما، وفوّض بستانين آخرين ما تبقَّى من لمسات. كان لاري يراه فقط في الفترات التي يحضر فيها لتفقُّد أحوال العمل، ولاحظ أنَّه لا يتحدَّث أبدًا مع ناتانيل، بل يتحدّث فقط مع ألما التي كانت تربطه بها علاقة رسميّة، على الأقلّ في حضور الزوج. كان إيشيمي يصل إلى الباب بباقة ورود في يده، ينزع حذاءه، ويسلِّم على أهل الدار بانحناءة قصيرة. كانت ألما تنتظره دائمًا في المطبخ، وتردُّ له التحيَّة بالطريقة نفسها، ثم تضع الورود في المزهريَّة، ويوافق على شرب فنجان شاي. وللحظة، كانا يتشاركان في صمت هذه الشعيرة وبطئِها، وكأنَّها وقفة استراحة في حياتهما. وحينما تخلَّى إيشيمي عن الذهاب إلى سي كليف، فسَّرت الأمُّ للاري أنَّ سبب الغياب يعود إلى سفره إلى اليابان.

ـ أكانا عاشقين خلال هذه الفترة، سيت؟ سألته إيرينا.

ـ لا يمكنني أن أستفسر والدي عن هذا الأمر، إيرينا. ثم إنَّ أبي لا علم له بالموضوع. نحن لا نعلم كثيرًا عن حياة آبائنا. لكنْ، لنفترضْ أنّهما كانا عاشقين سنة ١٩٥٥، كما ذكرتْ جدَّتي للّيني بيل، وانفصلا بزواج ألما بناتانيل، وعاودا اللقاء من جديد منذ سنة ١٩٦٢، ومنذ ذلك الحين لم يفترقا.

ـ لماذا سنة ١٩٦٢؟ سألته إيرينا.

ـ لست متأكِّدًا، أنا أفترض فقط. في هذه السنة توفّي إسحاق، والدُ جدِّي.

روى لها تفاصيلَ المأتمين اللذين أُقيما لإسحاق بيلاسكو، وحدَّثها كيف أنَّ العائلة اطَّلعتْ على الكمِّ الهائل من أعمال الخير التي كان يقوم بها البطريرك في حياته، وتعرَّفت إلى الناس الذين استفادوا مجَّانًا من مرافعاته بصفته محاميًا، ومن المال الذي كان يهبه أو يقرضه لمن كانت به خُصاصة. علمتْ بحال الأطفال النائين الذين سهر على تربيتهم، والقضايا النبيلة التي كان يدافع عنها. اكتشف سيت أنَّ عائلة فوكودا كانت مَدينة جدًّا لفضائل إسحاق بيلاسكو، وأنَّ أفرادها كانوا يحترمونه ويحبُّونه كثيرًا، وخلص في النهاية إلى أنَّهم حضروا بالتأكيد إحدى الجنازتين. وبحسب الأسطورة العائليَّة، قبل موت إسحاق بقليل، استخرجتْ عائلةُ فوكودا سيفًا قديمًا كانوا قد دفنوه في سي كليف. كانت اللوحة التذكاريَّة التي غرسها إسحاق لا تزال هناك مؤشِّرًا على المكان. وربَّما في هذه اللحظة، عادت ألما وإيشيمي للالتقاء من جديد.

ـ من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ٢٠١٣ ما يزيد على خمسين عامًا، وهو ما قالته ألما تقريبًا للِيني بيل، قدّرتْ ألما.

ـ إذا كان جدِّي ناتانيل يشتبه في خيانة زوجته مع عاشق، فقد كان يتجاهل الأمر بالتأكيد. المظاهر في عائلتي لها وزن يفوق الواقع.

ـ أتشاطره الرأي؟

ـ لا، فأنا الخروف الهارب من القطيع. والدليل أنَّني متيَّم بفتاة شاحبة، تشبه مصّاصي الدماء من مولداڤيا.

ـ مصّاصو الدماء هم من ترانسلڤانيا، سيت.

٣ آذار ٢٠٠٤

سكنتني كثيرًا خلال هذه الأيَّام ذكرياتُ خالك السيِّد إسحاق بيلاسكو، لأنَّ وَلَدي ميكي (*Mike*) أتمَّ الأربعين لتوِّه، وقرَّرتُ أن أسلِّمه كاتانا عائلة فوكودا؛ فهو المسؤول الآن عن حمايتها. في مستهلِّ سنة ١٩٦٢، هاتفني خالُكِ إسحاق ليقول لي إنَّه ربَّما حان الوقت لاستخراج السيف الذي بقي مدفونًا في حديقة سي كليف عشرين سنة. بالتأكيد، كان يحسّ بمرضه وبدنوِّ أَجَلِه. كلّ من تبقَّى من عائلتي، أمِّي وأختي وأنا، قصدنا المكان، ورافقتنا كيمي موريتا، زعيمة أوموتو الروحيَّة. ويوم الحدث الشرفيّ في الحديقة، كنتِ مسافرة مع زوجك. ربَّما اختار خالُكِ ذلك اليوم عن قصد، حتى لا نلتقي.

ما الذي كان يعرفه عن علاقتنا؟ بالتأكيد النزر اليسير. لكنَّه كان ذكيًّا جدًّا.

إيشي

أرفقتْ إيرينا طبقَ السوشي بالشاي الأخضر، في حين كان سيت يشرب المزيدَ من الساكي. كان محتوى القدح يختفي بارتشافة واحدة، فتُعيد إيرينا صبّه من دون أن تحسّ بذلك في غمرة الحديث. لم ينتبه أيٌّ منهما حينما أحضر نادلُ المطعم، الذي كان يرتدي كيمونو أزرق ويضع شريطًا على جبينه، زجاجةً أخرى. عاينتْ إيرينا عند تناول التحلية ـ آيس كريم بمذاق الكاراميل ـ حالةَ السُّكْر التي وصل إليها سيت، فأيقنتْ أنَّ من الأفضل الافتراق الآن، قبل أن تسوء الحالة، غير أنَّها لم تستطع تركه على تلك الصورة. تدخَّل النادل واقترح أن يطلب سيَّارة أجرة، لكنَّ سيت رفض. فاستند إلى إيرينا، وخرج مترنِّحًا. وفي الخارج، أيقظ الهواء الباردُ مفعولَ الساكي.

ـ يبدو لي أنّه من الأفضل ألّا أقود الدرَّاجة... أيمكنني أن أمضي الليلة معك؟ قال لها متلعثمًا بعقدة في لسانه.

ـ والدرّاجة؟ ستكون هنا عرضةً للسرقة.

ـ لتذهب الدرّاجة إلى الجحيم.

ـ استغرق الوصولُ إلى غرفة إيرينا ساعة من الزمن تقريبًا، لأنّ سيت كان يمشي بخطًى بطيئة. عاشت إيرينا في أماكن أسوأ من غرفتها تلك، لكنَّها أحسّت بالخجل من مسكنها المبعثر والمقرف بصحبة سيت. كانت تتقاسم المسكن مع أربعة عشر من المستأجرين المكدَّسين في غرف مقسومة بألواح، بعضها بلا نوافذ ولا تهوئة. كانت البناية من العقارات المهملة في بيركلي، لا يكترث أصحابها لصيانتها، لاستحالة الزيادة في ثمن الكراء. لم يبقَ من صباغة الواجهة الرئيسة سوى بعض البقع، وفقدت الشبابيكُ الخشبيَّةُ سدَّاداتها، وتراكمتْ في فناء العمارة أزبالٌ من عجلات ممزَّقة، وأجزاءٌ من الدرّاجات. ثمَّة فنجان بلون الأفوكادو مرميٌّ هناك منذ خمس عشرة سنة. ومن الداخل، كانت تنبعث رائحة بخور الباتشولي الممزوجة برائحة حساء القنبيط المعتّق. لا أحد كان يكترث لنظافة الممرّات والمراحيض المشتركة. أمَّا إيرينا، فكانت تستحمُّ في *لارك هاوس*.

ـ لماذا تعيشين في زريبة الخنازير هذه، سألها سيت منتهرًا.

ـ لأنّها رخيصة الثمن.

ـ إذن، فأنت فقيرة جدًّا أكثر ممَّا كنت أتوقّعه، إيرينا.

ـ لا أدري ما الذي كنتَ تتخيَّله، سيت. لكنْ تقريبًا كلّ الناس أفقر من عائلة بيلاسكو.

ساعدتْه على نزع حذائه، ورمت به فوق قطعة الإسفنج الموضوعة فوق الأرض لتكون بمثابة سرير. كانت الملاءات نظيفة، كباقي الغرفة؛ فقد تعلَّمت من جدَّيْها أنَّ الفقر يجب ألَّا يكون مبرِّرًا للأوساخ.

ـ ما هذا؟ سألها سيت وهو يشير إلى جرس صغير معلَّق على الحائط، وقد رُبط بخيطٍ دُسّ في ثقب يُوصل إلى الغرفة المجاورة.

ـ لا شيء، لا تكترث.

ـ كيف؟ من يعيش في الغرفة المجاورة.

ـ إنَّه تيم، صديقُ الكافتيريا، وشريكي في مشروع غسل الكلاب. أحيانًا، تنتابني كوابيس. فإذا صرختُ بأعلى صوتي، يسحب تيم الخيط، فيرنُّ الجرس وأستيقظ. إنَّه اتِّفاقٌ مبرمٌ بيننا.

ـ أتحلمين بالكوابيس، إيرينا؟

ـ بالطبع، وأنت لا؟

ـ لا. كلّ أحلامي إيروتيكيَّة. أَتريدين أن أحكي لك واحدًا؟

ـ عليك بالنوم، سيت.

استجاب لها سيت في أقلِّ من دقيقتين. أعطت إيرينا نيكو الدواءَ، واغتسلتْ بجرَّة الماء والجفنة الموضوعة في الركن. نزعت عنها بنطلون الجينز وقميصَها، وارتدت قميصًا مهترئًا، وانكمشت بمحاذاة الحائط، ووضعتْ نيكو بينها وبين سيت. لم تستطع الاستسلام للنوم، وبالها مشغول بوجود رجل إلى جانبها، وضوضاء الجيران، ورائحة القنبيط المزكمة. كانت النافذة الوحيدة التي تطلُّ على العالم الخارجيّ عاليةً في جهة السقف، ولا تسمح سوى برؤية جزء صغير من السماء. أحيانًا، كان البدر المكتمل يمرُّ لإلقاء التحيَّة والسلام، ثم يمضي منصرفًا في رحلته. لكنْ، هذه الليلة لم تحظَ بتلك الزيارة.

استيقظتْ إيرينا مع إشراقة الصباح التي تُطلُّ محتشمةً إلى غرفتها، ولاحظتْ أنَّ سيت لم يعد في مكانه، وأنَّه انصرف لحاله. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا، وكان يجب أن تكون في عملها منذ ساعة ونصف الساعة. كانت تشعر بالألم في عظامها ورأسها، وكأنَّ عدوى الساكي انتقلتْ إليها عبر التناضح الغشائيّ!

الاعتراف

لم تَعُد ألما إلى لارك هاوس، لا في اليوم الأوّل ولا في اليوم الثاني، بل لم تسأل هاتفيًّا عن نيكو. انقطع القطّ عن الأكل ثلاثة أيّام، وكان لا يستطيع إلّا بشقٍّ النفس ابتلاعَ قطرات الماء التي كانت تَحْقنها إيرينا في فكّه. لم يعد الدواء يجدي معه نفعًا. فكَّرتْ إيرينا في الاتِّصال بليني بيل ليأخذه إلى البيطريّ، حين ظهر سيت بيلاسكو في لارك هاوس، منتعشًا، بذقن حليقة، وملابس نظيفة، تعلوه هالةٌ من الندم والخجل من أحداث الليلة الماضية.

ـ لقد علمت لنوّي بأنّ الساكي يحتوي على سبعة عشر في المئة من الموادّ الكحوليّة، قال لها.

ـ هل أحضرتَ درّاجتكَ؟ قاطعته إيرينا.

ـ أجل، لقد وجدتها حيث تركناها.

ـ إذن، خذني إلى الطبيب البيطريّ.

استقبلهم الدكتور كالِت (Kallet)، وهو الذي بتر منذ سنوات

خلت رِجلَ صوفيا. لم يكن الأمر مصادفةً؛ فالطبيب البيطريّ كان من المتطوِّعين الذين يشتغلون في منظَّمة حماية الكلاب الرومانيَّة، وليني هو من اقترحه على ألما. شخّص الدكتور كالِت حالة القطّ الذي يعاني نوعًا من التشنُّج في الأمعاء، ونصح بإجراء عمليّة جراحيَّة فوريّة. لكنّ إيرينا لم تكن تستطيع اتِّخاذَ هذا النوع من القرارات، وهاتف ألما الخلويّ لا يجيب. فتدخَّل سيت وتكفَّل بالمهمَّة. دفع للصندوق مصاريفَ العمليَّة المحدَّدة بسبعمئة دولار، وسلَّم الممرِّضة القطّ. في ما بعد، ذهب برفقة إيرينا إلى الكافتيريا حيث كانت تشتغل قبل تعرُّفها إلى ألما. فاستقبلهما تيم الذي لم يطرأ عليه أيُّ تغيّر منذ ثلاث سنوات.

كان سيت لا يزال يشعر بمغص في المعدة بسبب جرعات الساكي، لكنَّه كان صافي الذهن، وتوصَّل إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّ ملفّ حماية إيرينا يجب ألّا يؤجَّل أبدًا. لم يكن يعشقها كما عشق النساء من قبل، إذ كان يرجِّح كفَّة الشهوة على الحبِّ والحنان. كان يشتهيها، وهو ينتظر أن تبادر إلى السير في طريق العشق الممدود. لكنّ صبره نفد. وحان الوقت للمرور، إمَّا العمل المباشر وإمَّا التخلِّي عنها نهائيًّا. ثمَّة شيء في ماضي إيرينا كان يكبح جماحها؛ لا تفسيرَ آخرَ لرعبها من عالم الحميميّة.

كانت تغريه فكرةُ اللجوء إلى مُخْبريه، لكنَّه قرَّر ألّا يفعل ذلك؛ فإيرينا لا تستحقّ هذا النوع من الخيانة. كان يظنُّ أنَّ اللغز سيُحلُّ في أيّ لحظة، فيبتلع أسئلته. لكنَّ الكيل طفح به ولم يعد يحتمل الانتظار. أوَّل ما كان يجب أن يُعجِّل فيه هو إخراجها من جحر الفئران، حيث تعيش. حضّر ذهنيًّا أقواله وكأنّه يستعدّ لمرافعة في المحكمة. لكنْ ما إن رآها بوجهها الشبيه بوجه جنّيٍّ، وبقبَّعتها

البائسة، حتى نسي التقرير الذي أعدَّه، واقترح عليها بشكل مباشر، ومن دون مراوغات، أن تذهب للعيش معه.

ـ شقَّتي مريحة جدًّا، ولا أَشْغلها كلَّها. سيكون لديك غرفةٌ وحمَّامٌ خاصٌّ، مجَّانًا.

ـ والمقابل؟ سألته متوجِّسة.

ـ مقابل أن تشتغلي معي.

ـ أشتغل ماذا بالضبط؟

ـ في الكتاب الذي أنا في صدد تأليفه عن عائلة بيلاسكو. نحتاج إلى الكثير من البحث، وليس لديَّ متَّسع من الوقت.

ـ تعرف أنَّني أشتغل أربعين ساعةً في الأسبوع في *لارك هاوس*، واثنتي عشرة ساعة مع جدَّتك، وأغسل الكلاب في نهاية الأسبوع، وأفكِّر في الدراسة ليلًا. لديَّ وقت أقلّ منك، يا سيت.

ـ يمكنك أن تتخلِّي عن كلّ هذه الأمور، باستثناء جدَّتي، وتتفرَّغي للكتاب. سوف يكون لديك مأوى جيِّد، وراتب ممتاز. أحبّ أن أجرِّب الحياة مع امرأةٍ تحت سقف واحد، لم أعش التجربة من قبل، وقد حان الوقت لذلك.

ـ يبدو لي أنَّ بيتي قد أثار دهشتك كثيرًا. لا أحبُّ أن أكون محطّ شفقتك.

ـ أنا لا أشفق عليك، أنا الآن حانق عليك.

ـ أتريدني أن أترك عملي، ومداخيلي الثابتة، وأن أتنازل عن حجرتي التي عانيتُ الكثيرَ في سبيل الحصول عليها، وأن أحضر للعيش في شقّتك، وحين تملّ منِّي ترمي بي إلى الشارع؟

ـ أنتِ لا تفقهين شيئًا، إيرينا.

ـ أفهمك جيِّدًا، سيت. أنت تريد كاتبةً، مع خدماتٍ في الفراش.

ـ يا إلٰهي.. لن أتوسَّل إليك، إيرينا. لكنَّني أحذِّرك من أنَّني على وشك الانسحاب من حياتك نهائيًّا. أنت تعلمين جيِّدًا طبيعة شعوري نحوك. الأمور واضحة حتى بالنسبة إلى جدَّتي.

ـ ألما؟ ما علاقة جدَّتك بالأمر؟

ـ هي من اقترحتْ عليَّ هذه الفكرة. أنا كنتُ سأقترح عليك الزواج، وكفى. لكنَّها قالت لي إنَّ من الأفضل أن نجرِّب العيش معًا سنةً أو سنتين. هذا سيمحنك مهلة للتكيُّف معي، وسيمهل والديَّ وقتًا لتقبُّل فكرة أنَّكِ لستِ يهوديَّة، وأنَّكِ فقيرة.

لم تستطع إيرينا أن تتمالك نفسها، فأجهشتْ في البكاء. دفنتْ وجهَها بين ذراعيها المعقودتين فوق الطاولة، وألمَّ بها صداعُ الرأس الذي ازدادت حدَّته خلال تلك الساعات، واحتارت إزاء الموجة العنيفة من المشاعر المتناقضة التي انتابتها: حنان وامتنان تجاه سيت، وخجلٌ عارمٌ من محدوديَّتها، ويأسٌ من المستقبل. هذا الرجل يعرض عليها عشق الروايات وهيامَها، لكنَّها لا تستحقُّ هذا. في إمكانها أن تحبَّ مْسِنِّي *لارك هاوس*؛ أن تحبَّ ألما بيلاسكو؛ أن تحبَّ بعضَ الأصدقاء، كشريكها تيم، الذي كان ينظر إليها ـ من على منضدة الكافتيريا ـ في حيرة في تلك اللحظات؛ أن تحبَّ جدَّيها القابعين في جذع شجرة السكويا العملاقة؛ أن تحبَّ نيكو، وصوفيا، وباقي الحيوانات الأليفة التي تعجُّ بها الإقامة.. في إمكانها أن تحبّ سيت أكثر من أيِّ شخص آخر، لكنْ ليس بالقدر الكافي.

ـ ما الذي ألمَّ بكِ إيرينا؟ سألها سيت، بدهشة كبيرة.

ـ لا علاقة لك أنت بالموضوع. هي أمور ذاتُ صلة بالماضي.

ـ حدِّثيني.

ـ ما الفائدة من ذلك؟ ليست للأمر أهمِّيّة، أردفت، وهي تمسح جيوب أنفها بمنديل من ورق.

ـ المسألة مهمّة جدًّا، إيرينا. حاولتُ البارحة أن أمسك بيدك، فنهرتِني بشدّة. ولك الحقّ في ذلك، اعذريني فقد كنتُ مثلَ الخنزير. لن يحدث ذلك مرّةً أخرى، أَعِدْكِ بذلك. أحببتكِ منذ ثلاث سنوات، وأنت تعرفين هذا جيِّدًا. ما الذي تنتظرينه كي تحبِّيني؟ حذارِ يا امرأة، ففي وسعي الحصولُ على فتاةٍ أخرى من مولداڤيا. هناك المئات منهنّ على أُهْبةِ الاستعداد للزواج بي من أجل تأشيرة أميركيّة.

ـ فكرة جيِّدة يا سيت.

ـ ستنعمين بالسعادة برفقتي، إيرينا. أنا أطيبُ إنسانٍ في الكون، لا أؤذي أحدًا على الإطلاق.

ـ لا يمكن محاميًا أميركيًّا يمتطي درّاجة ناريّة أن يكون شخصًا مسالمًا، لكنّني أُقرُّ بأنّك شخص رائع.

ـ إذن، أتوافقين؟

ـ لا أستطيع. لو اطّلعتَ على أموري، لهرولت مبتعدًا.

ـ لنرَ إنْ كنتُ أستطيع التنبّؤ بالأمر: الإتجار في حيوانات غريبة في طريق الانقراض؟ لا يهمّ. تعالي لتري شقّتي، وقرِّري في ما بعد.

كانت الشقّة التي تقع في عمارة عصريّة في المرفأ، وتتمتّع بحارسٍ ومصعد تلفُّه المرايا من كلّ جانب، رائعةً جدًّا، حتى يُخيَّل أنّها غيرِ مسكونة. لم يكن في هذه الصحراء الشاسعة من الشرفات والأرضيّة الخشبيّة الداكنة سوى أريكة جلديّة بلون السبانخ، وتلفازٍ

عملاق، ومائدةٍ من الزجاج تراصّت فوقها المجلّاتُ والكتبُ المرتّبة، وبعض الأباجورات الكنديّة الصنع. لا سجّاد، ولا لوحات، ولا ديكورات ولا نباتات.

في المطبخ ثمّة مائدةٌ عريضةٌ من الغرانيت الأسود، ومجموعةٌ من الأواني النحاسيَة البرّاقة وغير المستعملة، تتدلّى من مسامير سُمِّرتْ في السقف. وفي لحظة حبِّ استطلاع، لمحتْ إيرينا داخل الثلّاجة عصيرَ برتقالٍ، ونبيذًا أبيض، وحليبًا خاليًا من الدسم.

ـ أتتناول شيئًا غيرَ السوائل، سيت؟

ـ بالتأكيد. في بيت أجدادي أوِ في المطاعم. البيت في حاجة إلى لمسة أنثويّة، كما تقول أمّي. أتُجيدين الطبخ، إيرينا؟

ـ فقط البطاطس والكرنب.

كانت الغرفة التي تنتظرها، بحسب سيت، متقشّفة وذكوريّة جدًّا، مثل باقي أجزاء البيت. فقد كانت لا تحتوي إلّا على سرير رحب، ذي غطاءٍ من الكتّان الخشن، ووسادات كبيرة بنّيّة لم تضفِ على المكان هالة من السرور. كانت هناك كذلك مائدة صغيرة وكرسيٌّ معدنيٌّ. وعلى الحائط المصبوغ بلون الرمل، عُلِّقتْ واحدةٌ من صور ألما الفوتوغرافيّة، التي التقطها ناتانيل بيلاسكو بالأبيض والأسود. لم تكن الصورة تشبه غيرها من الصور التي تعرّفت إليها إيرينا، والتي نعتتها بالقويّة الدلالة. فيها، لم يظهر إلّا نصفُ وجهها النائم في فضاء ضبابيٍّ يبعث على الحلم. وكانت الصورة هي التحفة الوحيدة التي تزيِّن صحراء سيت القاحلة.

ـ منذ متى وأنت تعيش هنا؟ سألته.

ـ منذ خمس سنوات. أأعجبتك؟

ـ المنظر رائع.

ـ لكنَّ الشقَّة تبدو لك باردةً جدًّا، أردف سيت. طيِّب. إذا أردت إدخال بعض التعديلات يجب أن نتَّفق أوَّلًا على التفاصيل. لا أحبّ ستائرَ الأهداب ولا ألوان الباستيل، التي لا تتماشى مع شخصيَّتي، بيْد أنَّني مستعدٌّ لتقديم تنازلات طفيفة بخصوص الديكور. ليس الآن، بل لاحقًا، حينما تتوسَّلين إليّ أن أتزوَّجك.

ـ شكرًا. خذني الآن إلى المترو. يجب أن أعود إلى حجرتي. أظنُّ أنَّني مصابة بالزكام، وجسدي يؤلمني.

ـ طلبكِ مرفوض، آنستي. سوف نطلب أكلًا صينيًّا، وسنشاهد فيلمًا، في انتظار أن يكلِّمنا الدكتور كالِت. سأعطيك حبّة الأسبرين وشايًا؛ سيساعدك هذا كثيرًا. للأسف ليس لديَّ هنا مَرَق الدجاج؛ فهو دواء ناجع.

ـ المعذرة، أيمكنني أن أغتسل في حوض الاستحمام؟ لم أستعمله منذ مدّة طويلة. أستعمل فقط دشّ موظَّفي *لارك هاوس*.

كان الوقت عصرًا والجوُّ صحوًا. ومن خلال النافذة المحاذية لحوض الاستحمام، أمكنتْ رؤيةُ المنظر البانوراميّ للمدينة الصاخبة، وحركة المرور، والمراكب الشراعيّة في الخليج، وحشود الناس في الشارع، إمّا ماشية على أقدامها، وإمّا مستقلّة درّاجة، أو فوق مزالج وأحذية تدحرج، كما أمكنتْ رؤيةُ الزبائن حول الموائد تحت مظلّات برتقاليَّة، وبرج الساعة في بناية فيري بولدينغ بارتجافاته.

غطستْ إيرينا في الماء الساخن حتى أذنيها، وأحسَّت بارتخاء عضلاتها المتشنِّجة، وتمدُّد عظامها التي توجعها. ومرَّةً أخرى، باركتْ أموال عائلة بيلاسكو وكرمَها. بعد فترة وجيزة، أخبرها سيت من وراء

الباب أنَّ الأكل وصل. لكنَّها انغمستْ في الماء نصفَ ساعةٍ أخرى. وفي النهاية، خرجتْ وارتدت ملابسها بكسل. كانت تحسّ برغبة في النوم وبدوار في رأسها. وزادتْ في غثيانها رائحةُ لحم الخنزير الحامضة والحلوة، المنبعثة من علب الكرتون، وأطباق شاومين، والأرنب الصينيّ. انكمشتْ في الأريكة واستسلمتْ للنوم، ولم تستيقظ إلّا بعد ساعات متأخِّرة، بعد أن أسدل الظلامُ خيوطَه خلف النوافذ. أراح سيت رأسَها على وسادة، ودثَّرها ببطّانيّة، وجلس في ركن الأريكة لمشاهدة فيلمه الثاني في الليل ـ جواسيس، جرائم دوليَّة، وأوغاد المافيا الروسيَّة ـ وقد وضع رجليها فوق ركبتيه.

ـ لم أشأ أن أُوقِظكِ. لقد اتَّصل كالِت، وأخبرنا بأنَّ عمليَّة نيكو الجراحيَّة قد تمَّت بنجاح، وأثبت أنَّ لديه ورمًا كبيرًا في الذراع، وهذه بداية النهاية، أعلن لها.

ـ المسكين، آمل ألّا يكون تحت وطأة الألم...

ـ لن يدعه كالِت يتألّم. ماذا عن صداع الرأس؟

ـ لا أدري. ما زلت أرغب في النوم. هل وضعتَ لي مخدِّرًا في الشاي، سيت؟

ـ بالطبع، بعض قطرات الكيتامين. لماذا لا تستريحين في الفراش، وتستسلمين للنوم كما يجب؟ درجة حرارتك مرتفعة.

أخذها إلى الغرفة المزيَّنة بصورة ألما، ونزع حذاءها، وساعدها على الاسترخاء والنوم. دثَّرها، وعاد من جديد لمتابعة الفيلم.

استيقظتْ إيرينا في اليوم الموالي متأخِّرةً، بعدما تصبَّبتْ عرقًا وهدأتْ حرارةُ جسمها. كانت تشعر بأنَّ حالتها تحسَّنت، لكنَّها لم تكن تقوى على الوقوف كثيرًا. لاحظتْ أنَّ سيت ترك لها ملحوظة فوق

مائدة المطبخ السوداء، تقول: «*القهوة جاهزة للترشيح، أوقدي النار تحت الإبريق. لقد عادت جدّتي إلى لارك هاوس، ورويتُ لها أخبار نيكو. ستتكفّل هي بإخبار السيِّد ڤواغ بأنّكِ متوعِّكة، ولن تذهبي إلى العمل اليوم. استريحي. سأتّصل بك لاحقًا. قبلاتي.. زوجك في المستقبل القريب*». وعاينتْ كذلك أنّه ترك لها علبةً بحساء الدجاج والشعيريَّة، وعلبة فرامْبواز، وخبزًا طريًّا من مخبزٍ مجاورٍ ملفوفًا في كيس ورقيّ.

عاد سيت إلى البيت قبل السادسة زوالًا، بعد خروجه من المحاكم. كان متلهِّفًا إلى رؤية إيرينا. اتّصل بها مرّات عديدة عبر الهاتف ليتأكّد من عدم مبارحتها البيت، إذ كان يخشى أن تختفي في آخر لحظة. وفي كلّ مرّة كان يفكِّر فيها، كانت تحضر إلى ذهنه صورةُ الأرنب البرِّيّ على أهبة الاستعداد للفرار سريعًا، ووجهها الشاحب، والرصين، والثغرُ المفتوح، والعينان المستديرتان رعبًا حينما تستمع إلى حكايات ألما. وما إن فتح الباب، حتى شعر بوجود إيرينا. فعرف أنّها هناك قبل أن يراها. كانت الشقّة تبدو أكثر حيويّة، واكتست رمالُ الجدران بالمزيد من الحرارة، وثمّة بريق أخّاذ يسطع من البيت لم يكن قد انتبه له من قبل. حتى الهواء كان يهبّ لطيفًا. خرجت لملاقاته بخطًى ثقيلة، وعينين منتفختين من أثر النوم، وشعر منكوش وكأنّه باروكة بيضاء يشوبها بعضُ الأوساخ. فتح لها ذراعيْه، ولأوّل مرّة ارتمت في حضنه، فأحسّت كأنّ عقارب الساعة قد توقّفت. تنهّد سيت ما شاء له التنهُّد، فأخذته من يده وساقته إلى الأريكة. «*يجب أن نتحدّث*»، قالت له.

كانت قد وعدت كاترين هوپ، بعد أن روت لها تفاصيل حكاياتها، أن تخبر سيت بالأمر.. لا كي تجتثّ هذه النبتة الخبيثة

التي تدسُّ فيها سمّها فحسب، بل لأنَّ سيت رجل يستحقُّ معرفة الحقيقة أيضًا.

في أواخر سنة ٢٠٠٠، تجنّد المخبر رُون ويلكينيس مع مخبرَيْن آخرين من كندا، للبحث عن مصدر مئات الصور التي تروَّج عبر الإنترنت لطفلة في التاسعة، كانت ضحيَّةً لأعمال فجورٍ وعنفٍ، قد تكون أودت بحياتها. كانت صورها أثيرةً لدى التجّار المتخصّصين ببيورنوغرافيا الأطفال، والذين يتاجرون سرِّيًّا بالصور والفيديوهات الإباحيّة عبر شبكة دوليّة. لم يكن الاستغلال الجنسيّ البشع للأطفال أمرًا جديدًا؛ فقد وُجد منذ عقود، ولم يعاقب مرتكبوه. لكنَّ المخبرين كانوا يتصرّفون وفق مادّة قانونيّة صدرتْ سنة ١٩٧٨ في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وبموجبها تُجرّمْ هذه الأعمال. ومنذ تاريخ إصدار القانون، تراجعتْ وتيرةُ إنتاج الصور الفوتوغرافيَّة والأفلام الإباحيَّة وتوزيعها. ومع ظهور الإنترنت، تمّ غزو السوق بطريقة يصعب التحكُّم فيها. وباتت الأرقام تتحدّث عن مئات الآلاف من المواقع المخصّصة للغلمانيّة، وما يزيد على عشرين مليون من المنحرفين الجنسيِّين المتتبِّعين، معظمُهم من الولايات المتَّحدة الأميركيّة. التحدِّي كان يكمن أساسا في اكتشاف شبكة الزبائن، والأهمّ هو إلقاء القبض على المنتجين. كان الاسم الذي يُطلق على الفتاة الشقراء، صاحبة الأذنين الحادّتين، ونُقرةِ الذقن، هو أليس (Alice). كانت المادّة المتاحة للبحث حديثة العهد، والشكوك تؤكّد أنّ أليس ربّما تكون أكبر سنًّا ممّا تبدو عليه في الصور، إذ إنّ المنتجين كانوا يحرصون دائمًا على أن تبدو ضحاياهم قاصرات، كما يلحّ على ذلك الزبائن.

وبعد خمسة عشر شهرا من التعاون المكثّف بين رون ويلكينيس والمخبرَيْن الكنديّيْن، أُلقي القبض على أحد المروّجين المهتّمين بجمع

الصور وتصنيفها. المجرم كان جرَّاحَ تجميل في مونريال. داهم المخبرون بيته وعيادته، وصادروا حواسيبه، وعثروا على أَزْيَد من ستمئة صورة، بينها صورتان وڤيديو لأليس. بعد إدانة الجرّاح، وافق على التعاون مع السلطات في مقابل الحصول على عقوبة أخفّ. وفي ظلِّ وجود كمٍّ لا يُستهان به من المعلومات والاتِّصالات، باشر ويلكينيس تحرِّياته. كان هذا المخبر القويُّ البنية يمدح حاسَّة شمِّه التي كان يصفها بالقويَّة، ويقول إنَّه إذا اشتمَّ مؤشِّرًا واحدًا يدلُّه على الطريق، فلا أحد يمكن أن يصدَّه، ولا يرتاح له بال إلَّا بعد وصوله إلى الهدف. أوهم المتتبِّعين أنَّه من الهُواة، وحَمَّلَ الكثير من صور أليس، وأدخل عليها جملةً من التعديلات الرقميَّة حتى تبدو نسخة أصليَّة، من دون أن يكشف عن وجهها. وبهذه الطريقة، سُمح له بالدخول إلى الشبكة التي كان يديرها مُصنِّفُ الصور من مونريال، وسرعان ما استقطب الكثير من المهتمِّين، وبات عند بداية الطريق.

في ليلة من ليالي نوڤمبر لسنة ٢٠٠٢، طرق رون ويلكينيس جرس بيت كائنٍ في حيٍّ متواضع جنوبَ دالاس. فتحتْ له أليس الباب، فعرفها للتوّ. لم يكن ليُخْطِئَها. «جئتُ *للحديث مع والديك*»، قال لها وهو يتنهَّد بارتياح، لبقاء الطفلة على قيد الحياة. كان البيت ينعم بالراحة لوجود جيم روبينس في مدينة أخرى للعمل، وبقيت أليس وحدها برفقة والدتها. عرض المخبر شارَة أف.بي.آي (FBI)، ولم ينتظر دعوته إلى الدخول. دفع الباب وولج إلى داخل البيت، وقصد الصالون مباشرةً. لن تنسى إيرينا أبدًا تلك اللحظة وكأنَّها عاشتها قبل حين: لن تنسى منظر العملاق الأسود، ورائحتَه التي تُذكِّر برائحة الورود الحلوة، وصوته الغليظ والهادئ، ويديه الكبيرتيْن والرفيعتيْن براحة ورديَّة اللون. «كم عُمرك»، سألها.

كانت رادميلا ستشرب كأس الڤودكا الثانية، والزجاجة الثالثة من البيرة، بيد أنَّها كانت تتوهَّم أنّها متيقِّظة، فحاولت التدخُّل في الحوار، بعلَّة أنَّ ابنتها قاصر، وأنَّ الأسئلة يجب أن تُوجَّه إليها. وبحركة من يده، أسكتها ويلكينيس. «*سوف أُتمُّ الخامسة عشرة من عمري*»، نطقتْ أليس بسرعة، وكأنَّما عثر عليها متلبِّسة. اهتزَّ الرجل في مكانه، لأنَّ ابنته الوحيدة، فلذةَ كبده وضياءَ مهجته، كانت في مثل عمرها.

عاشت أليس طفولةً ملؤها الحرمان، وكانت تعاني نقصًا حادًّا في البروتينات والأغذية البنائيَّة، لذا لم تنمُ بالقدر الكافي، فكانت تبدو أصغر من ذلك بكثير، بقامتها القصيرة وعظامها الرفيعة. قدّر ويلكينيس أنّه إذا كانت أليس في هذه اللحظة تبدو في ربيعها الثاني عشر، فالأرجح أنّها كانت في التاسعة أو العاشرة في الصور الأولى التي رُوِّجتْ عبر الإنترنت. «*دعيني أتحدَّث مع والدتك على انفراد*»، طلب منها ويلكينيس بخجل. لكنَّ رادميلا في تلك اللحظات كانت قد دخلتْ مرحلةً حادَّةً من الثمالة، وألحَّت بأعلى صوتها على أن تسمع ابنتها كلَّ ما سيقوله، أليس كذلك إليزابيتا (Elisabeta)؟ أجابت البنت منذهلةً بإيماءة من رأسها وهي تثبِّت بصرَها على الحائط. «*أنا آسف يا ابنتي*»، قال ويلكينيس وهو يضع فوق الطاولة عشرات الصور.

وهكذا، اطّلعتْ رادميلا على ما كان يدور في عقر دارها لأزْيَدَ من سنتين، فتحاشت رؤيةَ المزيد. وأدركتْ أليس أنَّ ملايين الرجال عبر العالم شاهدوا ألعابها السرِّيَّة مع زوج والدتها. كانت تشعر، ولعدَّة سنوات، بأنَّها خسيسة وقبيحة ومذنبة، وبعدما رأت الصور الفوتوغرافيَّة فوق الطاولة، تمنّت الموت. كان جيم روبينس يؤكِّد لها أنَّ هذا النوع من اللعب مع الآباء والأعمام هو أمر عاديٌّ وطبيعيٌّ؛ وأنَّ العديد من الأطفال والطفلات يشاركن فيه عن طِيب خاطر

وبامتنان، وأنَّ هؤلاء الأطفال يكونون متميِّزين جدًّا، لكنْ لا يجب إطلاعُ أحد على الأمر؛ إنَّه سرٌّ دفين، وأوصاها بالكتمان الشديد وعدم البوح، لا للصديقات، ولا للمعلِّمات، ولا للطبيب، لأنَّ الناس سينعتونها بالآثمة القذرة، وستظلّ وحدها بلا أصدقاء، وسترفضها والدتها هي نفسها، فرادميلا غيورة جدًّا. لماذا تقاومين؟ أترغبين في الهدايا؟ لا؟ طيِّب إذن سأعوِّضك كما لو كنتِ امرأةً راشدة. لن يدفع لها مباشرة، بل لأجدادها. هو بنفسه سيتكفَّل تحويل المال إلى مولداڤيا باسم الحفيدة. لكنْ يجب عدم إخبار رادميلا: هذا سرٌّ آخر بينهما. أحيانًا، كان الأجداد يحتاجون إلى حوالة إضافيَّة لإصلاح سقف أو لشراء عنزة. لا مشكلة في الأمر؛ فقد كان طيِّب القلب، ويعي أنَّ الحياة في مولداڤيا قاسية جدًّا. محظوظة إليزابيتا للمجيء للعيش في أميركا، لكنَّ المال لا يُعطى مجَّانًا، يجب أن تكدّ لتجنيه بعملها، أليس كذلك؟ يجب أن تبتسم، فلن يكلِّفها هذا الشيءَ الكثير، ويجب أن ترتدي الملابسَ التي يجبرها عليها، ويجب أن تستسلم للأصفاد والحبال، وأن تشرب الجعة لتسترخي، ممزوجةً بعصير التفَّاح لكيلا تحسّ بحرقة في حنجرتها، فلن تتأخَّر في الاستئناس بالمذاق. أتريدين المزيد من السكر؟ ورغم الكحول والمخدَّرات والخوف، انتبهتْ في لحظة من اللحظات لوجود كاميرات خفيَّة في مخزن الأدوات، «*غرفتنا الصغيرة*» التي يجب ألَّا يطَّلع عليها أحد. حتى والدتها لا يمكنها الدخول. أقسم لها روبينس إنَّ الصور والڤيديوهات ستظلُّ سرِّيَّة، وإنَّه سيحتفظ بها لنفسه، لتؤنسه في السنوات المقبلة، حينما تذهب إلى المدرسة الإعداديَّة.

كيف سيشتاق إليها!

وجود هذا الرجل الأسود في البيت، بيديه الكبيرتين وعينيه

الحزينتين والصور، يؤكِّد أنَّ زوج والدتها كان يكذب عليها. فكلّ ما كان يدور في غرفتهما كان متداولًا على مواقع الإنترنت، يروَّج ويروَّج.. ولا يمكن حصره ولا التصدِّي له، وسيبقى موجودًا إلى الأبد. ففي كلّ دقيقة من مكان ما، كان ثمَّة مَنْ يغتصبها، أو يمارس العادة السرِّيَّة بسببها. فأينما عاشت، وأينما حلَّت، سيكون هناك من يتعرَّف إليها. لا ملاذ لها، والرعب سيظلُّ يلاحقها، ورائحة الكحول ونكهة التفَّاح ستُعيدانها دائمًا إلى ذكريات الغرفة الصغيرة، وستظلّ دائمًا خائفة تترقَّب، وتتسلَّل، وستشمئزّ من كلّ شخص يحاول لمسها.

في هذه الليلة، وبعد رحيل رون ويلكينيس، حبست البنتُ نفسَها داخل غرفتها، خوفًا واشمئزازًا. كانت متأكِّدة من أنَّ زوج والدتها سيقتلها بعد عودته؛ فقد سبق أن حذَّرها من هذا، إنْ هي تفوَّهتْ بكلمة واحدة. كان الموت ملاذها الأخير، لكنَّها لم تكن تريده على يده، وبالطريقة الفظيعة التي كان يصوِّره بها، بالكثير من التفاصيل.

أمَّا رادميلا، فقد صبّت على جسدها ما بقي من زجاجة الڤودكا، وهوت على الأرض مغشيًّا عليها، وبقيت مرميَّة على أرضيَّة المطبخ عشر ساعات كاملة. وحينما استفاقت قليلًا من غيبوبتها، انهالت بالصفعات على ابنتها المغناج والمومس التي راودتْ زوجَها عن نفسه. لم يستمرّ المشهد طويلًا؛ ففي تلك اللحظات وصلتْ طوَّافة، فيها شرطيَّان ومرشدة اجتماعيَّة، بعث بهم ويلكينيس، فألقوا القبض على رادميلا، وأخذوا البنت إلى مستشفى الأمراض النفسيَّة للأطفال، إلى أن تقول محكمة القاصرين كلمتها، وتصدر قرارها بشأنها. لن تعود أبدًا لرؤية والدتها وزوجها.

بقي لرادميلا متّسع من الوقت أجرت فيه اتِّصالاتها بجيم روبينس، وأخبرته بأنَّ الشرطة تبحث عنه، ففرَّ من البلاد. لكنَّ رون ويلكينيس

لم يهدأ له بال، ولم يتوانَ في مطاردته عبر العالم، إلى أن عثر عليه في جامايكا، وأعاده مصفّدَ اليدين إلى الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. لم تحضر ضحيَّتُه محاكمتَه، لأنَّ المحامين أخذوا أقوالها في جلسة مغلقة، وأعفتها القاضيةُ من المثول أمام المحكمة، وعلمتْ منها الفتاة بأنّ جدَّيها توفِّيا، وأنَّ الحوالات الماليَّة لم ترسل في أيِّ زمن. أصدرت المحكمة في حقِّ جيم روبينس عقوبة حبسٍ، وصلت إلى عشر سنوات نافذة، من دون الحقِّ في السراح الموقّت.

لم يبقَ سوى ثلاث سنوات وشهرين ليُفرَجَ عنه. وحينها سيبحث عنِّي. آنذاك، لن أجد مكانًا أختبئ فيه. هكذا أنهت إيرينا حديثها.

ـ لن تكوني مضطرَّة إلى الاختباء، إذ سيكون معه أمر بعدم التعرُّض لكِ. فإذا اقترب منك فسيعود إلى السجن. سأكون معك لأتأكَّد من تطبيق القرار، أردف سيت.

ـ لكنْ، ألا ترى أنَّ ما تقوله مستحيل، سيت؟ ففي أيِّ لحظة يمكن أحدًا من وسطك، شريكًا لك أو صديقًا أو زبونًا، أو حتى والدك، أن يتعرَّف إليّ. أنا الآن على آلاف الشاشات.

ـ أنت مخطئة، إيرينا. أنتِ الآن امرأة في السادسة والعشرين من عمرها. وتلك التي تُروَّج صورُها عبر الإنترنت هي أليس، الطفلة الصغيرة التي لم تعد موجودة. والمنحرفون لا يستهويهم ذلك.

ـ المخطئ هو أنت. لقد هربتُ مرّاتٍ عديدة من أماكن مختلفة، لأنَّ ثمَّة بائسًا كان يلاحقني. لم تسعفني شكاواي التي أودعتُها مخفرَ الشرطة، فرجال الشرطة لا يستطيعون منع هذا الشخص من استغلال صُوَري. كنت أظنُّ أنَّ صباغة الشعر بالأسود، واستعمال المكياج، قد يُجْدِيان نفعًا، لكنْ عبثًا. لديَّ وجه من السهل التعرُّف إليه، فملامحي

لم تتغيَّر خلال هذه السنوات. لا يهدأ لي بال أبدًا، يا سيت. إذا كانت عائلتُكَ سترفضني لأنّني فقيرة ولستُ يهوديَّةَ الأصل، فما تخالهم يفعلون إذا اكتشفوا هذا الأمر؟

ـ سنخبرهم لاحقًا، إيرينا. سوف يصعب عليهم تقبُّل الأمر في البداية، لكنّني أظنّهم سيحبُّونك أكثر بسببِ ما عانيته. إنَّهم أناس طيِّبون. لقد عانيتِ الكثير، وقد حان الوقت لاستعادة الصحَّة والعفو عن الناس.

ـ العفو تقول، سيت؟

ـ إذا لم تسامحي الناس، فسيدمِّركِ الحقد. كلّ الجروح تلتئم بالودّ، إيرينا. يجب أن تحبِّي نفسك أوَّلًا، وتحبِّيني أنا. اتَّفقنا؟

ـ هذا ما قالته كاتي.

ـ أَصغي إليها. إنَّها امرأة ذات خبرة كبيرة. دعيني أساعدك. لستُ حكيمًا، لكنّني صديق جيِّد، وقد أطلعتُكِ على مكامن حزمي بما فيه الكفاية. لستُ الشخص الذي يستسلم بسرعة. اجعلي الصبر حليفك، إيرينا. لن أدعك وحدك. أتحسِّين بنبضات قلبي؟ إنَّه يناديك. قال لها سيت ذلك، وهو يمسك بيدها ويجذبها إلى صدره.

ـ هناك شيء آخر، سيت.

ـ أما زال في جعبتك المزيد؟

ـ منذ أن أنقذني المخبر ويلكينيس من زوج والدتي، لم يلمسني أحد. . . أنت تعرف ما أقصده. عشت دائمًا وحيدة، وأفضِّل أن أظلّ هكذا.

ـ طيِّب إيرينا، سوف تتغيَّر الأمور. لنتعامل مع الأحداث بنوع من الهدوء. كلّ ما حدث لك في السابق لا علاقة له بالحبِّ، ولن تتكرَّر

التجربة، ولا علاقة لقصّتنا بالموضوع. مرّةً، قلتِ لي إنّ الشيوخ يمارسون الجنس ببطء. لا أراها فكرة سيِّئة! هلمّ بنا نتحابّ كجدّيْن. ما رأيك؟

ـ أظنُّها ورقةً خاسرةً، سيت.

ـ إذن، نحتاج إلى استشارة اختصاصيّ. هيَّا يا امرأة، كُفِّي عن البكاء. هل أنت جائعة؟ مشِّطي شعرك قليلًا. لنخرجْ للأكل والحديث عن مغامرات جدّتي؛ فهذه أمور ترفع دائمًا معنويّاتنا.

تيخوانا

في الشهور المباركة لسنة ١٩٥٥، حين كانت ألما وإيشيمي ينعمان ويستمتعان بالحبِّ في نزلْ المارتينيث البائس، أسرَّتْ إليه بأنَّها عاقر. لم يكن الأمر سوى أكذوبة لتغطية الرغبة الجامحة في الارتواء من العشق إلى حدِّ التخمة. اقترفتْ هذه الكذبة للحفاظ على العفويَّة بين الملاءات، ولأنَّها كانت تثق بالحاجز المهبليّ الذي كانت تستعمله لتفادي المفاجآت، ولأنّ دورتها الشهريَّة لم تكن يومًا منتظمة، إذ سبق أن شخّص لها طبيبٌ النساء والتوليد، الذي زارته أكثر من مرَّة برفقة خالتها ليليان، تكيُّسًا في المبيض يؤثِّر سلبًا في الخصوبة. كانت ألما دائمًا تؤجِّل موعد إجراء العمليَّة، لأنَّ الأمومة لم تكن من أولويَّاتها، وراهنتْ على أنّها لن تقع في الحمل خلال هذه المرحلة من شبابها؛ فهذا النوع من المنزلقات لا يحدث سوى في أوساط نساء من أوساط متدنِّية، نساء من دون تعليم أو موارد. لم تنتبه لحالتها حتى حدود الأسبوع العاشر، لأنّها كانت تهمل حسابَ دورتها. وحينما علمتْ بالأمر، وثقتْ بالحظّ، وانتظرت أسبوعين آخرين. وفكَّرت في أنَّها

ربَّما أخفقتْ في الحساب. لكنْ، لو وقع المحظور، فسيكون الإجهاضُ هو الحلّ. باتت تركب الدرَّاجة وتحرِّك دوَّاساتها بقوَّة في كلّ الاتِّجاهات، وفي كلّ لحظة، كانت تترقَّب سيلان الدم في ملابسها الداخليَّة. ويومًا بعد يوم، كان يزيد قلقها. وعلى الرَّغم من ذلك، فقد كانت حريصةً على الذهاب إلى مواعيد إيشيمي ومُمارسة الجنس بالقوّة المذهلة التي كانت تدوسُ بها دوّاسة درَّاجتها ذهابًا وإيابًا. وفي النهاية، وحينما عجزتْ عن التغاضي عن نهديْها المنتفخين، وعن حالة الغثيان التي كانت تنتابها في ساعات الصباح، وعن تقلُّبات الوحام، لم تلجأ إلى إيشيمي، بل إلى ناتانيل، بالضبط مثلما كانت تفعل في أيَّام طفولتها. ولتفادي لقاء أخوالها خشية أن يطَّلعوا على الأمر، ذهبتْ إليه في مكتب بيلاسكو القضائي، وهي الوكالة الموجودة في شارع مونتغوميري منذ أيَّام الوالد، الذي دشَّنها سنة ١٩٢٠، بأثاثها الفخم، ورفوفها التي رُصّت عليها كتُبُ القانون المجلَّدة باللون الأخضر الداكن. كان هذا المكتب بمثابة ضريح، بسجَّاده الفارسيّ الذي تغوص فيه الأقدام، ولا يُسمع فيه إلَّا الهمس.

كان ناتانيل يجلس خلف مكتبه بقميص مشمَّر، وربطةِ عنقٍ مفتوحة، وشعر منكوش، ويحيط به العديدُ من الوثائق والكتب المفتوحة. وما إن رآها، حتى هبَّ لمصافحتها وعناقها. دسّت ألما رأسها في عنقه وهي تحسّ براحة تامَّة في حضن هذا الرجل الذي لا يخذلها أبدًا. «*أنا حامل*»، قالت له باختصار. ساقها ناتانيل إلى الأريكة، فجلسا وجهًا لوجه. حدَّثته عن الحبِّ، وعن النزل، وشرحتْ له كيف أنَّ الحمل لم يكن بسبب إيشيمي بل بسببها. وأوضحتْ له أنَّ إيشيمي سيصرّ على الزواج بها وتحمُّلِ مسؤوليَّة الجنين، إنْ هو علم بالأمر. لكنَّها فكّرتْ مليًّا في الموضوع، ولم تعد ترغب في الزواج من

إيشيمي. كانت تعشقه، غير أنَّها كانت تَعي أنَّ سلبيّات الفقر ستقتل حبّها. كان الخوفُ من المجهول يداهمها، وضعفُها يُخجلها، كلَّما أحسّت بأنَّها أمام خيارين: فإمَّا قبول العيش في ضائقة ماليَّة وسط مجموعة من اليابانيِّين الذين لا يمتُّون إليها بصلة، وإمَّا البقاء في وسطها آمنةً مطمئنَّة. إيشيمي يستحقّ كلّ الحبّ؛ إنَّه رجل رائع، وحكيم، وفاضل، وصاحبُ روح نقيَّة، وعاشق رقيق، ومرهف الحسّ، وكانت تحسُّ بالسعادة في حضنه. ذكرتْ ذلك كلّه في سلسلة من الجمل المتعثِّرة، وهي تحاول منعَ نفسها من البكاء. أضافت أنَّ إيشيمي يعيش في عالمه الروحانيّ، وأنَّه سيظلّ دائمًا البستانيّ البسيط، بدلًا من أن يُنمّي موهبته الفنِّيَّة الهائلة، أو يدفع بمستنبت الورود إلى الأمام ليصبح مشروعًا كبيرًا. لا شيء من هذا القبيل، فهو لا يطمح إلى أكثر من هذا. يكفيه أن يربح القليل ليعيش، ولا يهمُّه التألّق بتاتًا ولا النجاح. كلُّ همّه التأمُّل الروحيّ والحرص على نقاء الروح. لكنَّ هذا لا يوفِّر الطعام، وهي ليست مستعدَّة لتكوين أسرة في بيت حقير مسقوف بالزنك، والعيش وسط فلّاحين وهي تحمل في يدها المعول.

«*أعرفُ ما ستقوله ناتانيل، سامحني، لقد حذّرتني من هذا آلافَ المرّات، ولم أُعرك اهتمامًا، كنتَ محقًّا، أنت دائمًا على حقٍّ، لقد أيقنتُ الآن أنَّني لا أستطيع الزواج بإيشيمي. لكنْ في المقابل، أنا لا أستطيع التضحية بهذا الحبّ؛ فمن دونه ستجفّ روحي مثل نبتة في الصحراء، سأموت حتمًا. ومن الآن فصاعدًا، سآخذ حذري وسوف نستعمل كلّ الوسائل الاحتياطيّة. لن يتكرّر الأمر ثانية، أعدك بذلك ناتانيل. أقسم لك*»، واسترسلتْ في حديثها تجترُّ الكلام بلا هوادة، تقدِّم الأعذار وتحسّ بالذنب.

استمع إليها ناتانيل من دون أن يقاطعها، إلى أن احتبس الهواء

في حلقها، وكفَّت عن النواح والشكوى.

ـ لنرَ ما الذي تقصدينه يا ألما. أنتِ حامل ولا تنوين مصارحة إيشيمي بالأمر، أوجز ناتانيل.

ـ لا يمكن أن يكون لي ولد بلا زواج، يا نات. عليك أن تساعدني. أنت الوحيد الذي أثق به.

ـ أتفكِّرين في الإجهاض؟ هذا خطير وغير شرعيّ، ألما. لا يمكنك الاعتماد عليَّ في مثل هذه الأمور.

ـ أنصتْ إليَّ جيِّدًا، نات. لقد بحثتُ في الموضوع كثيرًا. هي عمليَّة مضمونة وبلا مخاطر، ولا تكلِّف سوى مئة دولار، لكنْ يجب أن ترافقني إلى تيخوانا.

ـ تيخوانا؟ الإجهاض محظور كذلك في المكسيك، ألما. هذه حماقة كبيرة.

ـ الخطورة تكمن هنا في الأساس، نات. أمَّا هناك، فالأطبّاء يمارسون العمليَّات رغم أنف الشرطة، لا أحد يهتمّ بالأمر.

ناولته ألما قطعةً من الورق كُتِبَ عليها رقم هاتف، وأوضحت له أنَّها أجرت اتِّصالًا هاتفيًّا بشخصٍ يُدعى رامون في تيخوانا، فأجابها بإنكليزيَّة ركيكة، وسألها عمَّن دلَّها عليه، وهل هي مطَّلعة على الشروط. فأعطته الاسم، وأكّدت له أنَّها ستحمل معها المال اللازم، واتَّفقا على اللقاء في الثالثة زوالًا، في ركن معيَّن في المدينة، وأنَّه سيتكلَّف بنقلها في سيَّارته.

ـ هل قلتِ لرامون هذا، إنَّك ستأتين بصحبة محامٍ؟ سألها ناتانيل وهو يحتفظ بالورقة التي أعطته إيّاها.

انطلقا في اليوم الموالي، عند السادسة صباحًا، على متن سيّارة لينكولن العائليّة، التي تُجدي نفعًا في سفريّات الساعات الخمس عشرة

أفضل من سيَّارة ناتانيل الرياضيَّة. تملَّك الغضب ناتانيل، الذي مكث صامتًا، بفم مشدود، وجبين مقطَّب، وهو يمسك مقود السيَّارة في قوّة، ويركِّز بصره في الطريق. وحين طلبت منه ألما للمرَّة الأولى أن يتوقَّف في باحة لاستراحة الحافلات لتذهب إلى المرحاض، خفَّت حدّته نسبيًّا. مكثت الشابّة في دورة المياه نصف ساعة كاملة، وحينما تأهّب للذهاب للبحث عنها، رمقها في طريق العودة إلى السيَّارة وقد أخذ منها الارتباك مأخذَه. «*أتقيّأ في الصباح. نات. لكنَّ الحالة لا تطول كثيرًا*»، فسّرتْ له. حاول ناتانيل أن يُسلِّيها في ما تبقّى من طريق، فراحا يغنِّيان معًا الأغاني الشهيرة لپات بوون (Pat Boone)، إلى أن أنهكها التعب، فالتصقتْ به، وأسندتْ رأسها إلى كتفه، ونامت للحظات. وعند وصولهما إلى سان دييغو، توقَّفا عند فندق للأكل وأخذ قسطٍ من الراحة. حسبهما موظَّفُ الاستقبال متزوِّجين، فأعطاهما غرفة بسرير لشخصين، ناما فيها بأيادٍ متشابكة مثلما كانا يفعلان أيَّام الصبا. ولأوَّل مرَّة منذ أسابيع عديدة، نامت ألما بلا كوابيس. أمَّا ناتانيل فلم يُغمض له جفن، وظلَّ مستيقظًا إلى حدود الفجر، وهو يستنشق عطر الشمبوان المنبعث من شعر ابنة خالته، ويفكِّر في العواقب. كان يحسّ بالألم والحنق الشديدين، وكأنَّه والد الجنين، وانتابه الندم لقبوله الدخول في هذه المغامرة، بدلًا من تقديم رشوة إلى طبيب في كاليفورنيا، حيث يمكن الحصول على أيِّ شيء بثمن مناسب، بالضبط مثل تيخوانا. ومع أوَّل إشراقة للصباح، والضوء المتسلِّل عبر فتحة في الستائر، غلبه النعاسُ والتعب، ولم يستيقظ حتى التاسعة صباحًا، حينما سمع نوبات تقيُّؤ ألما في الحمَّام. كان لديهما الوقت لعبور الحدود، مع كلّ التأخير المتوقَّع، والوصول إلى الموعد مع رامون.

خرجت المكسيكُ للقائهما وهي ترفل في ثوبها المعهود. لم يسبق لهما أن زارا تيخوانا، التي تخيّلا أن يجداها نائمة، فإذا بهما يجدان نفسيهما وسط بلدةٍ لا يمكن حصرُها: بلدة صاخبة، ومتعدِّدة الأطياف، تعجُّ بالناس وبازدحام حركة المرور التي تشهد احتكاكَ الحافلات المهترئة والسيَّارات الفارهة بالعربات والحمير. كانت المحالُّ التجاريَّة تعرض في الدكَّان الواحد موادَّ غذائيَّةً مكسيكيّةَ الصنع، وأجهزةً كهربائيَّة منزليَّة أميركيَّة، وأحذيةً، وآلاتٍ موسيقيَّة، وقطعَ غيار، وأثاثًا، وطيورًا في الأقفاص، ورقائقَ ذُرة.

كانت الأجواء مفعمةً برائحة المقليّات والأزبال، تهتزُّ على إيقاعات الموسيقى الشعبيَّة، وصراخِ الوعّاظ والمبشِّرين بالديانة المسيحيّة، وصدى التعليقات الرياضيَّة المنبعثة من أجهزة الراديو في الحانات ومحالّ التاكو. ضلَّا طريقهما ولم يعثرا على العنوان، فالعديد من الشوارع كانت بلا أسماء ولا أرقام. وفي كلّ مرَّة، كان عليهما أن يتوقَّفا ليستفسرا الناس عن العنوان، لكنَّهما لم يفهما جيِّدًا التعليمات باللغة الإسپانيّة، التي لم تخرج عن نطاق حركة عشوائيّة تشير إلى أيِّ اتِّجاه، وعبارة «*هناك عند المنعطف لا أقلّ ولا أكثر*». أحسَّا بالتعب. ركنا سيَّارة اللينكولن قرب محطَّة للوقود، وواصلا رحلتهما سيرًا على الأقدام، إلى أن عثرا على الزاوية التي حدَّدا عندها نقطةَ الالتقاء. انتظرا هناك، وقد تأبَّط كلٌّ منهما ذراعَ الآخر، أمام نظرات جريئة ومتفحِّصة لكلب متشرِّد، وثلَّة من الأطفال بملابس رثّة يشحدون. المؤشِّر الوحيد الذي كان في حوزتهما، بغضِّ النظر عن اسم أحد الشوارع التي تتقاطع عند الزاوية، هو اسم محلّ يبيع ملابس قدَّاس الأطفال، وصورَ العذارى وقدِّيسي الكاثوليك، وكان المحلّ يُدعى ڤيڤا زاپاتا (Viva Zapata).

بعد عشرين دقيقة من الانتظار، قرَّر ناتانيل العودة، وخلص إلى أنَّ الأمر لا يعدو كونه خدعة. لكنَّ ألما ذكّرته بأنَّ احترام المواعيد ليس من شِيَم أهل هذا البلد. ودخلتْ ڤيڤا زاپاتا، تلوِّح بيدها طالبةً إجراءَ مكالمة هاتفيَّة. اتَّصلت بجوَّال رامون الذي رنَّ تسع مرَّات قبل أن تفتح الخطَّ امرأةٌ تتحدَّث بالإسپانيَّة. فلم تفهمها. حوالى الرابعة زوالًا، وحينما وافقتْ ألما على الرحيل، توقَّفت عند الزاوية سيَّارةُ فورد ١٩٤٩، بلون البزلّاء، بنافذتيها الخلفيَّتين الداكنتي اللون، تمامًا كما وصفها رامون. كان يجلس في المقاعد الأماميَّة رجلان: شابٌّ وراء المقود، تبدو عليه آثارُ الجذاري، بشعر عند مؤخّرة الرأس ولحية عند العارضين، وآخر نزل من السيّارة ليفسح لهما الطريق للصعود، لأنَّ السيَّارة كانت ببابيْن فقط. قدَّم نفسه باسم رامون. كان عمره يزيد على الثلاثين، بشاربيْن مهذَّبيْن، وشعر مملَّس بتصفيفة نحو الخلف. كان يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونَ جينز، وحذاءً بمقدِّمة حادَّة وكعب. كان الاثنان يدخِّنان. «*النقود من فضلكم*»، صاح ذو الشاربيْن فور ولوجهما السيَّارة. فدفع له ناتانيل. عدّ الرجل النقود ودسّها في جيبه. لم يتبادل الرجلان خلال الرحلة، التي بدت لألما وناتانيل طويلةً جدًّا، ولو كلمة واحدة. كان ناتانيل وألما متأكِّدين من أنَّ الرجلين يُكثران الطوافَ ليُضلُّوهما عن السبيل؛ فقد كان ذلك إجراءً وقائيًّا إضافيًّا، لأنَّهما لم يكونا يعرفان متاهات المدينة. كانت ألما تفكِّر في عواقب هذه الرحلة لو أنَّها سافرت وحدها، في حين كان ناتانيل يخشى بطش هذيْن الرجليْن اللذيْن يستطيعان، بعد حصولهما على المال، أن يرمياهما برصاصتيْن ويقذفاهما في خندق. لم يخبرا أحدًا بوِجهتهما، وربَّما تمرُّ أسابيع أو شهور قبل أن يعلم الأهل بمآلهما.

وبعد طول انتظار، توقَّفت سيَّارة الفورد، فأَوْمَآ إليهما بالانتظار،

في حين قصد الشابُّ الكثيف اللحيةِ البيت، وبقي الآخر يحرس السيّارة. توقّفوا عند منزل متواضع شبيه بباقي بيوتات الحيّ، الذي تراءى لناتانيل قذرًا وفقيرًا، غير أنّه لم يستطع إصدار حُكْم قيمة بمعايير سان فرانسيسكو. عاد الشابّ بعد دقائق، وأمر ناتانيل بالنزول من السيّارة، وفتّشه من رأسه إلى أخمص قدميه، وتأهّب للإمساك به من ذراعه لجرِّه، لكنّ ناتانيل ابتعد عنه بفظاظة وشتمه بالإنكليزيّة. اندهش رامون لردّة الفعل هذه، وهدّأ روعه قائلًا: «*اهدأ يا صديقي، فلا مجال للانزعاج*»، وأطلق ضحكة مدوِّية كشفتْ له عن بعض الأسنان الذهبيَّة. قدَّم له سيجارة. قَبِلها ناتانيل، في حين كان الشابّ الآخر يساعد ألما على النزول من السيَّارة. ودخلا المنزل، الذي لم يكن وكرًا للفارِّين من العدالة كما كان يخشى ناتانيل، بل كان عبارة عن منزلٍ عائليّ، بسقف مائل، ونوافذ صغيرة، وكان دافئًا.

في بهو البيت طفلان صغيران يلعبان على الأرض بجنود من حديد صلب؛ وثمّة طاولة سفرة، وأريكة مغطّاة بقطعة من البلاستيك، وثريّا كبيرة تتدلّى من السقف، وثلّاجة صاخبة ينبعث منها أزيزٌ يشبه أزيز محرِّك الزوارق. كانت رائحة البصل المقليّ المنبعثة من المطبخ تهيمن على المكان. ومن موقعهما، استطاعا أن يلمحا امرأةً بزيٍّ أسود منهمكةً في تحريك شيء بالمقلاة. لم تكترث المرأة لحضورهما، وكذلك الأطفال. أشار الشابّ إلى ناتانيل بالجلوس على كرسيٍّ، واتَّخذ طريقه نحو المطبخ؛ في حين قاد رامون ألما إلى غرفة أخرى عُلِّقتْ ستارةٌ على بابها.

ـ انتظر من فضلك، اعترضه ناتانيل. مَن الذي سيُجري العمليّة؟

ـ أنا، أردف رامون، الذي اتَّضح أنّه الوحيد الذي يتكلَّم القليل من الإنكليزيَّة.

- أتفهم في الطبِّ؟ سأله ناتانيل، وهو يمعن النظر في أظافر يديه الطويلة والبرّاقة.

ومرَّة أخرى، دوّت الضحكة اللطيفة، وشعَّ بريقُ الذهب، وبعضُ الحركات المطمئنة. وتفوّه ببعض الجمل بإنكليزيَّة ركيكة، شرح بها أنَّ له باعًا طويلةً في الميدان، وأنَّ الأمر لن يستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة، من دون أيَّ مشكل. «*التخدير؟ لا، يا صديقي. نحن هنا لا نستخدم هذه الوسائل. لكنْ هذا يمكن أن يساعدها*»، وناول ألما قنّينةً من التيكيلا. وحين تردّدتْ كثيرًا في ارتشافها، وظلّت تحملق في القنّينة بكثير من التحفُّظ، شرب منها رامون رشفةً طويلة، ومسح فكّيه بكمِّ ملابسه، وقدَّمها من جديد إلى ألما.

لمح ناتانيل تعابيرَ الرعب على محيًّا ألما الشاحب. وفي لحظة واحدة، اتَّخذتْ أهمّ قرار في حياتها.

- اعتراني الندم، رامون. سوف نتزوّج وننجب الطفل. في إمكانك الاحتفاظ بالمال.

ظلّت ألما، ولسنوات عديدة ومتعاقبة، تتفحّص كلّ أفعالها في سنة ١٩٥٥. حطّت أوزارها على درب الواقع، ولم تنفعها كلُّ محاولاتها للتخفيفِ من العار الذي كان يلاحقها ويخنقها: عارِ السقوط في شِباك الحَمْل، وعشقِ إيشيمي أكثر من ذاتها، وخجلِ الرعب من الفقر، والانصياعِ للضغوط الاجتماعيَّة، والوقوع في مغبَّة احتقار العِرْق. أحسَّت بالخجل من تضحيات ناتانيل، واستاءت من أدائها المتدنِّي في الحفاظ على صورة المحارِبة، التي كانت توهم بها الناسَ، ومن طبعِها الجبان. وهكذا، صارت تجلد نفسَها بكلِّ ما تيسَّر لها من نعوت. كانت تعي تمامًا أنَّها تفادت عمليَّة الإجهاض، لا حبًّا أو احترامًا للروح التي علقتْ بأحشائها، بل خوفًا من الألم، أو

الموت بسبب نزف أو تعفُّن. عادت لتتفرّس في نفسها من جديد قبالة مرآة خزانة ملابسها الكبيرة. إلّا أنّها لم تلتقِ ألما الزمن القديم، ألما الفتاة الجريئة والمرهفة التي كانت تتخيّل إيشيمي واقفًا خلفها. بل وجدت امرأةً جبانةً ومتقلِّبةً وأنانيَّة. كلّ الحجج كانت واهية. فلا شيء كان يشفي الغليل، ولا شيء كان يخفِّف الشعور بفقدان الكرامة. وبعد مرور عدَّة سنوات، وحين أصبحتْ مسألةُ الارتباط بشخص من عِرْق مغاير، أو الإنجاب بلا زواج، أمرًا لا لومةَ عليه، وبات الأمرُ دارجًا على الموضة، أيقنتْ ألما في قرارة نفسها أنَّ المشكل المتجذِّر في أعماقها يكمن أساسًا في الطبقة الاجتماعيّة. وعلى الرَّغم من معاناة رحلة تيخوانا التي أتت على جذوة الحبِّ، وأهانتها إهانةً كبيرة، فإنَّها لم تجرؤ أبدًا على مصارحة إيشيمي بالخبر؛ فالاعتراف كان يشكِّل بالنسبة إليها خروجًا من مغبَّة الجبن الذي لم تكن تقوى عليه.

بعد العودة من تيخوانا، ضربتْ ألما لإيشيمي موعدًا في ساعة مبكرة، خلافًا للمعتاد، في النزل نفسه. فقصدت المكان بعجرفة مدجَّجة بالأكاذيب، بيد أنّها كانت تبكي من الداخل. ولأوّل مرَّة، وصل إيشيمي قبلها. كان ينتظرها في إحدى تلك الغرف النتنة، التي كانت تعجُّ بالصراصير، ولكنّهما كانا يضيئانها بوهج الحبِّ. لم يلتقيا خمسة أيّام. وثمَّة أشياء كانت تحدث منذ أسابيع عديدة، عكَّرتْ صفو لقاءاتهما الحميمة. كان إيشيمي يحسُّ بشيء خطير يلفَّهما كغمامة ثقيلة، لا تلبث أن تبدِّدها ألما، وهي تتَّهمه بالانجراف وراء تيَّار الغيرة الهدَّام. لم يألفها إيشيمي قلقة على هذا النحو، تتحدَّث كثيرًا وبسرعة كبيرة، وفي غضون دقائق قليلة يتعكَّر مزاجها، فتنتقل من الغنج والمداعبة إلى الانصهار في بوتقة صمت رهيب، أو تنفجر غاضبةً من دون سبب يُذكر. كان متأكِّدًا من أنَّها باتت تبتعد عن الحبِّ رويدًا

رويدًا، على الرَّغم من أنَّ عشقها الجيَّاش وهيجانَها العنيفَ للوصول إلى هزَّة الجماع مرَّة بعد مرَّة، كانا يثبتان عكس ذلك. أحيانًا، في ساعة الاستراحة من الجماع، كان يحسّ بوجنتيها مبلَّلتين. «*إنَّها دموع الحبّ*»، قالت له. بيد أنَّ إيشيمي الذي لم يسبق أن رآها تبكي، أوجس في نفسه خيفة، وأيقن أنَّها دموعُ الاستياء، مثل كلّ الحركات الجنسيَّة التي كانت تقوم بها، والتي تراءت له محاوَلَةً لصرف نظره عنها. كان يحاول بتحفُّظه الشديد أن يكتشف ما ألمَّ بألما، لكنَّها كانت تردّ على أسئلته بابتسامة ساخرة، وإغراءات مومس، وهي أمور كانت تضايقه، على الرَّغم من أنَّها كانت مزاحًا. كانت ألما تفرّ وكأنَّها سحليَّة.

في الأيَّام الخمسة من الغياب، الذي برَّرتْه ألما بالخروج في رحلة سفر مع العائلة إلى لوس أنجلوس، دخل إيشيمي في فترة من فترات عزلته الكئيبة. وخلال هذا الأسبوع، واصل حرثَ الأرض، وزرعَ الورود بتفانيه المعتاد، غير أنَّ حركاته كانت تنمُّ عن حالة شرود تامٍّ. لم تشأ والدته، التي تعرفه أفضل من غيرها، طرح الأسئلة، وحملتْ بنفسها محصولَ الورود لتبيعه في محالّ الورود في سان فرانسيسكو. استسلم إيشيمي، وهو يشتغل في صمت وتؤدة ـ منحنيًا على النباتات، والشمسُ تلفح ظهره ـ لهواجسه التي قلَّما تخطئ، لمحته ألما من خلال الضوء الخافت المنبعث من بين ثنايا الستائر، وأحسَّت من جديدٍ بتأنيب الضمير. وفي لحظة وجيزة، كرهتْ هذا الرجلَ الذي يجبرها على مواجهة الجانب الحقير من شخصيَّتها. لكنْ سرعان ما كانت تداهمها موجةُ الحبِّ والشهوة التي تغمرها كلَّما كانت في حضرته. كان إيشيمي واقفًا بمحاذاة النافذة، ينتظرها، برباطة جأشه الثابتة، وبتواضعه وحنانه المرهف، وقسمات وجهه الصارمة. ذاك هو

إيشيمي بجسده الخشبيِّ، وشعره المجعَّد، وأصابعه الخضراء، وعينيه اللتين يتدفَّق منهما سيلُ الحنان، وضحكته النابعة من أعمق نقطة في كيانه، وطريقته في ممارسة الجنس، وكأنَّه يُجامعها لآخر مرَّة. لم تستطع النظر إلى وجهه، ودخلتْ عمدًا في نوبة من السعال الحادِّ لتخفي القلقَ الذي كان يعتصرها من الداخل. «*ما الذي يحدث، ألما؟*» سألها إيشيمي من دون أن يلمسها. آنذاك، ألقت على مسمعه الخطابَ الذي أعدَّته بعناية مرتجلة، وأخبرته كيف أنَّها أحبّته بكلِّ جوارحها، وستظلّ تعشقه ما بقيت حيّةً على وجه الأرض، لكنّ هذه العلاقة تنقصها رؤيةٌ مستقبليّة؛ إنّها علاقة محكوم عليها بالفشل. واسترسلتْ: إنَّ العائلة والأصدقاء باتوا يشكُّون في الأمر، ولا يتوقَّفون عن طرح الأسئلة. وأكّدت له أنّهما ينحدران من عالمين مختلفين، وأنّ كلّ واحد منهما يجب أن يتقبَّل قَدَرَه ومصيره. وأنهت حديثها بقرارها متابعةَ دراسة الفنِّ في لندن، وأنَّه قد حان وقتُ الانفصال.

تلقَّى إيشيمي القصفَ المدفعيّ بحزم رجلٍ كان مستعدًّا لهذا اليوم. ساد صمت طويل أعقب كلمات ألما، التي تخيّلت أنَّ اللحظة مناسبةٌ لممارسة الجنس الأخيرة، كلحظة وداع ملتهبة، وكآخر هديّة للمشاعر، قبل ضربة المقصّ النهائيّة، القاضيةِ على الشهوة الجامحة التي ترعرعت فيها منذ المداعبات الجارفة التي كانا يتبادلانها في حديقة سي كليف أيَّام طفولتهما. همّت بفكِّ أزرار قميصها، بيد أنّ إيشيمي أوقفها بحركة من يده.

- أفهمْ ما تعنيه، ألما. قال لها.

- سامحني، إيشيمي. لا يمكنك أن تتصوَّر كم من الحماقات تبادرتْ إلى ذهني، لأحتفظ بك إلى جانبي. فمثلًا، يجب أن يكون لدينا مأوًى لنتحابّ فيه بدلًا من هذا النزل المقرف، لكنّني أعلم بأنّ

الأمر مستحيل. لم أعد أستطيع تحمُّلَ عبء هذا السرِّ، إنَّه يدمِّر أعصابي. يجب أن ننفصل إلى الأبد.

- إلى الأبد؟ هذا كثير يا ألما. أعتقد أنَّنا سنعود للقاء ثانيةً في ظروف أخرى، أفضل، وفي دنيا أخرى.

ذكر لها إيشيمي ذلك، وهو يحاول عبثًا الحفاظ على اتِّزانه. غير أنَّ الحزن والأسى طفحا بقلبه، وتقطّع صوته. تعانقا طويلًا، كيتيمين للحبِّ. أحسَّت ألما بوهنٍ في ركبتيها، وكانت على وشك أن تنهار على صدر عاشقها القويّ، لتعترف له بكلٍّ ما يدور في جوارحها حتى أبعد نقطة من ضعفها، وتتوسَّل إليه بأن يتزوَّج بها ويعيشا معًا في كوخٍ يسهران فيه على تربية أبناء من دمٍ وأنسابٍ مختلطة. كانت على وشك أن تَعِدَه بأن تكون زوجةً صالحةً تمتثل لكلِّ أوامره، وأنَّها ستتنازل عن الرسم على الحرير وعن ترف سي كليف وبذخها، وعن المستقبل الواعد الذي كانت مهيَّأةً له منذ ولادتها، وأنَّها باستطاعتها أن تتنازل عن أشياء أخرى أكثر، فقط من أجله، ومن أجل هذا الحبِّ الفريد من نوعه الذي يجمعهما. ربَّما تخيَّل إيشيمي كلّ هذا الخطاب! أراد أن يريحها من هذا العذاب بقبلة بريئة وقصيرة فوق شفتيها. رافقها إلى الباب، ومن هناك إلى سيَّارتها. قبّلها مرَّةً أخرى فوق جبينها، واتَّجه نحو حافلة البستنة، من دون أن يدير رأسه لإلقاء نظرةٍ أخيرة.

١١ يوليو ١٩٦٩

لا يمكن أن ندير ظهرَيْنا لحبِّنا، يا ألما. كنت أعلم ذلك دائمًا. لكنَّني، ولسنوات عدَّة، ثُرتُ على هذا الوضع، وحاولتُ أن أنتشلكِ من أفكاري، بعدما أخفقتُ في نزع شوكتك المغروسة في فؤادي. حينما تَخَلَّيتِ عنّي بلا أسباب، لم أفهم الأمر، وأحسستُ بخيانة كبيرة. لكنْ خلال زيارتي الأولى لليابان، هدَّأت الأيَّامُ لوعتي ولهفتي، وانتهى بي الأمرُ إلى تقبُّل فكرة أنَّني فقدتُكِ في هذه الحياة. توقَّفتُ عن التخمين في المصير الذي واجهنا، ولم أعد أنتظر أن يجمعنا القدرُ مرَّةً أخرى. الآن، وبعد مرور أربع عشرة سنةً من الفراق، أربع عشرة سنةً من دون أن أنساكِ يومًا واحدًا، أدركتُ أنَّنا لن نكون يومًا زوجين. بيد أنَّنا، في المقابل، لا يمكن أن ننسلخ من جلد الحبِّ العنيف الذي لبسناه دومًا. أدعوكِ إلى أن نعيش قصَّتنا في فقّاعة، نحميها من خدوش العالم، ما بقي لنا من الحياة، وما بعد الممات. فبقاءُ الحبّ خالدًا بيننا رهينٌ بنا نحن، وبمدى استعدادنا لذلك.

إيشي

أفضل الأصدقاء

تزوَّجتْ ألما ميندل وناتانيل بيلاسكو في حفل عائليٍّ مصغَّر في حديقة سي كليف، في يوم كان دافئًا ومشرقًا في البداية، ثم راحت درجاتُ الحرارة تنخفض، واكتسى الجوُّ رداءً مظلمًا بسبب مرور غمامٍ لم يكن في الحسبان، بعكس حالة العروسيْن النفسيَّة. كانت تبدو على ألما هالاتٌ بلون الباذنجان، لم يغمض لها جفن طوال الليلة الماضية، وكانت تتخبَّط في بحر من الشكوك. وما إن رأت الحاخام، حتى هرولتْ إلى الحمَّام، من أثر الرعب الذي طاولَ أمعاءَها. غير أنَّ ناتانيل رافقها، وساعدها في غسل وجهها بالماء البارد، وأقنعها بالاتِّزان، وبمحاولة الظهور بوجه بشوش: «*لستِ وحدكِ في هذا، ألما، أنا معك وسأظلّ إلى جانبك دومًا*»، وعدها. وافق الحاخام، وهو الذي كان يعارض بشدّةٍ زواجَ الأقارب، على الوضع، بعد أن فسّر له إسحاق بيلاسكو، وهو العضوُ الأكثر نفوذًا داخل طائفته، حالة ألما، مؤكِّدًا له أنَّ حلَّ الزواج لا مفرَّ منه، وأوضح له أنَّ هذين الشابَّين كانا يتحابَّان منذ طفولتهما، وأنَّ هذا الحبَّ تحوَّل إلى عشق

بعد عودة ألما من بوسطن. واستطرد قائلًا إنَّ مثل هذه الأحداث واردة، فهذه هي الطبيعة البشريَّة؛ وأمام ما حدث، لم يعد من خيار سوى تزويجهما. أمَّا مارتا وسارة، فقد خطر في بالهما أن يختلقا قصَّةً لإخراس الإشاعات المغرضة، كأن يقولا مثلًا إنَّ عائلة ميندل في پولندا تبنَّت ألما، وبالتالي لا تربطهما علاقة دم؛ لكنَّ إسحاق عارض الأمر، مؤكِّدًا أنَّه لا يمكن تغطية الزلَّة الكارثيَّة بكذبة بشعة مثل هاته. بيد أنَّه كان سعيدًا في أعماقه، سعيدًا بزواج أحبّ شخصيْن إلى قلبه، بعد زوجته. كان يفضِّل ألف مرَّة أن ترتبط ألما بناتانيل لتظلّ ملتصقةً بعائلته، عوضًا عن أن تتزوَّج بغريب وترحل لحال سبيلها. وكانت ليليان قد أكَّدتْ له أنَّ أطفال الزنا يولدون بإعاقات، لكنَّه أوضح لها أنَّ هذا تطيُّر شعبيٌّ لا أساس له من الصحَّة سوى في الأوساط المنغلقة التي لها تاريخ طويل في الزواج بالأقارب، وأنَّ حالة ناتانيل وألما مغايرة تمامًا. بعد الاحتفال، الذي لم تَحْضره إلَّا العائلة، والمتصرِّفُ القضائيّ، وموظَّفو الإقامة، وُضع العشاءُ الرسميُّ لكلِّ الحاضرين في غرفة الطعام، التي تُستعمل في المناسبات المهمَّة فقط. جلست الطبَّاخة ومساعدها، والشغَّالات والسائق، حول المائدة بكلِّ حياء، برفقة رؤساء عملهم، وتلقَّوا خدمات شُبَّان إرنيز (Ernie's)، وهي شبكة مطاعم رفيعة في المدينة. خطرت هذه المبادرة في بال إسحاق ليُخبر الجميع، بشكل رسميّ، بأنَّ ألما، انطلاقًا من اليوم، قد أصبحتْ زوجةَ ناتانيل. فبالنسبة إلى العاملين في البيت، لم تكن ألما وناتانيل سوى شخصين ينتميان إلى العائلة نفسها، وبات من العسير التأقلم مع الوضع الجديد. وعليه، كانت هناك خادمة حديثة العهد بالعمل مع عائلة بيلاسكو، تظنُّ العروسين أخويْن من صلب واحد، إذ لم يخطر في بال أحد ـ حتى ذلك اليوم ـ أن يخبرها بأنَّهما ابنا خالة.

جرت مراسيم العشاء في صمت رهيب، كلّ العيون كانت مركّزة في الصحون، والكلّ غير مرتاح، إلى أن قدَّم النُّدل النبيذ، وحثّهم إسحاق على أن يشربوا نخب العروسين. كان إسحاق في سعادته ونشوته يملأ قدحه وأقداحَ من يحيطون به، وكان يبدو صورةً مطابقةً لشيخ في منتهى حيويَّته. أمَّا ليليان، التي كانت تقلق كثيرًا بشأن حالته الصحِّيَّة، فكانت تخشى أن يخذله القلبُ في هذه اللحظات، فراحت تجذب سرواله من تحت المائدة ليهدأ قليلًا. وأخيرًا، قطع العروسان قالب حلوى القشدة وعجينة المرزبان بالسكّين الفضِّيّ نفسه الذي استعمله إسحاق وليليان في حفلة زفافهما منذ سنوات خلت. بعدها، ودّعا الكلّ وغادرا في سيَّارة أجرة، لأنَّ سائق العائلة كان ثملًا، يتباكى وهو يدندن بالأيرلنديَّة، لغتِهِ الأمّ.

أمضيا ليلتهما الأولى في جناح العروسين داخل فندق بلاس، الذي كانت ترتاده ألما من قبلُ لحضور دروس الرقص. وضع القيِّمون على الجناح قناني الشمپانيا، والحلويات، والورود. كان مبرمجًا أن يخرجا في اليوم الموالي في رحلة إلى نيويورك، ومن هناك إلى أوروپا لقضاء أسبوعين، وهي رحلةٌ فرضها عليهما إسحاق خلافًا لرغبتيهما. كانت في عهدة ناتانيل قضايا عالقة، ولم يشأ مغادرة المكتب، لكنَّ أباه اقتنى التذاكر ودسّها في جيبه، وأقنعه بالسفر بحجَّة أنَّ شهر العسل تقليد عائليّ قديم ومتوارث، وأنَّ الإشاعات عن هذه الزيجة المتسرِّعة بين أبناء الخالة قد راجت بما فيه الكفاية، ولا يتَّسع المجال لإشاعات أخرى. خلعتْ ألما ملابسَها في الحمَّام وعادت إلى الغرفة بقميص وغلالة حريريَّة مطرَّزة، اقتنتها ليليان بسرعة فائقة مع باقي جهاز العروس، فاستدارت أمام ناتانيل الذي كان ينتظرها بملابسه، جالسًا فوق كرسيٍّ في مؤخّرة السرير.

ـ تأمّل جيِّدًا، نات، لأنَّك لن تجد فرصة أخرى لتحبّني. انظر كيف انحصر القميص على خاصرتي. لا أظنّني سأستطيع ارتداءه مرَّة أخرى.

تحسَّس زوجها ارتعاشة صوتها، التي لم يخفِها تعليقُها المنمّق، فدعاها إلى الجلوس إلى جواره بضربة خفيفة من راحة يده على الكرسيّ.

ـ لا أُمنِّي نفسي بشيء، ألما. لا أعرف كيف أفسِّر لك الأمر.

ـ قد تكون حياتك مليئةً بالنساء. لا أدري لماذا لم تُعرِّفني إلى أيِّ واحدة منهنّ. على الرّغم من أنّك وعدتني يومًا بإشعاري فور سقوطك في حبال الحبِّ. بعد الولادة، سنسارع إلى الطلاق، وستكون حرًّا.

ـ لم أتنازل عن قصّة غراميّة كبيرة بسببكِ يا ألما. ولا يروق لي البتّة أن تحدِّثيني عن الطلاق في ليلة الدخلة.

ـ لا تسخر منِّي، نات. قل لي الحقيقة. أتحسُّ بالانجذاب نحوي؟ أعني كامرأة؟

ـ دائما، وإلى هذه الساعة. كنتُ أعتبرك أختي الصغرى. ربّما يتغيّر الوضع مع التعايش والاحتكاك اليوميّ. أترغبين في دخول غمار التجربة؟

ـ لا أدري. أنا محتارة جدًّا. حزينة وساخطة. رأسي مليء بالمشاكل، وفي أحشائي ولد. لم تحسن الصُّنع بزواجك منِّي. هذا مشروع فاشل.

ـ لا يمكننا إصدارُ أحكام مسبّقة، لكنْ أودّ أن تتأكّدي من أنّني سأكون أبًا ممتازًا، للولد أو للبنت.

ـ ستكون للمخلوق قسمات آسيويّة، نات! كيف سنفسِّر هذا؟

ـ لسنا مجبرِيْن على تقديم شروحٍ لأحد، ولن يتجرّأ أحد على السؤال، يا ألما. يجب أن نمشي بخطًى واثقة، وبناصيةٍ عالية، وشفتين مطبقتين. هذه أفضل طريقة. الشخص الوحيد الذي له حقّ السؤال هو إيشيمي فوكودا.

ـ لن أعود إلى رؤيته، نات. شكرًا جزيلًا. ألف شكر لكلِّ ما تصنعه من أجلي. أنت أروعُ إنسان في العالم، وسأحاول أن أكون الزوجة المثاليّة التي تستحقّها. منذ أيّام، كنت أفكِّر في أنَّ الحياة مستحيلة من دون إيشيمي. لكنّني الآن، بفضل مساندتك، سأعيش حتمًا. لن أخذلك أبدًا. سأكون وفيّة لك، وأقسم لك بذلك.

ـ صه، ألما. لن نضرب وعودًا قد نخْلفها يومًا. سنسير في الدرب معًا، خطوةً خطوةً، يومًا بعد يوم، وبنيّة حسنة. هذا هو الوعد الوحيد الذي يجب أن نتعاهد عليه.

رفض إسحاق بيلاسكو رفضًا تامًّا فكرةَ عيش الزوجين في مسكن مستقلّ، لأنّ المنزل في سي كليف كان واسعًا جدًّا، وكانت النيّة من وراء بناء منزل بهذه الأبعاد تكمن أساسًا في لَمّ شمل الأجيال المتعاقبة تحت سقف واحد. ناهيك بأنّ ألما كانت في وضعيّة خاصّة، وتحتاج إلى عناية ليليان وبنات خالتها وصحبتهنّ، ولن تستطيع وحدها تحمُّل أعباء البيت. وكي يزيد في قوّة تأثيره فيهما، استعمل ورقة المشاعر: كان يودّ أن يُمضي معهما ما تبقّى له من أيّام، وأن يرافقا ليليان في ترمُّلها بعد رحيله.

وافق ناتانيل وألما على قرار الأب، واستمرّت ألما في النوم في غرفتها الزرقاء التي شهدتْ تغييرًا طفيفًا واحدًا، تمثّل في تغيير فراشها

واستبداله بسريرين تفصلهما منضدةٌ صغيرة. أمَّا ناتانيل، فقد باع شقَّته في نتهاوس وعاد إلى بيت العائلة، وجلب معه إلى غرفته مكتبًا، وكتبًا، وأشرطةَ موسيقى، وأريكة. كان جميعُ مَنْ في البيت يعلم بأنَّ برنامج الزوجين اليوميّ لا يسمح بالحميميَّة بتاتًا: فهي تستيقظ دائمًا في منتصف النهار، وتذهب باكرًا لتنام؛ أمَّا هو، فكان يشتغل ويكدّ مثل عبيد السفن الشراعيَّة، ويصل متأخِّرًا من عمله، فينكبّ على مطالعة كتبه والاستماع إلى الأغاني الكلاسيكيَّة، ثم ينام متأخِّرًا، ويغمض جفنيه ساعات قليلة فقط، وفي الصباح يخرج قبل أن تستيقظ ألما. وفي أيَّام نهاية الأسبوع، كان يلعب كرة المضرب، أو يصعد إلى جبل تمالبايس (Tamalpais) لممارسة رياضة المشي. كان يخرج كذلك في نزهة عبر الخليج على متن قاربه الشراعيّ، فيعود إلى البيت محترقًا بأشعَّة الشمس الملتهبة، وهو يتصبَّب عرقًا. ولاحظ أهل البيت كذلك أنَّه يقضي لياليه دائمًا فوق أريكة مكتبه، فظنُّوا أنَّ المسألة لها علاقة بحاجة ألما إلى الراحة. كان ناتانيل متيقِّظًا كثيرًا مع ألما، وكانت حياتها رهينةً به. كانت تسود بينهما أجواءُ الثقة والدعابة المتبادلة التي تثير شكوكًا في نفسيَّة ليليان وحدها.

ـ كيف تسير الأمور بينكِ وبين ولدي؟ سألتْ ألما في الأسبوع الثاني من وجودهما في بيتها، بعد عودتهما من شهر العسل، وحين كان الحَمْل في شهره الرابع.

ـ لِمَ السؤال، يا خالتي ليليان؟

ـ لأنَّ علاقتكما تثير استغرابي، فما زلتما تتحابَّان مثل الأمس القريب. كلّ زواج من دون عاطفة جيَّاشة هو كالطعام بلا ملح.

ـ أتريدين أن نُظهر عشقنا للملأ؟! ضحكت ألما.

ـ إنَّ حبِّي لإسحاق هو أجمل شيء في حياتي، ألما. أُثَمِّنه أكثر

من الأبناء والأحفاد. وهذا ما أتمنَّاه لكما: أن تعيشا متحابَّين مثلي ومثل إسحاق.

ـ ومن قال لك إنَّنا لسنا كذلك، خالتي ليليان؟

ـ أنتِ الآن في أحسن فترة من الحمل، ألما. فما بين الشهر الرابع والشهر السابع تكون المرأة أكثر قوَّةً وحيويَّةً وشهوة. الحقيقة أن لا أحد يتحدَّث عن هذا، حتى الأطبَّاء أنفسهم لا يشيرون إلى هذا الأمر. هكذا على الأقلِّ كنت أحسّ وأنا أنتظر أطفالي الثلاثة: كنتُ لا أملّ من مطاردة إسحاق. يا لها من فضيحة! وهذا ما دفعني إلى سؤالك؛ فأنا لا أرى هذا النوع من الحماسة بينك وبين ولدي ناتانيل.

ـ كيف لك أن تعرفي ما يجري في غرفتنا المغلقة؟

ـ لا تُجيبيني بأسئلةٍ أخرى، ألما.

في الضفَّة الأخرى لخليج سان فرانسيسكو، كان إيشيمي يغرق يومًا بعد يوم في بحر من الصمت الكئيب، ويتدبَّر أحوال هذا الحبِّ المغدور. فلم يجد من حلٍّ سوى الانكباب على عمله على الورود، التي أزهرتْ وفاحت أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، فآنسته في وحدته، وواسته في حرقته. علم بزواج ألما وناتانيل من أخته ميگومي التي تصفَّحت يومًا مجلَّةً في صالون الحلاقة، ورأت في الشقّ المخصَّص للحياة الاجتماعيَّة صورةً لألما وناتانيل بلباس الحفل، يترأَّسان الوليمة السنويَّة لمؤسَّسة العائلة. كان التعليق على الصورة يشير إلى أنَّ الزوجين عادا لتوِّهما من شهر العسل في إيطاليا، ويصف الحفل الرائع، ويشيد بفستان ألما الأنيق، بتصاميم مستوحاة من عباءات الإغريق القدامى. وبحسب المجلَّة، فقد كان الزوجان يمثِّلان الحدثَ، وحظيا باهتمام الصحافة والإعلام. ميگومي، ومن غير أن تعلم بأنَّها

ستغرس خنجرا في صدر أخيها، اجتثّت الصفحة من المجلّة وأخذتها إليه. تفرّس إيشيمي في الصورة بكلّ برودة. منذ أسابيع عديدة، كان يحاول عبثًا أن يفهم ما كان يجري في تلك الشهور برفقة ألما في نُزُل العشق المبالغ فيه. كان يظنُّ أنّه خاض تجربةً هائلة، قصّةَ حبٍّ تستحقّ أن يتحدّث عنها الأدب، لقاءَ روحين أبحرتا عبر الزمن؛ لكنْ حين كان يعانق هذه المُسلّمة الرائعة، كانت ألما تفكّر في الزواج من آخر. الخيانة كانت عظيمة، لا تسع صدرَه، وتُزكم أنفاسَه. الزواج في محيط ألما وناتانيل يُعتبر استراتيجيّة اجتماعيّة واقتصاديّة وعائليّة، أكثر ممّا هو التحامُ شخصين. ويستحيل أن تكون ألما في فترة التحضير لزواجها ولا تُعربَ في لحظة من اللحظات عن نيّاتها. الأمور كانت واضحة منذ البداية، لكنّه كان أعمى وأصمّ، فلم ينتبه لأيِّ شيء. الآن فقط، يمكنه تشبيكُ الخيوط، وفهمُ الارتباك الكبير الذي كانت تتخبّط فيه ألما في الآونة الأخيرة. الآن، اتّضحت عنده الرؤية، واستوعب تقلُّباتِ ألما، وتلعثمَها، وأساليبَها المراوغة لتفادي الأسئلة، وصَرْفَ نظره بما أتيحت من قوّة، وممارستَها الجنسَ بنوع من التشنُّج ومن دون أن تنظر إلى عينيه. صرحُ الخيانة كان مكتملا، وسلسلةُ الأكاذيب متجذِّرة، وحجمُ الضرر جسيم جدًّا، إلى درجة اقتناعه بفكرة أنّ ألما الحبيبة لم تكن موجودة يومًا، وأنّ وجودها كان من صنيع أحلامه.

ضاقت الأرض بما رحبتْ على هايكيدو التي ملّت من رؤية ولدها شاردًا تمامًا، وفكّرتْ في أنّ الوقت قد حان لاصطحابه إلى اليابان ليتعرّف إلى جذوره، وتزويجه إنْ حالفه الحظُّ في العثور على زوجة؛ فالسفر سيخفِّف حتمًا العبء الثقيل الذي أنهك كاهله، والذي كانت تجهل سببه، وكذلك أخته ميگومي. كان إيشيمي صغيرَ السنِّ بالنظر إلى مسؤوليّات الزواج، بيد أنّه كان يملك نضج الكهول. لذا فكّرتْ

هايكيدو في أنَّ الفرصة سانحة للتدخُّل العاجل واختيار الكنّة المناسبة، قبل أن تسيطر على ولدها العادةُ الأميركيَّةُ السيِّئةُ بالزواج من سراب الحبِّ. كانت ميگومي منكبّة على دراستها، وعلى الرَّغم من ذلك، فقد وافقتْ على الإشراف على أشغال بعض المواطنين من بني جلدتها، الذين تمَّ التعاقد معهم لإدارة مشروع الورود خلال فترة السفر. آنذاك، خطر في بالها أن تطلب من بويد أندرسون، كعربون أخير عن الحبِّ، أن يتخلَّى عن كلّ شيء في هاواي، وينتقل إلى مارتينيث لغرس الورود. كانت هايكيدو مصرّةً على عدم نطق اسم العاشق الولهان، وكانت دائمًا تشير إليه بعبارة حارس المعتقل. وبقيت كذلك خمس سنوات أخرى، إلى أن ازدان فراشُ ابنتها بمولود، أطلقا عليه اسم شارل أندرسون، ولد ميگومي وبويد. آنذاك، وجَّهت الكلمة إلى الشيطان الأبيض.

رتَّبتْ هايكيدو برنامج السفر من غير أن تستفسر إيشيمي عن رأيه في الأمر، وأعلنت له أنَّ من الواجب الوفاء بالعهد، والذهاب لتشريف أجداد طاكاو بالزيارة، مثلما وعدته بذلك في فترة احتضاره، ليرتاح في قبره. لم يستطع طاكاو في حياته السفر. وأوضحت له أنّ مسؤوليّة الحجّ الآن تقع عليهما. أخبرته بأنّه يجب زيارة مئة معبد لتقديم القرابين، ونثرِ كمِّيّةٍ قليلةٍ من رماد طاكاو هناك. لم يعارض إيشيمي قرار والدته، لأنَّ الأمر في قرارة نفسه بات عنده سيَّان، فلم يعد يهمُّه المكان أيًّا يكن. فالجغرافية لن تغيِّر أبدًا عمليّات التطهير الداخليّ التي استهلّها.

حين وصلا إلى اليابان أخبرته هايكيدو بأنَّ مسؤوليّتها الأولى ليست مع زوجها الميِّت، بل مع والديها المسنَّين إن كانا لا يزالان على قيد الحياة، ومع إخوانها الذين لم ترهم منذ سنة ١٩٢٢. لم

تطلب من إيشيمي مرافقتها، بل ودَّعته بكلِّ بساطة، كما لو أنَّها ذاهبة للتسوُّق، ولم تكترث للكيفيَّة التي سيتدبَّر بها أمره. أودع إيشيمي والدته كلّ المال الذي كان في حوزتهما، ورحلت في القطار على مرأى عينيه. تخلَّى إيشيمي عن حقيبته في المحطَّة، وراح يمشي حاملًا فرشاة الأسنان، وكيسًا مطَّاطيًّا يحوي رمادَ والده. لم يكن يحتاج إلى خريطة طريق، لأنّه حفظ مسلكه عن ظهر قلب.

لم يتوقَّف عن المشي خلال اليوم الأوّل، بل كان يسير بمعدة خاوية. وبحلول الظلام، كان يقصد معبدًا للشنتويَّة، يهوي فيه على جدار، ويستسلم للنعاس رويدًا رويدًا. وبينما هو كذلك في أحد الأيَّام، اقترب منه أحدُ القساوسة ليخبره بأنّ في المعبد شايًا وبسكويتًا من عجين الأرز يُقدّم طعامًا للحجيج.

هكذا صارت حياتُه في الأشهر الأربعة الموالية: يمشي النهار كلَّه إلى أن ينهكه التعب، يصوم ولا يفطر إلَّا بعد أن يعطيه أحدهم طعامًا، ينام حيثما يدركه الليل. لم يتسوَّل يومًا لأحد، ولم يكن محتاجًا إلى المال. كان يحجّ بنفس راضية مطمئنّة، يستمتع بمناظر الطبيعة الخلّابة، ويتلذّذ بتعبه الذي كان يستأصل به مرارةَ ذكرى حبيبته ألما. وحينما أعلن عن نهاية مهمّته بزيارة مئة معبد، كان محتوى الكيس البلاستيكيّ قد نفد، وشُفيتْ نفسُه من المشاعر المظلمة التي كانت تداهمه في بداية رحلته.

٢ أغسطس ١٩٩٤

ما تعلّمتُه من رحلات الحجّ هو العيش في المجهول. بلا أمن ولا أمان، بلا برنامج ولا أهداف. فصرتُ مثل الطائر الذي يَتلاطمه الهواءُ والنسيم. أتعجبين من أمر رجلٍ في الثانية والسبعين من عمره، ما زال يستطيع الخروج للسير بين يوم وليلة بلا هدف ولا عناد، مثل من يقف على قارعة الطريق في انتظار الأوتوستوب؟! أتستغربين من رحيلي زمنًا غير محدَّد من دون أن أتّصل بك أو أُكاتبك، وتعجبين لأنَّني لا أستطيع أن أقول لك أين كنت؟! لا سرَّ هناك، ألما. إنَّها رحلة المشي فقط. هذا كلّ ما في الأمر. أحتاج إلى القليل كي أعيش. إن لم أقل تقريبًا لا شيء. آه، على الحرِّيَّة!

أنا ذاهب، لكنَّك حاضرة دائمًا في ذكرياتي.

إيشي

الخريف

ذهب ليني بيل للبحث عن ألما في شقَّتها في *لارك هاوس*، في اليوم الثاني من غيابها عن الموعد المضروب على مقعد الحديقة. فتحتْ له إيرينا التي ذهبتْ لمساعدتها في ارتداء ملابسها، قبل أن تسرع إلى عملها في *لارك هاوس*.

ـ انتظرتُكِ طويلًا، ألما. لقد تأخَّرتِ كثيرًا، قال لها ليني.

ـ الحياة قصيرة، وليس من السهل أن نكون دائمًا منضبطين، أعقبتْ ألما بتنهيدة.

كانت إيرينا، ومنذ أيَّام، تصل باكرًا إلى شقَّة ألما لتقديم وجبة الفطور إليها، ومراقبتها ساعةَ الاستحمام، ولتساعدها على اللباس، من دون أن تُشيع أيٌّ منهما الخبرَ، لأنّ هذا يعني أنَّ ألما لم تعد تستطيع العيش من غير مساعدة، وهو ما يؤهِّلها للانتقال إلى الطابق الثاني، أو العودة إلى سي كليف للعيش بين أفراد أسرتها. كانا يفضِّلان اعتبار هذا الوهن المفاجئ، وعكةً موقّتةً. طلب سيت من إيرينا أن تتخلّى عن

عملها في *لارك هاوس*، وأن تترك غرفتَها التي كان يلقِّبها بجُحْر الفئران، وتأتي للعيش معه بصفة نهائيَّة. بيد أنَّها لم تشأ سحب قدميها من بيركلي على الإطلاق خشيةَ الوقوع في الاتِّكال على الآخر؛ وهذه مسألة كانت تقضُّ مضجعها، تمامًا مثلما كانت تقلق ألما من الانتقال إلى الطابق الثاني من *لارك هاوس*. وحينما حاولت شرح الموقف لـ سيت، أشعرتْه بالإهانة من هذه المقارنة.

أثّر غيابُ نيكو في ألما كثيرًا، وكأنها أصيبت بسكتة قلبيَّة، فبات صدرها يوجعها كثيرًا. كان القطّ يتراءى لها في كلّ لحظة في صورة مخدّة على الأريكة؛ في زاوية السجَّادة المنكمشة؛ في معطفها الذي لم تعلِّقه جيِّدًا؛ في ظلٍّ شجرة على النافذة. كان نيكو أمينَ سرِّها ثماني عشرة سنة. وحتى لا تتحدَّث مع نفسها، كانت تتوجَّه دائمًا إليه بالكلام، متيقِّنة من أنَّه لن يُجيبها، لكنّه سيفهمها بمنطق القطط. كانت طباعهما متشابهة: فكلاهما كان متعجرفًا، وكسولًا، ويميل إلى الوحدة. لم تكن تحبُّ دمامته كحيوان عاديّ فحسب، بل كانت تعشق أيضًا رؤيةَ آثار السنين عليه: من قشور على الجلد، وذيلٍ منحنٍ، وعينين معمّشتيْن، وكرشٍ مترهِّلة. اشتاقت إليه في السرير، وبات من العسير الاستسلامُ للنوم من دون الإحساس بثقل نيكو على ضلوعها أو عند قدميها. هذا الحيوان كان هو الوحيد الذي يحظى بمداعبتها إلى جانب كيرستين. كانت إيرينا تحبُّ أن تفعل ذلك معها، تتمنّى أن تدلِّكها، وتغسل لها شعرها، وتقلِّم لها أظافرها. . خلاصة القول، كانت تودُّ العثور على طريقة للتقرُّب من ألما جسديًّا، ومنحها الإحساس بأنَّها ليست وحدها. بيد أنّها كانت ترفض الحميميَّة بتاتًا. بالنسبة إلى إيرينا، كان هذا النوع من الاتِّصال الجسديّ مع مُسنّات *لارك هاوس* أمرًا طبيعيًّا. ورويدًا رويدًا، باتت تشتهيه مع سيت. كانت

تحاول التخفيف من غياب نيكو بوضع كيس من الماء الساخن بين ثنايا سرير ألما، لكنَّ هذه الطريقة السخيفة لم تزد الوضع إلَّا تأزُّمًا. وإزاء هذا الواقع، اقترحتْ عليها إيرينا الذهابَ إلى جمعيَّة المحافظة على الحيوان للحصول على قطٍّ آخر. أوضحتْ لها ألما أنَّها لا تستطيع تبنِّي حيوان سيعيش أكثر منها. نيكو كان هو قطَّها الأخير.

في ذلك اليوم، كانت صوفيا، كلبةُ ليني، تنتظر عند عتبة الباب، مثلما كانت تفعل حينما كان نيكو على قيد الحياة: تدافع عن محيطها، وتضرب الأرضَ بذيلها، إزاء أيِّ محاولة للخروج إلى التنزُّه. بيد أنَّ ألما كانت منهكة بسبب الجهد الذي بذلته في ارتداء ملابسها، فلم تستطع الوقوف. «أنتِ في أيدٍ أمينة، ألما» ودَّع إيرينا. عاين ليني، بقلق، التغيُّرات التي ألمَّت بمظهر ألما، وبشقَّتها التي كانت تفوح منها رائحةُ البخور والياسمين المتعفِّنة.

ـ ما الذي ألمّ بكِ يا صديقتي؟

ـ لا شيء يبعث على القلق. ربَّما ثمَّة مشكلة في أذنيَّ، ولهذا أفقد توازني. أحيانًا، أُحسّ بنهيم الفِيلة في صدري.

ـ ماذا يقول طبيبُكِ؟

ـ لا أريد. لا أطبَّاء، ولا تحاليل، ولا مستشفيات. هذه دوَّامة، إذا دخل المرء فيها فلن يخرج أبدًا. ولن أحدِّثك عن أفراد عائلة بيلاسكو؛ سيقيمون الدنيا ويقعدونها!

ـ لن يخطر في بالك أن تموتي قبلي. تذكَّري اتِّفاقنا. لقد جئتُ إلى هنا لأموت بين ذراعيكِ، لا العكس، مازحها ليني.

ـ بالطبع، لم أنسَ. والأمور ليست بأيدينا. فإن لم أنجح في الوفاء بالعهد، فعليكَ بكاتي.

هذه الصداقة التي تمَّ اكتشافُها مؤخَّرًا، وتذوُّقها كنبيذ معتَّق، أضفت على واقعهما، الذي بات يفقد بريقَه، حيويَّةً ونورًا مشعًّا. كانت ألما ميَّالة بطبعها إلى الوحدة، حتى إنَّها لم تنتبه يومًا لهذه الوحدة. فقد عاشت في كنف عائلة بيلاسكو، تنعم بحماية أخوالها، في حضن إقامة سي كليف المنيفة، التي كان يدير شؤونَها آخرون ـ حَماتُها، القهرمان، وكنّتها ـ فكانت تحيا هناك وكأنَّها ضيفة. كانت تشعر بأنَّها مختلفة وغريبة أينما حلَّت وارتحلتْ، من دون أن تحسّ بالإحراج. كانت تحسب المسألة مبعثًا للفخر والاعتزاز بالنفس، لأنَّها كانت تُشدِّد على أنَّها فنَّانة وغامضة تفوق مَنْ هم دونها من الأحياء. لم تكن تحتاج إلى الاختلاط بالإنسانيّة، التي كانت تَحْكم عليها بالسخافة، والجبروت إن سنحت الفرصةُ لذلك، ولا تُبدي العاطفة سوى في أجمل اللحظات. كانت هذه آراءَها التي لا تفصح عنها كثيرًا أمام الملأ، لكنَّها أخذتْ بُعْدًا كبيرًا في شيخوختها. كانت تذود عنها برومانسيَّة شديدة تتحدَّى بها حقيقةَ أنَّها لم تعش تجاربَ الحبِّ الطائش للطفولة والمراهقة، وأنَّها دخلت الجامعة وحيدةً، وسافرتْ واشتغلتْ بمفردها، بلا شركاء أو زملاء. لكنَّ البديل كان ذلك الحبّ العنيف الذي كانت تكنُّه لإيشيمي فوكودا، والصداقة الفريدة التي كانت تربطها بناتانيل بيلاسكو، الذي لم تكن تتذكَّره كزوج، بل دائمًا كصديق حميم. وفي آخر محطَّة من حياتها، حظيتْ بإيشيمي، عاشقِها الأسطوريّ، وحفيدِها سيت، وإيرينا وليني وكاتي؛ فبفضلهم نأت بنفسها عن شبح الملَل الذي يُشهر أنيابَه في الشيخوخة. أمّا باقي ساكني *لارك هاوس*، فكانوا بمثابة المنظر العامّ للخليج، تُمتِّع النظر بهم من بعيد، من دون أن تبلِّل قدمَيْها.

منذ أكثر من نصف قرن، شاركتْ بكثافة في مجتمع الطبقة الراقية

في سان فرانسيسكو؛ فكانت تظهر في الأوپرا، وفي حفلات الأعمال الخيريّة وجمع التبرُّعات، وفي المناسبات الاجتماعيّة الإجباريّة. ومرّةً، أكّدتْ لليني بيل أنّ الضجيج، والنقاشات المبتذلة، وخصوصيّات الآخر، كانت من الأمور التي تزعجها، ولولا تضامنها الطفيف مع الإنسانيّة المعذّبة، لكانت في عداد المعتوهين. فالإحساس بالشفقة تجاه التعساء الذين لا تعرفهم لم يكن أمرًا صعبًا. لم تكن تُحبُّ الناس كثيرًا، وتفضِّل القطط، ولا تجالس سوى القلّة القليلة، ثلاثة أشخاص على الأكثر. كانت دائمًا تتفادى التجمُّعات، والنوادي والانخراط في الأحزاب السياسيّة، لم تكن من المدافعين عن القضايا المهمّة، وإنْ كانت في البداية قد قامت ببعض المحاولات، في الحركة النسائيّة، وحقوق المواطنة، أو السِّلْم. «*لا أخرج للدفاع عن مسألة الحوت الكبير كي لا أختلط مع الإيكولوجيِّين*»، قالت. لم تقدِّم في حياتها تضحياتٍ جسيمةً من أجل شخص أو قضيّة. فنكران الذات والإثارة لم يكونا من فضائلها، باستثناء ما قدّمته من جهود لناتانيل أيّام مرضه، ولم تهتمّ قطّ برعاية أحد، بمن في ذلك ولدها لاري. فالأمومة لم تكن تعني لها الكثير، ولم يكن لها نصيب من ريح الصبابة التي كانت تتوق إلى هبوبها معظمُ الأمّهات؛ فالأمومة بالنسبة إليها لم تخرج عن نطاق الحنان الهادئ والمضبوط، ووجودُ لاري في حياتها لم يكن سوى حضور قويّ مفعم بحبٍّ ملؤه الثقة والاستئناس. كانت تعشق إسحاق وليليان بيلاسكو وتحبّهما، وواظبتْ على مناداتهما بـ «الخال» و«الخالة»، حتى بعد أن صارا حموَيْها. بيد أنّها لم تأخذ شيئًا من طيبتهما، ولا من حبّهما لخدمة الآخر.

ـ من الحظّ أن تهتمّ مؤسّسة بيلاسكو بغرس الفضاءات الخضراء وتشجيرها بدلًا من مدّ يد العون للمتسوّلين واليتامى. بهذه الطريقة،

تمكَّنتُ من فعل الخير من غير أن أقترب من المستفيدين منه؛ هذا ما ذكرته يومًا للِيني بيل.

ـ اصمتي يا امرأة، لو لم أكن أعرفك جيِّدًا، لتخيَّلتُكِ غولًا نرجسيًّا.

ـ إذا لم أكن كذلك، فالفضل في الأوَّل والأخير يعود إلى إيشيمي وناتانيل. منهما تعلَّمتُ الأخذ والعطاء. لولاهما، لسقطتُ في فخِّ اللامبالاة.

ـ الكثير من الفنَّانين انطوائيُّون في طبيعتهم، ألما. يحبُّون العزلة التي يعتبرونها محفِّزًا على الإبداع، أردف ليني بيل.

ـ لا تحاول البحثَ عن مبرِّرات. فالحقيقة أنَّني أزداد عشقًا لعيوبي كلَّما تقدَّمتُ في السنِّ. فالشيخوخة هي أفضل مرحلة لتحقيق الذات، إذ في وسع المرء أن يفعل حينها ما يحلو له. عمَّا قريب، لن يحتملني أحد. قُل لي يا ليني: هل أنت نادم على شيءٍ فعلتَهُ في حياتك؟

ـ بالتأكيد. نادم على الحماقات التي لم أرتكبها، على السجائر التي توقَّفتُ عن تدخينها، على الحسناوات. . نادم على عزوفي عن أكل اللحم، وإفناء روحي في ممارسة الرياضة. النهاية هي الممات، وسأموت في أحسن حال، قال ليني ضاحكًا.

ـ لا أريدك أن تموت. . .

ـ أنا كذلك، لكنَّ الأمر ليس بأيدينا.

ـ حينما تعرّفتُ إليك، كنتَ تشرب كواحدٍ من فرسان القوقاز.

ـ أقلعتُ عن ذلك منذ ثلاثين سنة.

ـ أنت تتحدّث عن الماضي. أنا لا أراك على هذه الهيئة الآن.

ـ لقد تغيَّرتُ كثيرًا. أفنيتُ عمري في البحث عن الاعتراف والمغامرات، إلى أن سقطتُ في شِباك الحبِّ والغرام، وأخفقتُ في التجربة وانفطر فؤادي، وقضيتُ زمنًا أحاول جمعَ أشلاء قلبي.

ـ وهل أفلحتَ؟

ـ لنقلْ نعم. وهذا بفضل طريقة في العلاج النفسيّ، بحضور جلسات انفراديَّة، وجماعيَّة بيوديناميكيَّة. المهمّ أنَّني جرَّبتُ كلّ ما كان متاحًا. بل إنَّني خضعتُ للعلاج بالصراخ.

ـ وما يكون هذا العلاج؟ أفِدْني.

ـ كنت أغلق على نفسي برفقة الطبيبة النفسانيَّة، وأشرع في الصراخ وكأنَّ بي مسًّا من الجنِّ، وأُثْخِنُ وسادةً كبيرةً بلكمات شديدة طوالَ خمس وخمسين دقيقةَ.

ـ لا أصدِّقكَ.

ـ صدِّقيني. وكنتُ أدفع المال لقاء ذلك. تخيَّلي: خضعتُ للعلاج سنواتٍ طويلة! كان الطريق وعرًا جدًّا، ألما. لكنَّني توصَّلتُ إلى معرفة نفسي، وواجهتُ عزلتي التي لم تعد ترعبني.

ـ القليل من هذا العلاج كان سينفعنا، أنا وناتانيل. لكنْ لم يخطر يومًا في بالنا. فلم يكن أمرًا متداولًا في أوساطنا. حينما أصبح الطبُّ النفسيّ دارجًا، كان الوقت قد بات متأخِّرًا بالنسبة إلينا.

وفجأةً، توقَّفتْ عن الوصول علبُ زهور الغاردينيا المجهولةُ المصدر، التي كانت تستقبلها ألما كلَّ اثنين. غير أنَّها لم تعرب عن استيائها. فمنذ تسلُّلها الأخير خلسةً، لم تعد تخرج كثيرًا. ولولا وجود إيرينا وسيت وليني وكاتي في حياتها، لحبستْ نفسَها مثل الزهَّاد. لم تعد تهوى القراءة ولا المطالعة، وفقدت شهيَّة متابعة المسلسلات التلفزيونيَّة، وممارسة اليوغا، ومساعدة البستانيّ ڤيكتور فيكاشيف في

حديقته، وكلّ ما كانت تملأ به أوقاتها في السابق. كانت تأكل وجباتها بلا شهيَّة. ولولا إيرينا التي كانت تعتني بها كثيرًا، لاكتفت بالعيش على التفّاح والشاي الأخضر. لم تقل لأحد إنَّ قلبها لا يتوقَّف عن النخز، وإنَّ ضبابيّة الرؤية باتت تلازمها، وإنّها غدت تتعثَّر في أبسط المهمّات. لم تعد شقّتها كما كانت من قبل مرتَّبةً وفق حاجيّاتها، بل اختلطت الأمورُ كلُّها. وحينما كانت تعتقد أنَّها أمام باب الحمّام، كانت تخرج إلى ممرِّ البناية الطويل الحلزونيّ الشكل، فيصعب عليها العثورُ على الباب، لتشابُهِ كلّ الأبواب، فتظلّ تتحسَّس الطريقَ، ويداها معلَّقتان على الحائط حتى لا تسقط. وفي غمرة الظلام، لم تكن تجد مفاتيح الضوء. لم تعد محتوياتُ الأدراج والرفوف في مكانها، وضاعت بين ثناياها أشياء عديدة، وتبعثرت الصورُ الفوتوغرافيّة في الألبومات. وغالبًا ما كانت منظِّفة البيت أو إيرينا تُخبِّئان لها أشياءها.

أيقنتْ أنَّ الكون بات يناصِبُها العداء، وأنَّ دماغها من الأرجح أن يعاني نقصًا في الأوكسجين. كانت تُطلُّ من النافذة لإجراء تمارين تنفُّسيَّة، تتماشى مع تعليماتٍ قرأتْها في كُتيِّب أخرجتْه من مكتبتها للتوِّ، لكنّها كانت تؤجِّل دائمًا زيارة طبيب القلب والشرايين، الذي كانت تنصحها به دائمًا صديقتُها كاتي، لأنَّها كانت مخلصة لفكرتها، ومفادُها أنَّ الأسقام كلَّها تذهب وتتلاشى وحدها مع مرور الوقت.

كانت ستتمُّ عامها الثاني والثمانين، وقد أضحت امرأةً مسنَّة، إلَّا أنَّها كانت ترفض بقوَّةٍ عبورَ عتبة الكهولة. كانت تشمئزُّ من الجلوس تحت ظلِّ تقدُّم العمر بعينين نائمتين، وعقل مشدودٍ إلى الماضي. لقد سبق أن هوت على الأرض مرّاتٍ عديدة، وأُصيبت بتورُّمات، وحان الوقت لتتقبَّل المساعدة، فكانوا يمسكونها من مرفقها لتستطيع المشي، إلّا أنَّها لم تتوقَّف يومًا عن المقاومة، وكانت تحارب بشدَّةٍ فكرةَ

الاستسلام للوهن السهل. كانت ترعبها مسألةُ الانتقال إلى الطابق الثاني، حيث لن تنعم أبدًا بالخصوصيَّة، وحيث يساعدها متطوِّعان على قضاء حاجتها البيولوجيَّة. «*طابت ليلتك أيُّها الموت*»، هذا ما كانت تردِّده قبل أن تستسلم للنوم على أمل ألَّا تستيقظ في الغد. يا لها من طريقة جميلة للرحيل! تُشبه في أبعادها النومَ إلى الأبد في حضن إيشيمي، بعد ممارسة جنسٍ عنيفة. والواقع أنَّها لم تكن تعتقد أنَّها تستحقّ مثل هذه الهديَّة؛ فحياتها كانت رغدةً، ولا ضرورة لأن تكون نهايتُها كذلك. لم تعد تهاب الموت منذ ثلاثين سنة، منذ أن حلَّ كصديقٍ ليأخذ ناتانيل. حتى إنَّها كانت هي من نادت عليه وسلَّمته ناتانيل من دون أسف. لم تتحدَّث يومًا مع سيت عن هذه المواضيع، لأنَّه حتمًا سيتَّهمها بالوساوس. لكنَّها، برفقة ليني، كانت تتحاور بشأن الموضوع بكلِّ أريحيَّة. كانا يمضيان وقتًا طويلًا يفكِّران في العالم الآخر، ومسألة خلود الروح. ومع إيرينا، كانت تستطيع كذلك مناقشةَ كلّ المواضيع. فالفتاة كانت تحسن الإصغاء، وكانت محاورةً جيِّدة، إلَّا أنَّها ـ على الرَّغم من سنِّها ـ لا تزال تحلم بالعيش والعمر المديد، ولا يمكنها أن تلبس ملابس من سبقنها في قطع كلّ هذه الطريق. فالفتاة لن تتخيَّل أبدًا حجم الشجاعة اللازمة التي يجب أن يتحلَّى بها المرءُ ليشيخ من دون أن يخاف من دنوِّ الأجل. فمعرفتها بالسنِّ ليست سوى نظريَّة. وكلّ ما نُشر عن الشيخوخة في تلك الكتب التي تتشدَّق بالمعرفة، وفي كتب مساعدة الذات التي تزخر بها المكتبات، ما هو سوى نظريَّات كذلك. بل إنَّ الطبيبتيْن النفسانيَّتيْن في لارك *هاوس* كانتا شابَّتيْن. ما عساهما تفقهان، على الرَّغم من كلّ الشهادات التي حصلتا عليها، عن الضياع؟ ضياع كلّ شيء وفقدانه: المَلَكات، والطاقة، والحيويَّة، والاستقلاليَّة، والأماكن، والناس، على الرّغم من أنَّها في

الواقع لم تكن تشتاق إلى الناس. فقط تشتاق إلى ناتانيل. أمَّا عائلتها، فكانت تراها بما فيه الكفاية، وكانت تحبُّ ألَّا تطول زيارتها. كَنّتها كانت تقول دائمًا إنَّ *لارك هاوس* ما هو إلَّا مستودع المسنِّين اليساريِّين والمدمنين على الماريجوانا. لهذا، كانت تفضِّل دائمًا أن تتَّصل بأفراد عائلتها هاتفيًّا، أو تزورهم في سي كليف، أو تخرج معهم في نزهة كلَّما سنحت الفرصة لذلك. لم تشتكِ يومًا. فعائلتها الصغيرة، المكوّنة فقط من لاري ودوريس، وباولين وسيت، لم تتخلَّ عنها يومًا. وحالتها كانت تشكِّل استثناءً بين مسنّي *لارك هاوس* المتخلَّى عنهم.

في المقابل، لم تعد تستطيع تأجيل قرار إغلاق ورشة الرسم وقتًا أطول. كانت تواظب على إبقائها مفتوحة من أجل كيرستن. أوضحت لـ سيت أنَّ مساعدتها تعاني نوعًا من التخلُّف العقليّ، بيد أنَّها اشتغلت إلى جنبها أعوامًا طوالًا. كان هذا هو العمل الوحيد الذي حصلت عليه كيرستن في حياتها، ودائمًا كانت تقوم بواجبها على أحسن وجه. «*من واجبي أن أحميها، سيت. هذه أقلّ خدمة يمكنني أن أسديها إليها. لكنَّني الآن لا أملك القوّة لمصارعة التفاصيل، لذا سأكلِّفك أنت بالأمر. فلمثل هذه الأمور وُجدتْ مهنتُكَ كمحام*»، قالت له. كانت كيرستن تتمتَّع بتأميناتٍ شرعيَّة، ومعاش ومدّخرات، إذ سبق لألما أن فتحتْ لها حسابًا بنكيًّا، كانت تضع فيه قدرًا من المال تحسُّبًا للطوارئ. اتَّفق سيت مع أخي كيرستن على محاولة إيجاد صيغة لتأمين مستقبلها المادِّيّ. والتمس من هانس ڤواغ أن يُشغِّل كيرستن مساعدةً لكاترين هوپ في عيادتها المخصَّصة لمرضى الآلام المزمنة. تبدّدتْ كلُّ شكوك المدير بالتعاقد مع شخص يعاني متلازمةَ داوْن، فور إشعاره بعدم ضرورة تحديد راتبٍ شهريٍّ لأنَّ مؤسَّسة بيلاسكو ستتكلَّف بصرف منحةٍ لكيرستن.

زهور الغاردينيا

في الاثنين التالي، حضر سيت للزيارة حاملًا ثلاث زهرات غاردينيا في علبة، ترحُّمًا على نيكو، كما قال. كانت وفاةُ القطّ الحديثة قد زادت في شدَّة هشاشة عظام ألما، التي لم تتمكَّن رائحةُ الزهور الخانقة من التخفيف منها. وضع سيت الزهور في إناء فيه ماء، وقام بتحضير الشاي، وجلس أمام جدَّته على أريكة الصالون.

ـ ما بال زهور إيشيمي فوكودا، جدَّتي؟ سألها بنبرةٍ توحي باللامبالاة.

ـ ما الذي تعرفه أنت عن إيشيمي، سيت؟ أجابت ألما في ذعر.

ـ كثيرًا. أظنُّ أنَّ صديقك هذا له علاقة كبيرة بالرسائل، وبزهور الغاردينيا التي تتلقَّيْنها، وبمشاويرك السرِّيَّة. تستطيعين بالطبع أن تفعلي ما يحلو لك، لكنَّني أظنُّ أنَّ سنَّك الآن لا تسمح لك بالخروج وحيدةً أو بصحبة سيِّئة.

ـ هل كنتَ تتجسَّس عليّ؟ كيف تجرّأتَ على حشر أنفك في ما لا يعنيك؟

ـ أنشغلُ بِأمورك كثيرًا يا جدَّتي، ربَّما لأنِّي أحبُّك كثيرًا، على الرَّغم من أنَّك نَكِدَة. لا جدوى من التستُّر على الأمر. في إمكانك أن تثقي بي وبإيرينا، سنكون شريكيْكِ في أيِّ حماقة.

ـ ليس الأمر حماقة، كما تظنّ.

ـ بالطبع، المعذرة. أعلم جيِّدًا بأنَّه حبّك الأبديّ. لقد استمعتْ إيرينا عن طريق المصادفة إلى حوار دار بينكِ وبين بيل.

في ذلك الوقت، كانت ألما وباقي أفراد عائلة بيلاسكو على علم بوجود إيرينا في شقَّة سيت للعيش معه. وهي، وإن لم تَأتِ بشكل يوميّ، فقد كانت تأتي في معظم أيَّام الأسبوع.

آنذاك، تفادت دوري ولاري التعليقَ على الموضوع، على أمل أن تكون مهاجرةٌ مولداڤيا مجرَّد نزوة عابرة لابنهما. لكنَّهما هيّآ لها استقبالًا باردًا، تحاشت في إثره إيرينا الذهاب إلى وجبات الغداء التي كانت تُقام في سي كليف، على الرَّغم من إصرار كلٍّ من ألما وسيت على حضورها معهما. وبخلاف باولين التي كانت تنفر من كلّ صويحبات أخيها بلا استثناء، فقد فتحتْ له ذراعيها، وقالت: «*أهنِّئك، أخي. إيرينا لطيفة جدًّا. وشخصيَّتها أقوى منك. هي التي ستقودك في درب الحياة*».

ـ لماذا تصرِّين على الكتمان، جدَّتي؟ احكي لي، فأنا لست مخبرًا، ولا رغبة لديَّ في التجسُّس عليك.

كان كوب الشاي على وشك السقوط من يديْ ألما المرتعشتين، فانتشله منها حفيدُها بهدوء، ووضعه فوق المائدة. وما هي إلّا لحظات حتى تبدَّد وجهُ المرأة المكفهرّ، وانشرحتْ أساريرها، وغمرتها مشاعرُ الاسترخاء والرغبة في البوح بمكنونات صدرها، والاعتراف لحفيدها

بزلّاتها. كانت تحبُّ أن تروي له أنّها باتت تحسُّ بالتسوُّس من الداخل، وأنّها تموت ببطء وبسعادة، لأنّها لم تعد تحتمل المزيد، وأنَّ الموت راحة لها. ماذا يمكنها أن تنتظر أكثر في الثمانين من عمرها، بعدما عاشت طويلًا، وأحبَّت، وابتلعت الدموع!؟

ـ نادِ إيرينا. لا أريد أن أحكي القصّة مرّتين، قالت لسيت.

ـ حينما استقبلتْ إيرينا الرسالة النصّيّة في هاتفها الخلويّ، كانت في إدارة هانس ڤواغ برفقة كاترين هوپ، ولوبيتا فارياس، ورئيستيْ قسم الخدمات والتمريض، يناقشنَ موضوع الموت الطوعيّ، وهي العبارة التي كانت تُستعمل في *لارك هاوس* عوضًا عن لفظ الانتحار المحظور من لدن المدير. اعترض أحدُهم في بهو الاستقبال سبيلَ علبةٍ نجسةٍ قادمةٍ من تايلاند، فأودعها مكتبَ المدير. كانت العلبة تحمل اسمَ هيلين ديمپسي (Helen Dempsey)، المقيمة بالطابق الثالث، وهي امرأة في التاسعة والثمانين من عمرها، كانت تُعاني سرطانًا عنيفًا، وتعيش من دون أُسرة ولا رغبة في الخضوع مجدّدًا للعلاج الكيماويّ الذي لم تعد تحتمله. كانت التعليمات المدوّنة على العلبة تشير إلى ضرورة شرب المحتوى مع الكحول، وبهذه الطريقة يأتي الموت حبْوًا ساعة النوم. «إنَّها باربيترات»، أردفتْ كاتي، أو «ربَّما سمّ الفئران»، أضافت لوبيتا. اشتعل المديرُ غيظًا. كان يريد أن يفهم كيف استطاعت هيلين ديمپسي أن تطلب هذه العلبة، من دون أن يعلم أحد. فالمفترض أن يكون الجميع متيقّظين. إذ ليس من مصلحة المؤسّسة أن تروِّج إشاعات عن حدوث انتحارات في *لارك هاوس*، لأنَّ ذلك سيكون كارثة تنال من صورة الدار وسمعتها، في حالة الوفيات المشبوهة، كوفاة جاك دوفان مثلًا. لم يكن الفريق يهتمّ بإجراء تحقيقات دقيقة في كلِّ حالة على حدة، بل يفضّل عدم الخوض

في التفاصيل. كان موظَّفو لارك هاوس يُلقون باللوم على أشباح إيميلي وابنها، الذين يبتلعون اليائسين. ففي كلّ حالة وفاة، سواء كانت طبيعيَّة أو غير شرعيَّة، كان جان دانييل، الموظَّفُ الهاييتيّ، يلتقي الشابَّة صاحبة الفستان ذي الأهداب الورديَّة وابنها التعيس، فيقشعرّ جلده لهذه الرؤية. لقد سبق أن التمس منهما أن يطلبا كرامات مواطنة من بلده، تشتغل في الحلاقة كلَّما دعت الحاجةُ إلى ذلك؛ فهي قدِّيسة بوذيَّة، وتستطيع إرسال هذه الأرواح إلى العالم الآخر، حيث يجب أن يكون مثواهما. لكنَّ ميزانيَّة هانس ڤواغ لم تكن تسمح بهذا النوع من المصاريف، فبشقِّ الأنفس كان يستطيع تحقيق التوازن الماليّ من دون السقوط في العجز. لم تَرُقْ مثل هذه المواضيع لإيرينا، التي كانت لوعتها لا تزال متأجِّجة، لأنَّها، قبل أيَّام قليلة، حملتْ نيكو بين ذراعيها ليحقنوه بحقنة الرحمة التي وضعتْ حدًّا لمعاناته. لم تستطع ألما وسيت مرافقةَ القطّ في هذه المرحلة الحاسمة، لأسباب تعود إلى الشفقة والجُبن. فتركا إيرينا وحدها في الشقَّة لتستقبل الطبيب البيطريّ. لم يستطع الدكتور كالِت الحضور بنفسه لظروف عائليَّة حدثتْ للوهلة الأخيرة، وبعث بفتاة ترتدي نظَّارة، وتبدو عليها علاماتُ الارتباك، وكأنَّها أنهت دراستها وتخرَّجت للتوِّ. لكنَّها أعربتْ عن مهارة وشفقة في عملها. صار القطُّ يموء ويئنّ، ثم مات ورحل. كان على سيت أن يحمل جثَّة القطِّ إلى محرقة الحيوانات، لكنَّ نيكو كان لا يزال ملفوفًا في كيس من البلاستيك داخل ثلَّاجة ألما. لوپيتا فارياس كانت على معرفة قديمة بمُحنّطٍ حيوانيّ، مكسيكيّ الأصل، يمكنه أن يحتفظ بالقطِّ كما لو كان حيًّا، بملئه بمادَّة التحنيط، وإعطائه عينين من الزجاج، أو يحتفظ بالجمجمة بتنظيفها وصقلها ثم وضعها فوق قاعدة كقطعة ديكور. اقترحت على إيرينا وسيت أن يفاجئا ألما بهذه الهديَّة، لكنَّهما

أيقنا أنَّ الجدَّة لن تثمِّن هذه المبادرة.

«من واجبنا أن نتصدَّى هنا، في *لارك هاوس*، لكلِّ محاولات الموت الطوعيّ. مفهوم؟

صاح هانس ڤواغ للمرَّة الثالثة أو الرابعة وهو يركِّز عينيه في كاترين هوپ، التي تستقبل في عيادتها مرضى الآلام المزمنة، وكلَّ من أخذ منه الوهنُ مأخذَه. كان يعلم، وهو محقٌّ في ذلك، بأنَّ هؤلاء النسوة لا يصرِّحن بكلِّ ما يعرفن. حينما اطَّلعت إيرينا على رسالة سيت القصيرة في شاشة هاتفها، قاطعت المدير: «المعذرة، سيِّد ڤواغ، هناك أمر طارئ»، وهو ما أتاح للنسوة الخمس الماثلات أمامه فرصة التسلُّل والخروج من المكتب قبل أن يُتمّ الرجل خطبته.

كانت ألما جالسةً على سريرها، وقد وضعتْ وشاحًا على ساقيها. كانت تبدو شاحبة، ومن دون أحمر الشفاه، مُسنّة ومنكمشة. «*افتحوا النافذة، فهواء بوليڤيا الخانقُ هذا، يُزكم أنفاسي*». أوضحتْ إيرينا لسيت أنَّ جدّته لا تهذي، فهي تشير في كلامها إلى ذلك الإحساس بالاختناق، وطنين الأذنين، وفتورِ الجسدِ الذي عاشته في العاصمة لاباز على ارتفاع ستمئة قدم. فكَّر سيت في أنَّ ضيق التنفُّس لا يعود إلى الهواء البوليڤيّ، بل ربَّما إلى رائحة القطّ التي تنبعث من الثلّاجة.

قبل أن تشرع ألما في حكايتها، أخذت منهما عهدًا بألّا يشيعا سرّها حتى بعد مماتها، وصارت تحكي على مسمعهما ما سبق أن روته لهما، لأنَّها قرَّرتْ أنّه سيكون من الأفضل أن تنسج هذا النسيج منذ بدايته. فبدأتْ بقصَّة وداع الوالدين في ميناء دانزيغ، ووصولها إلى سان فرانسيسكو، وكيف أنَّها تشبَّثتْ منذ اللحظة الأولى بيد ناتانيل، وهي تحسُّ بالأمن والأمان. ووصلتْ إلى لحظة التقائها بإيشيمي فوكودا،

تلك اللحظةِ الخالدةِ في وجدانها. وهكذا، راحت تتقدّم في دروب الماضي بخطًى وطيدة وبوضوح تامٍّ، وكأنّها تقرأ القصّة بصوت عالٍ؛ وهذا ما بدّد كلَّ مخاوف سيت بشأن خرف جدّته. منذ ثلاث سنوات، حينما كان يحاول انتزاع المادَّة من جدّته ليؤلّف كتابه، انبهر بقدرتها على الكلام، وضبطِها الإيقاعَ، وتحكُّمها في عنصر التشويق، ومهارتِها في عكس الأحداث المشرقة والمأساويّة. كانت تلعب بالنور والظلّ، تمامًا كما كان يفعل ناتانيل بالصور الفوتوغرافيَّة. لكنّها في هذه الأمسية، لم تمنحه فرصة الإعجاب بها في ماراتون الجهد المبذول في سبيل السرد، الذي كانت تتخلّله بعضُ فترات الاستراحة لاحتساء القليل من الشاي وقضم البسكويت. تحدّثتْ ألما لساعات طوال، وأرخى الليلُ سدولَه من دون أن يحسّ الثلاثة بالعتمة. الجدَّة مسترسلة في حديثها، وهما منصتان. روت لهما تفاصيلَ لقائها الثاني بإيشيمي عن عمر يناهز الثاني والعشرين ربيعًا، وبعد غياب دام اثنتي عشرة سنة. وحكت لهما كيف هيمن عليهما حبُّ الصبا الشديد الخمود، على الرّغم من أنَّهما كانا يعلمان بأنَّ هذه المشاعر محكوم عليها بالفشل، والدليل هو افتراقهما في أقلّ من سنة واحدة.

وأردفتْ أنّ العشق شعورٌ كونيّ، يبقى خالدًا على مرِّ القرون. لكنّ الظروف والعادات تختلف باختلاف الأزمنة، وأوضحت لهما أنَّهما، بعد ستّين سنة، وقفا عاجزيْن عن فهم كلّ العراقيل الصعبة التي حالت بينهما. وأكّدتْ أنَّ الزمان لو عاد بها إلى الوراء، وهي مدجّجة بالخبرة التي راكمتْها عبر السنين، لكرَّرتْ ما فعلتْه، لأنَّها لم تتجرّأ على التقدُّم خطوةً إلى الأمام مع إيشيمي، لأنَّ الأعراف منعتها من ذلك. لم تكن يومًا امرأةً شجاعة، بل كانت تمتثل للأوامر. ويومَ قرَّرتْ، وهي في الثامنة والسبعين، مغادرةَ نُزُل سي كليف، للاستقرار

في لارك *هاوس*، كان هذا أوّل تحدٍّ أقدمتْ عليه في حياتها. وفي الثانية والعشرين، وفي غمرة الشكّ في أنَّ الأيَّام باتت معدودة، أُصيب إيشيمي وألما بتخمة الحبّ الذي التهماه كاملًا. وكلَّما كانا يحاولان استنفاده كاملًا، كانت الشهوة تنفلت مجنونةً من عقالها. مخطئٌ كلُّ مَنْ يظنُّ أنَّ لهيب النار يخمد آجلًا أو عاجلًا: رُبَّ عشقٍ هو حريقٌ ينشب بشدَّة إلى أن يخمده القدرُ بضربة واحدة، وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ الجمراتِ تظلُّ محمومةً، ومستعدَّةً للاشتعال بنفخة أوكسجين واحدة.

حدَّثتهما عن تيخوانا، وزواجها بناتانيل، وكيف مرَّت سبعُ سنوات أخرى لتعود لرؤية إيشيمي مرَّةً أخرى في مأتم صهرها، من غير أن تتخلّى عن التفكير فيه، لكنْ من دون لهفة لأنَّها لم تكن تنتظر رؤيته من جديد. ومرَّت سبع سنوات أخرى، إلى أن التقيا واستطاعا تحقيق الحبِّ الذي كانت شرارتُه لا تزال متوهِّجةً في مهجتيهما.

ـ إذن، جدَّتي، والدي ليس ابن ناتانيل؟ في هذه الحالة، أنا حفيد إيشيمي. قولي لي إنْ كنتُ من سلالة فوكودا أو بيلاسكو؟

ـ لو كنتَ من سلالة فوكودا، لكانت لديك بعضُ القسمات اليابانيَّة، صحّ؟ إنَّك من بيلاسكو.

الطفل الذي لم يولد

كانت ألما خلال الشهور الأولى من زواجها مشغولةً جدًّا بأمور حملها، إلى درجة أنَّ لوعتها جرّاءَ التخلِّي عن حبِّ إيشيمي خفّت وطأتها، وصار من الممكن التعايشُ مع الذكرى على مضض، كالذي يحتمل جزيْئةً من الحصى داخل حذائه. فاستسلمتْ للراحة، تنعم بحنان ناتانيل، ودفءِ العيش الذي وفَّرته العائلة. وعلى الرَّغم من أنَّ مارتا وسارة أنجبتا أبناءً وحفدة، فإنَّ ليليان وإسحاق كانا ينتظران المولود الجديد بفارغ الصبر، كأنّه من عائلة ملكيَّة، لأنَّه في النهاية سيحمل اسم العائلة. لذا، خصّصا له غرفةً مشمسةً داخل البيت، وجهّزاها بأثاث طفوليّ، وزيَّناها بشخصيّات من عالم والت ديزني رَسَمَها على الحيطان رسَّامٌ جلباه من لوس أنجلوس. كانا يتفانيان في خدمة ألما، ويلبِّيان كلّ رغباتها. وفي شهرها السادس، زاد وزنُها كثيرًا، وكانت تعاني ضغطًا مرتفعًا، ناهيك بظهور بقعٍ على وجهها. كما كانت تحسُّ بساقيها ثقيلتين، وبصداع دائم في رأسها. وانتفخت قدماها، فلم يعد يتَّسع لهما الحذاء، وباتت تستعمل نعلَيْ الشاطئ.

لكنْ، منذ الوثبة الأولى للحياة في أحشائها، أحبّت الجنينَ الذي في رحمها؛ هذا الجنينَ الذي لم يكن ولدَ ناتانيل ولا إيشيمي، بل ولدها هي فقط. كانت تريده ولدًا لتسمِّيه إسحاق، ولتعطي والدَ زوجها الخلفَ الذي سيحمل اسمَ العائلة. لن يعرف أحد أنَّه لا يحمل الدمَ نفسَه، على ما وعدتْ ناتانيل. مرَّةً فكَّرتْ، وهي تحسُّ بتأنيب الضمير، في أنَّه لولا تدخُّل ناتانيل، لانتهى الأمر بهذا الولد إلى مستنقع في تخوانا. وكلّما ازداد وهنُها بسبب الجنين، ازدادت دهشتُها من التغيّرات الطارئة على جسدها. لكنَّ ناتانيل كان يؤكِّد لها أنَّها أصبحت متألِّقة، وباتت أجمل من أيِّ وقت مضى. بل صار يسهم في سمنتها بأنْ يُحْضِر لها الشكولاتة المحشوَّة بالبرتقال، وبنكهاتٍ أخرى.

لم تتغيَّر علاقة الأخوَّة بينهما. كان يواظب على أناقته ونظافته، وكان يستعمل الحمَّام المجاور لمكتبه، في الجهة الأخرى من البيت، ولم يسبق أن تجرَّد يومًا من ثيابه أمامها. لكنْ لم تكن الحال كذلك مع ألما، التي تخلَّصتْ من كلّ أشكال الحياء، واستسلمتْ لتشوُّه هيئتها، فأقحمتْه في تفاصيلها التافهة وكلّ ما تشكوه من تداعيات الحمْل، ونوباتها العصبيَّة، وخوفها من الأمومة، وهي مستسلمة أكثر من أيِّ وقت مضى. خلال هذه الفترة، اخترقتْ ألما كلّ القواعد الأساسيَّة التي كان والدُها يوصيها بها: من عدم الشكوى، وطلب المساعدة، وفقدان الثقة. وتحوَّل ناتانيل إلى قطب إشعاع في حياتها. كانت تحسّ بالراحة والطمأنينة تحت جناحيه، وهذا ما ولَّد بينهما حميميَّةً مرتبكةً غير محرجة، تتماشى مع شخصيَّة كلّ واحد منهما. ولئن أُثير نقاش عن هذه الحميميَّة المرتبكة، تجدَّد الاتِّفاق على العيش بشكل عاديّ فور ولادة الجنين واستعادةِ ألما عافيتها. والحقيقة أنْ لا أحد منهما كان يبدو جدِّيًا في هذا الاتِّفاق. وما بين هذا وذاك، كانت

ألما قد اكتشفت المكان المناسب على كتفه، لإسناد رأسها والاستسلام للنوم، فكانت تنكمش تحت ذقنه لتدغدغ النعاس. «*أنت حرٌّ في الذهاب مع من تشاء من النساء، نات. فقط أطلبْ منك تحرِّي الكتمان لتفادي الفضيحة*»: هذا ما كانت تطلبه ألما دائمًا، فلا يتوانى عن إجابتها بقبلةٍ ومزحة. والحقيقة أنّها، على الرَّغم من عدم نسيانها لإيشيمي الذي كانت ذكراه لا تزال حيَّةً في ذاكرتها وجسمها، فإنّها كانت تغار على ناتانيل من النساء اللواتي كنّ يلاحقنه، وخمَّنتْ أنَّ مسألة زواجه لن تكون عائقًا، بل ستكون محفِّزًا آخر لغيرِ واحدةٍ منهنَّ.

كانت الأسرة موجودة في بيت العائلة في بحيرة تاهو التي يقصدها كلّ آل بيلاسكو في فصل الشتاء لممارسة رياضة التزحلق على الثلج. كانوا يحتسون شرابَ السيدر الساخن في الحادية عشرة صباحًا، وينتظرون هدوءَ العاصفة للخروج، حين ظهرتْ ألما في الصالون وهي تترنَّح ببطنها، حافيةَ القدمين، وبقميص النوم. هرعتْ ليليان إلى مساعدتها، فنهرتْها وهي تحاول تثبيت نظرها. «*أخبروا أخي صامويل بأنَّ رأسي يتشقّق*»، همهمتْ ألما. حاول إسحاق أن يحملها إلى الأريكة، وهو يصيح بأعلى صوته مناديًا ناتانيل، بيْد أنّها كانت مغروسةً في الأرض، وتتمتم بذكر بولندا وحجر الماس في بطانة معطفها. وصل ناتانيل للتوّ، ليرى زوجته تنهار في نوبات عنيفة من الارتعاشات والهوس.

وقعت نوباتُ الارتعاش هذه بعد الأسبوع الثامن والعشرين من الحمل، ودامت دقيقة وخمس عشرة ثانية فقط. لا أحد من الثلاثة الحاضرين فهم الوضع، وظنُّوا أنّه داءُ الصَّرَع. تمكّن ناتانيل من إراحتها على جنبها، وهو يمسك بها حتى لا تقع على الأرض، ووضع

ملعقةَ في فمها ليبقى مفتوحًا. وفجأةً، توقَّفت الارتعاشات وبقيتْ ألما منهكةً وتائهة، لا تدري أين هي، ومن يحيط بها! كانت تئنُّ من الصداع، وتشنُّجات البطن. ألقوا بها داخل السيّارة مدثّرةً ببطّانيّات، وراحوا يتزلّجون فوق جليد الطريق، ليأخذوها إلى المستوصف. هناك، لم يستطع الطبيبُ المناوب والمتخصِّص بكسور المتزحلقين وتشنُّجاتهم فعلَ الكثير، فاكتفى بتخفيض مستوى الضغط. أمّا سيّارة الإسعاف، فقد تأخّرتْ في الوصول سبع ساعات كاملة، وهي تتحدّى في طريقها العواصفَ الهوجاء وصعوبات الطريق. وحين تمكّن أخيرًا اختصاصيٌّ بأمراض النساء والتوليد من فحص ألما، حذّر العائلةَ من وقوع ارتعاشات وشيكة أخرى أو نوبة عصبيّة حادّة. كانت إمكانيّة عيش الجنين في الشهر الخامس والنصف من الحمل منعدمةً كلّيًا. وكان عليهم أن ينتظروا ستّة أسابيع أخرى على الأقلّ للجوء إلى الولادة المحرِّضة، أو ما يُسمّى الطلق الاصطناعيّ، لكنْ في هذه الحالة قد تتعرّض الأمّ والجنين لخطر الوفاة. وبعد لحظات قليلة، توقّف قلب الجنين عن النبض في رحم أمّه، كأنّه سمعهم، فوفّر على ناتانيل مأساة اتّخاذ قرار صعب جدًّا، وبسرعةٍ فائقةٍ زجّ بألما في قسم الجراحة. الشخص الوحيد الذي تسنَّت له رؤيةُ الجنين هو ناتانيل. ومن فرط تعبه وحزنه، استقبله في راحة يده، فقلّب الحفّاظة، فوجد مخلوقًا صغيرًا جدًّا، منكمشًا وأزرقَ اللون، ببشرة رقيقة وشفّافة كقشرة البصل. كان تكوينه مكتملًا، وعيناه شبهَ مفتوحتين. قرّبه من وجهه، وقبّله على رأسه قبلةً طويلة. تلمّس البرودةَ على شفتيه، وأحسّ بصدى النواح العميق يعلو جسمه، ويهزُّه، ليتدفّق على شكل دموع انهمرتْ على وجنتيه.

بكى ناتانيل ما طاب له البكاء، وهو يعتقد أنّه يبكي حرقةً على

المولود الميِّت وعلى ألما، لكنَّه كان يبكي على نفسه وعلى حياته الرتيبة. يبكي على حجم المسؤوليَّات الملقاة على عاتقه، ولا يستطيع التنصُّلَ منها أبدًا. يبكي على الوحدة الجاثمة على صدره منذ طفولته، وعلى الحبِّ الذي يتوق إليه ولم يقطفْ ثماره يومًا. يبكي على سوء حظِّه وتعاسة قدره.

بعد سبعة أشهر على الإجهاض، أخذ ناتانيل ألما في رحلة حول المدن الأوروبيَّة، لينفض عنها ما علق بها من أحزان. آنذاك، تحدَّثتْ له عن أخيها صامويل، حين كانت تعيش معه في بولندا. وروت له قصَّة المعلِّمة التي تطوف في كوابيسها: ثمَّة فستان أزرق مخمليّ؛ ڤيرا نيومان بنظَّارة البومة؛ ثلَّة من زميلات المدرسة اللواتي كانت تبغضهنَّ. حدّثته كذلك عن الكتب التي قرأتها ونسيتْ عناوينَها، فلم تعد تتذكَّر سوى الأحداث المأساويَّة لشخصيَّاتها. فكَّر ناتانيل في أنَّ رحلة ثقافيَّة واحدة كفيلة بأن تُعيد إليها إلهامها وشغفها بالأثواب المرسومة. فإنْ تحقَّق ذلك، فسيقترح عليها أنْ تتسجَّل لمدَّة معيَّنة في الأكاديميَّة الملكيَّة للفنِّ، وهي أقدم مدرسة للفنّ في بريطانيا العظمى. فكَّر كذلك في أنَّ أفضل علاج لألما هو الابتعاد قليلًا عن سان فرانسيسكو، وعن عائلة بيلاسكو عمومًا، وعنه خصوصًا. في تلك السنوات، لم يتكرَّر الحديث بينهما عن إيشيمي، وظنَّ ناتانيل أنَّها لم تعد على اتِّصال به، كما وعدته بذلك. وضع ناتانيل برنامجًا لحياته، وخصَّص أكبر قدر من الوقت لزوجته، وقلَّص عدد ساعات عمله، وكلَّما سنحت له الفرصة كان يدرس القضايا ويحضِّر مرافعاته في المنزل. واظبا على النوم في غرفتَيْن مستقلِّتَيْن، ولم يعد يهمّهما أن يعلم الآخرون بالأمر. وهكذا بقي سرير ناتانيل في غرفة عزوبيَّته وسط حيطان غُلِّفتْ بورق تَظهر عليه مشاهدُ القنص والأحصنة والكلاب والثعالب، وكانا يتقاسمان الأرق،

ويتحاشيان كلّ إغراءات الحميميَّة، فيجلسان في الصالون يقرأان لساعات متأخِّرة من الليل، فوق أريكة واحدة، وتحت بطّانيّة واحدة. خلال بعض أيَّام الآحاد، حين لا يسعفهما الجوّ للإبحار في الخليج، كان ناتانيل يقترح على ألما أن ترافقه إلى السينما، أو ينامان أحيانًا القيلولة على أريكة الأرق التي تعوِّض من فراش الزوجيَّة المفقود.

كان مبرمجًا أن تنطلق الرحلة من الدانمارك في طريق اليونان، وتتضمَّن جولة في نهر الدانوب، وأخرى في تركيا، وقد تستغرق بضعة شهور وتنتهي بلندن، حيث سيفترقان. وفي الأسبوع الثاني من الرحلة، وبينما هما يتجوَّلان عبر أزقَّة روما القديمة، متشابكَيْ اليدينِ؛ وبعد تناول وجبة شهيَّة مصحوبة بزجاجتين من أجود أنواع الخمور؛ توقَّفتْ ألما عن المشي تحت منارة، وجذبت إليها ناتانيل بقوَّة، وطبعتْ قبلةً فوق شفتيه، وخاطبته برنَّة الأمر: «أريدك أن تضاجعني». في تلك الليلة، وفي أحضان القصر الذي حُوِّل إلى فندق، مارسا الجنس تحت تأثير الشراب والصيف الرومانيّ، واكتشفا في نفسيهما ما كانا يعرفانه، وانتابهما إحساسٌ باقتراف إثم كبير.

كانت المعلومات التي استقتها ألما عن الحبِّ الجسديّ، وعن جسدها، تعود في الأساس إلى وجود إيشيمي، الذي كان يعوِّض نقصه في التجارب الجنسيَّة بإحساس مرهف جدًّا كان يستخدمه ليضخّ الحياةَ في نبتةٍ كئيبة. كانت ألما في نُزل الصراصير بمثابة آلة موسيقيَّة في يديْ إيشيمي المحبوبتيْن، ولم تعش شيئًا من هذا القبيل مع ناتانيل. مارسا الجنس بعجالة تامَّة وارتباك كأنَّهما تلميذان، من دون أن يشعر أحدهما بالآخر، ومن دون أن يفسحا المجال لشمّ رائحتي جسديْهما، والضحك والتنهُّدات. ولبسا، في ما بعد، ثوب الكآبة الذي حاولا إخفاءه بالتدخين في صمت، تحت المُلاءات، وعلى ضوء القمر

الخافت الذي كان يتجسّس عليهما من النافذة. في اليوم الموالي، تعبا من كثرة التجوال بين الأطلال، ومن صعود الأدراج القديمة، وزيارة الكاتدرائيّات، والتيه بين التماثيل الرخاميّة والنافورات المبالغ فيها. وفي الليل، عادا إلى الشرب من جديد في القصر القديم، وإلى ممارسة الجنس من دون شهوة تُذكر، لكنْ بإرادة أكبر. وهكذا كانا يطوفان في المدن ويبحران في المياه المبرمجة في الرحلة، ويؤسّسان لروتين الأزواج الذي فرّا منه كثيرًا، إلى أن أصبح طبيعيًّا تقاسُمُ الحمّام نفسه، والاستيقاظ فوق وسادةٍ واحدة.

لم تبقَ ألما في لندن، وعادت إلى سان فرانسيسكو محمّلةً بمنشورات وبطاقات تذكاريّة للمتاحف، ومجموعة هائلةٍ من كتب الفنّ والصور الفوتوغرافيّة التي التقطها ناتانيل، وخلّدت الأماكن. كانت ذاكرتها حبلى بالألوان والرسوم والتصاميم التي شاهدتها، وبصور السجّاد التركيّ، والجرار الإغريقيّة، والبساط البلجيكيّ، ولوحات الأزمنة الغابرة، والأيقونات المرصّعة بالأحجار، ولوحات العذراء النحيفة، والقدِّيسين المهازيل، وصور الأسواق التي تَعْرض الفواكهَ والخضر، وصناديق الأسماك. ناهيك بصور الملابس المعلّقة في شرفات الأزقّة الضيّقة، ومناظر رجال يلعبون النرد في الحانات، وأطفال على الشاطئ، وكلاب ضالّة، وحمير في هيئة حزينة، وأَسقف قديمةٍ لقرى افترسها الروتينُ. كان على الصور جميعها أن تُطبع على الحرير بضربة من الفرشاة وبألوان زاهية. آنذاك، كانت تمتلك ورشة تصل مساحتها إلى ثمانمئة متر مربّع، وتقع في المنطقة الصناعيّة من سان فرانسيسكو، وإلى ذلك العهد لم يكن أحد يستغلّها، فقرّرت إحياء المكان، وانكبّت على العمل.

كانت تقضي أسابيع طوالًا من دون أن تفكّر في إيشيمي، ولا في

الطفل الذي فقدته. ولم يعد هناك مجال للحميميَّة مع زوجها منذ أن عادا من رحلتهما حول أوروبا. كلٌّ منهما كان مشغولًا باهتماماته. وهكذا انتهت ليالي الأرق والمطالعة في الأريكة، بيد أنَّهما لم ينفصلا، ولم ينقطع حبل الودِّ والصداقة الحنونة بينهما. ونادرًا ما كانت ألما تسند رأسها إلى المكان المحدَّد بين كتف زوجها وذقنه، كما كانت تفعل من قبل، بحثًا عن الأمان. ولم تعد إلى النوم معه تحت الملاءات نفسها. فظلَّ ناتانيل في فراشه في مكتبه، وبقيت هي في الغرفة الزرقاء. وإذا حدث الجماع بينهما مرّة، فالأمر لا يعدو أن يكون مصادفة. وكانا دائمًا يمارسانه تحت تأثير الكحول الذي يملأ عروقهما.

ـ أريدكِ أن تتحرَّري من وعدك بالوفاء لي، ألما. هذا ظلم في حقّك، قال لها ناتانيل مرَّة، حينما كانا يتأمَّلان بإعجاب سيلَ المذنَّبات الفضائيَّة وهما في الحديقة يدخِّنان الماريجوانا: أنتِ شابَّة مليئة بالحياة، وتستحقِّين عاطفة أكثر من التي أستطيع أن أمنحكِ إيَّاها.

ـ وأنت؟ هل هناك أحد يمنحك الغرام وتريد أن تتحرَّر من قيدك؟ أنا لم أمنعك يومًا، نات.

ـ الأمر لا يتعلّق بي، ألما.

ـ إنّك تطلب منِّي أن أتحرَّر من وعدي في وقت غير مناسب، نات. أنا حامل، وأنت الآن الأب الوحيد هذه المرَّة. كنت سأخبرك بالموضوع فور تأكُّدي من الحالة.

استقبل إسحاق وليليان بيلاسكو خبر الحمل بالحماسة التي أبدياها في المرَّة الأولى، فجدّدا الغرفة التي جهَّزاها من قبل للطفل الآخر، واستعدَّا لتدليعه وتدليله. قال البطريرك: «*إذا كان المولود*

ذكرًا، ووافتني المنيَّة قبل ولادته، فأظنّكم ستعطونه اسمي. وإذا لم أمت، لا تفعلوا ذلك لأنَّه سيكون نذير شؤم عليكم. في هذه الحالة أحبُّ أن تُسمُّوه لورنس فرانكلين بيلاسكو (Laurence Franklin Belasco)، مثل والدي، والرئيس الأميركيّ العظيم روزفلت، تغمَّدهما الله برحمته». كانت قواه تضعف يومًا بعد يوم، ببطء وبشكل حتميٍّ، لكنَّه كان لا يزال يستطيع الوقوف من أجل ليليان، فزوجته باتت ظلَّه المتين. أمَّا ليليان، فكانت شبه صمّاء، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّها لم تفقد حاسّة السمع، إذ تعلَّمت كيف تشفِّر الصمت البعيد بمنتهى الدقَّة، وكان من المستحيل خداعها أو التستُّر على أمر في حضرتها. علاوةً على ما سبق، كانت ليليان قد نمّت مهارةً هائلةً تستطيع بموجبها استشعار ما سيقولونه لها، فكانت تُجيب قبل أن يتفوّهوا بكلمة واحدة. وضعت في حياتها هدفين لا ثالث لهما: أن تسهر على راحة زوجها وعافيته، وأن تجعل من ناتانيل وألما عاشقين كما يجب. من أجل ذلك، كانت تلجأ إلى وسائل بديلة كاستعمال السرير المغناطيسيّ أو تحضير مشروبات مهيِّجة للشهوة الجنسيَّة. كانت كاليفورنيا، باعتبارها حاضرةً تتصدَّر قائمة الشعوذة الطبيعيَّة، تعجُّ بخليط من بائعي الأحلام والمواساة. وكان إسحاق يتحمَّل تعليق قطع الزجاج في عنقه، ويشرب عصير البرسيم وشراب العقرب. وكانت ألما بدورها وناتانيل أيضًا يستعملان المقليَّات في زيت العشق للأعشاب الآسيويَّة، ويشربان الحساء الصينيّ بزعانف سمك القرش، ناهيك باستراتيجيَّات أخرى كانت ليليان تحاول بها إذكاء جذوة الحبِّ بينهما.

ولد لورنس فرانكلين بيلاسكو في فصل الربيع، من دون أيِّ نوع من التعقيدات، التي سبق للأطبَّاء أن حذّروا منها، لأنَّ الأمّ كان لها سابقة الارتعاش في الحمل الأوَّل. منذ اليوم الأوَّل في الحياة، كان

الاسم يبدو طويلًا نطقه جدًّا، فصار الكلّ ينادي عليه باسم لاري. ترعرع وشبّ معافًى. كان سمينًا ويتصرَّف بمفرده، من دون أن يحتاج إلى رعاية مميَّزة. كان هادئًا ومتحفِّظًا، تنتابه أحيانًا نوباتُ النعاس، فيستلقي حيث كان، ولو تحت قطع الأثاث، وقد يغيب لساعات ولا يشتاق إليه أحد. تركه والده في عهدة الأجداد وفيلق المربِّيات اللواتي تعاقبن عليه، من دون أن يعيروه اهتمامًا كبيرًا، لأنَّ سي كليف كانت تعجُّ بالراشدين الذين لا يغفلون عنه. كان الطفل لا ينام في سريره، بل يتناوب على سرير إسحاق وليليان اللذين كان يناديهما بابا وماما. أمَّا والداه الحقيقيَّان، فكان يناديهما رسميًّا أبي وأمِّي. لم يعد ناتانيل يقضي وقتًا طويلًا في البيت، كما كان يفعل في السابق، وانكبَّ على عمله، وأصبح أشهر محامٍ في المدينة، يجني أموالًا طائلة؛ وفي أوقات فراغه، كان يزاول الرياضة، ويتدرَّب على فنِّ التصوير الفوتوغرافيّ. كان ينتظر أن يكبر ولده قليلًا ليدرِّبه على مهارات ركوب مراكب الشراع، من دون أن يتخيَّل أنَّ هذا اليوم لن يأتي أبدًا. أمَّا ألما، وبعدما تأكَّدت من وجود ابنها في أيدٍ أمينة جدًّا، فقد استأنفتْ رحلاتها حول العالم بحثًا عن المواضيع التي ستجسِّدها في أعمالها، من دون أن ينتابها شعور بالندم لغيابها عن ابنها.

في البداية، كانت تبرمج رحلات قصيرة المدى حتى لا تغيب كثيرًا عن ابنها لاري. بيد أنَّها لاحظتْ أنَّ الأمر سيَّان؛ فكلَّما عادت من رحلتها، أكانت طويلة أم قصيرة المدى، استقبلها ولدُها بمصافحة لبقة، عوضًا من أن يرتمي في حضنها ليعانقها بحرارة. فاستنتجت أنَّ لاري يحبُّ القطّ أكثر منها، فقرَّرت أن تسافر إلى الشرق البعيد، وأميركا الجنوبيَّة، وبلاد نائية أخرى.

البطريرك

أمضى لاري بيلاسكو السنوات الأربع الأولى من حياته في كنف جدّيه، ينعم مثل زهرة الأوركيد برعاية خدم البيت. كانت كلّ طلباته تُلبّى عن طيب خاطر. لم تجعل هذه الطريقة في التربية، الكفيلة بإفساد أخلاق أطفال آخرين، من لاري سوى طفل خفيف الظلّ، خدومًا، لا يحبُّ الضوضاء كثيرًا. لم يتعكَّر صفوه حينما توفِّي جدّه إسحاق سنة ١٩٦٢، مع أنَّ هذا الجدّ كان بالنسبة إليه إحدى الركائز الأساسيَّة لعالمه الخياليّ. تحسَّنت عافية إسحاق كثيرًا حينما وُلد حفيدُه المفضَّل: «*أُحسُّ كأنَّني ابن عشرين عامًا، يا ليليان، ما الذي يحدث بجسدي؟*». كان يأخذ لاري للتنزُّه كلَّ يوم، ويُعلِّمه الأسرار الدفينة لنبتات حديقته، ويلعب معه على الأرض، ويقتني له كلّ الحيوانات التي كان يشتهيها في صغره: ببغاء كثيرة الكلام والحركة؛ أسماك داخل حوض؛ أرنب اختفى إلى الأبد بين أثاث البيت ما إنْ فتح لاري القفص؛ كلب كبير الأذنين من فصيلة كوكر سبانيل تبنَّته العائلةُ في السنوات اللاحقة. عجز الأطبَّاء عن تقديم شروح بشأن تحسُّن حالة

إسحاق الصحِّيَّة، بيْد أنَّ ليليان كانت تربط الأمر بفنون العلاج الذي أصبحتْ متمرِّسةً فيه. في هذه الليلة، نام لاري في سرير جدِّه، بعد أن أمضى يومًا رائعًا بصحبته في منتزه غولدين غيط، ممتطيًا صهوَة جواد يُمسك به جدّه، وهو يجلس في المقدِّمة بين ذراعيه. وفي المساء، عادا إلى البيت بعد أن لفحتهما أشعَّةُ الشمس. كانت رائحة العرق تفوح منهما، وعلامات الغبطة تبدو عليهما واضحة، فلم يفكِّرا في اقتناء جواد ومهر ليمتطيا صهوتهما. كانت ليليان تنتظرهما في الحديقة بمشواة جاهزة لشواء النقانق والخبَّازيَّات، وهو العشاء المفضَّل عند الجدّ وحفيده. وبعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء غسَّلت ليليان لاري، وساقته إلى غرفة زوجها، وهناك قرأت له حكايةً، إلى أن داهمه النعاس. بعدها احتست قدحًا من النبيذ مع قطرات من الأفيون، وتوجَّهت إلى فراشها لتنام. في الصباح الباكر، استيقظت على صوت لاري، يجذبها من كتفها بيديه الصغيرتين وهو يصيح «*مامي، مامي، لقد سقط بابي*». عثروا على إسحاق مغشيًّا عليه في الحمَّام. تعاون ناتانيل والسائق على تحريك الجسد المثلَّج والثقيل، كأنَّه من رصاص، ووضعاه فوق السرير. كانا يحاولان إبعاد ليليان عن المشهد، لكنَّها زجَّت بهما خارج الغرفة، وأحكمت إغلاق الباب، ولم تفتحه إلَّا بعد أن انتهت من غسل زوجها، وفركه باللوشن وتعطيره.

راحت تتأمَّل تفاصيل هذا الجسد الذي كانت تعرفه حقّ المعرفة وتحبُّه. كانت دهشتها كبيرةً وهي تتحسَّس هذا الجسد الذي لم ينل منه الكبرُ شيئًا، وبقي كما رأته في أوَّل مرَّة، ذلك الشابّ الطويل والعريض والذي يرفعها عاليًا وهو يضحك. كان جسدًا مدبوغًا بأشعَّة الشمس التي كانت تلفحه في أثناء عمله بالحديقة، ومكسوًّا بطبقة كثيفة من الشعر الأسود، وكانت يداه الجميلتان توحيان بطيبته. حينما فتحت

باب الغرفة، كانت هادئة جدًّا. كانت العائلة تخشى انزواءَ ليليان بعد فقدانها زَوجها، بيد أنَّها أثبتتْ لهم أنَّ الموت لا يشكِّل عائقًا أمام قنوات الاتِّصال بين من يتحابُّون بصدق.

بعد مرور عدَّة سنوات، وفي الجلسة الثانية من جلسات العلاج النفسيّ التي كان يخضع لها لاري بعد تلقِّيه تهديدات من زوجته بالتخلِّي عنه، تحدَّث لاري إلى الطبيب المعالج عن صورة جدّه المغشيِّ عليه داخل الحمَّام، ووصفها باللحظة المثيرة جدًّا في طفولته، وأقرَّ بأنَّ مشهد والده المكفَّن جاء عند نهاية الصِّبا وبداية سنِّ الرشد. كان عمره في الحادث الأوَّل لا يتجاوز أربعة أعوام، وستّة وعشرين عامًا حينما توفِّي أبوه. استفسره الطبيب النفسيّ إن كانت ذاكرته لا تزال تختزن مشاهد من السنوات الأربع الأولى من حياته، فصار يستظهر أسماء كلّ واحد من عمَّال البيت، وكذا أسماء الحيوانات، وحتى عناوين القصص التي كانت ترويها له جدّته، واستحضر كذلك لون عباءتها التي كانت ترتديها حينما فقدت بصرها. كانت السنوات الأربع التي عاشها في كنف جدّيْه من أسعد اللحظات التي عرفها في حياته، وكانت مخيِّلته حبلى بالتفاصيل الدقيقة.

شخَّص الأطبَّاء لليليان حالةَ العمى الهستيريِّ الموقَّت، لكنَّ الأمر لم يكن بالصعوبة المتوقَّعة. فلاري كان دليلَها ومرشدَها حتى حدود الطفولة، إلى أن بَلَغَ السادسة. بعدها، صارت تعتمد على نفسها، إذ كانت لا تحبّ أن تكون عالةً على أحد. كانت تحفظ عن ظهر قلب كلّ أركان منزل سي كليف وما يحويه، فتنتقل بسهولة تامَّة في جنبات البيت، حتى إنَّها كانت تغامر بطهو البسكويت لحفيدها. وغالبًا ما كانت تؤكِّد للجميع، بين الجدِّيَّة والمزاح، أنَّ إسحاق يقودها من يدها. وكي ترضي زوجها الغائب، كانت تلبس اللون البنفسجيّ دائمًا،

وهو اللون الذي كانت ترتديه حينما تعرَّفت إليه سنة ١٩١٤، ولأنَّ هذا الحلّ كان يُغْنيها كذلك عن مسألة اختيار الألوان بعشوائيَّة كلّ يوم. كانت لا تسمح لأحد بأن يتعامل معها كأنَّها معوَّقة، ولم تُشعر أحدًا بانزوائها بسبب الصمم والعمى.

كان ناتانيل يؤكِّد أنَّ أمّه تمتلك حاسَّة شمّ الكلاب المخصَّصة لصيد الحجل، ورادار الخفافيش لمعرفة الطريق والتعرُّف إلى الناس. وإلى حين وفاة جدَّته ليليان سنة ١٩٧٣، كان لاري يرفل في ثوب الحبِّ اللامشروط. وأكّد له المعالج النفسانيّ، الذي أنقذه من مغبَّة الطلاق، أنَّه يستحيل انتظار هذا النوع من الحبِّ من زوجته؛ ففي الحياة الزوجيَّة لا وجود للمشاعر المُطْلقة.

كان اسم مشتل الورود ونباتات الزينة التابع لفوكودا لا يزال في قائمة دليل الهاتف. وفي كلِّ مرَّة كانت ألما تتأكَّد من عنوانه تعجز عن التغلُّب على إغراءات الاتِّصال بإيشيمي. سبق أن تجرَّعت مرارة الفراق، وكلَّفها النسيانُ الشيءَ الكثير. وكانت تخشى، إنْ سمعتْ صوتَه من جديد، أن تعود إلى الغرق مجدَّدًا في بحر العشق نفسه. كانت حواسُّها خلال تلك السنوات قد استسلمتْ للنوم. وبموازاة جُلِّ محاولاتها للتغلُّب على ذكرى إيشيمي، نقلت إلى فرشاتها كلّ أحاسيسها التي كانت تكنّها له خصِّيصًا، لا لناتانيل. كلُّ هذه الأمور تغيَّرتْ في المأتم الثاني الذي أُقيم لصهرها، حيث انتبهت ـ في زخم الحشود الغفيرة ـ إلى وجود إيشيمي، الماثل هناك، تمامًا كما عرفته أوَّل مرَّة، لا يشوبه أيُّ تغيير. سار إيشيمي في الموكب الجنائزيّ مصحوبًا بثلاث نساء، لم تستطع ألما التعرُّف على اثنتين منهما إلّا بصعوبة، على الرَّغم من أنَّها لم تَرَهما منذ زمن بعيد. وكانت هناك امرأة أخرى بارزة للعيان، لعدم ارتدائها ثوب الحِداد الأسود كباقي

المشاركين في مراسم تشييع الجنازة. وقفت المجموعة الصغيرة على بعد مسافة من الناس أجمعين. وحين انتهت كلّ المراسيم، وتفرَّقت الجموع، أرخت ألما ذراع ناتانيل، وتبعتهم إلى الشَّارع الكبير، حيث كانت مصفوفةً سيَّاراتُ الجماهير الوافدة لتقديم العزاء. وهناك صاحت باسم إيشيمي، واستدار الأربعة في آن واحد.

ـ السيِّدة بيلاسكو، قال إيشيمي بنبرة التحيَّة، وهو ينحني احترامًا وإجلالًا.

ـ إيشيمي.. عاودت الاسمَ من جديد، وقد تصلَّبتْ أساريرُها.

ـ أقدِّم إليكِ والدتي هايكيدو فوكودا، وأختي ميگومي أندرسون، وزوجتي ديلفين، أردف قائلًا:

قدَّمت النساءُ الثلاث التحيَّةَ بانحناءة. وأحسَّت ألما بغثيان عنيف يطحن معدتها، وانحبس الهواء في صدرها وهي تتفرَّس في دلفين، التي لم تنتبه لها، لأنَّها كانت مطأطأة الرأس في إيماءة احترام وأدب. كانت شابَّة جميلة ومنتعشة، بلا مساحيق الموضة على وجهها، ترتدي بذلة مكوَّنة من تنُّورة بلون رماديٍّ فاتح، وقبَّعة مستديرة على شاكلة جاكلين كينيدي، وبتصفيفة شعر السيِّدة الأولى نفسها. كان هندامها أميركيًّا جدًّا، إلى درجة أنَّه كان لا يتناسب كثيرًا مع قسمات وجهها الآسيويَّة.

ـ شكرًا لحضورك، تمتمت ألما، بعدما تمكَّنت من استعادة أنفاسها.

ـ لقد كان السيِّد إسحاق بيلاسكو وليّ نعمتنا، وسنظلّ شاكرين له إلى الأبد. فبفضله، تمكَّنَّا من العودة إلى كاليفورنيا.. هو من موّل بماله المشتل، وساعدنا على التخلُّص من الضائقة الماليَّة التي كنَّا

نتخبَّط فيها، ذكرتْ ميگومي بتأثُّر كبير.

لم تكن ألما تجهل ذلك؛ فقد سبق لناتانيل وإيشيمي أن أخبراها بالأمر. إلَّا أنَّ وقار هذه العائلة أكَّد لها من جديد أنَّ صهرها كان رجلًا فريدًا من نوعه. كانت تحبُّه أكثر ممَّا كانت ستحبّ والدها، لو لم تنتزعه الحربُ منها. فإسحاق بيلاسكو كان نقيض والدها باروخ ميندل: كان رجلًا طيِّبًا، ومسالمًا، ومستعدًّا دائمًا للعطاء. لم تكن إلى حدود تلك اللحظة، وكغيرها من باقي أفراد عائلة بيلاسكو المشدوهين، قد أحسَّت بحرقة الفراق التي ألمَّت بها في تلك الآونة، فاغرورقتْ عيناها. إلَّا أنَّها ابتلعت الدموع، وحبست النواحَ الهائجَ في صدرها منذ أيَّام. وانتبهت إلى أنَّ دلفين كانت تتفرَّس فيها كذلك بالحدَّة نفسها، وتوهَّمتْ أنَّها رأت في عينيها الوضَّاحتين تعابير فضوليَّة ذكيَّة جدًّا، وظنَّت أنَّها تعرف تمامًا الدورَ الذي أدَّته في ماضي إيشيمي. فأحسَّت بنوع من المهانة.

ـ تعازينا الحارَّة، سيِّدة بيلاسكو، قال إيشيمي، وهو يشدُّ على ذراع والدته لمواصلة السير من جديد.

ـ ألما. ما زلت أُدعى ألما، تمتمتْ.

ـ إلى اللقاء.. ألما، ردّد مجدَّدًا.

انتظرتْ أسبوعين كاملين اتِّصالَ إيشيمي. كانت تراقب البريد عن كثب، وبقلق كبير، وتهتزّ من مكانها كلَّما رنّ جرسُ الهاتف، وتتخيَّل آلاف الأعذار لهذا الصمت، من دون أن تفكِّر في العُذر الأكثر واقعيَّة: أنَّ إيشيمي أصبح متزوِّجًا. تعمَّدتْ عدَم التفكير في دلفين، وهي الشابَّة الصغيرة والنحيفة والرقيقة، التي تفوقها شبابًا وجمالًا، بنظراتها المتفحِّصة وبيديها ـ بقفَّازين ـ تتأبَّط إحداهما ذراع إيشيمي.

في أحد أيَّام السبت، قصدتْ منطقة مارتينت، على متن سيَّارتها، ووضعتْ نظَّارة شمسيَّة كبيرة الحجم فوق عينيها، ومنديلًا فوق رأسها. جالت بالسيَّارة حول مشروع فوكودا ثلاث مرَّات، إلَّا أنَّها لم تتجرَّأ على النزول منها. وفي الاثنين الثاني، لم تعد تتحمَّل، فاتَّصلتْ بالرقم الذي حفظته عن ظهر قلب، من كثرة معاينته على دليل الهاتف. «*فوكودا، ورود ونبتات الفضاءات الداخليَّة. نحن في الخدمة*»، كان الصوت المتحدِّث صوت امرأة، فلم تشكّ أبدًا في أنَّها دلفين، على الرَّغم من أنَّها لم تسمعها قطّ تتحدَّث. أقفلتْ ألما الخطّ، وعاودت الاتِّصال مرَّات عديدة، على أمل أن يرّد إيشيمي، لكنْ في كلِّ مرَّة كان يخرج صوت دلفين الأنثويّ، فتغلق الخطّ ثانيةً. ومرَّةً، خلال هذه المكالمات الهاتفيَّة، انتظرت المرأتان على الخطِّ دقيقةً تقريبًا، إلى أن تفضَّلت دلفين بالسؤال بلطف «*كيف يمكنني مساعدتك سيِّدة بيلاسكو*». وضعت ألما السمَّاعة في ذعر، وأقسمتْ ألَّا تعاود الاتِّصالَ ثانيةً بإيشيمي. وبعد ثلاثة أيَّام، أحضر لها البريدُ ظرفًا بخطِّ إيشيمي مكتوبًا بحبر أسود. فأغلقت الأبوابَ على نفسها داخل غرفتها، وهي تضمّ الظرف إلى صدرها، وترتعد خوفًا وأملًا.

جدّد لها إيشيمي في الرسالة عزاءه بوفاة إسحاق بيلاسكو، واعترف لها بتأثُّره الشديد لرؤيتها مجدَّدًا بعد عدَّة سنوات، على الرَّغم من أنَّه كان يسمع عنها الكثير، وعن تألُّقها في ميدان عملها، وأعمالها الخيريَّة، وطالع في غير مرَّة صورَها على الصحف اليوميَّة. روى لها أنَّ ميگومي أصبحتْ قابلة في أحد المستشفيات، وأنَّها تزوَّجتْ من بويد أندرسون، وأنجبتْ طفلًا يدعى شارل، وأنَّ هايكيدو سافرت لعدَّة مرَّات إلى اليابان، وهناك تعلَّمت فنّ الـ «إيكيبانا». وأورد لها في الفقرة الأخيرة أنَّه تزوَّج من دلفين أكيمورا (Delphine Akimura)، وهي

شابَّة يابانيَّة ـ أميركيَّة من الجيل الثاني مثله. كان عمرها حين دخلتْ معتقل طوپاز مع عائلتها سنة واحدة. إلَّا أنَّه لا يتذكَّر أنَّه رآها يومًا هناك؛ فالتعارف بينهما حدث بعد عدَّة سنوات. أخبرها أنَّها كانت مدرِّسة، وتخلَّت عن مهنة التدريس من أجل التفرُّغ لتسيير أمور المشتل الذي ازدهر كثيرًا بفضلها؛ فعمَّا قريب سيفتحون دكَّانًا آخر في سان فرانسيسكو. وأنهى رسالته من دون الإشارة إلى إمكان اللقاء، ولم يعلن أنَّه سينتظر الجواب، ولم تكن هناك ولو إشارة واحدة إلى الماضي المشترك. كانت مراسلة إخباريَّة ورسميَّة تخلو من المراوغات الشعريَّة، والاستطرادات الفلسفيَّة كتلك التي كانت تميِّز سابقاتها من الرسائل التي كانت تستلمها في فترة حبّهما. بل إنَّها لم تحمل في طيَّاتها رسمًا واحدًا من رسومها التي كان يرفقها بمراسلاته. الشيء الوحيد الذي بعث الراحة النفسيَّة في ألما هو عدم ورود ذكر المكالمات الهاتفيَّة، التي حدّثته عنها بالتأكيد زوجتُه دلفين. استوعبتْ ألما الخطابَ الذي فهمته إشعارًا بالوداع، ورغبةً في قطع حبل الاتِّصال كلِّيًّا.

استمرَّت الحياة اليوميَّة لألما في السنوات السبع الموالية، من دون أحداث كبيرة. اختلطتْ عليها كلُّ أسفارها الشيِّقة والمتواترة، وكأنَّها مغامرة واحدة لماركو بولو، كما كان يقول لها دائمًا ناتانيل، الذي لم يحتجّ يومًا على غيابها الطويل. كانا ينعمان بالراحة واحدهما مع الآخر، وكأنَّهما توأمان لا ينفصلان. كان في إمكان أحدهما أن يتنبَّأ بما يدور في خلد الآخر، وأن يتلمَّس معنويَّاته ورغباته، ويُتِمّ الجملة التي استهلَّها الآخر. كان الحنان يغمرهما، ولا داعي للحديث عن البديهيَّات. كانت صداقتهما الرائعة كذلك من المسلَّمات. كانا يتقاسمان الالتزامات الاجتماعيَّة، وحبَّ الفنّ والموسيقى، واختيار

المطاعم الفاخرة، ومجموعات الخمور التي صارا يصنِّفانها شيئًا فشيئًا، وفرحة أيَّام العطل العائليَّة برفقة لاري. كان الطفل وديعًا جدًّا وحنونًا إلى درجة استغراب والديه فكانا يمازحانه، بعيدًا عن مسمع ليليان التي كانت لا تقبل أيَّ نوع من الانتقادات المُوجَّهة إلى حفيدها. كانوا يردِّدون أنَّه سيفاجئ الجميع في المستقبل بانضمامه إلى طائفة معيَّنة، أو لارتكابه جريمة شنعاء؛ فمن المستحيل أن يُبحر في بحر الحياة كدلفين مرح من دون أن تعترضه نكباتٌ تنغِّص عليه العيش. وحينما شبّ الولد، أخذاه في رحلات سنويَّة وطويلة حول العالم؛ فزارا أرخبيل غالاباغوس، وأدغال الأمازون، وقاما برحلات سفاري في أفريقيا؛ وكلّ هذه الزيارات سيُعيدها لاري لاحقًا مع أبنائه. لن ينسى لاري أبدًا تلك اللحظة الساحرة من طفولته حينما قدَّم الطعامَ في راحة يده إلى زرافة في محميَّة في كينيا، فدنت منه بلسانها الخشن الأزرق، وعينيها الوديعتين بأهداب الأوبرا، ورائحة الكلأ القويَّة. كان لناتانيل وألما فضاؤهما الرحب في نُزُل سي كليف، حيث كانا يعيشان وكأنَّهما في فندق فخم، لا يكترثان لشيء، لأنَّ ليليان كانت تتكلَّف بكلِّ الأعباء المنزليَّة. ظلَّت المرأة الطيِّبة تتقصَّى أخبارهما والسؤال عن أحوال العاطفة بينهما، من غير أن تزعجهما، ولم يحدث أن تضايقا مرَّة واحدة من فضول الجدَّة الذي كان يستهويهما. فإذا كانت ألما في سان فرانسيسكو، كان الزوجان يحرصان على قضاء الليلة معًا، يشربان النبيذ ويتجاذبان أطراف الحديث. كانا يحتفلان بالإنجازات المشتركة، وبالنجاحات التي يحقِّقها كلٌّ واحد منهما، من دون أن يتجرَّأ أيٌّ منهما على طرح الأسئلة التي قد تعكِّر الصفو العامّ. كانا يؤمنان بأنَّ توازن هذه العلاقة رهن بالتزام كلّ طرف حدوده. فكلاهما كان يتقبَّل فكرة الخصوصيَّة، وأنَّ لكلِّ واحد منهم عالمه السرِّيّ، وساعاته

الخاصَّة، وليس من الضروري الإفصاح عن كلِّ شيء. فالتستُّر على بعض الأمور لا يُعَدّ من الأكاذيب. ولمَّا كانت العلاقة الحميميَّة غير متداولة بينهما كثيرًا، إنْ لم نقل منعدمة، فقد كانت ألما تشتبه في مجامعة زوجها نساء أخريات، لأنَّ فكرة العفاف كانت تبدو سخيفة. إلَّا أنَّ ناتانيل كان حريصًا على الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه بتحرِّي السرِّيَّة وتجنُّب الفضيحة.

أمَّا عنها، فقد كانت أسفارُها فرصةً للانزلاق في الخيانة. كان يكفي أن تلمِّح لتتلقَّى الإجابة. بيد أنَّ هذا المتنفَّس لم يكن ليشفي غليلها، فتظلّ شاردةً. لطالما فكَّرتْ في أنَّ عليها، في هذه السنّ، أن تنعم بحياة جنسيَّة نشيطة جدًّا؛ فهذا شيء مهمٌّ للتوازن النفسيّ وللصحَّة، مثل التمارين الرياضيَّة والحِمْية المتوازنة. كانت لا تحبُّ أن يصبح جسدُها فريسةً للجفاف. ومن هذا المنطلق، كانت تعتبر الجنس مهمَّة كبقيَّة المهمّات، عوضًا عن أن يكون هديَّةً للحواسّ. فالعشق بالنسبة إليها يتطلَّب وقتًا وثقةً، ولا يمكنه أن يتحقَّق في ليلة عابرة مع شخص مجهول لن تعود لرؤيته ثانيةً. وعلى الرَّغم من الفوران الجنسيّ، والحبّ الماجن الذي كانت تعيش على أصدائه كاليفورنيا، حيث كان الكلّ يتضاجع، فإنَّها لم تنسَ ذكرى إيشيمي، ولطالما تساءلتْ إنْ كانت هذه الذكرى حجَّةً على عجزها وبرودها الجنسيّ. إلَّا أنَّها حينما التقت إيشيمي مجدَّدًا، لم تعد تطرح على نفسها تلك الأسئلة المضنية، ولم تعد تبحث عن المواساة في أحضان الغرباء.

١٢ من سبتمبر ١٩٧٨

سبق أن شرحتَ لي أنَّ الإلهام مبعثُه القلق، وأنَّ الإبداع والخلق رهينان بالحركيَّة. الرسم في حدِّ ذاته حركيَّة، يا ألما. لهذا أُعجبتُ كثيرًا بتصاميمك الأخيرة، تبدو سهلة، على الرَّغم من أنَّني واعٍ حجمَ القلق اللازم للتحكُّم في الريشة، كما تفعلين أنت. تعجبنيٍ بصورة خاصَّة، أشجارُك الخريفيَّة التي تتساقط أوراقُها بوداعة. هكذا بالضبط أحبّ أن أتخلَّص من أوراقي في خريف الحياة هذا، بكلِّ سهولة وأناقة. لِمَ التمسُّك بأمور سنفقدها في كلِّ الأحوال؟ أظنّ أنَّني أعني الشباب بكلامي. هذا الشباب الذي لطالما تحدَّثنا عنه في حواراتنا.

سأعدّ لك يوم الخميس المقبل حوضًا بأملاح الاستحمام وطحالب بحريَّة أرسلوها إليّ من اليابان.

إيشي

صامويل مينديل

التقت ألما صامويل مينديل في پاريس، في ربيع سنة ١٩٦٧، في آخر مرحلة من رحلتها إلى كيوتو التي دامت شهرين كاملين، حيث ذهبتْ لتتلقَّى تعليمها الأوَّليّ في فنّ الخطّ الياباني («الشودو») باستعمال الحبر المستخرج من حجر الأوبسيديان فوق ورق أبيض، وتحت إشراف متخصِّص بفنِّ الخطِّ، كان يجبرها على تكرار الخطوط آلاف المرَّات، إلى أن تحصل على خليط رائع من الخفَّة والقوَّة، وآنذاك فحسب كانت تستطيع المرور إلى حركيَّة موالية. زارت اليابان مرَّات عديدة، واستهوتها البلاد كثيرًا، وخصوصًا كيوتو، وبعض القرى الجبليَّة التي كانت ترى فيها آثارَ إيشيمي في كلِّ مكان. كانت خطوط «الشودو» المتحرِّرة والسلسة، وهي تمسك بالفرشاة في الاتِّجاه العموديّ، تساعدها على التعبير بشكل مقتضب ومبدع، من دون الخوض في التفاصيل، وهو الأسلوب الذي سبق لڤيرا نومان أن اعتمدته في رسم الطيور، والفراشات، والورود والرسوم التجريديَّة. آنذاك كانت ڤيرا تمتلك صناعة دوليَّة، تبيع الملايين، وتُشغل مئات

الفنَّانين. وكانت هناك عدَّة أروقة للفنّ باسمها، وما يزيد على عشرين ألف محلّ في مختلف بقاع العالم لبيع تصاميمها على ملابس الموضة، وقِطع الديكور، وأشياء الاستعمال المنزلي. إلَّا أنَّ هذا الإنتاج الغزير لم يكن يومًا يشكِّل هدفًا لألما، التي بقيتْ حريصةً على المنتوج الوحيد والمميَّز. وبعد شهرين من الخطوط السوداء، صارت تُعِدّ عدَّتها للعودة إلى سان فرانسيسكو للبدء بالعمل بالألوان.

بالنسبة إلى أخيها صامويل، كانت تلك هي المرَّة الأولى التي عاد فيها إلى باريس منذ زمن الحرب. كان عتاد ألما ثقيلًا، يتكوَّن من صندوق يضمُّ لُفافات رسومها، ومئات الأفلام الفوتوغرافيَّة المحمَّلة بفنِّ الخطِّ والرسم لاستلهام الأفكار. أمَّا عدّة صامويل فكانت زهيدة جدًّا. فقد جاء من «إسرائيل» ببنطلون للتمويه، وسترةٍ من الجلد الغليظ، ينتعل حذاء الجنود، ويحمل فوق ظهره حقيبة مهترئة تضمُّ زوجين من الملابس الداخليَّة. لم تتغيَّر هيئته أبدًا: ففي الخامسة والأربعين من عمره كان لا يزال في منظر الجنديّ، برأسه الحليق وبشرته السمراء جرَّاء تعرُّضها لأشعَّة الشمس. كان هذا اللقاء بالنسبة للأَخَوَيْن ألما وصامويل، بمثابة رحلة الحجّ نحو الماضي. ومع مرور الوقت نشبتْ بينهما صداقة، طعَّمتها كمِّيَّاتُ الرسائل المكثَّفة التي كانا يتبادلانها. فكلاهما كان يمتلك حسّ الكتابة. ألما من جهتها اعتادت الكتابة منذ أيَّام شبابها حينما كانت تصبّ جامّ غضبها في مذكَّراتها، وصامويل الذي كان قليل الكلام ومرتابًا، وجد هو أيضًا ضالَّته في الكتابة التي أفصحتْ عن ثرثرته ولطفه.

استأجرا سيَّارة في باريس، وأخذها صامويل لزيارة البلدة التي كاد يلقى فيها حتفه في المرَّة الأولى. تبعته ألما وهي تتذكَّر الطريق نفسها التي سلكتها برفقة أخوالها في الأربعينيَّات. منذ ذلك الوقت

كانت أوروپا قد استفاقت من سباتها، وانبعثتْ من رمادها، فاستعصى على صامويل التعرُّفُ إلى مكان الحادث بالضبط. في السابق كانت المنطقة عبارة عن كتلة من الأطلال والأنقاض والبيوت المتواضعة. والآن ومع إعادة الإعمار بدا المكان مختلفًا، تحيط به حقولُ الكروم والخزامى التي تثير البهجةَ في النفوس في أزهى فصول السنة. وحتى القبور كانت تبدو في أبهى حلَّة لها، مزيَّنةً باللوحات الجنائزيَّة، ولوحات الملائكة الرخاميَّة، والصلبان، والأسيجة الحديديَّة، والأشجار الوارفة الظلال، وطيور الفرفر، والحمام، والكلّ يسبح في صمت ثقيل. رافقتهم المسؤولة عن المقابر، وهي شابَّة بشوشة، بين الطرق الفسيحة للمقابر وهي تبحث عن اللوحة التذكاريَّة التي وضعتها هناك عائلة بيلاسكو منذ سنين خلت، فعثرتْ عليها. لم يطرأ عليها أيّ تغيير: «صامويل ميندل، ١٩٢٢ ـ ١٩٤٤ طيَّار القوَّات الملكيَّة الجوِّيَّة لبريطانيا العظمى». ووُضعت تحتها لوحة صغيرة أخرى منقوشة بالنحاس، كُتب عليها: «توفِّي دفاعًا عن فرنسا وعن الحرِّيَّة». خلع صامويل قبَّعته وحكَّ رأسه بنشوة.

ـ المعدن يبدو لامعًا جدًّا، لاحظ لتوِّه.

ـ إنَّ جدِّي هو من يسهر على نظافة قبور الجنود وصيانتها. هو من وضع اللوحة الصغيرة الثانية. أتعرف؟ لقد كان جدِّي في حركة المقاومة.

ـ أحقًّا ما تقولين؟ ما اسمه؟

ـ كلوطير مارتينو (Clotaire Martinaux)

ـ لم أتعرَّف إليه للأسف، ذكر صامويل.

ـ أكنتم أنتم كذلك في حركة المقاومة؟

ـ أجل. لمدَّة من الزمن.

ـ إذن عليك أن تأتي إلى بيتنا لشرب قدح. سيفرح جدِّي كثيرًا برؤيتك، سيِّد...

ـ صامويل مينديل.

استغربت الشابَّة للحظة، واقتربت من جديد لقراءة اللوحة الجنائزيَّة، وفغرت فاهها.

ـ نعم. هذا أنا، لم أمت بالمرَّة كما تلاحظين، أردف صامويل.

انتهى الأمر بالأربعة في نهاية المطاف في مطبخ أحد المنازل المجاورة. هناك شربوا پيرنود (Pernaud) وأكلوا الخبز المحشوّ بالنقانق. وهناك كذلك عانقهم كلوطير مارتينو بحرارة كبيرة. كان رجلًا قصير القامة، ثخين الجسم، تنبعث منه رائحةُ الثوم. وكانت تغمره فرحة كبيرة وهو يُجيب عن أسئلة صامويل، ويناديه بـ (Mon frère)، وهو يملأ القدح لزوَّاره تارةً بعد تارة. لاحظ صامويل أنَّ الرجل لم يكن من الأبطال الذين سطعوا بعد اتِّفاقيَّة الهدنة؛ فقد سبق له أن سمع بالطائرة الإنكليزيَّة التي سقطتْ فوق بلدته، وسمع بإنقاذ واحد من الطيَّارين، وكان يعرف الشخصين اللذين تولَّيا عمليَّة الإنقاذ، وكذا أسماء رجال آخرين. كان يصغي إلى حكاية صامويل وهو ينشِّف عينيْه ويمسح أنفه بالمنديل المعلَّق بعنقه، ويستعمله كذلك لتجفيف عرق الجبين، ودهون اليد. «جدّي رجل شديد البكاء»، أضافت الحفيدة مفسِّرةً.

روى صامويل لمضيفه أنَّه عندما كان في صفوف المقاومة اليهوديَّة، كان يُدعى جون فالجو، وأنَّه أمضى شهورًا عدَّة فاقدًا الذاكرة، بسبب ارتجاج الدماغ عند سقوط الطائرة، إلَّا أنَّ الوضع لم

يستمرّ طويلًا، واستطاع في النهاية استرجاعَ ذاكرته شيئًا فشيئًا. كانت مخيِّلته تختزن صورًا مبهمة لمنزل كبير تتحرَّكُ في داخله عاملاتٌ يرتدين زيًّا موحَّدًا أسود وطرحة بيضاء، لكنَّه كان يفكِّر في الرحيل إلى بولندا للبحث عن جذوره، هذا إنْ كانت الحرب قد أبقتْ على شيء. فمن هناك كانت اللغة التي يلعن ويحلم بها، ويُجري بواسطتها العمليَّاتِ الحسابيَّةَ من جمعٍ وطرحٍ، ولا بدَّ لهذا المنزل المحفور في ذاكرته من أن يكون في جزءٍ معيَّنٍ من هذه البلاد.

ـ كان عليّ أن أنتظر نهايةَ الحرب لأتعرَّف إلى اسمي ومصير عائلتي. سنة ١٩٤٤، ظهرتْ بوادر هزيمة الألمان. أتذكر ذلك، سيِّد مارتينو؟ فالأمور تقلَّبتْ بشكل مفاجئ في الجبهة الشرقيَّة، على غير توقُّعات الإنكليز والأميركيين. كانوا يظنُّون أنَّ الجيش الأحمر هو عبارة عن حشود من البدويِّين غير النظاميِّين، حشود جوعى، من دون أسلحة متطوِّرة، وغير قادرة على مواجهة هتلر.

ـ أتذكَّر ذلك جيِّدًا Mon Frère، أردف مارتينو. فبعد معركة ستالينغراد انهارت أسطورةُ هتلر الذي لا يُقهر. وصرنا نحلم قليلًا. يجب الإقرار بأنَّ الروس هم مَن كسروا شوكةَ الألمان وقوَّضوا دعائمهم سنة ١٩٤٣.

ـ هزيمة ستالينغراد أجبرتهم على الركوع والانسحاب حتى حدود برلين، أضاف صامويل.

ـ بعدها كان الموعد مع إنزال قوَّات التحالف على شواطئ نورماندي، في يونيو ١٩٤٤، ثم تحرير فرنسا، بعد شهرين. إنَّها أيَّام لا تُنسى.

ـ لقد وقعتُ في الأسر، وتعرَّضتْ مجموعتي لشتَّى أنواع التعذيب

على أيدي وحدات أس أس، واغتيل كلُّ رفاقي الناجين من الموت المحقَّق بعيار ناري على قفاهم فور استسلامهم. تمكَّنتُ من الفرار بمحض المصادفة، وجبت الأرضَ طولًا وعرضًا بحثًا عن الطعام. كنت أحوم حول المزارع المجاورة، لعلِّي أعثر على شيء أسدّ به رمقي. أكلنا كلّ شيء حتى الكلاب والقطط.

روى له ضراوةَ تلك الشهور، التي كانت أفظعَ أيَّام الحرب بالنسبة إليه. كان يسير وحيدًا، تائهًا، جائعًا، من دون أدنى اتِّصال بعناصر المقاومة. يعيش في الليل، ويقتات على التربة المشبعة بالديدان، وما نَهَبَ من طعام، إلى أن ألقوا القبضَ عليه في سپتمبر.

أمضى الأشهر الأربعة الموالية في الأعمال الشاقَّة: بدايةً في معسكر الاعتقال مونوڤيتز (Monowitz) وبعدها في معسكر أوشوفيتز ـ بيركينو (Auschwitz - Birkenau)، حيث لقي مليون ومئتا ألف شخص حتفَهم من الرجال والنساء والأطفال. في مطلع شهر يناير، وتزامنًا مع تقدُّم القوَّات الروسيَّة، تلقَّى النازيُّون أوامرَ بفكِّ الحصار عن المعتقلين. فأخرجوهم في مسيرة فوق الثلوج، بلا غذاء ولا غطاء، وساقوهم نحو ألمانيا. كان المتعثِّرون في مسيرة الموت هاته بسبب ضعفهم يلقون حتفهم بطلقة ناريَّة واحدة. لكنَّ أفراد وحدات أس أس، وفي عجلتهم للفرار من الروس، عجزوا عن قتل الجميع، فتركوا وراءهم ٧ آلاف أسير على قيد الحياة. وأنا كنت واحدًا منهم.

ـ لا أظنّ أنَّ الروس أتوا بهدف إنقاذنا، أوضَح صامويل. إذ إنَّ الجبهة الأوكرانيَّة الأولى مرَّت بمحاذاة المعتقل وفتحتْ كلّ أبوابه، فخرجنا نجرُّ أذيالنا. لم يعترض سبيلَنا أحد. ولم نتلقَّ مساعدة من أحد. لم يقدِّم إلينا أحد كسرة خبز. كنَّا منبوذين أينما حللنا وارتحلنا.

ـ أعرف ذلك Mon Frère. هنا في فرنسا، لا أحد كان يساعد

اليهود. أقولها بكلِّ خجل. كانت أوقاتًا صعبة. كُلّنا عانينا الجوعَ. وفي هذه الظروف لا يتَّسع المجال للعمل الإنسانيّ.

ـ وحتى صهاينة فلسطين أداروا ظهورَهم للناجين من المعتقلات. لقد كنَّا من نفايات الحرب التي لا طائل منها، أردف صامويل.

أوضح لهم أنَّ الصهاينة كانوا يبحثون عن الشباب الأقوياء، والذين يتمتَّعون بصحَّة جيِّدة؛ عن شباب محاربين وبواسل يستطيعون مواجهة العرب. وكانوا يبحثون كذلك عن الشغِّيلة المكافحين من أجل حرث الأرض. لكنَّ من الأمور القليلة التي ما زال يتذكَّرها عن حياته الماضية، الطيران، وهذا ما ساعده على الهجرة. وفي وقت وجيز تحوَّل إلى جندي، ثم إلى طيَّار، وأخيرًا أصبح جاسوسًا. وسنة ١٩٤٨، أصبح بمثابة الحارس الشخصيّ لداڤيد بن غوريون، وبعد سنة أصبح من أكبر عملاء الموساد.

قضى الأخوان الليلة في فندق في القرية. وفي اليوم الموالي عادا إلى باريس، ومن هناك سافرا جوًّا إلى فارصوفيا. تقفَّيا في بولندا آثارَ أبويهما، لكن من دون جدوى، لم يعثرا سوى على اسميهما مدوَّنيْن في لوائح الوكالة اليهوديَّة لضحايا ترايبلينكا. بعدها ذهبا لزيارة ما تبقَّى من معتقل أوشوفيتز. كان صامويل يحاول عبثًا أن يتصالح مع الماضي، لكنَّ الزيارة لم تكن في حدِّ ذاتها سوى رحلة حجّ نحو الأغوار الدفينة لكوابيسه، فأيقن مجدَّدًا أنَّ بني البشر هم أبشع الحيوانات على وجه الأرض.

ـ الألمان، يا ألما، لا يعانون اضطرابات نفسيَّة. هم أناس عاديُّون، مثلي ومثلك. لكن أيّ شخص إذا اجتمعت فيه العصبيَّة والتطرُّف، السلطة والجبروت، يمكن أن يتحوَّل إلى وحش. بالضبط مثل عناصر أس أس في أوشوفيتز ـ قال لأخته.

ـ أتعتقد أنَّك ستتعامل كوحش، إذا سنحتْ لك الفرصةُ بذلك، صامويل؟

ـ ليست المسألة مسألة اعتقاد، يا ألما. لقد كنتُ من الجنود طوال حياتي، وخضتُ معاركَ كثيرة، واستجوبتُ العديد من الأسرى والمعتقلين. أظنُّكِ لا ترغبين في معرفة التفاصيل.

ناتانيل

كانت بوادرُ المرض العُضال التي ألمَّت بناتانيل تُحْدق به كثيرًا منذ سنوات، دون أن ينتبه أحد للأمر. في البداية، اختلطت الأعراض الأولى بموجة الزكام الحادّ الذي ضرب في تلك السنة الشتويَّة كلّ ساكني سان فرانسيسكو. وفي غضون أسابيع قليلة، اختفت كلّ الأعراض، التي ما لبثتْ أن ظهرتْ من جديد في السنوات الموالية، مخلِّفةً آثارًا بليغةً من التعب والوهن الحادّ.

كان ناتانيل في بعض الأيَّام لا يقوى على المشي، فأضحى يجرّ قدميه بهيئة منكمشة، وكأنَّه يحمل على ظهره كيسًا من الرمل. واظب على العمل ساعات محدَّدة كلّ يوم، بيد أنَّ مردوديَّته باتت ضعيفة، فتراكمت الوثائقُ على مكتبه، وبدت كأنَّها تتناسل وحدها في الليل. راحت كلّ الأمور تختلط عليه، وبات يتيه في القضايا التي كان يفكّها من قبلُ مغمضَ العينيْن، فأضحى لا يتذكَّر ما يقرأه لتوّه. كان دائمًا يعاني الأرق، الذي اشتدَّت حدَّته، مرفوقًا بنوبات الحرارة والتعرُّق. «*نحن الاثنين نعاني حرارة سنّ اليأس*»، ذكر لألما ضاحكًا، فلم تعقّب

بشيء. توقَّف عن ممارسة الرياضة وركوب المركب الشراعيّ الذي ظلَّ مركونًا في المرفأ لا يحرِّكه أحد، فعشَّشت النوارسُ فيه. وكان يستعصي عليه ابتلاعُ الطعام، ففَقَدَ وزنه، ولم تعد له شهيَّة للأكل.

كانت ألما تُعدّ له عصائرَ ممزوجةً ببذرة البروتين، فيشربها بصعوبة تامَّة، ثم يتقيَّأها في صمت كي لا يُفزعها. وحينما تقرَّح جلده، نصحه طبيبُ العائلة ـ وهو تحفة قديمة جدًّا كبعض قطع الأثاث التي اقتناها إسحاق بيلاسكو سنة ١٩١٤، وسبق أن شخَّص الأعراض الأولى على أنَّها فقرُ الدم، ثم تعفُّن معويّ، والصداع النصفيّ ثم الاكتئاب ـ باستشارة اختصاصيٍّ بالسرطان. هوت الدنيا بثقلها على ألما، التي أحسَّت بمقدار حبِّها وحاجتها إلى ناتانيل، وتأهَّبت لمحاربة المرض، والتصدِّي للقدر والآلهة والشياطين. تخلَّت عن كلّ اهتماماتها للتفرُّغ لرعايته، وتوقَّفتْ عن الرسم، وأقالت كلّ العمَّال الذين يشتغلون في الورشة، ولم تعد تذهب إلى هناك سوى لمراقبة خدمات النظافة مرَّةً في الشهر. وهكذا، غرقت الورشةُ الكبيرة، المضاءةُ بنور خافت ينبعث من زجاج النوافذ الداكن، في صمت الكنائس الرهيب؛ وتوقَّفت الحركةُ بين عشيَّة وضحاها؛ وأضحت الورشة معلَّقةً في الزمان، كتقنيَّةٍ سينمائيَّةٍ جاهزةٍ للانطلاق في المرحلة الموالية. اللوحات الطويلة مغطَّاة بالأقمشة، ولفافات الثوب الواقفة كحرَّاس ممشوقي القوام، وأخرى مرسومة تتدلَّى من إطاراتها، ونماذج الرسوم والألوان مطبوعة على الحيطان، قوارير وزجاجات، ملاءات، وفرشات وَرِيَش، وهمسات جهاز التهوية الذي ينفث في المكان عبق الصباغة والمحاليل الكيميائيَّة. توقَّفت كذلك أسفارها، بكلِّ ما تعنيه من إيحاءات وحرِّيَّة. وهكذا، وبعيدًا عن ميدانها، انسلخت من جلدها، وَوُلدت من جديد طريَّةً نديَّةً، يغمرها الفضولُ وحبُّ المغامرة، وتفتَّحتْ على كلِّ ما يَهَبُه

اليومُ لها، بلا مخاوف ولا مخطَّطات. كانت حقيقةُ ألما الجديدة واقعًا ملموسًا، إلى درجة أنَّها كانت تندهش من انعكاس صورتها على مرايا الفنادق التي تمرُّ بها، لأنَّها كانت تتوقَّع رؤيةَ وجه آخر غير الذي كانت تملكه في سان فرانسيسكو؛ كما أنَّها توقَّفت عن رؤية إيشمي.

جمعتهما المصادفةُ بعد سبع سنوات من رحيل إسحاق بيلاسكو، والتقيا من جديد قبل أن يتمكَّن المرضُ من ناتانيل بأربع عشرة سنة، في المعرض السنويّ لجمعيَّة الأوركيد، وسط آلاف الزوَّار. لمحها إيشيمي من بعيد، واقترب منها ليُحيِّيها. كان بمفرده. تحدَّثا طويلًا عن ورود الأوركيديا ـ كان مشاركًا في المعرض بنوعين من مشتله ـ وتوجّها بعدها لتناول الطعام في مطعم مجاور. تجاذبا هُناك أطرافَ الحديث طويلًا، وتطرَّقا إلى هذا وذاك. حدَّثته ألما عن أسفارها الأخيرة، وعن تصاميمها الجديدة، وعن ابنها لاري. وتكلَّم إيشيمي على نباتاته وابنيه: ميكي (Miki) ابن السنتين، وبيتر (Peter) ابن الثمانية أشهر. لم يتطرَّقا أبدًا في حديثهما إلى ناتانيل ودلفين. استغرق تناول الطعام مدَّة ثلاث ساعات بلا توقُّف. كان في جعبتهما الكثير، فتحدَّثا بحذر كبير ومن دون السقوط في الماضي، وكأنَّهما يتزلَّجان فوق جليد هشّ. كانا يتفحَّصان واحدهما الآخر، ويتفرَّسان في ملامحهما، في محاولة للغوص في الأعماق والتنبُّؤ بالنيَّات، واعيَيْن شرارةَ الانجذاب المتوهِّج التي لم تنطفئ قطّ. كانا قد أتمَّا ربيعهما السابع والثلاثين، وكانت ألما تبدو أكبر سنًّا بقسمات وجهها المشدودة والحادَّة، وأصبحتْ أكثر نحفًا وأشدّ ثقة بالنفس. أمَّا إيشيمي، فلم يطرأ عليه أيُّ تغيُّر، فبدا في هيئة المراهق الهادئ التي كان عليها من قبل، وبالصوت الخافت والسلوك الرقيق نفسه، والقدرة ذاتها على اختراق آخر نقطة من خلاياها بحضوره القويّ. سبرتْ ألما أغواره،

واستطاعت أن ترى فيه ذلك الطفل ذا الأعوام الثمانية في مستنبت الورود في سي كليف، وابن العشر سنوات الذي سلَّمها القطّ قبل أن يختفي، والعاشق الولهان في موتيل الصراصير، ورجل الحِداد في مأتم حميها. كلّ المشاهد كانت متشابهة، وكأنَّها صورٌ مركَّبة فوق ورق شفَّاف. كان إيشيمي رجلًا ثابتًا لا يتغيَّر. كان حبُّه وعشقه يحرقان جلدها؛ وما أشدّ رغبتها في أن تمدَّ يدها من تحت المائدة وتلمسه وتدنو منه، وتدسّ أنفها في عنقه، لترى إنْ كانت رائحةُ التراب والعشب لا تزال تفوح منه. كانت تحبّ أن تقول له إنَّها من دونه تعيش مسرنمة، وأنْ لا أحد في الكون يمكن أن يملأ الفراغ الفظيع الذي خلَّفه غيابه، وإنَّها مستعدَّة للتضحية بالغالي والنفيس في سبيل العودة إلى حضنه عاريةً، فلا شيء يهمّها سوى وجوده. رافقها إيشيمي إلى سيَّارتها، بخطًى بطيئة، لتأخير موعد الفراق، واستقلَّا المصعد نحو الطابق الثالث للمرأب. أخرجت مفاتيحها، وعَرَضتْ عليه أن تأخذه إلى سيَّارته التي كانت على مقربة منهما، فلم يُبدِ اعتراضًا. وفي ظلمة السيَّارة التقيا في وابل من القبلات.

في السنوات اللاحقة كان عليهما أن يحافظا على عشقهما بعيدًا عن هموم الحياة. فعاشا حبّهما بكلِّ عنفوان، من دون المساس بناتانيل ودلفين. في اجتماعهما كان يغيب العالم، وعند الافتراق في الفندق الذي يُشبعان فيه غرائزَهما، كانا يفهمان أنَّ الاتِّصال سينقطع حتى الموعد المقبل، أو عبر الرسائل. كانت ألما تحتفظ بهذه الرسائل، على الرَّغم من أنَّ إيشيمي كان يحافظ فيها على نبرته التحفُّظيَّة التي تميِّز بني جِلدته، والتي تتعارض مع مظاهر الحبِّ الرقيق الذي كان يُعرب عنه، وتتعارض مع احتدام شوقه وشهوته ساعةَ اللقاء.

كانت المشاعر تتملَّكه، فيعبِّر لها عن خلجات نفسه بواسطة عُلب

خشبيَّة جميلة، كأنَّه يُعدّ العدَّة للنزهة في الطبيعة، فيرسل إليها زهورَ الغاردينيا التي تعشقها، والتي لم تستعمل قطّ أريجَها في زجاجة عطر. كان يُعدّ لها الشاي بحفاوة كبيرة، ويُنشدها شعرًا، ويهديها رسومًا. أحيانًا، كان ينادي عليها بـ «صغيرتي»، وهو اللقب الذي لم يستعمله قطّ في رسائله. لم تكن ألما مضطرَّة إلى إعطاء زوجها شروحًا؛ فكلاهما كان يعيش بشكل مستقلّ، ولم يحدث أن سألت إيشيمي يومًا عن طريقته مع دلفين التي كان يعيش معها ويشتغل إلى جوارها. كانت تعلم جيِّدًا أنَّه يحبّ زوجته، وأنَّه أب ممتاز وربّ عائلة، وأنَّه يحظى بمكانة مهمَّة داخل الجالية اليابانيَّة، التي كانت تعتبره معلِّمًا، فيلجأ أفرادها إليه لإسداء النصح إلى المنحرفين ومصالحة الأعداء، وتنصيبه حَكَمًا عادلًا في مختلف النزاعات. أمَّا رجل الحبِّ الجيَّاش، والابتكارات الإلكترونيَّة، والضحكات، والقفشات، والمداعبات بين ملاءات السرير، والعجلة والشراهة والفرحة، والكلمات الحميمة المهموس بها في لحظة الاستراحة بين عناقين، ووابل القبلات والحميميَّة الثائرة... فكان يخصُّها بها هي فقط.

باتت الرسائل تصل مباشرةً بعد لقائهما الأوَّل في أحضان الأوركيديا، وزادت حينما سقط ناتانيل طريحَ الفراش. كانت هذه المراسلات تعوِّض لقاءاتهما السرِّيَّة؛ وكانت رسائل ألما مهمومة تكشف عن امرأة جريحة بسبب الفراق، أمَّا رسائل إيشيمي فكانت كالمياه الهادئة الشفَّافة، بيْد أنَّ سطورها كانت تصدح بالعشق المتبادل. بالنسبة إلى ألما، كانت هذه الرسائل تميط اللثام عن بواطن إيشيمي الهائلة، فتفضح أحاسيسه وأحلامه وصبابته ومُثله. فزاد حبُّها واشتهاؤها له أكثر بفضل هذه الرسائل، التي باتت تحتاج إليها ولا تستطيع العيش من دونها، إلى درجة أنَّها ـ بعد ترمُّلها وحرِّيَّتها، وعلى

الرَّغم من اتِّصالاتهما الهاتفيَّة ولقاءاتهما المتكرِّرة، بل بعد أسفارهما ـ فقد واظبا على الكتابة. كان إيشيمي حريصًا كلّ الحرص على الوفاء بالاتِّفاق المبرم بينهما، وهو اتِّفاقٌ قضى بتمزيق الرسائل فور قراءتها. لكنَّ ألما احتفظتْ بها لنفسها كي تقرأها باستمرار.

١٨ يوليو ١٩٨٤

أعرف كيف أنَّك تتألَّمين، وأتحسَّر لعجزي عن مساعدتك وأنا أكتب إليكِ. أعلمُ بأنَّكِ مهمومة بالتعامل مع مرض زوجك. لا يمكنك التحكُّم في الأمر، ألما. فقط تستطيعين مرافقته بكلِّ شجاعة.

لقد كان فراقنا في منتهى الألم. فنحن اعتدنا كثيرًا أيَّام الخميس المقدَّس، ووجبات العشاء الانفراديَّة، والتجوُّل في الحديقة، والمغامرات القصيرة في أيَّام نهاية الأسبوع. لِمَ العالم يبدو لي شاحبًا؟ الأصوات تتناهى إليَّ من بعيد، كأنَّما دُسّ فيها جهازُ التحكُّم في الصوت! الطعام غدا بنكهة الصابون. لم نلتقِ منذ شهور طويلة! لقد اشتريت عطرك لأشمّ رائحتك. أُسلّي نفسي بكتابة الشعر. سأعطيك إيَّاه يومًا، فهو لك في نهاية المطاف.

وأنتِ التي تدّعين أنَّني لست رومانسيًّا! لم تُجدِ معي نفعًا كلُّ سنوات التعبُّد الروحيّ، إذ لم أتمكَّن من التخلص من العشق. سأنتظر رسائلك وصوتك على الهاتف. أتخيَّلك تصلين مهرولة... الحبّ يؤلم أحيانًا.

إيشي

استقرَّ ناتانيل وألما في غرفتيْ ليليان وإسحاق المتّصلتين ببوَّابة واحدة مُشرعة دائمًا. عادا إلى السهر من جديد مثل أيَّام زواجهما الأولى، ملتصقين واحدهما بالآخر فوق الأريكة أو فوق السرير. كانت تطالع كتابًا في يدها، وتداعب ناتانيل باليد الأخرى، في حين كان ينشد الراحةَ بعينين مغمضتين، يتنفَّس بحشرجة في صدره. في إحدى هذه الليالي اندهشا معًا لبكائهما في صمت، حتى لا يُزعج أحدُهما الآخر. في البداية، تحسَّستْ ألما وجنتيْ زوجها المبلَّلتين، وبعد حين عاين بنفسه كذلك دموعها الغريبة، فنهض ليتأكَّد من صحَّتها. لم يرَها تبكي يومًا حتى في اللحظات العصيبة.

ـ إنَّك تموت، أليس كذلك، تمتمت.

ـ أجل يا ألما، لكنْ لا تبكي من أجلي.

ـ لا أبكي من أجلك فقط، بل من أجلي كذلك، من أجلنا

نحن. أبكي على كلّ الأمور التي لم أَبُحْ بها لك، على التكتُّم والكذب والخيانة والوقت الذي نهبته منك.

ـ ما الذي تقولينه، بالله عليك؟ أنتِ لم تخدعيني بحبّك لإيشيمي. هناك سرِّيَّة وأكاذيب ضروريّة في الحياة، مثل بعض الحقائق التي من الأفضل كتمانها.

ـ هل أنت مطَّلع على قصَّة إيشيمي؟ منذ متى؟ قالت بدهشة.

ـ منذ البداية. إنَّ القلب كبير، ويتَّسع لحبِّ أكثر من شخص واحد.

ـ حدِّثني عن نفسك، نات. لم أتقصَّ أسرارك يومًا، وأخالها عديدة. حدِّثني كيلا أفاجئك بأسراري.

ـ لقد جمعنا حبٌّ كبير، يا ألما. دائمًا أقول إنَّ الشخص يجب أن يتزوَّج بأفضل صديقة له. أنا أعرفك أكثر من أيِّ شخص آخر. فما تسكتين عنه يمكنني التنبُّؤ به. في المقابل، أنت لا تعرفين عنِّي شيئًا. ولديك الحقّ في معرفة من أكون.

آنذاك، حدَّثها عن ليني بيل. في تلك الليلة المسهَّدة والطويلة، رَوَيا تفاصيل حياتيْهما بعجالة لإحساسهما بأنَّ الوقت يداهمهما.

منذ أن تكوّن لدى ناتانيل وعي بالحياة، وهو يحسُّ بنوع من الانجذاب، والخوف والشهوة، إزاء من هم مثله من الرجال. في البداية، كان يحسّ بالانجذاب نحو زملائه في المدرسة، وتطوَّر الإحساس نحو رجال آخرين، لينتهي به الأمر مع ليني الذي أصبح عاشقَه ثماني سنوات. كان يقاوم بشدَّة تيَّارَ هذه المشاعر التي كانت تنتابه، فيحتار بين نبضات قلبه وصوتِ العقل الذي لا يرحمه. في أيَّام

المدرسة، وقبل أن يتمكَّن من تشخيص حالته، كان باقي الأطفال يعرفون أنَّه شخص غير عاديّ، فينهالون عليه بالضرب والإهانة والنبذ. كانت تلك السنوات، التي عانى فيها كلَّ أشكال التهديدات، من أبشع أيَّام حياته. وفور انتهاء المدرسة، وبين الفوران المحموم لمرحلة الشباب، تنبَّه إلى أنَّه لم يكن غريبًا كما كان يظنّ؛ فأينما حلَّ وارتحل كان يلتقي رجالًا يرسلون إلى عينيه نظرات تدعوه وتتوسَّل إليه. المبادرة جاءت بدايةً من تلميذٍ آخرَ في جامعة هارڤرد. في ما بعد، اكتشف أنَّ المثليّة حقيقةٌ مَعيشة. وتعرَّف إلى أُناس ينتمون إلى شرائح اجتماعيَّة مختلفة، من أساتذة، ومثقّفين، وطلبة، وحاخامات، ولاعبي كرة؛ وفي الشارع كان هناك بحّارة وعمّال، وبيروقراطيُّون، وسياسيُّون، وتجّار، ومجرمون. كان عالمًا فاحشًا، يتحرَّى السرِّيَّة في حركاته وسكناته، خوفًا من الأحكام القطعيَّة للمجتمع والأخلاق والقانون. كان محظورًا على المثليِّين ولوجُ عتبة الفنادق والنوادي والكنائس. وداخل الحانات، كانوا يعانون الإقصاءَ التامّ، فلا يُقدَّم إليهم ما يطلبونه من شراب، بل كان من الممكن رميهم خارج الأماكن العموميَّة بتهمة الشذوذ. كانت حانات المثليِّين ونواديهم تُديرها المافيا. وبعودته إلى سان فرانسيسكو متأبِّطًا دبلومَ المحاماة، وجد أنَّ ثقافة المثليِّين قد أينعتْ بشكل محتشم، وكان لا بدّ من انتظار سنوات عديدة لتخرج إلى الوجود بشكل علنيّ. وحينما بدأت المظاهرات الاجتماعيَّة في الستِّينيَّات، وبينها حركةُ تحرير المثليِّين، كان ناتانيل متزوِّجًا بألما، وكان عمر ولده لاري عشر سنوات. «*أنا لم أتزوَّج بكِ لأُخفي مثليّتي. بل فعلتُ ذلك من أجل الصداقة والحبّ اللذين أكنّهما لكِ*»، ذكر لألما في تلك الليلة.

عاش ناتانيل سنوات طويلة من الانفصام: حياة عامَّة نزيهة ومليئة بالنجاح، وأخرى سرِّيَّة وغير شرعيَّة. تعرَّف إلى ليني بيل سنة ١٩٧٦ في أحد الحمَّامات التركيَّة، وهو المكان المناسب لكلٍّ الخروق ولكلّ ما هو غير مألوف للدخول في قصَّة حبٍّ كقصَّتهما.

كان ناتانيل على وشك أن يُتمّ الخمسين من عمره، وكان ليني يصغره بستّ سنوات. كان جميل المُحيَّا، كأنَّه من الآلهة الذكور في شكل تمثال رومانيّ. وكان شخصًا لا يعبأ بالرسميَّات، متعاليًا، محبًّا للخطيئة، وكان لا يشبه ناتانيل في طبعه. للوهلة الأولى، وقع بينهما انجذاب جسديّ، فقصدا غرفةً أحكما إغلاقَها، ومكثا فيها حتى الفجر، يتيهان في دروب اللذّة، ويهاجمان بعضهما بعضًا كأنَّهما محاربان، يرفسان الخطيئةَ، ويغوصان في هذيان الجسديْن. ثم ضربا موعدًا آخر في اليوم التالي، في أحد الفنادق، قصداه، كلٌّ بمفرده. أخذ ليني عشبة الماريجوانا والكوكايين، إلَّا أنَّ ناتانيل طلب إليه عدمَ استخدام المخدِّرات، إذ كان يحبّ أن يعيش التجربة بوعيه التامّ. وبعد أسبوع من اللقاءات، أدركا تمامًا أنَّ هذه الشهوة الجامحة ما هي إلَّا بداية حبٍّ كبير، فأطلقا العنان لخوض التجربة بكلٍّ عنفوان. استأجرا بيتًا صغيرًا في وسط المدينة، جهَّزاه بأثاث قليل، وبأفضل مشغِّل للموسيقى، وتعاهدا بأن لا يطأ أحدٌ غيرهما المكان. وهكذا، وجد ناتانيل ضالَّته التي بحث عنها منذ خمس وثلاثين سنة. لكنْ في الظاهر لم يطرأ أيُّ تغيير على حياته، فواظب على مظهر الرجل البرجوازيّ، ولم يخطر في بال أحد أن يشتبه في أحواله، أو ينتبه أحدهم للنقص الحادّ الذي طاول عدد ساعات العمل ومزاولة الرياضة. أمَّا ليني، فقد تبدَّلتْ أحواله بسبب تأثير عاشقه فيه. فهدأت طباعُه الثائرة، وعمل

على تعويض الصخب والعشوائيَّة اللذين كانا يطغيان على سائر أنشطته بتأمُّل زخم السعادة التي غمرته للتوّ. فإذا غاب عن ناتانيل، لم يتوقَّف عن التفكير فيه. لم يعد يقصد الحمَّامات ونوادي المثليّين، ونادرًا ما كان أصدقاؤه يغرونه بالذهاب لحضور حفلة. لم تعد لديه رغبة في التعرُّف إلى أُناس آخرين، لأنَّ ناتانيل كان يكفيه. كان سراجَه، وقُطْبَ أيَّامه، فاستسلم لوداعة هذا الحبِّ بتعبُّد، وسار على خطى ناتانيل يستمع إلى موسيقاه نفسها، ويأكل طعامه، ويشرب شرابه المفضَّل، ويرتدي سترته نفسها المصنوعة من الكاشمير، ومعطفه المصنوع من وبر الإبل، ويستعمل مرطِّب الحلاقة نفسه. عمد ناتانيل على تركيب خطّ هاتفي شخصيّ في وكالته، لا يستعمل رقمه سوى ليني. وهكذا، كانا على اتِّصال دائم، أحدهما بالآخر، يخرجان في نزهة على متن المركب الشراعيّ، ويتجوَّلان، ويلتقيان في مدن نائية، بعيدًا عن أعين الناس.

في البداية، لم تتأثَّر علاقة ناتانيل بليني بسبب المرض المبهم الذي كانت أعراضه مختلفة ومتقطِّعة، تظهر وتغيب من دون أسباب تُذكر. لكنْ حينما تمكَّن منه المرض، صار يتلاشى وينكمش على نفسه فيبدو أقرب إلى هيئة ظلٍّ، وبات يَقْبل بمحدوديَّته ويطلب يدَ الغوث، انتهت المسرَّات وفقد الرغبة في الحياة، وأحسَّ بأنَّ كلّ ما يُحيط به بات شاحبًا، فاستسلم يتجرَّع حنين الماضي، مثل عجوز هرم، يندب حظَّه ويحسُّ بالندم على بعض الأمور التي صنعها، وعلى أخرى لم يتمكَّن من تحقيقها. كان يعلم بأنَّ الحياة باتت أيَّامًا معدودة، فيخالجه الخوف. كان ليني يحاول أن ينتشله من براثن الاكتئاب، فيدعمه بمرحه المتعمَّد وبصلابة حبِّه، الذي ازداد أكثر وأكثر في هذه اللحظات

العصيبة، فكان عند حسن الظنِّ به. كانا يجتمعان في الشقَّة الصغيرة ليواسي أحدُهما الآخر. لم تعد لناتانيل القوَّة اللازمة ولا الرغبة الجامحة في ممارسة الجنس. وكان ليني لا يطالبه بشيء، بل يكتفي بمجالسته في اللحظات الحميمة، يُهدِّئه إن ارتفعتْ حرارتُه، ويناوله الزبادي بملعقة الرُضّع، وينام إلى جنبه لسماع الموسيقى، ويحكّ خدوشَه ببلسم ليِّن، ويساعده على الجلوس في المرحاض. وفي نهاية المطاف، لازم ناتانيل الفراش، ولم يعد يقوى على الخروج. ونهضتْ ألما بمهمَّة الممرِّضة، ترعاه بحنان ليني نفسه، إلَّا أنَّها كانت الصديقة والزوجة، في حين كان ليني حبَّه الكبير. هذا ما استوعبته ألما في ليلة البوح بالأسرار تلك.

وساعةَ الفجر، حين استسلم ناتانيل للنوم، بحثت ألما عن رقم هاتف ليني في الدليل، واتَّصلت به متوسِّلةً إيَّاه أن يحضر لمساعدتها، فمعًا سيستطيعان تحمُّل مغبَّة هذا الاحتضار، كما قالت له. وصل ليني في أقلِّ من أربعين دقيقة. فتحتْ له ألما الباب من دون أن تخلع عنها منامتها. فوجد نفسه أمام امرأة منهكة بالأرق والتعب والألم، وانتبهت لوجود رجل جميل، بشعر مبلَّل استحمَّ لتوِّه، وبعينين زرقاوين محمرَّتين.

ـ أنا ليني بيل، يا سيِّدتي، تمتم بتأثُّر.

ـ ناديني بألما، من فضلك. هذا بيتك يا ليني، أعقبت.

حاول أن يمدَّ يده ليصافحها، لكنَّه توقَّف عن المصافحة وتعانقا.

أضحى ليني يزور منزل سي كليف يوميًّا بعد الانتهاء من عمله في عيادة الأسنان. وأخبروا لاري ودوريس، وكلّ العمَّال والأصدقاء

والزائرين بأنَّ ليني هو أحد الممرِّضين. لم يبادر أحد إلى السؤال. اتَّصلتْ ألما بأحد النجَّارين، وعهدتْ إليه مهمَّة إصلاح عطب باب غرفة النوم المفتوحة دائمًا، وتركتهما بمفردهما. أحسَّت براحة وبفرحة عارمة حينما تنبَّهت إلى انتعاش زوجها فور ظهور ليني. وساعةَ الغروب كان الثلاثة يحتسون أكوابَ الشاي، المُرفق بالخبز الإنكليزي الصغير، وأحيانًا كانا يلعبان الورق ـ الشدَّة إذا تحمَّس ناتانيل لذلك. آنذاك، كان المجال يتَّسع لتشخيص مرض واحد، هو الفظيع من نوعه: مرض السيدا (الأيدز)، الذي كان قد أصبح له اسم منذ أشهر فقط. لكنَّ الكلّ كان يعلم بأنَّه وباء قاتل لا محالة. بعض المُصابين به يسقطون صرعى من الوهلة الأولى، والبعض الآخر يتأخَّر قليلًا؛ المسألة مسألة وقت لا غير. لم تحاول ألما أن تستفسر لماذا ألمَّ المرض بناتانيل بشكل خاصٍّ، واستثنى ليني. ولئن تساءلت، فلن يعطيها أحد جوابًا يشفي غليلها. كانت الحالات تتناسل بسرعة هائلة، وبات الناس جميعًا يتحدَّثون عن الوباء العالميّ، وعن عقاب الله على عار المثليَّة الجنسيَّة. كان لفظ «السيدا» يُهمس به في صمت مطبق، إذ لا يمكن تقبُّل فكرة وجوده داخل أسرة أو جماعة، لأنَّ إعلان تفشِّيه يعني المجاهرة بفواحشَ لا تُغتفر.

التفسير الرسميّ الوحيد الذي كان يروَّج في وسط العائلة أنَّ ناتانيل مصاب بالسرطان؛ ولمَّا لم يُجْدِ الطبّ التقليديّ نفعًا، قصد ليني المكسيكَ للبحث عن مخدِّرات غريبة، لم يكن لها مفعول هي الأخرى. أمَّا ألما فجرَّبتْ كلّ الوعود بالطبِّ البديل التي حصلت عليها ـ بدءًا بالوخز بالإبر، واستعمال الأعشاب ودهون تشاينا تاون، وصولًا إلى حمَّام الطين الخارق في المسابح المعدنيَّة لكاليستورغا. آنذاك،

تمكَّنتْ من فهم أساليب ليليان المتوتِّرة لعلاج إسحاق، وانتابها ندم على رمي تمثال البارون سامدي في القمامة.

بعد مرور تسعة أشهر، تحوَّل ناتانيل إلى كتلة من العظام. كان الهواء لا يكاد يصل إلى رئتيه عبر شرايينه المسدودة إلَّا بصعوبة. كان يعاني الظمأ الحادّ، وتورّم الجلد. فقد صوتَه، ودخل عقلُه في دوَّامة من الهذيان. وفي أحد الأيَّام العصيبة، وبينما كانوا ثلاثتهم في البيت، توسَّلتْ إليه ألما وليني، وقد تشابكتْ أيديهما في ظلمة الغرفة المغلقة، بالتوقُّف عن مصارعة المرض، والرحيل بسلام، لأنَّهما تعبا من معايشة هذا العذاب. وفي لحظة من لحظات الصفاء النادرة، فتح ناتانيل عينيه المغشيِّتين من كثرة الألم، وحرَّك شفتيه مكوِّنًا كلمة واحدة صامتة: «شكرًا». فهم الاثنان الكلمة على أنَّها أمر، وكان الأمر كذلك. نهض ليني وقبَّله قبلة فوق شفتيه، قبل أن يضخّ جرعةً زائدةً من مخدِّر المورفين في كيس المصل. وعلى الجهة الأخرى للسرير، جلستْ ألما على ركبتيها تذكِّر زوجها بمقدار حبِّها له، وبحبِّ ليني، وكيف أنَّها لن تنساه أبدًا، وأنْ لا أحد يستطيع فصلهما.

وحينما كانا يتقاسمان احتساء شاي المانجو، ويسترجعان ذكرياتهما في *لارك هاوس*، تساءلتْ ألما وليني عن سبب عدم تواصلهما ثلاثة عقود. فبعد أن ساعد ليني ألما على إغلاق عينيْ ناتانيل، وتهيئة الجثَّة لتقديمها في حلَّة لائقة إلى لاري ودوريس، وبعد مسح آثار ما فعلاه، ودّع ليني ألما، ورحل لحال سبيله. كانا قد أمضيا معًا شهورًا طويلة تحت ظلِّ الألم وقلَّة الحيلة. لم يَحْدث أن التقيا يومًا تحت ضوء النهار، كانا دائمًا يجتمعان في هذه الغرفة التي تفوح منها رائحةُ النعناع والموت، قبل أن تطرق المنيَّة باب ناتانيل تستعجله.

مرَّت عليهما ليالٍ بيضاء لم يغمض لهما فيها جفن، فكانا يشربان الويسكي أو يدخِّنان الماريجوانا للتخفيف من همومهما. وخلال هذه الليالي الطويلة، روى كلّ منهما للآخر تفاصيلَ حياته، وتحدَّثا عن رغباتهما الدفينة، وعن أسرارهما. وهكذا استطاعا أن يتعارفا بعمق. لم يكن هناك مجال، خلال فترة الاحتضار البطيئة، للادِّعاءات الفارغة، فكشف الواحد نفسه للآخر، كأنَّهما يتناجيان.

وعلى الرَّغم من ذلك، ولعلَّه بسبب ذلك، تحابّا بحنان هادئ ويائس، وكُتب عليهما الفراق لعجزهما عن التصدِّي لهول الأحداث اليوميَّة.

ـ جمعتنا صداقة غريبة! قالت ألما.

ـ كان ناتانيل ممتنًّا لوجودنا نحن الاثنين إلى جانبه، إلى درجة أنَّه طلب منِّي مرَّة أن أتزوَّج بكِ بعد ترمُّلك. كان يخشى عليك كثيرًا.

ـ يا لها من فكرة رائعة! لماذا لم تقترح عليَّ الأمر حينها يا ليني؟ كنَّا سنُكوِّن ثنائيًّا هائلًا ونحمي ظهرينا، بالضبط مثلما فعلنا أنا وناتانيل.

ـ أنا مثليّ يا ألما.

ـ حتى ناتانيل كان كذلك. زواجنا كان أبيض بلا مجامعة. كنت ستظلّ مع عشيقك وأنا مع إيشيمي، هكذا بالضبط، بما أنَّنا لا نستطيع المجاهرة بعشقنا علنًا.

ـ ما زال الوقت في أيدينا. أترغبين في الزواج بي، ألما بيلاسكو؟

ـ لكنْ، ألم تقل لي إنَّك ستموت قريبًا؟ لا أحبُّ أن أترمَّل للمرَّة الثانية.

ضحكا عن طيب خاطر. وحفَّزتهما هذه الضحكاتُ على الذهاب إلى المطعم لرؤية إنْ كانت قائمة الطعام تحوي أكلًا شهيًّا. مدّ ليني ذراعه إلى ألما، وخرجا معًا يعبران الممرَّ الزجاجيّ الذي يؤدِّي إلى البيت الرئيس، وهي البناية القديمة التابعة التي يملكها الرجل الشهير بصناعة الشوكولاتة، وهما يتساءلان لِمَ يتحدَّث الكلّ عن الأحزان والهموم.

ـ ماذا عسانا نصنع من هذه السعادة التي تظهر من دون سبب واضح، هذه الفرحة التي لا يحتاج وجودها لأيّ تبرير؟ سألت ألما.

تقدَّما بخطًى قصيرة ومتوتِّرة، متلاصقيْن من أثر البرد. كان فصل الخريف على وشك الانتهاء، وكانت الذكريات تلاحقهما بقوَّة: ذكرياتُ الحبِّ الممزوج بهذه السعادة المتبادلة. أشارت ألما إلى ليني بأنَّها رأت للتوِّ في الحديقة أعقابَ أوشحة ورديَّة. لكنَّ الوقت كان مظلمًا، وربَّما لن يكون الشبح الذي يظهر أحيانًا لإيميلي لينذر بمأساة وشيكة، بل قد يكون سرابًا كسائر الأوهام التي تعشِّش في لارك هاوس.

العاشق الياباني

وصلتْ إيرينا باثيلي يومَ الخميس إلى *لارك هاوس* باكرًا، للاطمئنان على ألما قبل أن تذهب إلى عملها. لم تعد ألما تحتاج إليها لارتداء ملابسها، بيْد أنَّ زيارة البنت كانت تُفرحها، فتجلسان معًا لاحتساء أوَّل كوب شاي في اليوم. «*تزوَّجي بحفيدي، إيرينا. هذا جميل. لن ننساه لك نحن عائلة* بيلاسكو»، ردَّدتْ على مسمعها. كانت إيرينا تحبّ أن توضح لها أنَّها لا تزال فريسة الرعب، إلَّا أنَّها لم تكن تستطيع أن تفتح فمها من شدّة الخجل. كيف ستوضح للجدّة أنَّ وحوش ذاكرتها المنكمشة في جحورها سرعان ما تُطلُّ برؤوس السحليّات كلَّما تأهَّبتْ لمجامعة حفيدها! فهم سيت أنَّها لا تزال غير مستعدَّة للحديث، فتوقَّف عن الإلحاح عليها بزيارة طبيب نفسانيّ. واكتفى بأنْ أصبح أمين سرِّها، تروي له لواعجَ نفسها ومكنونات صدرها. وتسلَّح بالصبر. ومرَّة، اقترحتْ عليه علاجًا بديلًا يقضي بمشاهدتهما شرائط الفيديو التي صوَّرها زوجُ أمّها، وكانت لا تزال على شبكة الإنترنت تُعذِّبها كلَّما اطَّلعتْ عليها. لكنَّ سيت كان يخشى

عواقب إطلاق سراح وحوش الذاكرة النائمة. كان يقترح المشيَ خطوةً خطوةً، بحبٍّ وفكاهة. وهكذا، صارا يتقدَّمان في الرقصة، خطوتيْن إلى الأمام، وأخرى إلى الوراء. والنتائج كانت إيجابيَّة، فأصبحا ينامان في سرير واحد، وأحيانًا يستيقظان متعانقين.

في هذا الصباح، لم تعثر إيرينا على ألما في شقَّتها، وانتبهت لعدم وجود الحقيبة المخصَّصة لمشاويرها السرِّيَّة وغلالات نومها الحريريَّة. ولأوَّل مرَّة، غابت صورة إيشيمي عن المكان، فعرفتْ أنَّ سيَّارتها لن تكون مركونة في مكانها المعتاد. فلم تنزعج، لأنَّ ألما كانت بخير، وبالتأكيد سينتظرها إيشيمي في مكان معيَّن... ولن تكون وحيدة.

لم تكن لديها مداومة يوم السبت في *لارك هاوس*، فلازمتْ فراشها حتى التاسعة. باتت تنعم بهذه الراحة خلال أيَّام نهاية الأسبوع، منذ أن أصبحت تعيش برفقة سيت، وتخلَّت عن مهمَّة غسل الكلاب. أيقظها سيت بفنجان قهوة بالحليب، وجلس إلى جوارها بالسرير لبرمجة يومهما. كان قد وصل لتوِّه من قاعة الرياضة، تفوح منه رائحةُ الاستحمام، بشعره المبلَّل وجسده المنتشي بالتمارين الرياضيَّة. لم يكن يتخيَّل أنَّ هذا اليوم سيكون يومَ الفراق، لا يوم اللقاء مع إيرينا. في هذه اللحظة، رنّ الهاتف، ففتح الخطّ ليستقبل مكالمة من لاري بيلاسكو، الذي أخبره بنبأ انزلاق سيَّارة الجدّة في طريق وعرة، فهوت في خندق بانحدار خمسة عشر مترًا.

ـ إنَّها الآن في وحدة العناية المركَّزة في المستشفى المركزي مارين، قال له.

ـ هل الحالة خطيرة، سأل سيت مذعورًا.

ـ أجل، فالسيَّارة تحطَّمتْ كلِّيًا. لا أدري ما الذي كانت تصنعه أميّ في تلك الأماكن.

ـ هل كانت وحدها يا أبي؟

ـ أجل.

عندما هرعوا جميعًا لزيارتها في المستشفى وجدوها في وعيها، صافيةَ الذهن، على الرَّغم من المخدِّرات التي كانت تتقطَّر من عروقها، والتي كانت بحسب عبارة الطبيب كفيلةً بأن تُرْدي حمارًا على الأرض. تلقَّت ضربةَ الحادث من دون حماية تُذكر. ولو أنَّها كانت في سيَّارة ثقيلة، لربَّما كانت الفاجعة أخفّ، إلَّا أنَّ سيَّارتها الصغيرة من نوع «سمارت كار» الصفراء اللون تفكَّكتْ أجزاؤها، ودُهستْ فوق مقعدها المربوط بحزام الأمان. وحينما كان الأهل يتحسَّرون في قاعة الانتظار، أوضح لاري لسيت إمكان اللجوء إلى حلٍّ مستعصٍ يتلخَّص في إجراء عمليَّة عموديَّة لألما، لإعادة الأعضاء إلى مكانها الطبيعي، وتركها مفتوحةً لبضعة أيَّام، إلى أن يخفّ الانتفاخ، وتَسْهل بالتالي عمليَّة التدخُّل الجراحيّ. بعدها، يمكن التفكيرُ في جراحة العظام.

كان خطر إجراء عمليَّة من هذا النوع يتضاعف كثيرًا في حالة كبار السنّ، مثل حالة ألما التي تجاوزت الثمانين. حتى الجرَّاح الذي استقبلها في المستشفى لم يجرؤ على المحاولة. وأكَّدت كاترين هوبي، التي هرعتْ إلى المكان بصحبة ليني بيل، أنَّ إجراء جراحة من هذا الطراز ستكون صعبةً وغيرَ مجدية، وأنَّه من الأفضل وضعها في مكان مريح في انتظار أَجَلِها، الذي لن يتأخَّر طويلًا. انسحبتْ إيرينا خلسةً من جموع الأهل والأصحاب، الذين كانوا يناقشون مع كاتي مسألة نقل ألما إلى سان فرانسيسكو، حيث وسائل الطبّ متقدِّمة ومتوافرة هناك، ودخلت خلسةً إلى غرفة ألما.

ـ أتشعرين بالألم؟ سألتْها بهمس. أتريدين أن أنادي على إيشيمي؟

كانت ألما تتلقّى أوكسجينًا اصطناعيًّا، إلّا أنّها كانت تتنفّس وحدها. أومأتْ إلى إيرينا أن تدنو منها بحركة خفيفة. لم تشأ إيرينا أن تفكِّر في الجسد المثخن بالجروح والمغطّى بالملاءات، وركّزتْ في الوجه الذي بدا جميلًا كما هو من دون تغيير.

ـ كيرستن، تمتمتْ ألما.

ـ أتريدين أن أنادي على كيرستن؟ سألتها إيرينا بدهشة.

ـ قولي لهم إنّني لا أريد أن يلمسني أحد، أضافت ألما بوضوح، قبل أن تغمض عينيها المتعبتين.

تحدَّث سيت مع أخي كيرستن، وفي المساء اصطحبها إلى المستشفى. جلست المرأة فوق الكرسيّ الوحيد الموجود في غرفة ألما، تنتظر التعليمات بصبر، تمامًا مثلما كانت تفعل في الورشة خلال الشهور المنصرمة، قبل أن تَشْرع في عملها الجديد مع كاترين هوبي في العيادة المخصَّصة لأصحاب الآلام المزمنة. وفي لحظة من اللحظات، ومع آخر إشراقة للنهار على النوافذ، استفاقت ألما من سبات المخدّرات. جالت ببصرها على كلّ الحاضرين، وهي تحاول التعرُّف إليهم: عائلتها، إيرينا، ليني، وكاتي. وفجأةً، تحمَّست لرؤية كيرستن. اقتربت المرأة من السرير، وأخذت اليدَ الأخرى التي لا مصل فيها، وانهالت عليها بالقبلات المبلّلة من الأصابع إلى المرفق، وهي تسألها إن كانت مريضة، وهل ستتحسَّن حالتها؟ وتكرِّر على مسمعها أنّها تحبّها كثيرًا. حاول لاري أن يُبعدها، إلّا أنَّ ألما أشارت إليه بهمس أن يتركهما على انفراد.

في الليلتين الأولى والثانية من السهر، تناوب لاري ودوريس وسيت على البقاء مع ألما، وفي الليلة الثالثة، أيقنتْ إيرينا أنَّ العائلة متعبة جدًّا، وعرضتْ أن تظلّ إلى جوار ألما، التي لزمت الصمتَ منذ زيارة كيرستن، وظلَّت نائمةً تلهث مثل كلب منهك القوى، تودِّع الحياة. تأمَّلتها إيرينا، وخرجتْ بخلاصة أنَّ الموت والحياة هما من التجارب الشاقَّة جدًّا. أكَّد لهم الطبيب أنَّها لا تشعر بالألم، لأنَّها كانت مخدَّرة حتى النخاع.

خفّت ضوضاء الطابق الذي توجد فيه غرفةُ ألما، في ساعة محدَّدة من الليل، وانغمست الحجرةُ في ظلمة هادئة. إلَّا أنَّ الممرَّات الخارجيَّة بقيت مضاءة بمصابيح وهَّاجة، وبفضل انعكاسات أضواء الحواسيب الزرقاء في غرفة الممرِّضات. كانت الأصوات الوحيدة التي تصل إلى إيرينا عبارة عن همسات المكيِّفات الهوائيَّة، وحشرجة التنفُّس الصعب للمرأة الجاثمة في سريرها. وأحيانًا كانت تصل إليها أصداءُ خطوات خافتة تنبعث من جهة الباب الأخرى. أحضروا لها بطَّانيَّة ووسادة لتتَّخذ مُتَّكأً هناك، لكنَّ الجوّ كان حارًّا جدًّا، ويستحيل النوم فوق الكرسيّ، فجلست على الأرض، وأسندت ظهرها إلى لحائط. فكَّرتْ إيرينا في ألما، التي كانت، قبل ثلاثة أيَّام فقط، امرأة ولهانة خرجت بسرعة البرق لملاقاة عاشقها؛ وها هي الآن تحتضر في فراشها الأخير! وفي لحظة استيقاظ قصيرة، وقبل أن تعود من جديد للغرق في هلوسة المخدِّرات، طلبتْ ألما من إيرينا أن تضع لها أحمر الشفاه، لأنَّ إيشيمي سوف يأتي لزيارتها. أحسَّت إيرينا بحزن عميق يعتصرها، وغمرتها في اللحظة موجةٌ من الحبِّ لهذه المرأة المسنَّة الرائعة، وأحسَّت بحنان الحفيدة والابنة والأخت والصديقة. كانت الدموع تنهمر على وجنتيها وتبلِّل عنقها ووزرتها. وكم تمنَّت أن ترحل ألما

سريعًا لتضع حدًّا لمعاناتها، وكم تمنَّت كذلك أن تظلّ على قيد الحياة، وتتدخَّل القدرةُ الإلٰهيَّة، وتعودَ كلُّ الأعضاء المنزلقة إلى مكانها، وترمَّمَ كلُّ العظام المكسورة، فتُبعثْ من جديد ليستطيعا العودة معًا إلى *لارك هاوس* لمواصلة حياتيهما كما كانا من قبل. ولئن حدثت المعجزة، فستخصِّص لها وقتًا أكثر، وسترافقها مدّة أطول، وستنزع منها كلّ أسرارها الدفينة، وستحصل لها على قطّ مشابه لنيكو، وستتدبّر أمورَها كي ترسل كلّ أسبوع زهورَ الغاردينيا طريَّةً نديَّةً، من دون أن تَذكر لها اسم المرسل.

في هذه اللحظة، هرع لزيارة إيرينا صُوَر كلُّ أحبَّائها الذين غابوا عنها ليواسوها في محنتها: أجدادُها بلون التراب، جاك دوڤين بخنفسائه من حجر الزبرجد، كلُّ شيوخ *لارك هاوس* الذين وافتهم المنيَّة في السنوات الثلاث من عملها هناك، نيكو بذيله المقوّس وموائه الوديع، وحتى والدتها رادميلا التي سبق أن غفرت لها ولم تعد تسمع عنها كثيرًا منذ مدّة طويلة. تمنَّت لو كان سيت إلى جانبها في تلك اللحظة، لتقدِّم له الأشخاصَ الذين لا يعرفهم، ليرتاحَ بالُها وتقرّ عينُها. انكمشت في ركن منزوٍ، ونامت في بحر الحنين والحزن. لم تحسّ بدخول الممرِّضة التي ولجت الغرفة عدَّة مرَّات لمراقبة ألما، وضبط المصل والإبرة، وقياس درجة الحرارة والضغط وحقنها بالحقن المهدِّئة.

وفي ساعة متأخِّرة من الليل، في ساعة رهيبة من الزمان الغادر، حيث يتجلّى هذا العالم لعالم الأرواح، وصل أخيرًا زائرُ ألما الذي انتظرته طويلًا. دلف المكان من دون إثارة ضجيج بنعلين مطّاطين. لم تكن إيرينا لتستيقظ من سباتها، لولا أنينُ ألما حينما أحسّت به إلى جانبها. كان إيشيمي بمحاذاة السرير، منحنيًا عليها. لكنَّ إيرينا، التي

رأته من جانبه، كان في إمكانها التعرُّف إليه في أيِّ مكان، وفي أيّ لحظة، لأنَّها بدورها كانت تنتظره. بدا لها كما تخيَّلته حينما تفحصَّتْ صورته داخل الإطار الفضّي: رجلًا متوسِّطَ القامة، قويَّ المنكبين، ذا شعر رماديّ مجعّد، ووجه يشعّ نبلًا وصرامة. إيشيمي! تخيَّلت أنَّ ألما فتحتْ عينيها، ونادت باسمه مرَّتين. بيد أنَّها لم تكن متأكِّدة من الأمر، وأيقنت أنَّ عليها في لحظة الوداع هاته أن يبقيا بمفردهما. وكي لا تزعجهما، نهضتْ من مكانها بحذر تامّ، وتسلَّلتْ خارج الغرفة، مغلقةً البابَ وراءها؛ ومكثتْ في الخارج، تخطو خطوات لتنيشط ساقيها المثقلتين، وشربت كوبين من الماء من منبع مجاور للمصعد، ثم عادت إلى مكانها لتَشْغل منصَبها كحارسة ليليّة عند باب غرفة ألما.

في الرابعة صباحًا، وصلتْ ممرِّضةُ المداومة، وهي سيِّدة سوداء، ضخمة البنية، تفوح منها رائحة الخبز الطازج، فوجدت إيرينا عند مدخل الباب. «*دعيهما وحدهما قليلًا، من فضلك*» توسَّلت إليها الشابَّة، وشرعتْ تحكي لها بتعثُّرٍ قصّةَ العاشق الذي أتى لتوِّه لمرافقة ألما في هذه اللحظة، وأنَّه يُستحبّ تركُهما وشأنهما. «*لا يوجد زوّار في هذه الساعة*»، أعقبت الممرِّضة مستغربةً، وهي تزيح إيرينا من طريقها، وتفتح الباب. رحل إيشيمي وبقيتْ رائحةُ غيابه عالقةً في الهواء، ورحلتْ معه ألما.

جرت مراسيمُ إلقاء النظرة الأخيرة، والوقفة الترحُّميَّة على جثمان الفقيدة، في جوٍّ عائليٍّ محض، في منزل سي كليف، حيث عاشت ألما كلّ حياتها تقريبًا. ووُضع التابوتُ الصنوبريّ البسيط في غرفة الأكل المخصَّصة للولائم، وأُشعلتْ ثماني عشرة شمعةً في الشمعدان السباعيّ نفسه (المينوراه) الفضّي الذي تستعمله العائلة في الاجتماعات العائليَّة التقليديَّة. وعلى الرَّغم من أنَّ عائلة بيلاسكو لم تكن متديِّنة،

فإنَّها التزمتْ بتعليمات الحاخام في ما يخصُّ الطقوس الجنائزيَّة. كانت ألما تُذكِّر الجميع، وفي غير مناسبة، بأنَّها ترغب بعد الموت في الخروج مباشرةً من فراشها إلى المقبرة، من دون الاحتفال بالطقوس داخل المعبد. وقامت امرأتان صالحتان من شبرا قاديشا بغسل جثمان ألما، وتكفينه بكفن متواضع بلا جيوب من الكتَّان الأبيض الذي يرمز إلى المساواة في الموت، والتنازل عن كلّ الممتلكات المادِّيَّة. شاركتْ إيرينا، التي كانت تبدو كطيف غير مرئيٍّ، في المأتم خلف سيت، الذي كان يسير مذهولًا من أثر الألم، غيرَ مُصدِّقٍ هذه الوفاةَ المفاجئة التي انتزعتْ منه جدَّته الخالدة.

مكث أحد أفراد العائلة إلى جوار الفقيدة حتى نقلها إلى المقبرة في انتظار خروج الروح ورحيلها. لم يضع أحدٌ الورودَ التي كانوا يعتبرونها غير ملائمة لمثل هذه المناسبات، إلّا أنَّ إيرينا أخذت معها زهرة الغاردينيا إلى المقبرة. وهناك كان حاخام يرتّل الصلوات المعهودة لـ Dayan H'met. أدخلوا التابوت جوف الأرض إلى جوار قبر ناتانيل بيلاسكو. وحينما اقترب الأهل والأقارب ليهيلوا عليه التراب، رمت إيرينا زهرةَ الغاردينيا فوق صديقتها. في هذه الليلة، انطلقتْ أيَّامُ الحداد السبعة. وفي إشارة غير متوقَّعة، طلب لاري ودوريس من إيرينا المكوثَ معهم لمواساة سيت. وكباقي أفراد العائلة، ارتدتْ إيرينا قميصًا مشقوقَ الجيب رمزًا للحِداد.

وفي اليوم السابع، وبعد الانتهاء من استقبال وفود الزائرين الوافدين لتقديم العزاء في كلّ مساء، استرجعتْ عائلةُ بيلاسكو إيقاعَ حياتها العاديّ، وانصرف كلٌّ واحد إلى سبيله. وبعد مرور شهر على الجنازة، كان يتعيَّن إشعال شمعة على شرف ألما. وبعد مرور سنة كاملة كان مُبرمجًا إجراءُ احتفال متواضع لوضع لوح جنائزيّ على

قبرها. آنذاك، لم يكن الناس الذين تعرَّفوا إليها يتَذكَّرونها كثيرًا؛ فألما ستحيا فقط في أثوابها المرسومة، وفي هواجس ذاكرةِ حفيدها سيت، وفي قلبَيْ إيرينا باثيلي وكيرستن، التي لن تفهم أبدًا إلى أين ذهبتْ. انتظرتْ إيرينا وسيت، خلال أيَّام الحداد، حضور إيشيمي بفارغ الصبر. ومرَّت الأيَّام السبعة ولم يأتِ.

كان أوَّل ما قامت به إيرينا بعد أسبوع الحداد هو الذهاب إلى *لارك هاوس* لجمع أغراض ألما. كانت قد استلمت ترخيصًا من السيِّد هانس ڤواغ يسمح لها بالتغيُّب بضعة أيَّام، وكان عليها أن تستأنف عملها عمَّا قريب. وجدت الشقَّة تمامًا كما تركتها ألما، لأنَّ لوبيتا فارياس قرَّرتْ ألَّا تنظِّفها حتى يخرج الأهلُ منها.

كانت قطعُ الأثاث القليلة التي اشتُريتْ بهدف تأثيث هذا الفضاء الضيِّق، وبِنِيَّة الاستعمال لا الديكور، ستنتهي إلى محلّ الأشياء المنسّيَّة في *لارك هاوس*، ما عدا الكرسيِّ الكبير بلون المشمش الذي قرَّرت إيرينا إهداءه إلى كاتي، التي عبَّرتْ دائمًا عن إعجابها بهذه التحفة. وضعت الثيابَ كلّها في الحقائب: السراويل الفضفاضة، وعباءات الكتَّان، والسترات الطويلة من صوف الفكونة، والأوشحة الحريريَّة.. وهي تتساءل في سرِّها عن الشخص الذي سَيَرِثُ كلَّ هذا! تمنّت في هذه اللحظة لو كانت طويلة القامة، قويَّة البنية، لترتدي ملابسها، وأن تكون مثلها كي تضع أَحمر الشفاه على شفتيها، وتتعطَّرَ بعطرها الرجوليّ المصنوع من البرغموت والبرتقال. وما تبقَّى من أشياء وضعتْها في علب، سيتكلَّف سائقُ بيلاسكو نقلَها لاحقًا. من ضمن هذه الأشياء، ألبوماتٌ تُلخِّص كلّ حياتها، وحزمة من الوثائق، وبعضُ الكتب، ولوحة طوباز الكئيبة، وأشياء قليلة أخرى. في هذه الأثناء، انتبهتْ إلى أنَّ ألما استعدَّت لرحيلها بالحزم الذي يميِّزها، فتخلَّصتْ

من كلّ التفاهات لتحتفظ بما هو ضروريّ فقط، فرتَّبتْ أشياءها وذكرياتها.

في أسبوع الحِداد، بكتها إيرينا كثيرًا، وودَّعتها ثانيةً في مهمَّة جمع الأغراض هذه، التي وضعتْ حدًّا لوجودها في *لارك هاوس*. انتابت إيرينا موجةٌ من الغمّ، وجلستْ وسط العلب والحقائب. فتحتْ حقيبةَ ألما التي كانت تأخذها معها في مشاويرها السرِّيَّة، بعدما استطاعت الشرطة انتشالَها من سيَّارة «سمارت كار» المحطَّمة، وجاءت بها من المستشفى. كانت في داخلها الغلالاتُ الشفَّافة، والمرطِّب، والكريمات، وبعضُ الملابس للتغيير، وصورة إيشيمي في الإطار الفضِّيّ بزجاج مكسَّر. صارت تنزع القطعَ الزجاجيَّة المكسَّرة بحذر، وأخرجت الصورة، لتودّع كذلك هذا العاشقَ الغامض. آنذاك سقطتْ على حُجرها رسالة، كانت ألما قد احتفظتْ بها خلف الصورة. في هذه اللحظة، دفع أحدهم الباب وأطلّ برأسه في خجل. كانت كيرستن.

وقفت إيرينا، فعانقتها المرأة بحماستها المعهودة.

ـ أين ألما؟ سألتها.

ـ لقد ذهبت إلى السماء، كانت هذه هي الإجابة الوحيدة التي خطرت في بالها.

ـ متى ستعود؟

ـ لن تعود ثانية، كيرستن.

ـ لن تعود أبدًا؟

ـ أجل، لن تعود.

مرَّت كآبة ثقيلة مرَّت بسرعة على مُحيّا كيرستن. خلعتْ نظَّارتها

ومسحتها بتلابيب قميصها، ووضعتها من جديد، ودنت بوجهها من إيرينا.

ـ أتعدينني بأنَّها لن تعود؟

ـ أعدكِ بذلك. لديك الكثير من الأصدقاء هنا كيرستن. كلّنا نحبّك كثيرًا.

أومأتْ إليها المرأة بأن تنتظر بإشارة من يدها، وغابت في الممرِّ تضرب الأرض بقدميها المسطَّحتين، واتَّجهت نحو منزل صانع الشوكولاتة الشهير حيث توجد العيادة المخصَّصة لأصحاب الآلام المزمنة. وبعد خمس عشرة دقيقة، عادت تلهث من فرط السرعة بمحفظة فوق ظهرها. أقفلت الباب وراءها، وأحكمتْ إغلاقه، وأسدلت الستائر بتؤدة، ووضعت أصبعَها على شفتيها وهي تشير إلى إيرينا بالتزام الصمت. وأخيرًا، ناولتها المحفظة، وانتظرتها واقفة بيدين متشابكتين خلف ظهرها، وابتسامةٍ ماكرةٍ، وهي تترنَّح على أعقاب قدميها. «*هذه لك*» قالت لها.

فتحتْ إيرينا المحفظة، ووقعت عيناها على رزم مربوطة بشريط مطَّاطيٍّ، وأيقنتْ للتوّ أنَّها الرسائل التي كانت تستقبلها ألما من إيشيمي، والتي طالما بحثتْ عنها بمعيَّة سيت، وأدركتْ في النهاية أنَّ الرسائل لم تكن في إحدى خزنات البنوك، كما كانا يتوقَّعان، بل كانت محفوظة في مكان آمن، في محفظة كيرستن. وفهمتْ إيرينا أنَّ ألما أوضحتْ لكيرستن ساعةَ احتضارها جسامةَ مسؤوليَّة الحفاظ على هذا الكنز، وإيداعه الشخص الذي اختارته. لماذا هي بالذات؟ وليس ابنها أو حفيدها؟ وفسّرت الموضوع وكأنَّه رسالة شخصيَّة أخيرة وجَّهتها ألما إليها، من ألما، وأنَّ هذه هي طريقتها لتؤكِّد لها حبَّها، ومقدارَ ثقتها بها.

أحسّت وقتها بأنَّ شيئًا ينفطر في داخلها محدثًا صوتَ انكسار جرَّة طينيَّة، وأنَّ قلبها المفعم يزداد حجمُه، ويتمدَّد مثل شقائق البحر. وإزاء عربون الصداقة هذا، أحسّت بأنَّها امرأة محترمة، مثل أيَّام براءتها، فتراجعت وحوشُ ماضيها إلى الوراء وانكمشتْ، وتقزّم رعب ڤيديوهات زوج والدتها الذي أصبح جيفةً نتنةً بلا روح ولا هويَّة.

ـ يا إلٰهي. تخيَّلي يا كيرستن أنَّني أمضيتُ نصف عمري وفرائصي ترتعد من لا شيء.

ـ كلّ هذا لكِ، كرَّرتْ كيرستن، وهي تُشير بيدها إلى محتوى المحفظة على الأرض.

في هذه الأمسية، وعند عودة سيت إلى شقَّته، لفّت إيرينا ذراعيها حول عنقه وقبّلته بفرحة جديدة، لم تتناسب كثيرًا مع أجواء الحِداد.

ـ لديَّ مفاجأة سارَّة لك، يا سيت، أخبرته.

ـ وأنا كذلك، هيَّا أخبريني أنتِ أوَّلًا.

ساقته إيرينا بسرعة إلى المائدة الرخاميَّة في المطبخ، حيث وضعتْ رزمَ المحفظة.

كانت الرزم مرتَّبةً من الرقم واحد إلى الرقم أحد عشر، وكلّ رزمة تحوي عشرة أظرفة، باستثناء الرزمة الأولى التي كانت تضمُّ ستَّ رسائل وبعض الرسوم. جلسا على الأريكة وراحا يتصفَّحان الترتيب الذي صَنَّفت ألما بموجبه كلَّ رسائلها، فكانت الحصيلة مئة وأربع عشرة رسالة، بعضها قصير مقتضب، وبعضُها الآخر طويل بإسهاب. أمَّا رسائل الظرف الأوَّل والمكتوبة بقلم الرصاص على ورق الدفتر، بخطّ طفوليّ، فكانت تعود إلى أيَّام طانفوران وطوپاز. كان المعنى غير مفهوم جيِّدًا بسبب مقصّ الرقابة الذي انهال على ما استطاع من

سطور. ومن خلال الرسوم، أمكنتْ رؤيةُ الأسلوب الرفيع، والخطوطُ الرهيبة التي ظهرتْ على اللوحة الوحيدة التي رافقت ألما في *لارك هاوس*. كان الوقت لا يتَّسع لقراءة كلّ هذه المراسلات التي تحتاج إلى أيَّام عدَّة لتلاوتها، لكنَّهما لاحظا في أثناء تصفُّحهما الدقيق كلِّ الرزم أنَّ ما تبقَّى من الرسائل كُتب في لحظات مختلفة انطلاقًا من سنة ١٩٦٩. أربعون سنة من المراسلات المتقاطعة التي تدور رحاها حول ثابت واحد: الحبّ.

ـ لقد عثرتُ كذلك على رسالة أخرى مؤرَّخة بتاريخ يناير ٢٠١٠، خلف صورة إيشيمي، لاحظ أنَّ كلّ هذه الرسائل قديمة، وكانت موجَّهة إلى منزل سي كليف، أين هي يا ترى تلك الرسائل التي كانت تستقبلها في *لارك هاوس* في الآونة الأخيرة؟

ـ هذه هي، يا إيرينا.

ـ ماذا تقصد بكلامك؟

ـ جمعتْ جدَّتي طوال حياتها رسائلَ إيشيمي التي كانت تستقبلها في منزل سي كليف حيث كانت تعيش. وحينما انتقلت للعيش في *لارك هاوس*، شرعتْ في إرسال الرسائل نفسها لنفسها في فترات متقطِّعة. واحدة واحدة داخل الأظرفة الصفراء التي رأيناها أنا وأنت، فتستقبلها وتقرأها وتكنزها وكأنّها حديثة العهد.

ـ لِمَ كانت ستُقْدم على فعلٍ كهذا، يا سيت؟ لم تكن ألما امرأة معتوهة، ولم تبدُ عليها قطّ علاماتُ الخرف.

ـ هذا هو الأمر الغريب، يا إيرينا. فعلتْ هذا بوعي تامٍّ وحسٍّ عمليٍّ، لتحافظ على جذوة حبِّها الأبديّ وهَّاجةً دائمًا. فهذه المسنّة التي بَدْتْ مخلوقة من موادَّ لا يصيبها الوهن، كانت في الواقع امرأة

رومانسيَّة حتى النخاع. أنا متأكِّد من أنَّها كانت ترسل إلى نفسها كلّ أسبوع زهورَ الغاردينيا، وأنَّ مشاويرَها السرِّيَّة لم تكن بصحبة عاشقها، وأنَّها كانت تذهب وحدها إلى منتجع بوينت ريس لإحياء ذكرى لقاءاتهما الماضية، في إثر غياب إيشيمي عنها.

ـ كيف تتحدَّث عن غياب إيشيمي، وقد كان بصحبتها قبل وقوع حادث السيَّارة؟ لقد أتى لوداعها في المستشفى، أنا رأيته بعينيَّ ينحني ليقبِّلها.. أنا أعرف كيف كانا يتحبَّان.

ـ مستحيل أن تكوني قد رأيته يا إيرينا. فأنا استغربت كثيرًا كيف أنَّ هذا الرجل لم يعلم بنبأ وفاة جدَّتي، رغم أنَّ الخبر تداولته الصحف اليوميَّة. فإذا كان يحبّها، كما كنَّا نتوقَّع، فعلى الأقلّ كان يجب أن يحضر الجنازة، أو يأتي لتقديم العزاء لنا أيَّام الحِداد. في هذا اليوم، قرَّرت أن أبحث عنه بنفسي، أن أتعرَّف إليه للخروج من بعض الشكوك التي كانت تراودني بشأن جدَّتي. لم يكن الأمر صعبًا. فقط كان عليَّ أن أقصد مشتل فوكودا.

ـ ألا زال المشروع قائمًا؟

ـ أجل، ويديره پيتر فوكودا (Peter Fukuda)، أحدُ أبناء إيشيمي. حينما قدَّمتُ له نفسي وذكرتُ له اسمي العائليّ، استقبلني بحفاوة كبيرة، لأنَّه كان على علم بعائلة بيلاسكو. ثم ذهب لمناداة والدته، دلفين، وهي سيِّدة لطيفة وجميلة، تمتلك وجهًا من تلك الوجوه الآسيويَّة المقاومة لآثار السنين.

ـ إنَّها زوجة إيشيمي. فقد روت لنا ألما كيف أنَّها تعرَّفت إليها في مأتم جدّك الأوَّل.

ـ لم تعد زوجةَ إيشيمي، يا إيرينا، بل أرملته. إيشيمي توفِّي منذ

ثلاث سنوات إثر صدمة قلبيَّة.

ـ هذا مستحيل، يا سيت، أردفتْ.

ـ لقد توفِّي تقريبًا في الفترة التي ذهبتْ فيها جدَّتي للعيش في لارك *هاوس*، مَن يدري؟ لعلَّ الأمرين مترابطان. أظنُّ أنَّ هذه الرسالة سنة ٢٠١٠ كانت آخر الرسائل التي استقبلتها ألما، رسالة الوداع.

ـ أنا رأيت إيشيمي في المستشفى.

ـ لقد رأيتِ ما كنتِ تودِّين رؤيته، يا إيرينا.

ـ لا، يا سيت. أنا متأكِّدة من أنَّه هو. هذا ما وقع إذن: فمن فرط حبِّها لإيشيمي، تحقَّق لألما أن يأتي للبحث عنها.

٨ يناير ٢٠١٠

ما أغزرَ هذا الكون وأصخبه يا ألما! إنَّه يدور ويدور. الشيء الواحد الثابت هو التغيّر الدائم. هذا لغز لا يمكننا تلمُّسه إلَّا من خلال السكون. أنا، الآن، أعيش فترةً غاية في الأهمِّيَّة. إن روحي تتأمَّل بإعجاب كلّ، التغيّرات التي ألمَّت بجسدي، بيْد أنَّ هذا التأمُّل لا يحدث من مكان بعيد، بل هو نابع من داخلي. وفي هذه الرحلة، تنصهر روحي وجسدي. لقد ذَكرت لي البارحة أنَّكِ تَتُوقين إلى وهم خلود الشباب. أنا لا أتوق شخصيًّا إلى ذلك. فأنا أستمتع بواقعي كرجل راشد، أفضِّل ألَّا أقول إنَّني رجل مُسّن. لو أنَّني سأموت في غضون الأيَّام الثلاثة المقبلة. ما عساي أفعل في هذه الأيَّام؟ لا شيء. سأفرغ روحي من كلّ شيء، ما عدا الحبّ.

لقد قُلنا في مناسبات عديدة إنَّ حبَّنا هو قدرنا. لقد تحاببنا في حياة خلت، وسنتحابّ في حياة مستقبليَّة؛ أو ربَّما لا وجود للماضي والمستقبل، وكلّ شيء يحدث في الآن نفسه، في أبعاد هذا الكون

اللامتناهية! في هذه الحالة، نحن دائمًا معًا، وإلى الأبد.

يا لَرَوعة الوجود! ما زلنا في السابعة عشرة من عمرنا، يا حبيبتي ألما.

إيشي

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تتعرَّف إيرينا، التي تعمل في مأوى للمسنّين في سان فرانسيسكو على ألما وحفيدها سيت. وتحاول إيرينا بمساعدة سيت اكتشاف مَنْ يُرسل لـ ألما تلك الرسائل والهدايا السرِّية؟

هذه قصَّةٌ تحْبس الأنفاسَ، عن الحبِّ والتضحيةِ وثبوتِ الأحاسيس في عالمٍ مفجعٍ لا يتوقَّف عن التقلُّب.

إيزابيل ألليندي، التي وُلدتْ في البيرو، وترعرعتْ في شيلي، هي صاحبة الروايات الأكثر مبيعًا واحتفاءً من قِبل النقّاد، كـ «بيت الأرواح» و«باولا». بيع من رواياتها أكثر من ٦٥ مليون نسخة في أرجاء العالم.

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
بيروت - لبنان

ISBN: 978-9953-89-547-5

9789953895475